

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد لمين دباغين سطيف

قسم فلسفة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيل:



أطروحة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في شعبة الفلسفة

اختصاص: فلسفة تطبيقية

بعنوان:

قداسة الحياة الإنسانية والبيوتكنولوجيا المعاصرة "هانس يوناس" نموذجاً

تحت إشراف

الأستاذ. د. هشام شراد

إعداد الطالب

أحمد شوال

لجنة المناقشة:

الصفة	مؤسسة الانتساب	الرتبة	اسم ولقب الأستاذ
رئيساً	جامعة سطيف 2	أستاذ	العمرى حربوش
مشرفاً ومقرراً	جامعة سطيف 2	أستاذ	هشام شراد
عضواً ممتحناً	جامعة سطيف 2	أستاذ محاضر أ	توفيق بن ولهاة
عضواً ممتحناً	جامعة قسنطينة	أستاذ	رشيد دحدوح
عضواً ممتحناً	جامعة المسيلة	أستاذ	عمر ناصر باي

السنة الجامعية: 2021 / 2022م

إهداء

أهدي هذا العمل إلى روح أمي وأبي، وأسأل الله تعالى أن يجعله
 في ميزان حسناتهما، وكذلك إلى روح جدتي التي عمرت في طاعة الله.
 كما لا يفوتني أن أهدي هذا العمل إلى كل من علمني، وإلى جميع أخواتي
 وإخوتي وجميع أبنائهم.
 وإهدائي الخاص والغالي يكون إلى زوجتي الغالية "حليمة" التي صبرت معي
 عناء هذا العمل وإنجازه.

وكذلك إلى إبنتي سلمى وزوجها، وبناتي رميساء، أحلام وزهرة
 وأخص كذلك إبني محمد الأمين وزوجته، وجميع أحفادي من بعد.

أحمد شوال

شكر و تقدير

بداية أتقدم بأسمى معاني الشكر والتقدير إلى الأستاذ الفاضل المشرف الدكتور "هشام شراد" على قبوله الإشراف على هذه الرسالة، ولما منحه لي من وقت وجهد وتوجيهات وإرشادات في ظروف صعبة كنا نمر بها جميعا .
كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى السادة رئيس وأعضاء لجنة المناقشة على عناء قراءة هذه الرسالة، وعلى كل ملاحظاتهم القيمة.

كما لا يفوتني أن أشكر كل أساتذة قسم الفلسفة بجامعة سطيف2، وأعضاء مخبر المجتمع الجزائري المعاصر على ما لقيته من احترام وتقدير ومساعدة. كما أشكر كل طلبة الدكتوراة لطيبة أنفسهم وأخلاقهم، وأخص منهم السيدان: سفيان عمران (جامعة سطيف)، الفاروق بن خرف الله (جامعة خميس مليانة)، والأستاذ د.قاسي سي يوسف (جامعة البويرة)، والدكتورة وردية مرزوق (جامعة الجزائر)، كما أشكر كل من ساعدني عن قريب أو من بعيد على انجاز هذا العمل.

أحمد شوال

1	مقدمة.....
18	فصل تمهيدي مفاهيمي للحياة، قداسة الحياة والبيوتكنولوجيا.....
19	تمهيد.....
20	1المبحث الأول: مفهوم الحياة.....
20	1تعريف الحياة.....
25	1.1 الحياة في الفكر.....
27	2.1 الحياة في الفلسفة اليونانية.....
29	3.1 الحياة في الفلسفات الحديثة والمعاصرة.....
32	2المبحث الثاني: مفهوم قداسة الحياة:.....
33	1.2 قداسة الحياة في الفكر الديني.....
35	2.2 قداسة الحياة في الديانة الإسلامية.....
36	3.2 قداسة الحياة في الفكر الفلسفي.....
40	3المبحث الثالث: مفهوم البيوتكنولوجيا.....
40	1.3 تعريف البيوتكنولوجيا؟.....
42	2.3 الأصول التاريخية للبيوتكنولوجيا.....
45	3.3 البيوتكنولوجيا المعاصرة.....
46	خلاصة الفصل التمهيدي.....
	I. الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيواتيقا وعلاقتها بالفلسفة
48	اليونانية.....
49	تمهيد:.....
51	I. 1 المبحث الأول: أهم تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة.....
51	I 1.1 الهندسة الوراثية:.....
53	I 2.1 الجينوم البشري:.....
63	I 3.1 الاستنساخ.....

75	I	4.1 الموت الرحيم
86	I	2 المبحث الثاني: البيوايتيقا والأخلاق التطبيقية
89	I	1.2 البيوايتيقا والممارسات الطبية:
92	I	2.2 البيوايتيقا والبيوتكنولوجيا:
93	I	3.2 البيوايتيقا والفلسفة:
96	I	4.2 البيوايتيقا وما بعد "قانون نورنبرغ":
100	I	3 المبحث الثالث: هانس يونس" والبيوتكنولوجيا
100	I	1.3 أساس الفلسفة البيوتكنولوجية عند "هانس يونس":
104	I	2.3 الإنسان في الفلسفة البيوتكنولوجية عند "هانس يونس":
105	I	3.3 أخلاق المسؤولية:
107	I	4.3 الفلسفة البيولوجية عند "هانس يونس": من الفينومينولوجيا إلى فلسفة الحياة:
111	I	5.3 "هانس يونس" وما بعد الفينومينولوجيا:
114		خلاصة الفصل الأول
116	II	الفصل الثاني: فلسفة الحياة عند "هانس يونس"
117		تمهيد
119	II	1 المبحث الأول: أساس فلسفة الحياة عند "يونس"
119	II	1.1 نقد النظرية الآلية:
119	II	2.1 هانس يونس "والوضع الأنطولوجي للحياة:
125	II	3.1 من فلسفة الحياة إلى فلسفة الإنسان:
127	II	3.1.1 رمزية الإنسان في الفلسفة المعاصرة
129	II	4.1 الرمزية اليونانية والقانون الأنثروبولوجي للحياة:
133	II	2 المبحث الثاني: صورة الإنسان في الفلسفة البيولوجية عند "هانس يونس"
133	II	1.2 القراءة السوسبيولوجية للإنسان عند "هانس يونس":
136	II	2.2 هل هناك اختزال بيولوجي بين الإنسان والحيوان؟
138	II	3.2 الأسطورة السوسبيولوجية:
141	II	4.2 التصورات البيولوجية للفرد:
143	II	5.2 خيالات الإنسان المعاصر:

149.....	II 6.2 رفض " هانس يوناس " للتمييز:
154.....	II 3المبحث الثالث: تخوفات" هانس يوناس " من البيوتكنولوجيا ومخلفاتها
154.....	II 1.3 تخوفات" هانس يوناس "البيوايتيقية.....
157.....	II 2.3 تخوفات" هانس يوناس "من انحرافات الطب المعاصر وقدرته على التنبؤ بالأمراض المستقبلية.....
161.....	II 3.3 تخوفات" هانس يوناس "من خيالات البيوتكنولوجيا.....
166.....	خلاصة الفصل الثاني.....
168	III. الفصل الثالث: الأخلاق اليونانية في ميزان الفلسفة.....
169.....	تمهيد.....
171.....	III 1المبحث الأول: مقارنة بين الفلسفة الأخلاقية عند " هانس يوناس " والفلسفة اليونانية
171.....	III 1.1 هانس يوناس " و " أرسطو":.....
180.....	III 2.1 هانس يوناس و " أبيقور"......
185.....	III 2المبحث الثاني: رفض " هانس يوناس " للأخلاق التقليدية.....
185.....	III " 1.2 هانس يوناس " في مواجهة "ديكارت": رفض الثنائية الديكارتية.....
186.....	III 2.2 نقد التصور الديكارتية.....
192.....	III 3.2 "هانس يوناس" في مواجهة "كانط": الأمر القطعي.....
199.....	III 3المبحث الثالث: المسألة الأخلاقية عند" هانس يوناس "في الفلسفة المعاصرة.....
200.....	III 1.3 من تراث الأساتذة (هوسرل، هايدجر وبولتمان) إلى فكر انتقائي عند " هانس يوناس".....
212.....	III 2.3 نقد "هانس يوناس" مبدأ الأمل عند "ارنست بلوخ".....
219.....	خلاصة الفصل الثالث.....
221.....	IV. الفصل الرابع: البيوتكنولوجيا المعاصرة ومبدأ المسؤولية عند "هانس يوناس".....
222.....	تمهيد.....
224.....	IV 1المبحث الأول: أساس مبدأ المسؤولية عند " هانس يوناس"
224.....	IV 1.1 نقد العدمية.....
227.....	IV 2.1 العدمية والفراغ الأخلاقي.....
230.....	IV 3.1 الأساس الميتافيزيقي في المسؤولية اليونانية.....
232.....	IV 4.1 المسلمة الأنطولوجية لمبدأ المسؤولية عند "هانس يوناس".....
237.....	IV 2المبحث الثاني: مبدأ المسؤولية بين حدود المسؤولية الأبوية والمسؤولية السياسية
237.....	IV 1.2 مبدأ المسؤولية عند " هانس يوناس".....
240.....	IV 2.2 من المسؤولية التقليدية إلى مبدأ المسؤولية عند " هانس يوناس".....

244.....	IV 2.3 حدود المسؤولية الأبوية عند " هانس يونااس"
251.....	IV 2.4 حدود المسؤولية السياسية عند " هانس يونااس"
256.....	IV 3 المبحث الثالث: المسؤولية العلمية والمسؤولية السياسية عند " هانس يونااس"
256.....	IV 1.3 رفض " هانس يونااس" للحلول السياسية.....
257.....	IV 2.3 موقف " هانس يونااس" من الممارسات السياسية إلى المسؤولية السياسية.....
265.....	IV 3.3 السلطة البيولوجية والسلطة البيوتكنولوجية.....
268.....	خلاصة الفصل الرابع.....
271	V . الفصل الخامس : نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل.....
272.....	تمهيد.....
275.....	V 1 المبحث الأول: مبدأ تشكل الخوف عند " هانس يونااس".....
275.....	V 1.1 تشكل الخوف عند " هانس يونااس".....
276.....	V 2.1 الخوف كشعور.....
279.....	V 3.1 الخوف كأداة للواجب الأخلاقي.....
284.....	V 4.1 من الخوف إلى المسؤولية الأخلاقية.....
287.....	V 2 المبحث الثاني: مبدأ الحيطة والحذر عند " هانس يونااس".....
288.....	V 1.2 مبدأ الحذر.....
289.....	V 2.2 أركيولوجيا مبدأ الحذر.....
293.....	V 3.2 من مبدأ الحيطة والحذر إلى مبدأ أخلاق المسؤولية العلمية.....
297.....	V 3 المبحث الثالث: قراءة نقدية تقييمية لأخلاق المستقبل عند " هانس يونااس".....
297.....	V 1.3 نقد الأخلاق اليونانية.....
307.....	V 2.3 أخلاق "يونااس" واستشراف المستقبل.....
314.....	ملخص الفصل الخامس.....
303	خاتمة.....
315	الملاحق.....
315.....	الملحق الأول: " هانس يونااس Hans Jonas".....
318.....	الملحق الثاني: ببليوغرافيا أهم الفلاسفة الذين تضمنتهم فلسفة " يونااس".....
326	قائمة المصادر والمراجع.....

- 343.....4مجلات ومنشورات
- 3475الروابط الالكترونية
- 3486قواميس، موسوعات ومعاجم
- 349ملخص الأطروحة

مقدمة

كان الإنسان دائما يسعى إلى إجراء حوار بينه وبين الطبيعة، وحوار مع غيره، وأحيانا مع نفسه، لكن ما ميز هذه الحالات كلها هي قدرته على اكتساب معرفة مكنته من تجاوز حالة الخوف التي انتابته في المراحل الأولى من تاريخه، فاستطاع أن يكتسح الطبيعة وحتى ذاته هو، معلنا بذلك سيادته على الطبيعة، وكأن تنبؤات "ديكارت" (لنكن أسيادا ومالكي الطبيعة)، وبعده "هيجل" (أعتقد أنه امتلكها) قد تحققت، فما حكم الإنسان اليوم في عصر فاق كل التوقعات؟ أصبح فيه العالم قرية صغيرة على حد المثل الإيطالي القديم، لم يعد الإنسان جزءا من الطبيعة، وإنما أصبح كل شيء فيها، ومنذ نهاية القرن العشرين وإلى غاية يومنا هذا، عرفت الإنسانية ثورة بيولوجية كبيرة في مجالات تتعلق بالذات الإنسانية مباشرة، وهي التي اقتصت بها البيوتكنولوجيا المعاصرة، هذه الأخيرة ألحقت تطورات وتغييرات مثيرة، مشوقة وأحيانا مخيفة، أصبح فيها الكلام عن الإنسان حاضرا ومستقبلا يجانب علم الخيال، إنه إنسان جديد أصبح يحلم به التقنوعلميون، وهو في الواقع مجتمع جديد، فبقدر ما نسعد بسماع هذه الإنجازات العظيمة التي واكبت التطور الإنساني عبر تاريخه الطويل، فإننا نجد أنفسنا نتوجس خوفا مما نراه أو نسمعه من تلاعبات خطيرة ألحقت بالذات الإنسانية إذلالا مس كرامتها وحتى قدسيته.

إن الثورة البيوتكنولوجية المعاصرة ألحقت تغييرات غير مألوفة، لم يكن يتصورها الإنسان يوما ما، تغييرات مست حياته، كيانه وحتى بناءه الوراثي، أراد المخلوق فيها أن يلعب دور الخالق، إنها ثورة تكاد تعصف بمبادئه، بقيمه، بكرامته وقداسته حياته، ومعها أصبح الإنسان كالمنبوذ السياسي الذي فقد أوراق اعتماده كلما حط بمرقا طرد منه، لم يعرف ذاته من هو؟ لم يحدد هويته كإنسان، أصبح إنسانا غريب الأطوار، تغيير كل شيء فيه، حياته النفسية، حياته الاجتماعية، بل وحتى كيفية خلقه البيولوجية، أصبح كل خيال أو حلم ممكنا فيها، من تعديل وراثي إلى استنساخ، إلى اختيار جنس المولود وصفاته الجسمانية والعقلية، إلى التنبؤ بالحالات

الصحية لأجيال لم تولد بعد عن طريق فتح الشفرة الوراثية، وأبعد من ذلك أصبح التفكير في خلق بيئة جنينية يخلق فيها الإنسان خارج رحم الأم، أو يحفظ فيها إنسان راشد في ظروف اصطناعية ليتم ايقاظه بعد عشرات أو مئات السنين. إن الهدف من كل ذلك هو رغبة العلماء في إطالة عمر الإنسان، وبعدها مواجهة " الموت"، وبذلك يعود العلم علينا بكل فتوحاته إلى نقطة البداية وهي المسألة الميتافيزيقية، ومن التناقض أن فلسفة ما بعد الحداثة تقوم أساسا على الفصل بين القيمة والمعرفة، ومن هذه الزاوية بالضبط سنحاول معالجة موضوعنا الموسوم بعنوان " قداسة الحياة الإنسانية والبيوتكنولوجيا المعاصرة"، وستقوم محاولتنا في معالجة هذا الموضوع على فيلسوف معاصر، هو الفيلسوف الألماني "هانس يونس" * الذي عرف بدفاعه عن الطبيعة عموما ولقب " بفيلسوف البيئة"، وكذلك صاحب أشهر كتاب " وهو: " مبدأ المسؤولية. أخلاق من أجل حضارة تكنولوجية"، الذي اعتمدها كأساس لأطروحتنا هذه، إضافة إلى كتب أخرى نذكر منها على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر؛ كتاب " ظاهرة الحياة. نحو بيولوجيا فلسفية"، كتاب " من أجل أخلاق المستقبل" كتاب "حق الموت"، كتاب " أخلاق من أجل الطبيعة" وكتاب " التفكير الفلسفي حول التجريب البشري"، وغيرها من الكتب، المحاضرات والندوات التي كان يقوم بها "هانس يونس"، أو قام بها فلاسفة آخرون وكان محورها الأساسي فلسفة "هانس يونس" حول مبدأ المسؤولية وفلسفة البيئة أو الفلسفة البيولوجية عنده والتي تمثل محور دراستنا، وذلك انطلاقا من كتابه الشهير " مبدأ المسؤولية، أخلاق من أجل حضارة تكنولوجية".

إن بحثنا هذا حتى وإن لم يكن عملا كاملا، فهو محاولة لتحليل جوانب ظاهرة لما حققته الاكتشافات العلمية المعاصرة، وكذلك جوانب خفية عن أعين التقدم التقني نفسه، وخاصة منه البيوتكنولوجيا المعاصرة التي تمثل صلب موضوعنا الذي أصبح الكلام فيها عن الاصطناعي والإنساني، الطبيعي والثقافي بفضل تطور الهندسة الوراثية وقدرتها على التحكم أو تغيير هوية الإنسان من خلال التلاعب بمكوناته الوراثية وتغيير الحمض النووي (الدنا)،

وهذا التأثير كان واضحا على الكائنات الحية من أبسطها إلى أعقدها (النبات، الحيوان والإنسان)، اصبحنا اليوم أمام مواجهة متزايدة لإمكانية تغيير أشكال الحياة، بما فيها الحياة الإنسانية التي أصبحت تمارس عليها كل التجارب البيوتكنولوجية إلى حد المكون الوراثي للإنسان. إن كيان الإنسان يبدو ثابتا ويقع خارج مجال التقنية التحويلية، لكن ما تطلعنا عليه البيوتكنولوجيا المعاصرة من خلال ممارساتها غير المسبوقة التي اتخذت من الإنسان موضوع دراستها، وترتبت عنها ممارسات بالغة الخطورة، كمحاولة إطالة حياة الإنسان، التحكم في السلوك والتلاعبات الجينية، فهي تطرح الكثير من الأسئلة والمخاطر، أما إطالة الحياة فتمس الإنسان كإنسان، ويمس الجوهر الأكسيولوجي والأنطولوجي للإنسان. فإلى أي مدى تكون هذه الإطالة للحياة مرجوة ومقبولة؟ وهل هناك ما يجنيه الإنسان من ذلك؟ وعندها هل يصبح الموت عبئا على الإنسان؟ أم أنه نعمة ورضا؟ فما هو البعد الأنطولوجي الذي تم تغييره وراثيا؟ ألم يعد هذا الموروث محل تساؤل؟ ففي هذا السياق المشحون تصبح الأخلاق ضرورة تفرض نفسها علينا، باعتبارها انعكاسا لكل فعل إنساني في عصر البيوتكنولوجيا المعاصرة.

أمام كل التوقعات المستقبلية، نسعى في محاولة بحثنا هذا إلى توضيح مكانة هذه الممارسات التكنولوجية مع تحديد أهميتها والإلحاح على وجود تفكير أخلاقي يجب أن يصاحب هذه الممارسات والاكتشافات التقنية في مختلف ممارسات الهندسة الوراثية في عالم الكائنات الحية. لكن قبل طرح إشكاليتنا الأساسية وما يتبعها من مشكلات فرعية التي تتعلق بجوهر موضوعنا حول البيوتكنولوجيا المعاصرة وعلاقتها بدراسة الحياة الإنسانية من خلال الفلسفة البيولوجية عند "هانس يوناكس"¹، ماذا لو تمادينا في الحديث عنها؟ فمن الأفضل في هذه الحالة أن نبدأ بالكلام عن إمكانات تطبيق ممارسات الهندسة الوراثية على النباتات والحيوانات، ثم بعد ذلك نركز على تطبيقات الهندسة الوراثية على الإنسان، وللايجاز سيكون تحليلنا للثورة البيوتكنولوجية على الأبعاد الأنثروبولوجية والأنطولوجية لدراسة هذا الخيال البيوتكنولوجي، فمن الأفضل أن نركز اهتمامنا على علاقة الإنسان بطبيعته الخاصة به كإنسان، منظور إليه من

زاوية بيولوجية خاصة، كما حددها الجينوم البشري، لكن هذه التطبيقات الخاصة بالهندسة الوراثية على الإنسان تجعلنا نؤكد أننا نسير نحو إمكانية التلاعب بالإنسان، التي سبقتها عمليات مماثلة على النبات والحيوان، وهي كلها تعبر على قدرة الإنسان للسيطرة على الطبيعة بكل مكوناتها، وعن طريق هذه التقنيات أصبح الإنسان يمتلك سلطات جديدة منحه حق التصرف بالكيفية التي يريدها.

عندما يتجلى لنا الواقع اليومي بطريقة أكثر كارثية، فيوجه أصعب المسؤولية للإنسان مباشرة، لأن مسألة سلطة العقل الإنساني تستعيد أهميتها وتطرح مرة أخرى بحدة، نستطيع أن نقول عندئذ أن "هيجل" يتجلى لنا في صورة معاصرة من خلال مفهومه للفلسفة على أنها علم الأفكار الضرورية، ضرورة الأفكار الفلسفية والحاجة إليها لتنمية قوة التساؤل الذي يكشف لنا النقص الجوهرى لكل معرفة بهدف انتزاع أكبر قدر معنى من الواقع الإنساني، يمكننا أن نقول إنه في حالة الفشل في تحديد الفلسفة ورسالتها بشكل واضح وقطعي، يمكننا مع ذلك منح جلسة كبيرة لها في أيامنا هذه، كمكان لنشاط فكري مهمته الرجوع للمعنى الذي تطرحه أي عقلانية، فالفلسفة تنصب بذلك على ما هو معلوم لتتساءل " كيف يتم التساؤل فيه؟"، وفي حالتنا هذه بالضبط الشيء الذي يكون محل تساؤل هو التقدم التكنولوجي الذي تحول الى تهديد للوجود البشري.

إن اختيارنا ادخال موضوع هذه الرسالة في سياق كلامنا السابق يعود أساسا إلى الأقوال والأفكار التي ساقها الفيلسوف "هانس يونس" ، محاولين معه الذهاب إلى عمق المشكلة التي سنجدها طيلة هذا البحث؛ وهي الظهور العنيف للإنسان في النظام الكوني مما أصبح يهدد وجوده الخاص، وهو الكلام الذي جعل الفيلسوف "هانس يونس" يستخدم استعارة تاريخية كبيرة مستوحاة من الجانب الديني وهي تطلعننا على الحالة الكارثية التي ستلحق بالإنسان نتيجة أفعاله المتهورة.

لقد كان "هانس يوناس" في مراحل من حياته قلقا إزاء تطور أعمال الإنسان في ظل الحضارة التكنولوجية المعاصرة، مما جعله يكشف حقيقة بعض المواقف الفلسفية التي بقيت مسيطرة على التطور التكنولوجي إلى وقت ريب، مثل العدمية ومركزية الإنسان، كما يلفت "هانس يوناس" انتباهنا إلى القوة الخارقة التي أصبح يتمتع بها الإنسان نتيجة التقنية القوية المفرطة التي منحته ذلك، مما أصبح يمثل تهديدا حقيقيا على مستقبل الحياة الإنسانية، إن هذه الخطورة أصبحت فيها الأمر مستعجلا لاتخاذ موقف جاد وصارم نحوها والتحكم فيها، لأن كرامة الإنسان وقدسيتها حياته هي الضحية الأولى لهذا الوضع. على هذا المستوى تتأسس تساؤلاتنا الأساسية، من بينها: ما هي الوسائل التي ستجعل الإنسان قادرا على احتواء هذه القوى المدمرة لكيانه وهي في نفس الوقت لا تتلاءم مع مجريات حياته الإنسانية؟ وهنا بالضبط ستعترضنا جملة من التساؤلات الفلسفية الشائكة يعد فيها الإنسان القاسم المشترك بين الفعل التقني وبين نتائجه الوخيمة. لا شك أن الطابع الأخلاقي سيكون لصالح الإنسان فيها.

إن التفكير الفلسفي سيجد مكانته بين القوى المتصارعة، وما يمكنه إلا تقديم تنازلات فقط بين المبادئ المتصارعة، فالفلسفة تريد بذلك أن تعطي توجيهها ذات معنى ودلالة لأفعال كل انتقاد ممكن، ويعد ذلك الموقف هو الأفضل الذي يجعل قوة الفكر في خدمة معرفة ذات معنى على أساس اختيار يتجه نحو المعنى الحقيقي للحياة. وهذا ما يجعل جوهر الفلسفة يكمن في الدراسة النقدية للظروف والطرق التي تسعى إلى تحقيق حياة أفضل، أو بعبارة أخرى، إن التحليل النقدي ليس غاية في ذاته للفلسفة، وإنما هو وسيلة لها لكي تجد بكل حزم طرقا جديدة للوجود، في حالة ما إذا كانت المعايير القديمة غير مؤكدة وغير كافية، وإذا ازدادت معها متطلبات المعرفة أكثر. من وجهة نظر هذه يمكننا أن نقول: إنه من حيث المبدأ "الفلسفة أخلاقية"، والأزمات التي عرفت عبر تاريخها تشهد على ذلك، لأنها ترتبط بأسئلتها المشروعة، وأكبر الفلاسفة من دفع بحياته ثمنا لذلك، و"سقراط" واحد ممن ضحى من أجل موقف فلسفي يترجم به انشغاله الأخلاقي من أجل الوجود، وهو: بأي طريقة يجب أن نعيش حياتنا حتى

تكون أفضل حياة ممكنة؟ لا شك أن وراء هذا الانشغال ترتسم معالم فلسفة في ميدان العقل العملي، حتى نتكلم مثل "كانط" عن الفلسفة دون الخروج عن العقل النظري لتأخذ الدور الذي يتطلب أخذ موقف الأسئلة العملية، ليس من أجل مزايدة معرفية للمعرفة، وإنما لإبداء أوامر، تعليمات، توصيات وتحذيرات.

الفيلسوف "هانس يوناس" (Hans Jonas) كان الناطق لفلسفة ضمن فريق متعدد التخصصات، من البيولوجيين، الأطباء، الحقوقيين، علماء الاجتماع وعلماء الدين، وجميعهم معنيون بالدفاع عن أهمية المصلحة العامة التي ترتبط بالأخلاق الإنسانية، فتلقت ردودا مشجعة، على أنها هي الفلسفة التي كانت منتظرة، وهي فلسفة تتعلق بالحياة، وتزودنا بإرشادات أساسية: كيف نعيش؟

ماذا يجب أن نفعل أو لانفعل؟، انطلاقا من هذه التجربة "هانس يوناس" (Hans Jonas) لم يخف سعادته معبرا انه ولأول مرة في وجودها أصبحت الفلسفة مسألة مهمة من الناحية العملية، أين مجموعة من الأشخاص لهم نشاط عملي يجدون من يؤيدهم أو ينتقدهم من خلال فلسفة، لكنهم يأملون توضيحات منها.

إن أخلاق المستقبل التي يريدها الفيلسوف "هانس يوناس" تعيد الإنسان إلى معناه المزدوج البيولوجي والثقافي في قلب سياسة معلومة، لنقول ان الجهود التي كانت تستحق من قبل الثناء، والتي عن طريقها استطاع الإنسان تقنيا أن يمارس سيطرته على الطبيعة، فالملاحظة هنا هي ان الجميع اليوم يرى ويتكلم عن الأزمة التي ستلحقها التكنولوجيا المعاصرة بالبيئة الطبيعية عموما، وما ستلحقه البيوتكنولوجيا المعاصرة بالإنسان خصوصا؛ آثارها مختلفة ومتباينة، أصبحت بادية على الأفراد، المجتمعات والأمم، ومطالب اجتماعية، سياسية وأخلاقية تؤكد يوميا ان المسألة تتعلق بالإنسانية جمعاء. ومن بين ردود الأفعال المتعددة التي وردت في هذا المضمار، سيكون توجهنا نحو فكرة كان هدفها الأساسي هو حماية الإنسانية في مجالها الحيوي من جهة، وحماية الكائن الإنساني من التجاوزات التي ألحقت بكرامته، وقداسته

حياته من جهة أخرى، نتيجة التطور العلمي والتكنولوجي المعاصر اللامحدود، إن التفكير الذي يقوده "هانس يوناس" في كتابه الشهير "مبدأ المسؤولية، أخلاق من أجل حضارة تكنولوجية" يدخل في هذا الإطار.

في ظل شروط موضوعنا الأساسي الذي يتعلق بقداسة الحياة الإنسانية والبيوتكنولوجيا المعاصرة " فإن أخلاق المستقبل عند "هانس يوناس" تعتمد أساسا على مبدأ المسؤولية، الذي يكتمل معناه بمبادئ أخرى، كمبدأ الخوف ومبدأ الحيطة والحذر، فإننا سنغامر في دراسة تأخذنا في طريق تفكير نقدي يكون مطالباً في كل مرة أن ينضج أو أن يعلق في انتظار أخلاق عملية ترتبط بفعل إنسان أكثر وعياً بمعنى المسؤولية، حيث ستجد طريقتنا بشكل واسع زخمها في فكر "هانس يوناس" الذي حقق علاقة بين مبدأ المسؤولية وأخلاق المستقبل.

إذا كانت المسؤولية، الخوف، والحيطة والحذر، تكون التصورات الأساسية التي ستوجه تحرياتنا الفلسفية، فإن دراسة معنى علاقاتها سيطلعنا على تجزرها العميق فيما سيعرف لاحقاً بأخلاق المستقبل، وبالنسبة لـ "هانس يوناس" التأثيرات التي نمارسها في التاريخ، وفي نفس الوقت مسؤولياتنا الأخلاقية ستمتد إلى أبعد مدى للمثالية الأخلاقية، وحتى إلى أبعد الآفاق التي تحدد فكرة تطور الإنسانية، وهو ما يعني عند "يوناس": " أن تكون مسؤولاً يعني أن تكون "رهينة" لأن هناك ما هو أكثر هشاشة وأكثر تهديداً".

الإشكالية: سنركز في محور هذه الرسالة على الكلمات المحورية السابقة لإعادة بناء تساؤلنا الأولي، لكن هناك مقولة كان يرددها الفيلسوف "هانس يوناس" كقيلة أن تطلعنا على جوهر إشكاليتنا التي سننطلق منها لمعالجة موضوع أطروحتنا هذه، جاء في هذه المقولة ما يلي: " بروميثيوس الهائج الذي تم إطلاق سراحه بشكل نهائي، والذي منحه العلم قوى لم يعرفها من قبل، يدعو إلى أخلاق من خلال قيود متفق عليها بحرية، تمنع سلطة الإنسان المفرطة من أن تكون لعنة عليه". إن مقولة "يوناس" هذه تحد من مجال حريتنا من أجل أخلاق مستدامة، بمعنى الابتعاد عن أخلاق المعاملة بالمثل التي كانت تقرها الأخلاق التقليدية، فمن واجبنا أن

ندع للأجيال المقبلة حياة بالمعنى الذي يليق بالإنسان، لأننا أصبحنا نمتلك الوصفة الأخلاقية لمنع التغيير البيولوجي للإنسان، وهنا بالضبط يكمن أساس المسؤولية الجديدة التي ستأخذ بعين الاعتبار الآثار البعيدة لقراراتنا وأفعالنا التي ستسجل إلى ما بعد الأجيال الحالية. وبذلك نجد أن الأخلاق التقليدية تنصب على الوقت الراهن فقط، بينما الأخلاق الجديدة يكون موضوعها موجهها نحو المستقبل مع التدقيق في معنى المسؤولية في آفاق الزمان والمكان، فهي أخلاق تنبئية، مع العلم أن مثل هذه المعرفة لا تخلو من ارتباطها بشكوك كبيرة بسبب المشاكل المؤكدة للآثار التي ستنتجها التوجيهات العلمية والتكنولوجية في الوقت الحاضر، ولمواجهة مثل هذه الظروف في الحاضر وما يترتب عنها في المستقبل، استبق "يوناس" ذلك بمبدأ " تشكل الخوف " ومبدأ "الحيطة والحذر" كدعامتين أساسيتين لأخلاق المستقبل، وهنا تبدو فلسفة " يوناس " أنها تقوم على فكر انتقائي تم تطويره على مفترق المجالات الأخرى، فهو يقحم تارة "تاريخ الأديان" وتارة أخرى العلوم الطبيعية في حدود الأخلاق التطبيقية، فهي بذلك فلسفة تترجم عقلا متفتحا وحساسا لأحداث تطلعننا على حدس قوي مكن صاحبه (يوناس) من أن يشك في أحد أكبر التحديات التي عرفتتها الإنسانية على الإطلاق، وهي التقدم العلمي والتكنولوجي اللذان أصبحا عنوان الإنسان المعاصر.

بناء على ما سبق ذكره **نطرح الإشكالية** على النحو التالي: " إلى أي مدى يمكن للبيوتكنولوجيا المعاصرة أن تهدد وجود الإنسان وقداسته حياته؟ وهل يكون ذلك دعامة لمبدأ المسؤولية عند "هانس يوناس" من أجل تأسيس أخلاق المستقبل لإنقاذ الإنسانية حاضرا ومستقبلا؟

الإشكالية السابقة تقودنا إلى جملة من الأسئلة الفرعية الأخرى وهي:

- ما هو مفهوم كل من: الحياة، قداسة الحياة، البيوتكنولوجيا ومفهوم البيوايثيقا؟

- ما هي أسس فلسفة الحياة عند "هانس يوناس"؟ وما هي مكانة الإنسان فيها؟

- ما هو مبدأ المسؤولية؟ وما هي الأسس التي يقوم عليها؟

- ما هي العلاقة بين أخلاق يوناس والأخلاق التقليدية؟
- ما هي أخلاق المستقبل عند " يوناس " وما هي أسسها؟ وهل بإمكانها مواجهة التحديات التي تهدد الإنسان حاضرا مستقبلا؟

الفرضيات المقترحة في البحث

وتنطلق هذه الدراسة من فرضية عامة كحل مؤقت للإشكالية وهي:
إن أخلاق المستقبل التي وضعها " هانس يوناس " تعكس روحا تجديدية تتجاوزية للأخلاق التقليدية التي تبدو غير قادرة على مواكبة عصر التكنولوجيا، لأن هذه الأخلاق لم تستطع الحد من التجاوزات التي تتزايد في كل مرة.

ومن هذه الفرضية العامة نستطيع أن نستخلص مجموعة من الفرضيات الجزئية منها:
- الحياة مقدسة بقضية الإنسان. والتقدم العلمي والتقني هو تعبير على عظمة الإنسان.
- البيوتكنولوجيا المعاصرة تهدف إلى إطالة حياة الإنسان، والكشف عن أسرار الحياة يدخل في صميم موضوعاتها.

- هناك اختلافات بين الأخلاق اليونانية والأخلاق التقليدية، الأولى تكون على الجسد والثانية على السلوك الإنساني.

هذه الفرضيات سيتم معالجتها تواليا في رسالتنا هذه من خلال فصول ومباحث

خطة البحث

كمحاولة للإجابة على الإشكالية المحورية، وللإجابة على كل هذه الأسئلة الفرعية ارتأينا أن نقسم موضوع رسالتنا هذه إلى ستة فصول وهي:
واحد منها وهو "فصل تمهيدي" يصب في تحديد مفاهيم الكلمات الأساسية التي يركز عليها موضوع بحثنا مثل مفهوم الحياة، مفهوم قداسة الحياة، مفهوم البيوتكنولوجيا المعاصرة، وهي المكونات الأساسية لعنوان هذه الأطروحة.

كانت البداية بتحديد تلك المفاهيم لغويا واصطلاحا، ثم تتبعنا مسارها دينيا (عبر الديانات الأحادية: اليهودية، المسيحية والإسلام) وفلسفيا عبر ثلاثة مستويات فلسفية (الفلسفة القديمة، الحديثة والمعاصرة)، وتم ذلك بصورة موجزة حتى لا يكون بحثنا اسهابا لما تم قوله في بحوث سابقة من قبل، ويتسنى لنا من خلاله معرفة المصطلحات الأساسية التي نبني عليها جوهر موضوعنا.

بعد ذلك كانت الانطلاقة إلى **الفصل الأول**، ومعه تم الولوج تدريجيا في أساس البحث، وذلك بالتطرق للممارسات البيوتكنولوجية المعاصرة، وكان تركيزنا على بعضها: كالهندسة الوراثية والجينوم البشري، الاستنساخ، والموت الرحيم. وقد يتساءل أحدنا ما الغرض من عرض هذه التقنيات البيولوجية الجديدة؟ الهدف يبدو واضحا وهو؛ حتى تتجلى لنا الظروف الزمانية والمكانية التي أدت إلى ظهور أخلاق جديدة، ونعني بذلك " البيوايثيقا" التي جاءت لوضع حد للتجاوزات التي ألحقت بكرامة الإنسان وقداسته حياته.

الفصل الثاني: تم تخصيصه للفلسفة البيولوجية عند "هانس يوناس"، ومن خلاله محاولة التطلع إلى الجذور الفلسفية اليونانية، فكانت الفينومينولوجيا منطلق أعماله، من خلال "هايدجر" و"هوسرل"، وفي نظر "يوناس" الأصول الفلسفية للإشكاليات الحديثة والمعاصرة تعالج من أساس أنطولوجي، من خلال علاقة الإنسان ببيئته، ومن خلال العلاقات بين الأخلاق والميتافيزيقا. كما استوقفنا هذا الفصل عند مواقف الفيلسوف "يوناس" من خلال قراءات خاصة به، تتعلق بصورة الإنسان في فلسفته البيولوجية، ثم القراءة السوسيولوجية للإنسان، وبعدها نتطلع إلى جملة من التخوفات التي كان يعتبرها "يوناس" مصدر تهديد للحياة الإنسانية الحاضرة ومستقبل حياة الأجيال المقبلة، وتتمثل أساسا في انحرافات الطب المعاصر، وخيالات الممارسات البيوتكنولوجية المعاصرة التي أصبحت تتلاعب بمكونات الكائن البشري من خلال عمليات الاستنساخ، والكشف عن الخارطة الجينية للإنسان، وعمليات التهجين بين الإنسان وبعض الحيوانات الأخرى، وحتى في الحالات الإيجابية أصبح من الممكن التنبؤ بالحالة

الصحية لأجيال لم تولد بعد، او عملية اختيار جنس المولود أو صفاته، وهي كلها تتنافى مع المبادئ والقيم الإنسانية.

الفصل الثالث: وفيه تم الرجوع إلى الأخلاق عند "هانس يوناس"، لكن من خلال مقارنة بينها وبين نماذج من الأخلاق القديمة، الحديثة والمعاصرة، وحددنا لذلك نموذجين من الفلسفة اليونانية وهما "أرسطو" و"أبيقور"، فكلاهما يعد من أقطاب فلسفة الأخلاق، وكذلك كان لهما تأثير كبير على الجانب الأخلاقي عند "يوناس". ثم بعد ذلك تم التطرق إلى الفلسفة الحديثة، ومن أقطابها أخذنا الفيلسوف الفرنسي "ديكارت" الذي يعد "أبو الفلسفة الحديثة" والذي رد عليه "يوناس" في مسألة "الثنائية الإنسانية". ثم بعد ذلك الفيلسوف الألماني "كانط" صاحب الثورة على العقل والأخلاق، وكان رد "يوناس" عليه واضحا فيما يتعلق بالأمر القطعي.

أما الفلسفة المعاصرة استوقفتنا عند أساتذة "يوناس" "دون منازع وهم على التوالي: "هايدجر، هوسرل وبولتمان". لكن ما لفت انتباهنا في هذا الفصل هو النقد اللاذع الذي وجهه الفيلسوف "هانس يوناس" لمبدأ الأمل للفيلسوف الألماني "ارنست بلوخ" (Ernest Bloch)، والذي نعتبره مصدر إلهام "مبدأ المسؤولية" الذي أسس عليه "هانس يوناس" فلسفته البيولوجية.

الفصل الرابع: وفيه تطرقنا إلى المسؤولية عند "هانس يوناس"، وذلك من خلال ركيزته الأساسية وهي "مبدأ المسؤولية" الذي يعد إبداعا جديدا في فلسفة الأخلاق، ويعرف بها "يوناس" أي "أخلاق المسؤولية"، وتمتد جذورها إلى أعماق الحياة الإنسانية، حيث استقرأها "يوناس" من المسؤولية الفردية، ثم المسؤولية الأبوية، وأخيرا المسؤولية السياسية والمسؤولية العلمية، وهي تنتهي كلها إلى مسؤولية جماعية تشترك فيها الإنسانية جمعاء.

الفصل الخامس والأخير من موضوع هذه الرسالة تم فيه الكشف عن الأخلاق الجديدة التي أسسها "هانس يوناس"، والتي يكون بقاءها مرهونا على مبدئين أساسيين وهما: مبدأ الخوف، ومبدأ الحيطة والحذر باعتبارهما مبدآن يلازمان الإنسان، ويعدان ركيزتين أساسيتين لمبدأ المسؤولية، وتكتمل بهم أخلاق المستقبل التي يسميها "يوناس" أخلاق المسؤولية.

أهمية البحث

إن تطور البيولوجيا والطب ومعهما التكنولوجيات المعاصرة نتج عنها البيوتكنولوجيا المعاصرة، وهي تختص أساسا بالإنسان، فحققت انتصارات كبيرة في مجالات زرع الأعضاء من الخلايا الجذعية، علاج بعض الأمراض الوراثية، والكشف عن البصمة الوراثية للإنسان وغيرها من العمليات التي تدخل في الجانب البيولوجي للإنسان، لكن الانحرافات التي بدأت في الظهور خرجت عن مسارها الصحيح، فبدلاً من العمل العلمي والتقني، أصبح الكلام عن التلاعب الوراثي من خلال التهجين، والتفكير في الاستنساخ واستئجار الأرحام، فالبنات تستأجر رحم أمها، أختها، خالتها، عمته أو حتى ابنتها هي أو العكس، وأصبح الكلام عن الإنجاب دون زواج أو دون جنس أمراً ممكناً، والتلقيح الاصطناعي حتى للبنات العذارى؛ لم يعد للمعاني الاجتماعية المقدسة وجوداً في حياة الإنسان، فلا وجود لمصطلح أب أو أم أو ابن، إنها مجرد أرقام أو رموز. فإذا كانت هذه بداية التلاعب، فكيف يكون عليه الحال بعد خمسين سنة مستقبلاً مع التقدم الكبير والرهبيل للعلم والتكنولوجيا الرقمية التي سيصبح بإمكانها وضع الإنسان ومكوناته في رموز أو أرقام؟ وماذا لو وقع الأمر بيد العابثين من الأطباء والعلماء أو الأغنياء؟ إن الإنسانية بدأت تعيش حياة كارثية؛ لذلك برزت هذه الدراسة للتحقيق من منظور جديد، لأن الواقع العلمي والفلسفي أطلعنا على أن الأخلاق التقليدية لم تستطع مواكبة ومعالجة العبقرية الجديدة التي بلغها الإنسان المعاصر، وتطلعنا على أخلاق المستقبل ونخص بها أخلاق الفيلسوف الألماني "هانس يونس" التي قوامها "مبدأ المسؤولية"، والتي تعد في اعتقادنا مناسبة لمثل هكذا ظروف جديدة، بمعنى أخلاق جديدة، لظروف جديدة، لمجتمع جديد، إنها "أخلاق المستقبل والمسؤولية الأخلاقية".

أهداف الدراسة

حتى نتمكن من توضيح الإشكالية، سطرنا أهدافاً معينة لتساعدنا على الولوج في أغوار المشكلة وبيان أبعادها ومراميها، فيصبح تصورنا واضحاً تاماً حيال هذه المشكلة، لأن كما

يقال " الحكم على الشيء جزء من تصويره". ولكي يتسنى لنا معالجة ذلك وضعنا مجموعة الفرضيات حتى نبني عليها موضوعنا ويكون الهدف من هذه الدراسة واضح المعالم. ومن جملة هذه الأهداف نذكر منها:

- التطلع إلى المعاني الأساسية لمفهوم الحياة وقداستها عند الإنسان.
- التطلع إلى البيوتكنولوجيا وبعض أهم ممارساتها التقنية.
- التطلع إلى الأخلاق التقليدية والأخلاق اليونانية.
- التطلع إلى أسس ومبادئ أخلاق المستقبل عند "هانس يونس" وكيف استطاعت أن تحقق اتفاقا بين الفلاسفة والعلماء المعاصرين.

أسباب الدراسة

طيلة 35 سنة من تدريس مادة الفلسفة كنت أقول لطلبتي: " الفلسفة هي الحياة والحياة هي الفلسفة" فنحن نعيش في كل لحظة بالفلسفة ومعها، فكيف إذا كنا نحن موضوع هذه الفلسفة، وكانت حياتنا معها مهددة، ونحن نعيش الظروف المسببة لذلك، هنا تتجلى الأسباب الحقيقية وهي:

أ- أسباب ذاتية: باعتبار تخصصي في الفلسفة التطبيقية وتطوعي واهتمامي بموضوع الساعة، وهو التطورات البيوتكنولوجية المعاصرة، وكذلك التأثير الكبير الذي تركه في نفسي أحد أقطاب الفلسفة في الجزائر أستاذي القدير " كريبع النبهاني"(رحمة الله عليه) سنة 1980 عندما كنت أحمل مجلة بعنوان " العلم والحياة" باللغة الفرنسية، وكان عنوانها "مواضيع فلسفية" " البيوايثيقا في مواجهة التحديات البيوتكنولوجية المعاصرة"، فتعجبت للموضوع، فقال لي: سيكون لك الحظ أن ترى العجائب مستقبلا، إنه موضوع مثير للانتباه، وبعد أربعين سنة أدركت حقيقة كلامه مما زادني شغفا في مطالعة الموضوع من جميع جوانبه.

ب - أسباب موضوعية: إن ما نعيشه يوميا من اكتشافات مذهلة في مجالات الطب والبيولوجيا من جهة، والاكتشافات التكنولوجية الكبيرة والمتسارعة، من جهة أخرى، وكذلك

الخوف المشترك الذي تعيشه البشرية اليوم، نتيجة التهديدات التي ألقت بظلالها على الإنسان وقداسة حياته نتيجة الممارسات البيوتكنولوجية المعاصرة، تعد كلها أسبابا موضوعية كافية تجذب إليها الدارس والباحث في الفلسفة للتطلع إليها.

منهج الدراسة

إن بحثنا هذا والموسوم بعنوان: "قداسة الحياة الإنسانية والبيوتكنولوجيا المعاصرة. هانس يوناس أنموذجا"، ألزم علينا أن نسلک مناهج متعددة، وذلك بحكم طبيعة الموضوع التي تتطلب منا تارة منهجا تحليليا، تفكيكيا وجدليا، وتارة أخرى منهجا فينومينولوجيا ونقديا، لكن ما غلب علينا في هذه الدراسة أننا اعتمدنا في معظم بحثنا هذا منهجا تحليليا يقوم على التحليل والتفسير للأراء الفلسفية المختلفة، والأحداث العلمية التي وقعت أو كانت سببا في ظهور هذه الإشكالية، وذلك بمحاولة وصفها وتحليلها وتأصيلها انطلاقا من المسلمات التي سبقتها أو تلك التي وضعها الفيلسوف "هانس يوناس" في دراسته الخاصة، لأن مشكلتنا تعد من المشكلات اللامتناهية، وذلك بحكم صفة المشكلات العلمية عموما، وذلك من خلال:

تحليل المواقف الفلسفية في مجال الأخلاق عبر مراحل مختلفة ومتباينة من تاريخ الفلسفة، ونعني بها الفلسفة اليونانية، الفلسفة الحديثة وأخيرا الفلسفة المعاصرة، إضافة إلى تحليل فلسفة "هانس يوناس" الأخلاقية من خلال أسسها ومبادئها، ومن خلال تحليل مفهوم الحياة وتحليل صورة ومكانة الإنسان فيها.

إن طبيعة المنهج التحليلي ألزمتنا بدورها في كثير من المواقف أن نعتمد المنهج التفكيكي، وذلك من خلال تفكيك نصوص للفيلسوف "هانس يوناس" تتعلق أحيانا بطبيعة الحياة الإنسانية، فنبين لنا أنها تحمل معاني عديدة مما جعلنا نختار المعنى الذي يتناسب مع مضمون هذه الأطروحة، وكذلك يفتح لنا المجال للاستناد إلى نصوص أخرى تدعم المعاني التي تم تفكيكها، مما أوجب علينا تلقائيا الاعتماد على المنهج التأويلي، لأن تفكيك النصوص يقتضي تأويلها لفهم المعنى الصحيح.

أما المنهج الجدلي فيتضح لنا من خلال عرضنا للجدل الذي كان قائما بين هانس يونس "وبعض أساتذته خاصة "مارتن هايدجر" أو رده الصريح على التوجه الفينومينولوجي عموما فيما يتعلق بعدم ضبطه الوجود والموجود في تحديد الماهية الإنسانية. وكذلك تحديدا لطبيعة الجدل المحتدم الذي كان قائما بينه (هانس يونس) وبين الفيلسوف "ارنست بلوخ" فيما يخص "مبدأ الأمل".

كما يبدو المنهج الجدلي حاضرا في كل مرة تطرقنا فيها للتعارض الكبير الذي أبديناه بين أخلاق "هانس يونس" من جهة والأخلاق الأخرى التي عرفها الفكر الفلسفي عبر تاريخه كما بينا ذلك في أخلاق "أرسطو وأبيقور" في الفلسفة اليونانية، أو أخلاق "ديكارت وكانط" في الفلسفة الحديثة، أو أخلاق أساتذته (هايدجر - هوسرل - بولتمان)، أو الجدل الذي كان قائما حول مبدئي الأمل والمسؤولية لكل من "يونس وبلوخ".

في كثير من الأحيان كان المنهج الفينومينولوجي حاضرا وذلك باعتبار أن محور دراستنا هذه نشأت في أحضان الفينومينولوجيا عن طريق مؤسسيها وأساتذته الكبار "ادموند هوسرل"، "مارتن هايدجر" و"رودولف بولتمان" (Husserl-Heidegger-Bultmann) إذا كانت الفينومينولوجيا هي: "العلم الذي يدرس خبرة الوعي أي خبرته بالأشياء وخبرته بذاته" على حد قول "هوسرل" فإن ذلك يمكننا من قيام مقارنات عديدة بين فلسفة "هانس يونس" وفلسفات أخرى سواء كان ذلك في الفلسفات القديمة (أبيقور وسقراط) (Epicure et Socrate) أو في الفلسفات الحديثة (ديكارت وكانط) (Descartes et Kant) أو في الفلسفات المعاصرة (هايدجر، هوسرل وبولتمان)، فتبين لنا أنه إذا كان الجميع يشتركون في البحث عن المعرفة باعتبارها خبرة للوعي، فإن تميز "هانس يونس" كان واضحا في ما كان يسعى إليه من تميز بفلسفة جديدة هي فلسفة الحياة في ظل فلسفة بيولوجية.

كذلك اعتمدنا في تحليلنا على المنهج النقدي، وكانت بدايته عرض النقد الذي اعتمده الفيلسوف "هانس يونس" في الرد على الأخلاق التقليدية، ونقد الأخلاق التي كان ينادي بها

فلاسفة معاصرون، على غرار "مبدأ الأمل" عند "ارنست بلوخ" (E. Bloch)، وكذلك الانتقادات التي وجهها لأساتذته في المنهج الفينومينولوجي أو لمواقف فلسفية في مجال الأخلاق التطبيقية ممن عاصروه من الفلاسفة، لنوجه نحن بدورنا نقداً بناءً لفلسفة "هانس يوناس" البيولوجية حتى نستوفي موضوعية لمضمون دراستنا.

لقد توصلنا إلى حد ما في هذا العمل المتواضع إلى تحليل العلاقة بين الأخلاق التقليدية وأخلاق المستقبل عند "هانس يوناس"، وبيان ما كان يريده "يوناس" بأخلاق المسؤولية.

المشاكل التي واجهتنا أثناء البحث

لقد واجهتنا عدة مشاكل في موضوع بحثنا هذا نذكر منها على الخصوص:

قلة المراجع المعتمدة باللغة العربية في هذا الموضوع: كل المراجع التي تتعلق بصلب الموضوع، ونخص بها كتب الفيلسوف "هانس يوناس" مترجمة إلى اللغة الفرنسية فقط، ولم نعثر في المكتبات الورقية أو الرقمية على كتب باللغة العربية، فلم يتم ترجمة أي كتاب لهذا الفيلسوف ليومنا هذا إلى اللغة العربية. ولأنني من الجيل القديم اعتمدت على الكتب المترجمة للفرنسية، وأتبع ذلك بمراجع من كتب ومجلات وندوات لكبار الفلاسفة والعلماء الذين تناولوا الموضوع أو لهم ارتباط من بعيد أو من قريب بالموضوع بنفس اللغة (اللغة الفرنسية) حتى يكتمل المعنى في نفس السياق.

الدراسات السابقة

لقد كانت الدراسات السابقة كثيرة ومتنوعة لكنها لم تتطرق إلى الفلسفة البيولوجية عند "هانس يوناس" ولم تعالج في إطار مبدأ المسؤولية كما جاء به هانس يوناس وبالكيفية التي كنا نصبو إليها، وإنما تطرقت للموضوع من زوايا مختلفة ومحددة، فمنها ما هو فقهي ومنها ما هو قانوني، ومنها ما هو طبي وذلك من جانب قداسة الحياة الإنسانية؛ أما من جانب البيوتكنولوجيا المعاصرة وتقنياتها فتم التطرق إلى الموضوع من جانبه التقني والطبي، بينما البحوث التي كانت حول فلسفة "هانس يوناس" تناولت كلها موضوع الإيكولوجيا باعتبار أن

الفيلسوف "هانس يونس" كان يعرف "بفيلسوف البيئة"، فأصبح الاهتمام بالبيئة يمثل الانشغال الأكبر بالنسبة للمجتمع الإنساني المعاصر، كما أنها أصبحت تمثل هاجس العلماء والسياسيين اليوم، وذلك نتيجة التغيرات البيئية التي ألحقت بالطبيعة بسبب انبعاث الغازات في الجو، وارتفاع درجة الحرارة، وحدوث كوارث بيئية كانفتاح ثقب الأوزون، وحدوث فيضانات، وحرائق... الخ، جعلت الدراسات كلها تنصب على البيئة، في حين أن هناك مسألة أخطر تلوح في الأفق، إنها تتعلق بمستقبل الإنسان وقداسته حياته من زاوية التطور العلمي والتكنولوجي والممارسات البيوتكنولوجية المعاصرة، وما ألحقت من أخطار بالحياة الإنسانية، لأنه لا معنى للحياة إلا بوجود الإنسان.

فصل تمهيدي مفاهيمي للحياة، قداسة الحياة والبيوتكنولوجيا

- المبحث الأول: مفهوم الحياة
- المبحث الثاني: مفهوم قداسة الحياة
- المبحث الثالث: مفهوم البيوتكنولوجيا

تمهيد

تعد الحياة من أكبر النعم التي رزق بها الإنسان، فإذا كان الاتفاق بين كل الناس حاصلًا حول المجال الزمني باعتبار أن الحياة هي فترة زمنية يعيشها الإنسان، وكل بطريقته، فتكاد حينها تعبر عن كيفية أو أسلوب حياة صاحبها، عندئذ يصبح لكل فرد طريقته في الحياة، وكل يريد وضع لمسات فنية لحياته، فيرتقي بذلك معنى الحياة إلى "فن الحياة" كما ينحصر في المجال الزمني، أي من لحظة الولادة إلى لحظة الموت؛ إلا أن أول وأكبر اختلاف حول مفهوم أو معنى الحياة كان في تحديد اللحظة التي تبدأ فيها الحياة، ثم المعاني الأخرى التي تلازمها طيلة المسار الزمني الذي يتعلق بحياة الإنسان، فجدير بنا أن نتطرق لمفهوم الحياة لكن هذا المعنى سيتبدى لنا مختلفًا من مجال لآخر، فالحياة التي يتكلم عنها الفيلسوف، ليس هو نفس المعنى الذي يتكلم عنه العالم البيولوجي الذي يعتبر الحياة أنها ظاهرة بيولوجية بحتة لا دخل فيها للمجال الميتافيزيقي، وفهم الحياة لا يكون إلا بالرجوع إلى كل المعاني والدلالات التي تطلعننا على مفهوم الحياة.

انطلاقًا من مفهوم الحياة، نبين بعدها مفهوم قداسة الحياة لأنها تجسد قيمة الحياة الإنسانية، ولعل أبرز صور هذه القداسة سنتطلع عليه في المجال الديني، وهو ما استوقفنا عند الديانات المختلفة.

لقد تم تحديد مفهوم البيوتكنولوجيا في هذا الفصل التمهيدي حتى يتسنى لنا فيما بعد تمييزه عن التقنيات البيوتكنولوجية التي ستطلعننا على الآثار الكبيرة التي تركتها على الإنسان وقدسية حياته.

1 المبحث الأول: مفهوم الحياة

1 تعريف الحياة

لغة الحياة هي نقيض الموت وهي يحيا يحي فهو حي، وللجميع حيوا، وبالتسديد قال، ولغة أخرى حيٌ وللجميع حيوا حقيقة¹.

تعتبر الحياة تميز لجميع ما يدعى الكائنات الحية من حيوانات، نباتات، بشر وفطريات وحتى البكتيريا والجراثيم مميزة إياها عن غير الأحياء من الأغراض اللاعضوية أو الكائنات الميتة.

كما يمكن تعريف الحياة بأنها: "مجموعة من الوظائف الموجودة عند الكائن الحي الذي تجعله يتغذى ويترح وينمو ويتكاثر ويتفاعل مع مختلف المؤثرات التي تحيط به، وهو مجموع ما يشاهد في الحيوانات والنباتات من مميزات تفرق بينها وبين الجمادات، مثل التغذية والنمو والتناسل وغير ذلك."²

وللحياة أنواع: منها الحياة الخلوية-الحياة النسيجية-الحياة العضوية-الحياة الجسدية-الحياة الإنسانية اليقظة.

إن السؤال الشهير: ما الحياة؟ رغم بساطته إلا أنه يعد حقا خصبا لكل الأطروحات الفلسفية والعلمية، والفلاسفة والبيولوجيون عندما يتكلمون عن الحياة، فإنما هم في العادة لا يعنون بذلك ظاهرة الحياة المعيشية التي هي نقيض الموت، وإنما هم على الأرجح يعنون خاصية الحياة التي هي نقيض انعدام الحياة في أي جماد.³

¹ مجمع اللغة العربية، العجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، مصر، 2004، ص213.

² أحمد القاسمي الحسني، علامات الحياة والممات بين الفقه والطب، دار الخلدونية، الجزائر، 2001، ص25.

³ أرنتست مايبير، هذا هو علم البيولوجيا، دراسة في ماهية الحياة والأحياء، تر: عفيفي محمود عفيفي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 277، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 2002، ص38.

لقد اختلف الفلاسفة والعلماء في تقدير الحياة عند الكائن الحي، فأول فكرة حول الموضوع ما جاء به "أرسطو" حيث يرى أن الحياة تبدأ حين يتحرك الكائن البشري حركته الأولى في رحم الأم، في حين هناك من يرى أن بداية الحياة تكون " من لحظة التحام الحيوان المنوي بالبويضة وهو رأي الأطباء وعلماء البيولوجيا، ولقد أخذ به رجال الدين"¹ والعالم "جون هاريس" (John Harris) يرى " ... أن الحياة ذاتها لا تبدأ من لحظة يعيشها لأن كل من البويضة غير المخصبة والحيوانات المنوية أحياء... فالحياة عبارة عن عملية مستمرة نحن بحاجة لمعرفة متى تبدأ بقدر ما نحن بحاجة إلى الإجابة عن السؤال: متى تصبح للحياة قيمة خلقية؟"²

وهنا تتضح الإجابة عن السؤال: متى تصبح للحياة قيمة خلقية؟ إن قيمة الحياة ينبغي أن تحظى بقدر من الاحترام، ويكون ذلك في جوهره أساساً للأخلاق، إن احترام الحياة لا يعني الرجوع إلى مجرد ذات بيولوجية بل هو أخذ كيفية الحياة بعين الاعتبار، أي الحياة كما يجب أن يحيها الشخص³، وهنا تكمن الإجابة في تطورات تقدم البيوتكنولوجيا والحدود الممنوعة التي لا يجب تجاوزها، فقد كانت غاية التقدم التكنولوجي في الطب هي تخفيف آلام البشر وعلاج الأمراض والقضاء على الأوبئة، ولهذا لم يتعرض لأخطار ومحاذير أخلاقية إلا عندما لمس المنطقة المحظورة وهي العمل على الأجنة البشرية⁴.

¹ عادل عوض، الأصول الفلسفية لأخلاقيات الطب، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، مصر، 2011، ص90.

² جون هاريس، قيمة الحياة، نقلا عن ناهدة البقصي، الأخلاق والهندسة الوراثية، عالم المعرفة، العدد 174، 1978، ص111.

³ جاكولين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، تر: د. عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، بيروت لبنان، ط1، 2001، ص46.

⁴ محمد حسونة، استنساخ البشر 2060، مجلة العربي العلمي، وزارة الإعلام، الكويت، العدد15، مارس2013، ص5.

العديد من الفلاسفة يرون أن الحياة لا يمكن حصرها في الجانب البيولوجي، أو أن تقف عند متطلبات الجسد، وإنما هي تتطلب كلا انطولوجيا يحتوي على جميع جوانب الإنسان. إن أهم سؤال يوجه لمعنى الحياة كما يقول "فيتجنشتاين" يكون إلى: ما قيمة أو إلى ما هو مهم حقاً؟¹، فبحثنا عن معنى الحياة هنا لا يعني بأي حال من الأحوال أننا نتبع الجدل الطويل بين دعاة المادية ودعاة الحيوية حول تفسير الحياة، وإنما تجاوز كل العوائق، وتخطي كل العقبات، وبعيدا عن صيحات بعض المتشائمين (على رأسهم شوبنهاور)، الذين أعلنوا أن المعرفة أسمى من الحياة، وأن المعرفة تكشف لنا عما في الحياة من شرور، وبها تهدم تلك الحياة الشريرة الطافحة بالآلام، لكن أليست هذه الحياة هي القيمة الكبرى التي تنظم بالقياس كل القيم الأخرى، بما في ذلك المعرفة؟ على حد تعبير الفيلسوف "لويس فيال" (Louis Vialle) " إن كل جهد نقوم به من أجل المعرفة وإنما يبحث هو نفسه عن الحياة، والرغبة في العمل على استبقائها.."²، ربما هذا ما كان يقصده "أندري مالرو" (André Malraux) حين قال: "إن الحياة لا تساوي شيئا، لكن لا شيئا يساوي الحياة"، حتى الذي ينتحر يعرف قيمة الحياة، بدليل أنه على استعداد للتنازل عن الحياة نفسها، إذا لم تأتي له بطلبها هو.. فالحياة تحمل في طياتها مبررات وجودها وهو دلالة قيمتها. فعن طريق التحليل قد نستخلص معنى الحياة من صميم الحياة، لكن من الصعب أن نحزم أن الحياة هي مجرد ظاهرة مركبة نستطيع معرفتها بتحليلها إلى عناصرها البسيطة، كما نحلل الجملة إلى مفردات، فكلمة الحياة ذاتها تحمل من التعقيدات، فما يعنينا هنا هو لفظ الحياة البيولوجية، وامتداداتها العلمية والتقنية أو ما يعرف البيوتكنولوجيا.

¹ Ludwig Wittgenstein. Conférence sur l'éthique. Trad. de l'anglais : J. Fauve. Gallimard. Paris.1971. P143.

² Louis Vialle. Défense de la vie. Alcan. Paris /1938.pp163-164.

يتميز كل كائن حي بقدرته على النمو من خلال الاستقلاب والتكاثر لضمان استمرار النوع وقدرة التكيف من خلال تغيرات داخلية أو جسمانية. بعض مفاهيم الحياة تقتصر فقط على اشتراط إمكانية التكاثر وإنجاب نسل مع إجراء تعديلات تكيفية.

لقد اختلف الفلاسفة والعلماء في تقدير الحياة عند الكائن الحي، فأول فكرة حول الموضوع ما جاء به "أرسطو" (Aristote) الذي يرى أنّ الحياة تبدأ حين يتحرّك الكائن البشري حركته الأولى في رحم الأم، وبذلك الحياة لا يمكن حصرها في البيولوجيا فقط أو أن تقف عند متطلبات الجسد بل ينبغي كلا انطولوجيا يشمل عليه كل جوانب الإنسان.

إنّ حق الإنسان في الحياة هو حق مقدّس منذ القدم، ومن أسمى مظاهره هو حق الإنسان في سلامة جسده، ومن مبدأ حرمة الشخص يُستخلص مبدأ الحرمة المطلقة لجسم الإنسان والتي تعني أنّ كل شخص له أن يعترض على أي مساس بسلامة جسمه، فله كذلك الحق في إجراء تجارب وتحاليل أو عمليات جراحية عليه.

وكانت لفكرة "حق الحياة" نصيبا كبيرا في بحوث العلماء واهتمامات الفلاسفة، وما يجعلنا نسعى إلى فهم كلمة "حق الحياة" في مدخلاتها ومخرجاتها هي: بداية كلمة حق كما جاءت في القواميس هي مركز شرعي أو قانوني من شأنه أن ينتفع به صاحبه أو غيره.¹ ويكون الحق ماديا مدركا أو معنويا، وعاما إذا لم ينفرد بالانتفاع به فردا أو فئة معينة، وإلا فخاصا.²

¹ مصطفى إبراهيم الزلمي، حقوق الإنسان في الإسلام، مطبعة الخنساء، بغداد، العراق، ط1، 2005، ص4.

² المرجع السابق، ص5.

أما الحياة ف ضد الموت، الحي ضد الميت..¹ واستعملت في معان كثيرة منها في القوة النامية، في الحيوان والنبات.

أما اصطلاحا، الحق اختلفت معانيه الاصطلاحية لاختلاف النظرة إليه والاستعمال، فهناك من يرى أن الحكم مطابق للواقع، ويقابله الباطل، وهو ما يوافق أهـ الأخلق، وهو يطابق القواعد والمبادئ الأخلاقية.

واستعمله الفقهاء بمعنى الاختصاص والأولية، وصاحب الحق هو اختصاص يقربه الشرع سلطة على الشيء أو اقتضاء أداء من آخر تحقيقا لمصلحة معينة.²

أما الحياة فعرفت اصطلاحا: هي عبارة عن قوة مزاجية تقتضي الحس والحركة الإرادية مشروطة باعتدال المزاج، أو هي قدرة الوحدة العضوية على مباشرة الوظائف العضوية الضرورية لحفظ الذات وإمكان التكاثر، وتشمل معنى حياة الإنسان والحيوان والنبات، وتقرب دلالتها في تفسير الحياة بالقوة أو القدرة أو آثارها ومظاهرها ووظائفها التي تميزها عن الجماد وانعدام الحس والحركة.

إن معنى الحياة يرتبط معنا ووصفا بالجسم النامي الحساس، المتحرك بالإرادة نتيجة حلول الروح فيه.

وأول القوانين الوضعية التي أقرت حق الحياة هو إعلان استقلال أمريكا الصادر سنة 1776، والمتضمن مبدأ تمتع الناس بحق الحياة.³

¹ نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، الصحاح في اللغة والعلوم، دار الحضارة، بيروت، ط1، 1984، ص281.

² 13 نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، مصدر سابق، ص282.

³ د. رياض عزيز هادي، حقوق الإنسان، بغداد، 2005، ص26.

وبعد جاءت موثيق وإعلانات حقوق الإنسان، التي جاء فيها: إن الإنسان فرد من المجتمع مكلف برسالة الحياة، ينبغي عليه القيام بها لتحقيق الحياة له وللمجتمع...¹

فكرة حق الحياة كانت في بدايتها في شكل خرافة أو أسطورة، لكن مع تقدم المعرفة العلمية عموماً والبيولوجيا خصوصاً أصبحت موضوعاً للدراسة، جلب إليه أكبر العلماء وهو ما أدى إلى وضع مجالات علمية بيولوجية انصبت كل اهتماماتها حول هذا الموضوع، ومن أبرز النظريات في هذا الصدد نجد:

أ_ نظرية التخلق اللاحيوي: وتفترض هذه النظرية أنّ منشأ الحياة لأول مرة كانت نتيجة تفاعل بعض المواد غير الحية.

ب_ نظرية البانسبرميا: أو فرضية جمع البذور، وتقول هذه النظرية أنّ حبوب الحياة كانت موجودة مسبقاً في نشوء الكون، وما إن وصلت إلى كوكب الأرض وبدأت بالارتقاء بسبب قابليتها للحياة، ويعدّ «فرانسيس كريك» (Francis Krick) من أشدّ مؤيدي هذه النظرية.

1.1 الحياة في الفكر الديني:

الديانات كلها تعطي الحياة مرتبة عالية تفوق مرتبة الإنسان ذاته، لأن بها يوجد الإنسان ويعيش حياته، ففي الديانة اليهودية، معنى الحياة هو خدمة وعبادة الإله الحقيقي والاستعداد للعالم الآخروي.

بينما في المسيحية، معنى الحياة يتحدّد في أن يحيا الإنسان كالمسيح، أو أن يحيا حياة المسيح نفسه، لأن الغرض من ذلك هو السعيّ نحو الخلاص الإلهي، من خلال نعمة الله وشفاعة المسيح له، فالعهد الجديد يتكلم عن الله الذي يريد أن يقيم علاقة مع البشر في هذه الحياة، والحياة الآتية، وهو ما يكون ممكناً عندما تغفر كل الخطايا، والأصل في ذلك هو أنّ

¹ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، المادة 29.

الإِنسان خلق على صورة الله تعالى، ولكن سقوطه تسبب في وراثة الجنس البشري للخطيئة الأولى، وأنّ ذبيحة المسيح تهب الوسائل للوصول إلى الحالة الأولى لأدم، فالتساؤل عن غاية الحياة في الديانة المسيحية يعود إلى خلق الإنسان الذي أوجده الله ليعرفه ويخدمه ويعبده في هذا العالم، وأن ينعم بالسعادة معه إلى الأبد في السماء، ولقد أجاب "القديس بولس" عن نفس السؤال في أثينا قائلاً: «لإله الذي خلق العالم وكل ما فيه هذا، إذ هو ربُّ السماء والأرض، لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيدي، ولا يخدم بأيدي الناس كأنّه محتاج إلى شيء إذ هو يعطي للجميع حياة ونفساً وكل شيء، وصنع من دم واحد كلّ أمة من الناس، يسكنون على كل وجه الأرض... لكي يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدون على أنّه عند كل واحد بعيد، لأنّنا به نحيا ونتحرّك، ونوجد...¹»

أما معنى الحياة في الإسلام هو السعي من أجل إرضاء الله والالتزام بأوامره ونواهيه التي نزلت وحيا على النبي محمد صل الله عليه وسلم، والحياة الإنسانية فوق الأرض هي مجرد اختبار يحدد الحياة بعد الموت إلى الجنّة أو إلى النار، لكن الأصل في الحياة عند المسلمين هو أنّ الإنسان خلق من تراب، وأنّ الماء هو أصل كلّ شيء حيّ، لقوله تعالى: « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ² » (سورة النساء الآية 30)

إذا للأحياء أصلاً أرضياً، وهو ما يوافق نظرية الأصل الأرضي، فيعلل الإسلام سبب الحياة على وجود الرّوح، وسبب الموت وهو خروج الرّوح، التي لا يوجد لها تفسير في الإسلام، لقوله تعالى: « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ³ » (سورة

¹ عادل زكريا، معنى الحياة، وجهات نظر دينية، بتاريخ 21.02.2020، ص2، الرابط: <http://adel/zekri.word.presse.com>

الإسراء الآية 85)، أما أصل الحياة فهي عملية الخلق الذي هو من صفات الله وحده، جاء في القرآن الكريم: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (سورة الحج، الآية 87).

فالشرائع السماوية الثلاث تتفق في ذات المعنى الذي اعتبر التفسير المادي المجرد في أصل الخلق داعيا للإلحاد، فالإنسان بتميزه عن الكائنات الأخرى اكتشف أن لديه لغة جند بها بني جنسه، وابتكر لنفسه منها وطرقا لإعادة النظر في كل هذه الطبيعة الساكنة التي أصبحت لا تلبى حاجاته وذلك عن طريق التحليل، التركيب والتجاوز، فاستطاع تجاوز كل العوائق، فصنع لنفسه أشياء كانت تبدو مستحيلة، وكأنها تنبؤات "ديكارت" (Descartes) في شعاره الشهير قد تحققت حين قال: "لنكن أسيادا ومالكي الطبيعة..."¹ وبعده أدرك الفيلسوف الألماني "هيجل" (Hegel) هذه الحقيقة ورد على مقولة "ديكارت"، قائلا: "اعتقد انه امتلكها".

ومن هنا أصبح شعور الإنسان يتزايد أن هذه الطبيعة، وهذا الكون إنما سخر لأجله، وأنّ هذا الدور المنوط به، إنما تم عن اختيار من الآلهة، وبعناية إلهية، وبذلك أصبح معنى القدسية مطروحا لأنه مرتبط بالآلهة مباشرة² ودخلت كلمة القدسية في القواميس وهي كلها تصب نحو مفهوم واحد.

2.1 الحياة في الفلسفة اليونانية:

إن مفهوم الحياة في نظر الفلاسفة الإغريق "أفلاطون وأرسطو" (Platon et Aristote) يأخذ منحى آخر، فنجد معنى الحياة عند "أفلاطون" هو الحصول على أقصى درجات المعرفة،

¹ René Descartes. Discours de la méthode. Sixième partie. de la pléiade. P168.

² André Vergez, Denis Huissman, cours de Philosophie, t2, Nathan, France, 1990, p312

والإنسان مجبر في السعي نحو الخير، وبالطبع لن ينجح في هذا بدون الفلسفة أو "محبة الحكمة" التي ستؤدي إلى المعرفة الحقيقية، أما في القرن الرابع قبل الميلاد، عند "أرسطو"، كان الاعتقاد السائد والشائع أنّ الحياة تنشأ فجأة، " نظرية التولد الذاتي" وتلقائياً ضمن مادة غير حيّة بالية دعوها بالتخلق اللاحيوي، ومعنى الحياة لديه هو معرفة الفضيلة و التحلي بالفضائل، والسعي نحو الخير الأعظم وهو الخير المرغوب فيه بحدّ ذاته، بمعنى أنّه لا يراد به تحقيق خير آخر، بمعنى أنّ سعادة الإنسان مرتبطة بمعرفة وظيفته في الحياة...¹

أما عند الأبيقورية (Epicurisme)، فيتمثل معنى الحياة في الخير الأعظم وهو السعي نحو اللذة المعتدلة، حيث يغيب الألم عندما يعرف الفرد حدود رغباته الشخصية، باعتبار أن التخلص من الألم و الخوف يمثلان السعادة في أعظم أشكالها، فالمعنى "الأبيقوري" للحياة يرفض الخلود والتصوف، فهناك روح ولكنها زائلة مثل الجسد، وبالتالي لا وجود لحياة بعد الموت، و بذلك لا يجب أن يخاف أحد بعد الموت..²

أما "الرواقيون"، فمعنى الحياة عندهم هو التحرر من المعاناة عن طريق عدم الاستجابة للمشاعر، والتي تعني أن تكون موضوعياً، ولديك حكم صائب على الأمور، وليس اللامبالاة، وحتى يتغلب الإنسان على المشاعر المدمّرة يجب أن ينمي لديه ضبط النفس، والثبات الذهني، ومثال ذلك ما حدث لسقراط الذي أقدم على الموت باللامبالاة، ويوضح لنا موقفه بقوله: « إنّ الذي يصيب الناس ويؤثر في حياتهم ليس هي الأشياء نفسها بل آراؤهم عن الأشياء » فلو كان "سقراط" يرى الموت شراً لوقع الرعب منه في قلبه، لكن سقراط لم يكن يرى الموت شراً، فأقدم عليه غير مبال، فقد كان غرض الرواقيين الأسمى هو سعادة الإنسان واستقلاله بفضيلته،

¹ حلمي القمص يعقوب، ما هي نظرية التولد الذاتي، مكتبة الكتب المسيحية، المكتبة الأرثوذكسية، مصر، د.ت، ص100

² أحمد أمين، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، ط2، 1935، ص298.

واعتبروا أنّ الفلسفة هي عمل الفضيلة، وقد قاموا بقياس قيم الأفعال بمقدار اشتراكها في الحياة الأخلاقية¹

3.1 الحياة في الفلسفات الحديثة والمعاصرة

المذهب النفعي الذي ينسب إلى "جيرمي بينتام" (Jérémy Bentham) (كتاب "مبادئ الأخلاق والتشريع" عام 1789) يقول في معنى الحياة: «إن الطبيعة وضعت الجنس البشري تحت حكم سيدين قاسيين هما: "اللذة والألم"، كما نجده وضع قانون النفع، أي الشيء الصالح هو الذي يعطي أعظم قدر من السعادة لأكبر قدر من الناس، وبهذا يكون معنى الحياة هو مبدأ اللذة والسعادة...²

أما فلسفات التنوير كانت النظرة فيها إلى معنى الحياة مختلفة، وأصبحت أقلّ تركيزاً على العلاقة بين البشر والله، بل كان تركيزها على العلاقة بين الأفراد ومجتمعاتهم وذلك بسبب ما يسمى بالعصر الاستعماري، فأنتجت مثاليات كونية مثل الحب، المساواة، الحرية، والحرية الفردية هي أهم صدق في الحياة وتأمينها هو ضمانه لكل الحقوق الأخرى الموروثة. أما في الفلسفات المعاصرة، فمعنى الحياة ارتبط بالتغيرات الكبيرة التي عرفها المجتمع الإنساني، فأعاد العلم المعاصر كتابة العلاقة بين الجنس البشري، والعالم المادي، فطرح أسئلة حول معنى الحياة، كان الغرض منها إعادة تقييم الوجود البشري من وجهة نظر بيولوجية وعلمية إلى محاولة وضع نظرية تتجاوز حدود الطبيعة.

بالنسبة للبراغماتية معنى الحياة يمكن اكتشافه فقط عن طريق التجربة والخبرة.

¹ أحمد أمين، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانية، مصدر سابق، ص 281.

² علي عرعور، الأخلاق الأبوقورية وأثرها في الفكر الأخلاقي المعاصر، مذكرة شهادة الماجستير في الفلسفة، جامعة الجزائر، 2005، ص 45

بينما "الوجودية" تعتبر أنّ كل إنسان يخلق جوهر حياته "ماهيته"، ولا يحتاج لمن يوجهه، فالحياة غير محدودة باله عال، وغير محددة بأيّ سلطة أرضية، فالوجود يسبق الماهية، وجوهر حياة الفرد يؤتي الفرد للوجود، فالفيلسوف "كيركجورد" (Kierkegaard) أوجد مصطلح القفزة الإيمانية، لأنّه إذا كانت الحياة مليئة بالسخف فيجب على الفرد أن يصنع قيمة في هذا العالم المتبدل، بينما " شوبنهاور (Schopenhauer) يجب على معنى الحياة، بتحديد أنّ حياة الإنسان تعكس إرادته، فإذا كانت إرادته ليس لها هدف، فالحياة ستكون كذلك.

أما الفلسفة "الوضعية"، فتري أنّ السؤال عن معنى الحياة؟ ليس له معنى في حدّ ذاته، لأنّ الأشياء في حياة الفرد تحمل معنى كجزء من الكلّ، ولكن معنى الحياة في حدّ ذاته، من دون هذه الأشياء، لا يمكن تمييزه، فحياة الفرد لها معنى في أحداث حياتية... أمّا أن تقول أنّ الحياة في حدّ ذاتها معنى، فهذا أسوأ استخدام.¹

أما الفيلسوف الفرنسي "هنري برغسون" (Henri Bergson) فالحياة عنده تستلزم وجود العقل والمادة على أساس أنّ المعقولية والمادية هما من طبيعة واحدة.² ويؤكد "برغسون" في موضوع آخر: «إنّ بين العقل والمادة تناظرا وتطابقا وتقابلا.»³ فالانسجام والتطابق الحاصل بين العقل والمادة يكافئ استحالة فصل أحدهما عن الآخر، كاستحالة عزل البياض عن الثلج، أو فصل الوردية عن عطرها، ومنه يستحيل وجود حياة بغياب توافق العقل مع المادة وانسجامها، وبذلك يكون دور النفع للعقل في الحياة، حيث تعمل

¹ إ. م. بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، تر: عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، العدد 165، الكويت، 86-87-103.

² هنري برغسون، التطور المبدع، تر: جميل صليبا، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، 1986، ص7.

³ هنري برغسون، الفكر والواقع المتحرك، تر: سامي الحروي، دار الأوابد، دمشق، سوريا، دت، ص35.

وظيفة الدماغ على انتخاب الذكرى التي تنفع في انجاز العمل الراهن، وإبعاد كل ما لا يساهم في ذلك العمل، حيث أقام في إطار العلاقة بين المادة والروح انسجاما مع رؤية العقل، ومنه يتبين الرّفص التّام والمطلق، وفي نظر "برغسون" أن تكون الحياة محكومة بالاحتمية والآلية من شأن ذلك أن يضيفي للنظر إلى حقيقة الحياة على أنّها متعينة بشكل مسبق، وأنّ العالم معطى قبلها.

أما فيما يخصّ الفيلسوف الألماني "فلهام ديلتاي" (Wilhelm Dilthey) ونظرته للحياة فهو يرى أنّها ليست هذه الواقعة البيولوجية التي يشارك الحيوان فيها الإنسان، وإنّما الحياة الإنسانية بكلّ تعقيداتها المعروفة، هي مركب من هذا العدد اللامتاهي من الحياة الفردية التي تؤلف الواقع الاجتماعي، والتاريخي للحياة الإنسانية كلّها، وبالتالي تدخل فيها آمال الأفراد ومخاوفهم، وأفكارهم وأفعالهم، والمؤسسات التي يقيمونها، والقوانين التي يسترشدون بها، والديانات التي يعتقدونها، وكلّ الأعمال الفنية والأدبية والمذاهب الفلسفية والنظريات العلمية، فتكون الحياة بهذا المعنى هي موضوع الفلسفة الوحيد، فهو لا يعتقد بوجود حياة خارج هذه الحياة، ولا يوجد شيء في ذاته، ولا مثل أفلاطونية ميتافيزيقية مطلقة، والفيلسوف جزء من هذه الحياة، لا يمكن فهمها إلاّ من داخلها، فالحياة عند "ديلتاي" كلّ منظم له معناه، والفيلسوف يبدأ بالمعاني التي يعطيها الناس للحياة، ويشاركهم المبادئ التي يستخدمونها في تنظيم خبراتهم ويسمّيها "ديلتاي" مقولات الحياة، وهي: مقولة الباطن والظاهر، مقولة الداخلي والخارجي، مقولة الكلّ والجزء، مقولة الغاية والوسيلة، مقولة النمو والتطور، مقولة القيمة، مقولة الهدف، ومقولة المعنى، هذه المقولات تمارس تأثيرها تحت المستوى الشعوري، إذ يضيفي الإنسان على خبرته معنى يستخدم المقولة التي يتحقق بها ذلك، فينظم ويؤول الحياة شعوريا وبتأني، ويؤكد "ديلتاي" على أنّ الفلسفة مثلها، مثل أي شيء آخر في الحياة الإنسانية، هي نسبية كلّ

النسبية، فيقول في ذلك: « إنَّ فصل الخطاب في التصور التاريخي للعالم هو نسبية كلِّ تصور إنساني، وكلِّ شيء يتحرَّك ويتغيَّر ولا يبقى شيئاً ثابتاً...»¹

أما "فردريك نيتشه" (Friedrich Nietzsche) يكشف لنا ماهية الحياة الحقيقية حين وصف نفسه "أنه فيلسوف الحياة"، وحقيقة فلسفته أنها فلسفة نامية مع الحياة، تعلي من شأن الحياة، وتتخذ مثلاً أعلى لها "حب المصير"، فحربه على المسيحية أو العالم الآخر تخفي من ورائها العلو بقيمة الحياة، فكل فلسفة هي تمجيد لقيمة الحياة، وإرادة القوة التي تهدف إلى مزيد من العلو بالحياة، وفكرته عن العود الأبدي الذي يضع ثقل الوجود في اللحظة الأبدية التي يعيشها الإنسان في هذه الحياة، واستطاع نيتشه أن يحدث انقلاباً في مجال القيم، فحولها من اللوغوس logos إلى البيوس Bios.

2 المبحث الثاني: مفهوم قداسة الحياة:

كلمة قداسة هي مصدر صناعي قدس، حرمة، وطهارة مكان له قدسيته². وقدسي قدس تقديساً، فهو مقدس، ونقول قدس الله أي عظمه، وبجله ونزهه عملاً يليق بالألوهية وقدس لله سره أي قدس الله روحه وهو دعاء للميت بالرحمة.

1) ان معظم المعاجم تتفق على ان القداسة هي التنزه والتطهر والرفعة في المرتبة، وانطلاقاً من هذه المعاني، لم يبق على الإنسان الا ان يعلن انه مخلوق خلق على صورة الله وهي الفكرة التي ابدتها الشرائع السماوية، فتحققت بها اكبر احلام الإنسان، وسعياً منه لتحقيق سعادته، اسس لنفسه علوماً، كانت بدايتها اخضاع الطبيعة، ولكن مع هذا التطور المتسارع وقعت الانتكاسة، واصطدم الإنسان ذاته بذاته، ومعها ارتسمت ملامح اليأس في أفق مع مستقبل هي

¹ إ. م. بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، مرجع سابق، ص ص168-170

² مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مصدر سابق، ص719.

فيه مجهولة، وبدا صرح القداسة يتصدع ويتشقق، فأصبحت كبرياء الإنسان وقدسيتها في الصميم، وبها ازبح الإنسان عن مركزه المتميز في الكون، وبدأ هو نفسه يتعارض مع قدسيته، فبدأ يعبث بقدره وأراد أن يقوم مقام الخالق الذي منحه هذه القدسية، فانطلاقاً من "كوبرنيكوس" الذي أطلعه على أسرار الكون، إلى "تشارلز دارون" الذي شككه في أصله ووصولاً إلى النعجة "دوللي" التي بقدر ما زادت من طموحات الإنسان في الاكتشافات، زادت من عمق جراح القداسة، وأصبح الكلام عن الحياة بمصطلحات جديدة كالهندسة الوراثية، واختيار جنس المولود باسم النسالة (اليوجينيا)، وأطفال الأنابيب باسم الإخصاب الاصطناعي، والكلام عن الموت باسم القتل الرحيم والإجهاض، ووصل الأمر إلى حد التفكير في صنع إنسان بديل باسم استئصال الأعضاء وزرعها، وتخطى الأمر ليصل إلى حد الكلام عن صور مطابقة للإنسان، سواء كان من الأخيار أو الجبابرة باسم الاستنساخ

1.2 قداسة الحياة في الفكر الديني

المتفق عليه أن مفهوم القداسة يعود إلى أصول دينية، وهناك من يعتبره مصطلحاً دينياً، تم استخدامه للتعبير عن حرمة الإنسان وصفة في الحياة والاستمتاع بها...¹ مبدأ قدسية الحياة أو قداستها، يطرح دائماً كأساس لصياغة القواعد والقوانين المتعلقة بأخلاق طوباوية مثل ذلك المبدأ الأكثر استعمالاً في الثقافات والديانات المختلفة لتبرير القواعد الأخلاقية لحقوق الإنسان والحياة الاجتماعية، وهذا المبدأ عرف في المجتمعات الشرقية القديمة والديانات الأحادية القديمة (اليهود، المسيحية والإسلام).

إن قداسة الحياة تقوم على مبدأ عدم خرق حياة الإنسان، وهو أن الإنسان يأخذ كرامته وقيمه وقدسيتها من الله، وليس من أي حالة أخرى أو طبيعة تخصه هو.

¹ Duncan .in. Dictionnaire de médecine médicale. Dorton. 1977. p29.

يرى "كارل بارث" (Karl Barth) أنّ الحياة مقدسة وتحتاج إلى الاحترام ليس من أجل طبيعتها الخاصة وإنما من أجل ما صنعه الله، لأنّ ذاته مقدّسة وهو ما عبّر عنه قائلا: «الحياة لا تتطوي على أي احترام في ذاتها وإنما إرادة الله هي التي تخلق هذا الاحترام، ولما ربط الإنسان إيمانه بكلام الله ووعدده، علم أنّ الله سيحفظه وهو يحبّه في كل حياته... ولذلك يجب اعتبار قيمة الحياة الإنسانية وتقديسها، لأنّ هذه الحياة تفوق الإنسان ذاته، فهو مطالب باحترامها لأنّ الله هو الذي جعل منه إنسانا، وأعطاه هذه الحياة¹

كذلك نجد رجل الدين "بول رامسي" (Paul Ramsey) البروتستانتى تبنى الفكرة السابقة نفسها بقوله: «الإنسان نفسه لا يمكنه أن يفهم التصور الديني لقدسية الحياة الإنسانية، إلا إذا استطاع أن يرى أنّها محاطة بقداسية ليست من طبيعة الإنسان، وأنّ أكبر كرامة لا تأتي منه... فقيمة الحياة الإنسانية صادرة في النهاية من الله² ..

وفي نفس السياق المفكر المسيحي "نورمان سان جون ستيفانس" (Norman. St. J. Stevens) يعتبر أنّ الحياة هبة من الله، وليس للإنسان أيّ سلطة عليها، فيعبّر عن ذلك بقوله: «... إنّ قيمة الحياة الإنسانية عند المسيحيين في القرن الأول بعد عيسى عليه السلام هي نفسها اليوم تقوم على وحدة الروح والجسم، وهما موجهان معا للحياة الأبدية... والقيمة الأخرى هي أنّ الإنسان مخلوق وليس سيّدا على حياته، ولا يمتلك أيّ سلطة عليها، وإنما هو مستودع في مشيئة الله...³»

¹ Karl Barth. Eglise dogmatique. V3. Edimbourg .1961. P339.

² Paul Ramsey .la moralité de l'avortement. John Rachel. Ed. Les problèmes moraux. Pp11-12.

³ ST. John Stevens. Le droit de la vie. New York .1964. P12.

الديانة المسيحية أعطت أهمية كبيرة للإنسان، واعتبرت أنّ الحياة من صنع الله، وتمّ ذلك على صورته هو، وجاء في ألواح العهد القديم: «خلق الله الإنسان على صورته، على صورته الله خلقه... وهذه القدسية أعطت للإنسان الغلبة والسيادة على كلّ المخلوقات، وهو ما جاء في العهد القديم أيضا: «وقال الله نعمل للإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى كلّ الأرض، وعلى جميع الدّابات التي تدبّ على الأرض...»¹

2.2 قداسة الحياة في الديانة الإسلامية.

أما الديانة الإسلامية، بدورها جعلت من قدسية الحياة أساسا في العقيدة الإسلامية لأنها ترتبط بما قبل الخلق، لقوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ». (سورة البقرة، الآية 30)

وبذلك حضي المخلوق بعناية الخالق وتقديره، وما زاده تكريما هو أن نفخ في جسده من روحه فسواه خلقا آخر لقوله تعالى: «ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» (سورة السجدة الآية 09)، وتتويجا لهذا التكريم أمر الله ملائكته بأن تسجد لهذا المخلوق الجديد "الإنسان" لقوله تعالى: «فَإِذَا سُوِّيَتْهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ». (سورة الحجر الآية 29)، وأعظم تكريم في الإنسان هو العقل الذي به استطاع تحمل الأمانة التي خلق من أجلها، وبذلك يكون الله قد رسم معالم الطريق للإنسان وأمهه بيزاد لا ينصب.

فالإسلام كغيره من الديانات التوحيدية تأثر فلاسفته وعلمائه بالتراث العلمي اليوناني فيما يتعلق بقدااسة الحياة وكرامة الإنسان، وخاصة في مجال الطب، حيث كان لأبو قراط

¹ ناهدا البقصي، الهندسة الوراثية والأخلاق، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 174، جويلية 1993، ص 95،

مجالات واسعة في كتابات علماء الإسلام وهو ما عبّر عنه "ليوبولد سالفيدر" بشكل الطب العربي أهم فصل في تاريخ تطور الطب ليس لكونه غزيراً، وإنما لأنه استطاع أن يحافظ على العلم الطبي الإغريقي اليوناني.

إن الديانة الإسلامية تسعى للحفاظ على حق الحياة وتأكيد قدسيّتها وحرمة انتهاكها، والإسلام أكّد على تكريم الإنسان وعلو شأنه لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}. (سورة المائدة الآية 32) فحق الحياة من الحقوق المقدّسة في الإسلام، وانتهاكها يعتبر كبيرة من الكبائر لقوله تعالى: "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرّفون". (سورة الإسراء الآية 70)

فاهتمام الإسلام بقداصة الحياة وجد له نصيباً كبيراً في مؤلفات كبار العلماء والمفكرين المسلمين، حيث تناولت مؤلفاتهم أسماء الله وصفاته الدالة على هذه القدسية والتي هي مصدر للحياة وللكون بكامله تجتمع في جسم صغير، إنه الإنسان، فهو يحمل سرا مقدساً يساوي الكون بأكمله ... وعندما يتصل هذا الكون غير المحدود بكل ما فيه مع الإنسانية يتضح لماذا تتجاوز قيمة البشرية قيمة أي شيء آخر.¹

3.2 قداسة الحياة في الفكر الفلسفي.

لم تطرح فكرة قداسة الحياة اختلافاً بين الفلاسفة قديماً، فيكاد يكون الاتفاق واحداً حولها، ولكن الاهتمام كان موجهاً نحو موضوع الأخلاق كمحاولة لفهم الإنسان وتحديد مركزه،

¹ د. جيل كارول، القيمة الإنسانية المتأصلة، بتاريخ 23.02.2020 على الرابط: <http://www.veecos.net/portal/index.php? Option .com>

وهو ما أدى إلى تباين بين الفلاسفة عبر العصور، رغم أن الغاية كانت واحدة وهي إعطاء الإنسان مكانته الحقيقية والتميزة بسمو عقله.

فالفلسفة اليونانية انصبت اهتماماتها حول تحديد معالم المواطن الصالح والفاضل، فاجتهد معظم فلاسفة اليونان في البحث من هو الإنسان الصالح؟ والدافع لذلك هو الظروف المضطربة التي عرفها المجتمع اليوناني في تلك الفترة، فكان الاتفاق واحدا بين الأطياف الفلسفية المختلفة حول البنية الثنائية للإنسان، وهو عبارة عن مجموعة قوى ذات مطالب يتناقض بعضها مع البعض، وتقوم حرب بينها لا تنتهي إلا بانهايار بعضها واستسلام البعض الآخر.¹ وتحدد ذلك من ثنائية الجسد والروح.

- أما الأول: أي الجسد، فيمثل الجانب الحيواني الذي تتحكم فيه الغرائز والشهوات.
- بينما الثاني: وهو الروح، فيمثل الجانب المقدس منه ويسمو بالحكمة والحياة الفاضلة. وبذلك أصبحت الدعوة صريحة في جعل الروح هي الجانب الأعلى والمقدس من الذات الإنسانية، وهو ما نجده عند " أفلاطون" في "محاورة فيدون"؛ إن الفيلسوف يرحب بالموت لأنه يحرره من الجسد، أي من السجن الذي كانت فيه الروح تقضي عقوبة جريمة اقترفها في عالم المثل..² وهذا التقسيم تجسد في التقسيم الذي عرفه المجتمع اليوناني، أما الجسد فهو من طبيعة العبيد والحرفيين والعمال، بينما الروح فيمثلها النبلاء، فرغم اهتمام فلاسفة اليونان بالإنسان وأفعاله، إلا أنهم أهملوا قداسة الإنسان صراحة، والدليل على ذلك هو نظام الرق الذي تجسد في المجتمع اليوناني في المجالات الاقتصادية، والفلاسفة اليونانيون كان اهتمامهم بالإنسان اليوناني قبل كل شيء.

¹ د. حامد خليل، مشكلات فلسفية، المطبعة الجديدة، دمشق، 1964، ص33.

² عيد الله الزهوني، قراءة في محاورة فيدون لأفلاطون، بتاريخ 25.02.2020. ص10، الرابط الإلكتروني.

في الميثولوجيا اليونانية يظهر "بروميثيوس" المصنف على أنه المسؤول على اندلاع الصراع بين البشر وآلهة اليونان، ذلك حين افلح أن يقتبس جذوة من النار المقدسة (الشمس) من عند "زيوس" كبير الآلهة، ويقدمها هدية للبشر كي تساعدهم على الرقي والارتقاء فتميز بذلك على بقية الكائنات الحية، فصنعوا بها الأدوات والأسلحة، فعاقبه "زيوس" وقيده إلى الصخرة، وسلط عليه نسرا ينهش كبده، والجذوة كانت روح الحياة نفسها، و"بروميثيوس" كان نحاتا فتعدى حدوده، وعمل عملا هو من اجتهاد الآلهة، وبذلك أصبح "فرانكينشتاين" بروميثيوس الحديث، فتولى عملية الخلق وإنتاج الحياة أو سلبها، بدلا من أن يقتنع بوضعه المرسوم والمحدد له كمخلوق، فكان عقابه أن شوه صنعه بيده وبجهوده العلمية¹.

أحسن صورة لقداسة الحياة في المجال العلمي تتمثل في "قَسَمُ أبقراط"، والذي يحدد من خلاله المبادئ الأخلاقية للممارسات الطبية، حيث قال: « ... ولن أعطي أي دواء مميت لأي شخص يطلب مني ذلك ولن أقترح استخدامه، وكذلك لن أعطي أي امرأة إجهاضا علاجيا.²»

أما فلسفة القرون الوسطى فكان الطابع الديني هو المميز فيها، ونعني بذلك الدين المسيحي، فصورة الإنسان لم تكن قائمة بذاتها وإنما كانت مرتبطة بعلاقته بالله، لأن طبيعة الإنسان في نظرهم كانت مشوبة بالفساد، "وقد سعوا إلى كبت الطبيعة البشرية وفصل الإنسان عن ذاته الإنسانية وترسيخ اغترابه عنها وتشتيت قواه ولجم تطلعاته وتكريس تبعيته..."⁴⁶.

¹ أحمد أبو زيد، الطريق إلى ما بعد الإنسانية، مجلة العربي، العدد 563، وزارة الإعلام، الكويت، جويلية 2003، ص32.

² LEWIS.M.A. Lois et morale en médecine. Philadelphia.

لقد كانت القطيعة مع الفلسفة اليونانية القديمة وفلسفة القرون الوسطى التي اعتبرت الإنسان وسيلة، على يد الفيلسوف الألماني "كانط" (E. Kant) الذي أبعد أي اعتبارات أخرى وبنى فلسفته على أساس

عقلي خالص لا تحدها عوارض الزمان والمكان والثقافة والجنس أو الدين أو ميل طبيعي آخر، فالإنسان هو الإنسان، فأحدث بذلك ثورة في فلسفة الأخلاق لم تشهدها البشرية من قبل، وهو ما جسده في القاعدة القطعية القائلة: « افعل الفعل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي شخص كل إنسان سواك بوصفها دائما، وفي نفس الوقت غاية في ذاتها، ولا تعاملها أبدا كما لو كانت مجرد وسيلة.¹

يكون بذلك الفيلسوف "كانط" قد أعاد للإنسان مكانته، بل وأعادته إلى مركز سيادته وإلى طبيعته المتحررة من أي خوف أو ضغط أو شعور بالذنب، ويكون الفعل عند الإنسان إحساسا منه بالواجب أي أداء الواجب من أجل الواجب، ومبدأ الكلية هو المسير لكل الأخلاق، وهو ما جسده في القاعدة القائلة: "افعل بحسب المسلمة التي يمكنها في نفس الوقت أن تجعل من نفسها قانونا عاما"².

يمكن لنا أن نقول إن فكرة "كانط" (Kant) هذه هي بمثابة تحول في دراسة الإنسان، فبدأت قدسية الإنسان ترتسم على أساس العقل وحده.

الفيلسوف الألماني "هيجل" (Hegel) بدوره تكلم عن قيمة الإنسان وأضفى عليه قيمة مطلقة، وبنفس التصور "الكانطي" اعتبره غاية في ذاته وهذا ما يبدو واضحا في كتابه "أصول

¹ إيمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، تر: عبد الغفار النكاوي، ط2، القاهرة، 1980، ص37.

² المرجع نفسه، ص85.

فلسفة الحق " فجدّد ذلك في مسلمته القائلة: « كن شخصا واحترم الآخرين بوصفهم أشخاصا.¹ والذي يعود في أصله إلى "كانط"، إلا أنّ "هيجل" جمع في مسلمته المبادئ الأساسية للإنسان وحددها كحقوق سياسية، كحق الملكية، وحق التعاقد.

3 المبحث الثالث: مفهوم البيوتكنولوجيا

إن أهم ما توصلت إليه الاكتشافات في أواخر القرن العشرين هو التقدم في مجال البيولوجيا والطب من جهة، والتقدم التكنولوجي من جهة أخرى، وعملية المزج بينهما أنتجت مجالا جديدا أكثر تطورا، وهو البيوتكنولوجيا التي كان توجهها يختص بالميدان "البيو طبي" أساسا، وحققت نتائج لم يكن يتوقعها العلماء أنفسهم، وهي نتائج مشوقة ومثيرة ومخيفة في نفس الوقت، وهو ما سيكتشفه الإنسان لاحقا في مجالات ومعارف جديدة، كالهندسة الوراثية، الاستنساخ، زرع الأعضاء، تحسين النسل، وغيرها من العمليات التي تتعلق بالإنسان. مع حلول القرن 21 تغيرت الكثير من المفاهيم التي تتعلق بالتكنولوجيا الحيوية، فأطلق عليه قرن الطفرات العلمية التكنولوجية، كل لحظة تمر إلا وتحمل معها اكتشافات جديدة، ويحقق فيها الإنسان اختراعات وإبداعات مذهلة خاصة منها في التكنولوجيا الحيوية. لقد أصبح مصطلح البيوتكنولوجيا من أهم المصطلحات العلمية المعاصرة تداولا، أصبح يساير كل التطورات الكبيرة في مجال البيولوجيا وخاصة في المجال "البيو- طبي" حيث تمكن من معالجة أمراض كان يعاني منها الإنسان وقتا طويلا.

3.1 تعريف البيوتكنولوجيا؟

لغة: مصطلح "بيو تكنولوجيا" يتألف من كلمتين وهما:

¹ ف. هيجل، أصول فلسفة الحق، المجلد الأول، تر: إمام عبد الفتاح، دار التنوير، ط2، بيروت، 1983، ص463.

بيو: وهو من المصدر اليوناني بيوس، ويعني الحياة.

تكنولوجيا: وهي مصدر يوناني، يتألف من كلمتين "تقني ويعني: الفن والحرفة.

والثاني لوجيا ويعني: العلم والدراسة.¹

وبذلك يصبح مصطلح " التكنولوجيا " هو تلك الأساليب والتطبيقات العلمية التي تسعى إلى تحقيق هدف علمي في مختلف مجالات الحياة، كصناعة الأدوية في المجال الصيدلاني، صناعة الأدوات الالكترونية في المجال العلمي، وغيرها من المجالات والوسائل التي يعتمدها الإنسان لتحقيق حاجاته في بيئة اجتماعية.

التكنولوجيا لا تقتصر فقط على الآلات والمعدات التي يستعملها الإنسان، وإنما تشير الى المعارف والأفكار التي تمكن من استخدام تلك الآلات والمعدات، وهي كذلك إنتاج اجتماعي لا توجد بمعزل عن محيطها، فالتكنولوجيا هي دراسة الطرق التقنية من حيث عموميتها وعلاقتها بنمو الحضارة.²

أما الفيلسوف الألماني "هانس يوناس" فيرى ان البيوتكنولوجيا وضعت القوى الإنسانية فوق كل شيء معروف بل فوق أشياء لم تخطر ببالنا، ولا في أحلامنا من قبل، إنها قوة فوق العادة وفوق الحياة على الأرض، وفوق الإنسان نفسه، والتكنولوجيا هي أرقى تجليات العقلانية وهي تجسد دقة الفعل الإنساني العاقل، رغم أنها قد تتجلى أحيانا بصورة اللاعقلانية، وذلك عندما تكون خاضعة لاستخدام غير عقلائي.³

¹ René Scriban, Biotechnologie, 5eme Edition, Rue Lavoisier, Paris, p17

² اندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمه: خليل أحمد خليل، مج 1، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، طبعة 2001، ص 29.

³ وجدي خيري نسيم، الفلسفة وقضايا البيئة: أخلاق المسؤولية، هانس يوناس نموذجا، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2009، ص21.

الراجح عند كل الفلاسفة والعلماء أن مصطلح " بيوتكنولوجيا" يصبح معناه التقنية أو العلم الذي يدرس الكائن الحي في الممارسة العلمية، أو هي التطبيقات على المادة الحية، أو التدخل اليدوي على الجسم الحي.¹

2.3 الأصول التاريخية للبيوتكنولوجيا:

يعتقد العديد من الباحثين والعلماء أن فكرة البيوتكنولوجيا تمتد جذورها إلى تاريخ الإنسانية البدائي، وهي ترمز إلى الانتقال الثقافي الذي عرفته البشرية التي تحولت من مجموعات صغيرة متنقلة من الصيادين وجامعي الثمار إلى تجمعات أكثر استقرارا في مدن ودول، ومعها ظهرت المعالم الأولى للتكنولوجيات التي كانت تهدف في أساسها إلى غايات بيولوجية للحفاظ على حياة الأفراد، خاصة منها ما يتعلق بالجانب الغذائي، وهذا ما تفسره طبيعة البيئة الزراعية البدائية التي اتخذ منها الإنسان أعيادا وطقوسا بقيت إلى وقتنا الحالي في شكل عادات وتقاليد تحتفل بها المجتمعات الإنسانية، وأخذ منها طابعا دينيا مقدسا خاصة في مجالي الزراعة والولادة اللذان يعدان مجالين أساسيين في التكنولوجيا البيولوجية.

إن تاريخ ما بعد "داروين" (Charles Darwin) عرف تحولا جذريا في البيولوجيا، ومعه بدأت المغامرة البيولوجية تدخل في أغوار الكائنات الحية، وبدأ العلماء في اكتشافاتهم، وكانت الممارسة الفعلية هي نجاح التناسل الانتقائي المتعمد، ومنها طرح "داروين" " نظرية الانتقاء الطبيعي" التي كانت فيها الطبيعة تستعمل آلية الانتقاء البيئي، ويكون فيها البقاء للأصلح، هذه الفكرة كانت مصدر إلهام العلماء حول فكرة مرونة الحياة التي يمكن للإنسان التدخل فيها

¹ Gilbert Hottois et J.N. Missa, Nouvelle Encyclopédie de bioéthique. De Broeck, université, 1^{ère} édition, Bruxelles, 2002, p145.

بوسائل اصطناعية لتحسينها، وهو الأمر الذي فتح للبيوتكنولوجيا المعاصرة الأبواب على مصراعيها.

بدأت ملامح القفزة النوعية للتكنولوجيا البيولوجية تظهر للعيان بعد سبعينيات القرن الماضي، وكان الهدف الأساسي الذي ترمي إليه هو: التعرف على أساسيات البيولوجيا الجزيئية، ثم الانتقال من مرحلة استكشاف عدد الجينات في الجينوم البشري إلى صناعة أجهزة آلية تقرأ جينومات جرثومية كاملة، ومع تطور التكنولوجيا المعاصرة، ما كان يعتبر صيحة تكنولوجية قبل ثلاثة عقود من الزمن لم يعد إلا مجرد دراسة بسيطة تدخل في أبجديات البرامج الدراسية، فمن البديهي أن أقصى ما انتهى إليه العلم قد خطى خطوات كبيرة نحو الأمام، والدور الذي يلعبه الوسطاء ومخترقو الكمبيوتر (الهاكرز) القابعون في محلات السيارات وأقبية المباني، سيكون لهم دور كبير ومحوري في تطوير تكنولوجيا الحواسيب ومنتجاتها، سواء في العتاد أو البرمجيات، وعندها سؤال العالم "ستيوارت براند" سي طرح من جديد وهو: أين المخترقون الكبار للتكنولوجيا البيولوجية؟... ليجيب قائلاً: سوف يظهرون...¹

إن التقنيات البيولوجية معرضة لكل التوقعات الممكنة، فبقدر ما تقدمه من منافع للإنسان، فهي قد تلحق به أضراراً غير متوقعة، وسيشتمل مستقبل هذا المصطلح (التقنيات البيولوجية) في إحدى معانيه كل ما سيحدث لأي إنسان: جنسه، نوعه، لونه، مدة حياته ونسبة ذكائه.

ولكن ما هي طبيعة العلاقة بين البيولوجيا والبيوتكنولوجيا؟ البيوتكنولوجيا هي مجموعة من التقنيات يقوم من خلالها العلماء بتعديل الكائنات الحية واستخدامها كوسائل، كما أنها

¹ روبرت. ه. كارلسون، ما البيولوجيا إلا تكنولوجيا، ترجمة: أيمن توفيق، المركز القومي للترجمة، ط1، 2014، صص16-18.

توظف بيولوجيا الجزئيات، والهدف من ذلك هو فهم عناصر البناء الأساسية للكائنات الحية والتحكم فيها.

أول مظاهر البيوتكنولوجيا ظهرت في التناسل الانتقائي للنباتات والحيوانات من أجل تحسين قيمتها الغذائية، تلتها بعد ذلك استخدام الخميرة لصناعة الخبز والخبز والخبز وماء الشعير.

مؤرخو الثقافة البشرية رصدوا أول مظاهر البيوتكنولوجيا في شكلها البدائي منذ أكثر من 10 آلاف عام، فكانت ترمز إلى الانتقال الثقافي البشري من ممارسة الصيد إلى جني الثمار في الطبيعة، إلى الزراعة التي ساعدت على استقرار الجماعات وظهور كيانات وتجمعات كبيرة وكثافة العمران، وهو ما ساعد على نشوء الكتابة وتطور وسائلها، لكن ما هو مؤكد أن الإنسان البدائي لم يكن يدري حقيقة الممارسات البيوتكنولوجية التي كان يمارسها، وكان همه الوحيد هو مواصلة التناسل الانتقائي عبر تاريخه الطويل.

مع حلول القرن 19 نجح مربو الحيوانات والمزارعون في تطبيق تقنيات التناسل الانتقائي، فحقق لهم ذلك وفرة في الإنتاج، وكان لذلك أثر كبير على العالم البيولوجي " تشارلز دارون" (Charles Darwin) الذي استخلص قدرة المربين على تعديل الأجناس، وقدرتهم على تحويلها عن طريق التناسل الانتقائي، فحول "دارون" ذلك إلى البحث عن الانتقاء الطبيعي الذي لا يكون فيه للإنسان أي دخل، والطبيعة هي التي تفضل بعض الأفراد على البعض الآخر في عملية التناسل.

إذا كانت نظرية "دارون" حول الانتقاء الطبيعي أثرت على العديد من العلماء والفلاسفة وكان وقعها على الواقع العلمي البيولوجي واضحا، فالبيوتكنولوجيا المعاصرة استفادت منها كثيرا ووجهت نظرتها نحو فكرة قابلية تحسين الحياة عن طريق بعض الممارسات البيوتكنولوجية.

3.3 البيوتكنولوجيا المعاصرة:

لقد كانت الثورة التي أحدثها " دارون " في البيولوجيا منطلقا لظهور مجالات علمية أكثر تقدما في الدراسات البيولوجية، كان منطلقها علم الوراثة، فكان مربو الحيوانات والمشاتل الزراعية من أمثال "بوربانك" (Burbank Luther) (1849-1926) ونورمان بورلاغ" (Norman Borlaug) (1914-2009) أول من قاما بإيصال التناسل الانتقائي إلى مستويات كبيرة من النجاح، لكن أواخر القرن العشرين (ق 20) كانت بمثابة القفزة النوعية للبيولوجيا الجزيئية والهندسة الوراثية، حيث أصبحت الأسس النقدية للبيوتكنولوجيا المعاصرة. أصبح بإمكان العلماء الولوج في ثنايا الخلايا وفي أبسط مكوناتها وأهم اكتشاف هو الحمض النووي (الدنا) الذي مكن العلماء من فهم بنية وتقنية التحكم فيها، وهو ما ساعد المهندسين البيولوجيين على نقل الجينات من جنس لآخر، ومن البكتيريا إلى البشر، وتغييرها داخل الكائنات الحية.

إن التحول الكبير لعصر البيوتكنولوجيا كان مع اكتشاف بنية " الدنا " من طرف "فرانسيس كريك" (Francis Krick) و"جيمس واسطن" (James Watson)، وبدأت معها قصة جديدة في تاريخ البيولوجيا، حيث تم التطلع إلى الأبجدية الجينية التي تحمل المعلومات الوراثية للكائن الحي.

مع بداية الثمانينات ظهرت أول الثدييات المعدلة وراثيا أي المعدة لحمل جينا من جنس لآخر ونقلها إلى ذريتها، وتلتها بعد ذلك الخطوة العملاقة في تاريخ البيولوجيا المعاصرة، وهي "مشروع الجينوم البشري" (1990) ومعه تطورت المعلوماتية الحيوية التي استعملت أقوى الحواسيب لحيازة المعلومات الوراثية وتخزينها.

لقد كان عام 2011 هو عام الانتصار الكبير الذي تم فيه اكتشاف التسلسل النمطي للحمض النووي "الدنا" (A.D.N) بشكل كلي، ومنه يمكن تحديد الرمز الكلي والمفصلي للحمض النووي وسيكون أكبر المستفيدين من هذا الاكتشاف مجال الطب ومجالات أخرى من العلوم.

لقد امتدت البيوتكنولوجيا المعاصرة باكتشافاتها المتتالية إلى علم الأجنة والتكنولوجيا التناسلية والتحكم في الأجنة والخلايا التناسلية المنتجة لها، وهو ما تأكد عمليا ومخبريا سنة 1978 بولادة أول أطفال الأنابيب.

لكن من يعارض مثل هذه الممارسات البيوتكنولوجية المتطورة حجتهم في ذلك هي ضرورة نيل الجنين البشري نفس الاحترام الذي يناله الإنسان، وما يزيد من احترام الجنين هو أنه في حالة ضعف فيجب احترامه كذات بشرية تحمل حياة إنسانية.

خلاصة الفصل التمهيدي

لقد اعتمدنا في مضمون هذه الرسالة فصلا تمهيديا مفاهيميا لتحديد معاني ومجالات أهم العناصر الواردة في عنوان الرسالة وهي على التوالي: الحياة، قداسة الحياة والبيوتكنولوجيا، وهي الكلمات التي أدى تفاعلها إلى إحداث تغييرات أساسية في جوهر حياة الإنسان المعاصر. لم تكن الغاية من شرح هذه الكلمات هي الرجوع إلى المعاني اللغوية والاصطلاحية، لأن ذلك تم التطرق إليه بإسهاب في مواضيع سابقة متعددة ومختلفة عند فلاسفة وباحثين، وإنما غايتنا كانت هي تحديد مركز هذه المفاهيم في صلب موضوعنا، وذلك من خلال استقراء تاريخي لمفهوم الحياة، وقداسة الحياة في مجالات مختلفة من الفكر الفلسفي والديني، وسنكشف لاحقا أن ذلك سينتج عنه تقاطعا مع فكر الفيلسوف الألماني "هانس يوناكس" (Hans Jonas) الذي اتخذناه نموذجا لموضوع بحثنا، وذلك من خلال تكوينه الديني والفلسفي واهتمامه الكبير بالاكتشافات العلمية والتطورات التكنولوجية المعاصرة، وكان ذلك كله دعامة له لتأسيس فلسفته البيولوجية.

بينما المبحث الثالث من هذا الفصل التمهيدي المفاهيمي تضمن تعريف البيوتكنولوجيا، وكانت الغاية منه تتبع المسار التاريخي الذي قطعه البيوتكنولوجيا للوصول الى ما هي عليه اليوم من قوة وتمكين، وكان ذلك بعيدا عن التفسير التقني الذي يبقى من خصوصيات رجال العلم والتقنية.

لقد أصبحت البيوتكنولوجيا اليوم تسيطر على كل مجالات الحياة الإنسانية بما فيها الإنسان ذاته، الذي أصبح موضوعها الأساسي، ومحور اهتمام العلماء والباحثين من جانبه المادي (الجسم)، إلا أن التطورات الكبيرة والمتسارعة التي حققتها البيوتكنولوجيا المعاصرة اليوم تجاوزت حدودها وحدود الإنسان إلى درجة أراد فيها المخلوق أن يلعب دور الخالق، ألحقت نتيجة ذلك تجاوزات خطيرة بقداسة الحياة الإنسانية، وجعلت أهم معاني وصور الإنسان تفقد قيمتها نسبة إلى ما كانت عليه طيلة حقبات طويلة من الزمن.

I. الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة
اليونانية

- المبحث الأول: أهم تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة
- المبحث الثاني: البيوايثيقا والأخلاق التطبيقية
- المبحث الثالث: هانس يونس والبيوتكنولوجيا

تمهيد:

لقد اختتمت البشرية في القرن العشرين فترة من تاريخها، طولها خمسة آلاف عام، وهي بذلك في وضع شبيه بإنسان ما قبل التاريخ عندما فتح عينيه منذ خمسة آلاف عام على دنيا جديدة تماما، لكن روعة المشهد ستكون في القرن الواحد والعشرين مخالفة تماما إنه «قرن الثورة البيولوجية والأحياء»¹.

هذه الأخيرة أقلت كل موازين الحياة الإنسانية، فقد أصبحت البشرية على أبوابها، إن لم تكن داخلها، وذلك يعود إلى الضجة الصحفية، والمجلات العلمية التي نشرت بحوثا في مجالات البيولوجيا والتكنولوجيا الطبية، بالإضافة إلى تأسيس مجموعة من الشركات في مجالات مرتبطة بهذه التطورات الحديثة مثل البيوجين وشركة جينيتك².

إلا أن الحديث عن البيولوجيا يستدعينا للرجوع إلى إرهاصاتها الأولى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أين كان للميكروسكوب أثر كبير في تطورها، إذ نجد مجموعة من العلماء اقترنت أسماؤهم بهذا الاختراع منهم عالم التشريح الايطالي "مارتشيلو مالبيجي" (Marcello Malpighi) والعالم الفيزيائي الكيميائي "روبرت هوك" (Robert Hooke) اللذان بحثا في عالم الأحياء الصغيرة والحشرات والنباتات، واستطاعا لأول مرة أن يصلا إلى معرفة شكل الحيوان المنوي والخلايا البشرية الدموية³، إلا أن البيولوجيا بلغت درجة كبيرة من التطور في القرن العشرين بالرغم من الصعوبات التي اعترضت الباحثين في رصد كل الوقائع التاريخية لهذا العالم خصوصا في الفترة المعاصرة، ويعود ذلك كما يرى "برتراند

¹ د. سعيد محمد الحفار، البيولوجيا ومصير الإنسان، سلسلة الكتب الثقافية الشهرية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ت، ص16.

² ناهدة البقصيمي، الهندسة الوراثية والأخلاق، مرجع سابق، ص61.

³ ناهدة البقصيمي، المرجع السابق، ص 62.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

راسل" (Bertrand Russel) "...إلى أننا قريبون من هذه التطورات إلى حد يصعب علينا معه أن ننظر إليها من بعد، وبالتجرد المطلوب..»¹، وهذا ما يؤكد أن المرحلة الراهنة مليئة بتطورات مهمة وخطيرة يصعب رصدها بشكل دقيق، لأن تطورها مرتبط بالدعم الذي حظيت به من قبل بعض الشركات بهدف الربح مثل: شركة "روكفلر"، وشركة "جنيرال موتورز" الأمريكيتين، وغيرهما من الشركات المتعددة الجنسيات.

هذا وقد استعملت أدوات العلوم الأخرى في البحوث البيولوجية كالمضخم الصمامي، الميكروسكوب الإلكتروني، أشعة اكس راييس، والأشعة فوق بنفسجية وتحت الحمراء، والرياضيات البحتة، بالإضافة إلى الكمبيوتر، وهي كلها أدوات لا تنتمي إلى البيولوجيا، وهو ما يدل على علاقة البيولوجيا بالعلوم الأخرى، وتداخلها فيما بينها إلى درجة توحى أن العلوم ستعود إلى اتحادها بعد أن انفصلت عن أم العلوم «الفلسفة» في العصر الحديث، وبذلك دخلت البيولوجيا مرحلة جديدة وخطيرة من تطورها²، وهذا ما يحملنا على الكشف عن المفاهيم الرئيسية للبيولوجيا المعاصرة باعتبارها العلم الذي سيحدث تغييرات جذرية في العالم خلال القرن المقبل، إن لم يكن قبل ذلك، وهي الهندسة الوراثية والجينوم البشري، الاستنساخ والموت الرحيم كمارسات طبية تمس بقدسية الحياة البشرية كما سنتطرق إليه لاحقاً.

أما البيوايثيقا في اعتقادنا جاءت كنتيجة لإشكالات طرحتها تلك التجاوزات التي ألحقت بحياة الإنسان وقدسية حياته، ويأتي بذلك الفيلسوف "هانس يونس" ليسلك درب الباحث المستميت ليعالج هذه المسألة بمنطق العلم والتكنولوجيا وما ألقياها بظلالهما على الفكر المعاصر.

¹ برتراند راسل، حكمة الغرب، ج2، نقلا عن ناهدة البقصي، الهندسة الوراثية والأخلاق، ص71.

² برتراند رسل. المرجع السابق، ص ص74،75.

I. 1 المبحث الأول: أهم تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة.

I. 1.1 الهندسة الوراثية :

لقد بينا في مبحث سابق مفهوم البيوتكنولوجيا، وأهم ما ترتب عنها هو تلك الممارسات البيوتقنية التي عرفها النصف الثاني من القرن العشرين واعتبرت ثورة بيولوجية كبيرة، وأبرز ما تمثلت به هي: تجارب الهندسة الوراثية، ومع بداية القرن الواحد والعشرين عرفت الدراسات البيولوجية انفجارا علميا أذهل العلماء والمفكرين والفلاسفة، وهو ما يتعلق بمشروع الجينوم البشري أو ما يعرف بالخريطة الجينية للإنسان، واعتبر ذلك حدثا علميا وبيولوجيا بارزا للغاية، ونازلة من اغرب النوازل المستجدة واعقدها وأخطرها، فأصبح الأمر حديث الساعة، واخذ نصيبا كبيرا من الدراسات والمناقشات من قبل العلماء والفلاسفة وفقهاء الدين والقانون، ورجال السياسة والاقتصاد.

هذا الأمر بقدر ما أعتبر تنويجا للدراسات البيولوجية وخاصة منها الهندسة الوراثية، أصبح يمثل خطرا على الحياة الإنسانية، بل وعلى مستقبل الإنسانية، نتيجة ما قد تؤول إليه بعض المغامرات أو الانحرافات أو الانزلاقات التي قد تستهوي أصحابها إلى استغلال هذا المجال لأغراض غير التي كانت مسطرة في مشروع الجينوم في معالجة بعض الأمراض المستعصية، وبالتالي إسعاد الناس وإراحتهم.

إن البيولوجيا المعاصرة وعلى رأسها الهندسة الوراثية وكنموذج فيها مشروع الجينوم البشري أصبحت تمس بحقوق الإنسان وكرامته بما في ذلك قدسية الحياة.

فإذا كانت عملية زرع الأعضاء، أو تقنية طفل الأنابيب أحدثت الدهشة والخوف، فإن ما آلت إليه الهندسة الوراثية في ظل البيوتكنولوجيا خاصة منها تكنولوجيا تطوير الجينات أو تحويلها، اعتبرت حدثا بالغ الأهمية، لأنها تقوم أساسا على مادة الحياة وهي الجينات، ويعد

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

تفوقا على كل ما سبقها من ثورات علمية، أصبحت فيها علوم الوراثة تلعب الدور الرئيسي في استعمالاتها التطبيقية في ميادين الطب، الصيدلة، الزراعة، الأمن الغذائي وتلوث البيئة.

لقد عرفت الهندسة الوراثية مرحلتين أساسيتين وهما:

-اكتشاف الحمض النووي (الدنا) على انه المادة الوراثية.

- ثم بعد ذلك اكتشاف أسرار الشفرة الوراثية، وذلك بتحديد العناصر الأساسية للحياة وهي: الادينين، الجوانين، السيتوزين والثايمين.

الهندسة الوراثية أو ما يعرف بالتعديل الوراثي، وهي عملية التلاعب بالمادة الوراثية للكائن الحي بطريقة لا تحدث في الظروف الطبيعية، وتتضمن استخدام "المؤشب، وكل كائن يتم إنتاجه وفق هذه التقنية يعد كائنا معدلا وراثيا.

أول استخدامات الهندسة الوراثية كانت عام 1973 حول البكتيريا، ثم عام 1974 حول الفئران، وعام 1982 تم إنتاج الأنسولين من البكتيريا ثم تسويقه، ثم 1994 بدأ بيع الغذاء المعدل وراثيا. الهندسة الوراثية هي تقنية تتعامل مع الجينات البشرية والحيوانية.

أكثر الأشكال شيوعا من الهندسة الوراثية يتطلب إدخال مادة وراثية جديدة في موقع غير محدد من جين العائل عن طريق عزل ونسخ المادة الوراثية ذات الصلة، وتوليد بناء يتضمن كل العناصر الجينية بغرض الحصول على تغيير وراثي صحيح ثم إدخال البناء في الكائن العائل.

طبقت الهندسة الوراثية في مجالات عدة تتضمن البحث والتقنيات الحيوية والطب، وحققت إنتاج أدوية (أنسولين) وهرمون النمو في البكتيريا.

فقد تعددت استعمالات الجينات عن طريق الهندسة الوراثية وذلك ببرمجتها وتحويلها إلى مصانع بيولوجيا تحقق كل مطالب الإنسان، ويعد اكتشاف الجينوم البشري، أهم ما توصلت

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

إليه الهندسة الوراثية، وبذلك سنحدد ماهية الجينوم البشري وتاريخ اكتشافه، ثم أهدافه والمخاطر المترتبة عن ذلك¹.

I. 2.1 الجينوم البشري:

إن أهم ما وصلت إليه البيوتكنولوجيا المعاصرة هو ما تم الإعلان عنه يوم 2002/06/26 على لسان رئيسي دولتين عظميين، وهما الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون) (Bill Clinton) ورئيس وزراء البريطاني (توني بليير) (Tony Blair) وعلى غير العادة أن يكون ذلك من طرف العلماء، وأصحاب الاكتشاف، باعتبار أن المسألة علمية، لكن هذه المرة الأمر يتعلق باكتشاف في مجال التطور البيولوجي والوراثي، يتعلق بحرمة الإنسان وقديسية الحياة وقيم الأديان، ويتعلق الأمر بالجينوم البشري، الذي أصبح اقوي دليل في الكشف عن أحوال الإنسان ورصيده الوراثي، وما يمكن أن يكون عليه في مستقبل الأيام، فإذا كان اكتشاف الجينوم البشري فتح أبواب الأمل في مجالات متعددة بداية من مجال الاستشفاء والعلاج، واكتشاف القوانين، ومجال تقوية الاقتصاد وتحقيق الأمن الغذائي وسلامة البيئة، وذلك وفقا لتقنيات وكيفيات محددة، فإنه من جهة أخرى فتح نوافذ متعددة تبعث بالخوف والحذر على ما يتم به من التلاعب بالجينات والاتجار بالأعضاء البشرية وتسويق حالات الإجهاض غير المشروعة .

فالجينوم البشري وبكل ما يمثله من مكوناته، مرتبطات، آماله، آلامه، محاسنه ومساوئه يشكل حقيقة علمية، ويعد أبرز الاكتشافات العلمية في عالم البيولوجيا في السنوات القليلة الأخيرة، ويعتبر ثمرة العلوم البيولوجية أو الهندسة الوراثية ومنه يستوجب علينا إن نحدد ماهية الجينوم البشري، وبعض المفاهيم المتعلقة به، وكذلك مجالات استخدامه، وما قد يترتب عن

¹ ناهدة البقصي، مرجع سابق، ص ص 14-15.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

ذلك خاصة ما يتعلق بموضوع بحثنا حول قداسة الحياة الإنسانية، وموقف "هانس يوناس" من ذلك.

مفهوم الجينوم البشري: هو الطاقم الوراثي، أو الرصيد الوراثي للإنسان، وهو يضم في مجموعه كل الجينات أو المورثات الموجودة في البشر، ويعرف كذلك بالخريطة الجينية البشرية، أو الخريطة الوراثية الإنسانية أو الرصيد الوراثي والطاقم الوراثي، أو كتاب الحياة وملفه الجيني والوراثي، وغيرها من الأسماء والألقاب التي أطلقت على الجينوم البشري غير أن المسمى واحد، معروف ومحدد.

مصطلح جينوم "génom" هو مصطلح جديد في علم الوراثة يجمع بين جزئي كلمتين هما "gen" وتعني بالعربية المورث "الجين"، والجزء الثاني هو الأحرف الثلاثة الأخيرة "ome" من كلمة "Gonosome" وهي "Ome" وتعني باللغة العربية الصبغيات أو "الكروموزومات" وتنصب على الدلالة العلمية للإنسان، وتعني الحقيقة الوراثية البشرية القابعة داخل نواة الخلية البشرية وهي التي تعطي جميع الصفات والخصائص الجسمية¹

الجين: يطلق عادة على المورث وهو تسلسل من "نيوكليوتيدات*" الحمض النووي منقوص الاوكسجين «DNA*» أي أنه عبارة عن جزء من الحمض النووي أو جزء من الكروموزوم الذي يتحكم في إظهار صفة وراثية محددة.....²

¹ كريم صالح عبد العزيز محمد، الجينوم البشري كتاب الحياة، مجلة الإعجاز العلمي، الرياض، 2000، ص38.

² الجندي ابراهيم صادق الحصري، تطبيقات تقنية البصمة الوراثية في التحقيق والطب الشرعي، الرياض، ط1، 2002، ص44.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيواي تي قا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

خريطة الجينوم البشري: ويقصد بها الترتيب التفصيلي للوحدات البنائية " النيكلو تيدات " المكونة للمادة الوراثية وتحليل المعلومات التي يتم قراءتها لمعرفة المورثات "الجينات" باستخدام برامج حاسوبية خاصة للدراسات التفصيلية على المادة الوراثية¹.

مجموعة العوامل الوراثية " Génome " : وهي التركيبة الكاملة للتعليمات الخاصة بتكوين الكائن الحي وتحتوي على البصمات التي تحدد كل مكونات وأنشطة الخلية طوال حياة الكائن الحي، وتوجد هذه المعلومات الوراثية على أشرطة محكمة الحلزونية من الحمض الريبوزي منقوص الأكسجين " DNA " إضافة إلى جزيئات البروتين وهما معا يكونان الكروموزومات التي توجد فيه المورثات " الجينات " وهي التي تحدد كل صفات الكائن الحي.²

الحمض النووي: وهو الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين "DNA « ويسمى بالحمض النووي لوجوده في انويه خلايا جميع الكائنات الحية بدءا من البكتيريا، الفطريات، النباتات، الحيوانات إلى الإنسان.³

لقد عرف تاريخ العلم ثورات متتالية، فهناك ثورات صناعية عرفت بعصر المكننة ثم انتقلت إلى عصر الثقافة الراقية، فالثورة الصناعية الأولى زودت الإنسان بقدرات عضلية وعقلية ضاعفت حصيلته المعرفية، بينما الثورة الصناعية الثانية أعفته من بذل الجهد،

¹ داخل عبد العزيز عبد الله، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الرياض، الملكة العربية السعودية، 2006.

² طلعة سويح، الدنا، ليوم 20/03/2016، ص1، على الموقع التالي: <http://www.islamonline.net/iol/arabic/dowalia/sciences>

³ الجندي ابراهيم صادق الحصري، المرجع السابق، ص11.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيواي تي قا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

وأصبحت توفر له كل متطلباته، لكن الثورة الثالثة وهي الثورة الخطيرة التي ستفرض السيادة الاقتصادية والعسكرية والسياسية للدول التي تحتكر معطياتها ومقومتها.¹

هذه الثورة الأخيرة تسير بوتيرة متسارعة، خاصة في المادة الحية، أو أكثر ما فيها " ثورة الهندسة الوراثية" وأبحاث الجينات وتهدف إلى هندسة الطاقم الوراثي للكائنات الحية² وما زاد من قوتها تلك الاكتشافات الهائلة في الفيزياء والكيمياء والرياضيات والتقنيات العلمية المتطورة، ففتحت كتابا جديدا كشف سر الشفرة وتبينت وتحددت دلالاته، وهو كتاب الإنسان ذاته، وبرز ما في هذا الكتاب هو الجينوم البشري"... هذا الكتاب الضخم الذي تستغرق قراءته قرنا كاملا، بمعدل كلمة في الثانية ثمان ساعات في اليوم، قد عبئ بأحكام قوة الصبغيات "الكروموزومات" الثلاثة والعشرون زوجا، الموجود في كل خلية من خلايا الجسم البشري يتقاسمها الحيوان المنوي من الرجل، والبويضة من المرأة مناصفة...³، فأصبحت تعرف هذه الألفية الثالثة، بالعصر الجينومي لأن فيه سيتحدد مستقبل الإنسان والإنسانية، لقد وصل الحد ببعض العلماء للتعبير عن هذا العصر نتيجة تخوفهم من مستقبل مجهول بعصر "القنبلة الجينومية" التي ستمكن الإنسان من التحكم بجيناته، وتعد هذه المرحلة أعلى درجات المعرفة الإنسانية، ويبلغ الإنسان درجة من الحكمة، قد تزيد من طموحاته في تغيير العالم الذي يعيش فيه، ويكون أول ضحية فيه الإنسان ذاته، حين يتطلع إلى الأبدية التي كتبت فيه قصة الإنسان.⁴

¹ سواحل وجدي عبد الفتاح، الهندسة الوراثية والتقنية الحيوانية، مجلد35، سلسلة مجلة عالم الفكر، عدد2، الكويت، 2006، ص15.

² المرجع نفسه، ص16.

³ ريدلي مات، الجينوم، تر: مصطفى ابراهيم فهمي، سلسلة عالم المعرفة، عدد275، الكويت، 2001، ص11.

⁴ الخلف موسي، العصر الجينومي، سلسلة عالم المعرفة، عدد294، الكويت، 2003، ص11.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايوتيكا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

قراءة الجينوم البشري تجري عبر قراءة عينات من عدد كبير من الناس باعتبار أن البشر يشتركون في الجينوم الإنساني، وجينات السمات المعينة كلون العين أو طول القامة أو غيرها، تأخذ الموقع نفسه على الكروموزوم وإن تباينت دلالتها، فمثلاً: إذا تقرد شخص بذاته مما يميزه عن سائر الخلق يكمن في 02 إلى 10 ملايين من بين الثلاثة بلايين من الوحدات القاعدية التي تكون الجينوم.¹

أهداف ومجالات مشروع الجينوم البشري:

كانت الغاية القصوى لمشروع الجينوم البشري هي المجال الصحي العلاجي، أو المجال الحقوقي والقانوني فيما يتعلق بالإثبات والنفي، والمجال الإنجابي التناسلي فيما يتصل باختيار جنس المولود، والمجال الاقتصادي المالي، والمجال البيولوجي نفسه، وفيما يتصل خصوصاً بالاستتساخ البشري والتدخل في المخزون الوراثي والنظام الجيني للإنسان، وما يمكن أن يؤدي إليه كل هذا من مخاطر عظيمة على الصحة والبيئة وكذلك على صعيد العقائد والشرائع والأخلاق.²

ويمكن تحديد هذه الأهداف على النحو التالي:

- تحديد وحصر جميع الجينات الوراثية من الخلية البشرية والتعرف على الطاقم الوراثي الكامل.

- تحديد الطاقم الوراثي المتعلق بتنامي الإنسان ووظائف الأعضاء والأنسجة والخلايا وخصائصها وسماتها النسلية وغير النسلية.³

¹ متحوت حسن، قراءة الجينوم البشري ج1، مطبوعات المنظمة الإسلامية، الكويت، 2000، ص278.

² الخادمي نور الدين بن مختار، الجينوم البشري وحكمه الشرعي، سلسلة إصدارات جامعة الإمارات، 2000، ص22.

³ كيفلس دانيال، الجينوم البشري، المرجع السابق، ص07.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

- معالجة الأمراض بما يعرف بالعلاج الجيني: كعلاج أمراض السرطان، السكري، القلب، الزهايمر... ويعتبر العلاج الجيني مبشر بمكاسب هامة للصحة.
- استخدام الجينوم البشري في الإثبات والنفي، كإثبات النسب (بصمة الجينات الوراثية) إثبات الجرائم، ومعرفة المفقودين والمحروقين في الكوارث والذين يتعرف على هوياتهم بعد إجراء الفحوصات الجينية على ما تبقى من أجزاء وأشلاء¹
- تحديد جنس المولود: أي اختيار المولود.
- تقوية اقتصاديات بعض الدول والمؤسسات الخاصة نظرا لأهمية مجال الكشف عن الجينوم البشري.²
- ومن ابرز الأهداف التي أصبحت تعد هدفا خطيرا للغاية هو الوصول إلى إنسان مهندس وراثيا إما عن طريق الاستنساخ أو التنسيل أو التحكم في الجينات بغية صنع كائن بشري حسب الطلب، وذهب الأمر إلى الاعتقاد بإمكانية تطوير الكائن البشري، أو صنع توأم معدل وهو ما سيقود إلى فوضى لا تعرف نتائجها، ومن هذا القبيل الخطير أصبح الكلام عن تحسين الصفات العقلية والجسدية للأجنة وزيادة وتطوير الذكاء البشري أو إيقاف الشيخوخة، إلى غير ذلك من الطموحات التي أصبحت تراود أذهان علماء البيولوجيا بل حتى دوائر عالمية ومحلية لأغراض بحثية واقتصادية وعنصرية وترفيهية وانحلالية³.
- ومع بداية القرن الواحد والعشرين، تتسارع عجلة الثورة العلمية بظهور تطور أبعد مدى لاسيما "شفرة الجينوم البشري"، مخطط الحياة، هذا المشروع هو بصدد كتابة موسوعة الحياة،

¹ الخادمي نور الدين بن مختار، مرجع سابق، ص28.

² الخادمي نور الدين بن مختار، مرجع نفسه، ص28.

³ المرجع السابق، ص30.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

موسوعة تسمح للبيولوجي والطبيب إمكانية الوصول عن طريق الحاسوب إلى بيانات الكروموزومات، انه مشروع مروع في مجاله وفي مده، وسيتطلب انجازه المزيد من التقدم في علوم الكيمياء وفي عتاد برمجيات للحسابات المعقدة، ويعد مشروع الطاقم الوراثي البشري أول مبادرة كبرى اتخذت من تطوير التكنولوجيا واحدا من أهدافها.¹

• استغلال الجينوم البشري لأغراض أخرى:

حالة تغيير الخصائص الوراثية للإنسان: إذا كان الهدف الأسمى للجينوم البشري تحديد الهوية الوراثية أو الخاصيات الجينية للإنسان، فقد يستغل ضد الاكتشاف ذاته لتغيير هذه الهوية بدعوى تحسين النوع أو التجميل أو الدمج مع كائنات أخرى، قد تصل إلى حد تغيير الصفات الوراثية أو الخلط بين الإنسان والحيوان والنبات، أو كذلك التلاعب باللقاح والجينات عن طريق الجراحة الوراثية، وهو ما يؤدي إلى المساس بكرامة الإنسان، وهدم شخصيته وبناءه الوراثي البشري والإخلال بالنظام الأسري والاجتماعي، قد يترتب عن ذلك كوارث إنسانية وأخلاقية وحتى كونية، لا احد يعرف عواقبها مثل التسويق للدعوات العنصرية والعرقية والتفوق الوراثي والانتخاب الجيني... وكذلك فتح باب المتاجرة بالأعضاء والمشاتل الجينية الممتازة، وحتى المواصفات الخلقية حسب الطلب ثم بعد ذلك الدوس على كرامة وحقوق الإنسان والقيم والأعراف الأخلاقية والدينية.²

أ- حالة استخدام الجينوم في زرع مكون حيواني في جسم الإنسان:

معرفة الخارطة الجينية قد تطلعنا على مرض أو خلل في بعض الجينات البشرية التي قد تسبب لأصحابها أمراضا أو عاهات، علاجها قد يحتم على العلماء الاستعانة بمكونات

¹ كيفلس دانيال، الجينوم البشري، مرجع سابق، ص 109.

² ناهدة البقصي، الهندسة الوراثية والأخلاق، مصدر سابق، ص 204.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

حيوانية كعضو من الأعضاء أو سائل أو أنسجة أو خلايا، وهو ما يتم اليوم لكن في إطار محدود لذلك فاللجوء إلى الحيوان أصبح ضروريا لان المكونات الموجودة في الإنسان أصبحت غير كافية مثلما هو بالنسبة للدماء والأنسجة والبروتينات والأنسولين، ومن بين هذه الحيوانات الخنازير، القردة والفئران، وهو ما قد يصطدم مع واقع الإنسان ومبادئه وعقيدته، ويتطلب ذلك إصدار أحكام تتماشى ومثل هذه الاستعمالات:

فما يترتب عن هذه الحالة هو اختلاف البصمات الجينية بين الإنسان والحيوان، الامر الذي يؤدي إلى رفض الجهاز المناعي لما نقل إليه من الحيوان...¹
إمكانية انتقال فيروسات من المكون الحيواني إلى الإنسان، ومعلوم أن هذه الفيروسات تتسم بالكثرة والتطور والتزايد...²

ب- احتمال حدوث طفرة جينية في الإنسان بعد فترة زمنية:

وهذه الطفرة تتناقلها الأجيال، وقد تتسبب في الكوارث والمهالك، والتكلفة الباهظة لعملية إيجاد حيوان مهندس وراثيا يستعمل في النقل والزرع والعلاج، ويعمل على إبعاد وإنهاء لفظ الجسم كما نقل إليه وزرع فيه.³

ت- حالة استخدام الجينوم البشري في عملية إجهاض المشوه خلقيا:

الخارطة الجينية مكنت الإنسان من معرفة ما يتعرض إليه الجنين في بطن أمه من تشوه خلقي وذلك عن طريق معرفة جينته الصحيحة والمعيبة، وهو ما جعل البعض ينادي بإجهاض الجنين المشوه تخليصا له ولأهله من هذا الوضع.

¹ عبد الهادي مصباح، العلاج الجيني ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1999 م، ص204.

² المرجع نفسه، ص119.

³ المرجع نفسه، ص121.

ث- حالة استخدام الجينوم لتطوير الأبحاث الوراثية:

تمثل هذه الحالة تكريسا لرغبة العلماء المنصفين والخيرين الذين يسعون إلى تطوير أبحاث الجينوم مما يجلب النفع للناس ويدراً للضرر والفساد عنهم.

ج- حالة استخدام الجينوم لأغراض اقتصادية مشبوهة:

إذا كان الغرض من الجينوم البشري والعلوم البيولوجية والهندسة الوراثية تطوير الاقتصاد والتجارة وزيادة الربح والمكسب، فإن ذلك يبقى محفوظاً بممارسات مشبوهة وخلفيات مفضوحة جعلت من توظيف الجينوم والهندسة الوراثية وسيلة في ظاهرة الاحتكار المادي والاستغلال الاقتصادي، واستغلال الفوائد المالية التقليدية بفوائد الثورة البيولوجية التي ستكون مستقبلاً مورداً خصباً لبضاعة رابحة في القرن الحادي والعشرين.

• مخاطر الجينوم البشري:

يعتبر العلماء أن اكتشاف الجينوم البشري يؤدي إلى مخاطر عديدة منها:

(1) تحديد صحة الإنسان والتسبب في أمراض قاتلة: وذلك يعود إلى العلاج عن طريق الشفرة الوراثية أو التحكم الجيني، أو الخريطة الجينية، أو الجينوم البشري الذي يوضع في ظلام كامل على حد تعبير العلماء فلا يجوز الدخول فيه أبداً إلا للضرورة القصوى "حالات الأمراض المستعصية" أو حالات التشوه الخلوية الكبيرة، لأن أي تغيير لترتيب الجينات يؤدي إلى تغيير الصفة أو الوظيفة المسؤولة عن هذا الجين، مما يسبب أمراضاً وراثية وأمراضاً سرطانية، أو تشوهات خلقية، وهو ما يسمى بالطفرة الوراثية...¹ كما أن السبب في ذلك يعود أيضاً إلى دقة العمل والتصرف في الجينات نظراً لتعقيدات الحمض النووي وتابعياته.

¹ مات ريدلي، الجينوم، مرجع سابق، ص 248.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوإيتيكا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

ومن المخاطر التي تهدد صحة الإنسان وسلامته، هو الاستفادة من الحيوان لصالح الإنسان من خلال نقل الأعضاء، والخلايا والأنسجة والدماء، والأنسولين وزرعها ووضعها في الكائن البشري، فقد اعتبر العلماء أن هذه العمليات تحمل في طياتها إمكانية فناء البشرية، بانتشار الأمراض والأوبئة، وانتقال الفيروسات الخطيرة والضارة من جسد الخنازير والقرود وغيرها إلى جسد الإنسان، كزراعة خلايا البنكرياس من الحيوان في الإنسان لعلاج مرض السكري والقضاء عليه.¹

(2) تهديد الكرامة الإنسانية والحقوق المعنوية وهتك الحرمة البشرية: من خلال عدة أمور، وذلك بتحويل الإنسان إلى مجرد آلة يمكن تعديلها أو نسخها أو صنع قطع غيار لها، وهو ما يسلب الإنسان كرامته، بالإضافة إلى إشاعة الأسرار الشخصية ومخالفة حق البشرية، فالجينات ليست ملكا لصاحبها فقط فهي شراكة بين الأبناء والوالدين والأجداد والإخوة والأخوات.²

(3) إشاعة الرعب والقلق واليأس والاضطراب في النفوس والمجتمعات والدول والأمم: وذلك نتيجة التطلع على الأمراض والعاهات المحتملة مستقبلا وإفشائها ونشرها على أوسع نطاق مما يؤدي إلى قلق وفزع في أوساط عامة الناس والعلماء، واعتبار الجينوم بالوحش المعاصر كما يقول "ألبرت أينشتاين"*

(4) تفويت حق العمل والكسب وحق الانخراط في المؤسسات الاجتماعية: وذلك بسبب المعرفة المسبقة بحالة الإنسان الصحية مستقبلا نتيجة التطلع إلى الخارطة الجينية، وهو ما

¹ د. عبد الهادي مصباح، العلاج الجيني، المرجع السابق، ص117.

² المرجع نفسه، ص109.

* ألبرت أينشتاين "عالم فيزياء ألماني المولد، واضع النظرية النسبية الخاصة والعامة، حاز على جائزة نوبل في الفيزياء، عام1921، أدت انتاجاته المبهرة إلى تفسير العديد من الظواهر العلمية التي فشلت الفيزياء الكلاسيكية في إثباتها.)

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

تم تطبيقه في القوات الجوية الأمريكية أن استبعدت كل حامل لجين المرض للحفاظ على سلامة قوتها الجوية.¹

5) تعميق ظاهرة العنصرية والتفرقة بين بني البشر : وينصب ذلك على المرأة والأقليات من خلال تبني الأطفال، كما هو في الغرب حيث يتم الاختيار والتمييز والانتخاب البيولوجي الجيني، وذلك من خلال الدعوة إلى تحسين الصفات الوراثية وإنشاء المحاكم الوراثية وسياسات التطهير العرقي والحتمية البيولوجية.

I. 3.1 الاستنساخ

إن البحث في موضوع الاستنساخ يؤدي بالضرورة إلى دراسة الوثيقة مع علم الحياة²، فعلم الحياة يشكل الحياة المظلة التي يحتمي بها العلماء والباحثون في حقول الاستنساخ وغيرها، لأن هناك علاقة بين الاستنساخ والهندسة الوراثية، فهناك من عرف الاستنساخ وأعطى له اسما آخر وهو: "النسيلة" ويطلق عليه باللغة الإنجليزية (cloning) ومعنى كلمة "clone" في المعجم³:

1- الناتج من التكاثر اللاجنسي حصريا مثل النباتات.

2- كائن ناتج من نمو خلية جسمية من والديه ويتشابه وراثيا مع والده.

3- ما يبدو نسخة طبق الأصل.

جاء في "لسان العرب" من نسخ: نسخ الشيء ينسخه وانتسخ هو استنسخه والاستنساخ كتب كتابا ثم كتاب.

¹ د. عبد الهادي مصباح، المرجع السابق، ص109.

² يقصد بعلم الحياة البيولوجية.

³ المعجم الإلكتروني هو: Merriam Webster.com. Dictionnaire. Consulté le 10/10/2021

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

والتناسخ (تناسخ الروح) هو عقيدة شاع أمرها بين الهنود وغيرهم مفادها أن روح الميت تنتقل إلى حيوان أعلى أو أقل منزلة، فتتعم أو تعذب جزاء سلوك صاحبها الذي مات وأصحاب هذه العقيدة لا يؤمنون بيوم البعث¹

وكما هو ملاحظ فإن الاستنساخ من المصدر نسخ وللنسخ في معاجم اللغة العربية معنيان هما:

1- التنقل: يقال نسخت الكتاب نسخا نقلته وانتسخت هو استنسخته سواء، والنسخة اسم (المنتسخ منه) قال "المنوي" "نسخ الكتاب: نقل صورته المجردة إلى كتاب آخر، وكذلك لا يقتضي إزالة الصورة الأولى، بل إثبات مثلها في مادة أخرى كإيجاد نقش خاتم شموع كثيرة"²، وقال الراغب "الأصفهاني: "الاستنساخ: التقدم بنسخ الشيء والترشيح للنسخ، وقد يعبر بالنسخ عن الاستنساخ قال تعالى <إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ>> (سورة الجاثية الآية 29)

2- الإزالة: وهو المعنى الثاني ومنه قولهم: نسخت الشمس الظل أي أزالته. الذي يفهم من مجموع ما تقدم أن الاستنساخ يطلق على عملية النسخ، أي عملية النقل فالكتاب المنقول يسمى نسخة.³

وبالمعنى البيولوجي فالاستنساخ يعني معالجة خلية جسمية من كائن معين (نبات أو حيوان أو إنسان) كي تنقسم وتتطور إلى نسخة مماثلة لنفس الكائن الحي الذي أخذت منه. وقد أعطى العلماء عدة تعاريف مختلفة للاستنساخ، ولكنها تؤدي كلها إلى نفس المعنى.

¹ رياض أحمد عودة، الاستنساخ في ميزان الإسلام، الأردن، عمان، ط 1، 2003، ص45.

² الراغب الأصفهاني: هو أديب وعالم، أصله من أصفهان، وعاش ببغداد، ألف عدة كتب في التفسير والأدب والبلاغة.

³ رياض أحمد عودة، مرجع سابق، ص46،

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيواي تي قا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

فالاستنساخ اصطلاحا يطلق على تلك العملية أو العمليات التي تستطيع الحصول من خلالها على جني 1ن أو أجنة متطابقة أو مطابقة لمصدرها من حيث الشكل والصفات الوراثية.¹ والاستنساخ بشكل عام ينقسم إلى نوعين رئيسيين هما:

(1) الاستنساخ الجنسي أو ما يسمى بالاستنساخ الجنيني (تكاثر النطفة)

(2) الاستنساخ الجسدي أو يسمى بالاستنساخ الخلية (التسلي اللاجنسي).

فالاستنساخ الجنسي هو الذي يحدث من التقاء الحيوان المنوي بالبويضة فمن المعروف أن الإنسان ينتج من التقاء الرجل بالمرأة وحصول عملية الإخصاب والحمل ثم الولادة.

وهذه العملية تعني من الناحية العملية إجراء عملية التلقيح بين بويضة المرأة والحيوان المنوي للرجل فالبويضة خلية تناسلية أنثوية، تحتوي على 23 صبغيا، والحيوان المنوي أيضا يحتوي على 23 صبغيا (كروموزوم)، فإذا تمت عملية الإخصاب تتحد نواة البويضة مع نواة الحيوان المنوي في خلية واحدة وفي نواة الخلية يكمن سر الوراثة إذ تحتوي النواة على الشريط الحامل للصفات الوراثية لصاحب الخلية فتحتوي نواتها على ستة وأربعون (46) كروموزوم وبهذا يتكون الجنين في مرحلته الأولى، والتي تسمى بالنطفة الأمشاج²، وفي مرحلة النطفة هذه تبدأ الخلية التناسلية الملقحة بالانقسام على شكل متتالية هندسية حيث تصبح هذه الخلية خليتين ثم أربعاً ثم ثمانية، ستة عشرة خلايا ثم اثنتين وثلاثين خلية، وهكذا لمدة ثلاثة أيام، ثم تزداد، حتى تصبح كالكرة المجوفة في اليوم الخامس، وفي السادس تعلق بجدار الرحم وتصبح علقة، وتستمر في النمو حتى الولادة.³

¹ رياض أحمد عودة، مرجع سابق، ص 51.

² معنى أمشاج: أخلاط ممتزجة من ماء الرجل والمرأة لقوله تعالى: "إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا" «الآية 2 من سورة الإنسان».

³ رياض أحمد عودة، مرجع سابق، ص 54.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

-والاستنساخ الجنيني، يعرف على انه تقنية يؤدي تطبيقها إلى إنتاج عدة أجنة من جنين واحد فقط، أو بعبارة أخرى إيجاد نسخة طبق الأصل من الجنين المتكون من رحم الأم، يقسم هذا الجنين إلى خليتين أو أكثر، فتولد المكونة من هذا الاستنساخ الجنيني مطابقة كليا مع الجنين الذي نسخت منه.

وأهم النتائج التي أعلنت في هذا الصدد كانت عند إعلان طبيبين لإمراض النساء يعملان في مجال أطفال الأنابيب، أنهما نجحا في استنساخ الأجنة وإبقائها حية لفترة وصلت إلى ستة أيام، وذلك بعد أن توصلا إلى المادة التي يمكن إضافتها لتكوين غشاء "زونايلوسيدا" الذي يكون أجنة مستقلة من الخلايا المنقسمة، ولكنها جميعا متطابقة ومتشابهة من حيث الشكل والتركيب الجيني...¹

وما تم انجازه في مجال الاستنساخ الجنسي هو نجاح ولادة النعجة "دوللي" بعد محاولات كثيرة حيث تمكن فريق من الباحثين الاسكتلنديين من صنع "نسخة" من نعجة بيضاء باستخدام خلية أخذت من الضرع المتضخم لهذه النعجة التي كانت قرب نهاية فترة حملها، انتزعوا مادتها الوراثية من خلية النهد وجهزوها للزرع ثم أدخلوها إلى بويضة نعجة أفرغت من مادتها الوراثية، قبل أن تزرع البويضة "الهجين" في رحم نعجة ثالثة سوداء، وقد وضعت هذه الأم البديلة بعد أسابيع، في يوليو 1996 النعجة "دوللي" التي تتطابق صفاتها الوراثية، تماما مع الصفات الوراثية للنعجة البيضاء الأولى التي أخذت منها المادة الوراثية..²

وتم الإعلان عن انجاز علمي آخر بعد أسبوع من الضجة التي أحاطت بالنعجة "دوللي" في ولاية "أوري جون" الأمريكية عن استنساخ توأم لقرد "الريزوس" ونجاح ولادته وقد سميا

¹ د. عبد الهادي مصباح، الاستنساخ بين العلم والدين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط2، 1999، ص44.

² د. محمد فتحي، الاستنساخ، دار اللطائف للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003، ص22.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

"تيتي" و"ديتو" وهذا النوع من القرده هو اقرب ما يكون من الإنسان، فقد نجحت عمليات الاستنساخ هذه من قبل في الفئران والأغنام والماشية والأرانب والخنزير، وبالتالي فالأمل كبير من ناحية العلماء في أن يستطيعوا تطبيقه على الإنسان خلال السنوات المقبلة.¹

أما فيما يخص الاستنساخ الجسدي (اللاجنسي): وهو الشائع ويطلق عليه العلماء الاستنساخ الجيني أو استنساخ الخلية الجسدية، وكذلك الاستنساخ الحيوي، فالاستنساخ الجسدي هو الذي نستغني فيه عن الحيوانات المنوية للرجل كما تؤخذ البويضة وتنزع منها النواة وتلقح بخلية تؤخذ من ثدي المرأة إن أرادت إنجاب أنثى مشابهة لها تماما، أما إذا كانت تريد ذكرا فتأخذ خلية من الرجل، وتلقح بها البويضة فيأتي الجنين ذكرا مشابها تماما للأب وتوضع في الرحم.

كما نعلم أن جسم الإنسان يتكون من مجموعة كبيرة من الخلايا.²، و هي أساس تكون الجسم، وتحتوي على مادة صبغية، هي كروموزومات ثابتة العدد في الخلية، وتكمن فيها قدرة الخالق تعالى، وهي مسئولة عن تكوين الجنين، فالنواة التي تؤخذ من الخلية فيها ستة وأربعون صبغيا منها 44 جسميا واثنان جنسيان إحداهما XX ويكون الشخص أنثى والأخر XY ويكون ذكرا.

أما نواة الخلية الجنسية تكون مقسمة إلى ثلاثة وعشرون صبغيا، 23 في الحيوان المنوي و23 صبغي في البويضة منها X فقط في البويضة وواحد جنسي Y او X في الحيوان المنوي.

¹ تتكون الخلية من غشاء خلوي و سيتوبلازم ونواة وهناك من يقسمها إلى سيتوبلازم ونواة فقط ويعتبرون الغشاء جزء من السيتوبلازم .

² رياض أحمد عودة ، مرجع سابق، ص62.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيواي تي قا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

وعندما يحصل التلقيح تكون الخلية الأصلية التي تحتوي 46 كروموزوما فيتكون الجنين حيث ينشط البرنامج فتتكون المضغة فالجنين.

إن الحامض النووي دنا (DNA)¹ مسئول عن حدوث الصفات الوراثية للكائن الحي، ولا يمكن الاستغناء عنه، أو خلق بديل عنه مهما حاولوا التلاعب في الجينات، كما أن الكروموزومات تحتوي على الجينات أو المورثات التي بدورها تتحكم في كافة المظاهر المعروفة عن الإنسان أو الكائن الحي، سواء كان ذلك شكليا أو وظيفيا، وكما نجد أن مادة السيتوبلازم تحمل صفات وراثية من الأم فليست النواة وحدها المسؤولة عن الصفات الوراثية. إن الاستنساخ اللاجنسي يتم بالاستغناء عن الحيوان المنوي واستبداله بنواة خلية جسدية، فقد جرب هذا الاستنساخ على الضفادع سابقا، وعلى الخرفان حاليا، وتم ذلك على النحو التالي: إحصار بويضة.

أ- نزع نواة البويضة

ب- تحضر خلية جسدية شريطة أن تكون مما يقبل الانقسام (خلايا الأثناء).

ت- نزع نواة الخلية بطريقة علمية.

ث- نقل النواة المنزوعة من الخلية وزرعها في البويضة منزوعة النواة فتصبح البويضة كاملة الأجزاء، ونواتها تحتوي ستة وأربعون صبغيا، ويتم ذلك بواسطة شرارة كهربائية.

ج- تبدأ الجزيئات المتوفرة في البويضة في الحث على الانقسام ودفع الخلية للتكاثر.

ح- تتكون علقة من الخلية المتكاثرة.

خ- يتم غرس الخلية في رحم لئتمو وتنقسم حتى تصبح جينا.

2 DNA : أو ما يسمى بـ : دنا أو دونا : وهو عبارة عن مادة أساسية مكونة للكروموزوم والتي تتحكم في الخلية وهذه المادة مكونة من أربعة قواعد نيتروجينية فهي مادة كيميائية مرتبطة ببعضها بروابط هيدروجينية مثل السلم.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

د- ثم ينشأ مولود مطابق للصفات الوراثية لصاحب الخلية الجسدية التي زرعت نواتها في البويضة...¹

وقد يسأل البعض لماذا تنزع نواة البويضة؟

يتم نزعها لأنه لا يجب جمع النواتين معا، فنواة الخلية الجسدية فيه ستة وأربعون (46) كروموزوما، ونواة البويضة فيها ثلاثة وعشرون (23) كروموزوما، فإذا جمعناهما معا يصبح مجموع الكروموزومات الموجودة في البويضة تسعة وستون (69) صبغيا، وهذا ينتج خلايا وعدد الصبغيات التي يجب أن تكون في البويضة إن زادت أو نقصت ولو بصبغي واحد، الجنين يكون مشوها أو مخلوقا آخرا.

كما نعلم أن البويضة تحوي على السيتوبلازم والنواة، وان قمنا بنزع النواة فهذا لا يعني أننا أزلنا الصفات الوراثية من البويضة لأنه يوجد في السيتوبلازم صفات وراثية للأم، وفيه مواد خاصة تسمى المتقدرات²، إذن لا يمكن القول بأن الكائن الحي المستنسخ يحمل الصفات الوراثية من صاحب الخلية الجسدية فقط بل سيجمل كذلك بعض الصفات من الأم صاحبة البويضة.

وبعدما تحدثنا عن نوعي الاستنساخ الجنسي اللاجنسي فقد أطلق بعض العلماء على الأول اسم "النست" أو "الاستنسات" وعلى الثاني «النسد» أو "الاستنساد"³.

(3) تاريخ تجارب استنساخ الأجنة :

1799: إحداث الحمل عن طريق إدخال الحيوانات المنوية للرجل في المرأة بطريقة صناعية

¹ رياض محمد عودة، المرجع السابق، ص 63-64.

² المتقدرات: سميت بهذا الاسم لأنها تحمل القدرة على نقل المورثات.

³ رياض محمد عودة، المرجع السابق، ص 65.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيواي تي قا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

- 1944: نجاح أول محاولة لإحداث إخصاب خارج الرحم.
- 1949: اكتشاف استخدام (الجليسيرول) للاحتفاظ بالحيوانات المنوية مجمدة.
- 1951: نجاح إحداث الحمل في بقرة، تم نقل النطفة إلى رحم بقرة أخرى.
- 1952: ولادة أول عجل باستخدام الحيوانات المنوية المجمدة.
- 1952: نجاح أول محاولة استنساخ ضفدعة من التقاء بويضة ضفدعة لخلية من ابي ذنيب، هي اول محاولة للاستنساخ لاستخدام خلايا جنينية، وليست خلايا جسدية بالغة كما في حالة "دوللي".
- 1959: نجاح ولادة أول أرنب بطريقة أطفال الأنابيب (الإخصاب خارج الرحم IVF)¹
- 1970: نجاح عملية استنساخ الفئران من الأجنة المخصبة.
- 1972: نجاح ولادة أول عجل من الأجنة المخصبة المجمدة.
- 1978: نجاح ولادة أول طفلة أنابيب "لويز براون" في بريطانيا بواسطة "د. باتريك ستيتو" و "د. إدوارد".
- 1979: نجاح استنساخ الأغنام من حيوان منوي والبويضة بطريقة الاستنساخ الجنسي.
- 1980: نجاح استنساخ الماشية لأول مرة من الحيوان المنوي والبويضة بطريقة الاستنساخ الجنسي.
- 1983: ولادة أول طفلة نتجت من التقاء الحيوان المنوي للأب وبويضة من سيدة أخرى متبرعة، عن طريق الحمل خارج الرحم، ثم وضع الجنين في رحم المرأة.
- 1984: ولادة أول طفلة أسترالية تدعى "زوي" من جنين مخصب مجمد.

¹ د. عبد الهادي مصباح، الاستنساخ بين العلم والدين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط2، يناير 1999، ص23.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيواي تي قا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

1985: ولادة أول حيوان (خنزير) يحمل الجين الأدمي الذي يمكنه من إنتاج هرمون النمو الأدمي لعلاج الأقزام وقصار القامة.

1986: نجاح عملية إخصاب حيوان منوي من رجل وبويضة من امرأة وزرعها في رحم امرأة أخرى.

1993: نجاح أول تجربة لاستنساخ الأجنة البشرية في جامعة "جورج واشنطن" الأمريكية من النطفة التي تم تلقيحها من عدة حيوانات منوية وبويضة، وعاشت لمدة ستة أيام (06)¹

1996: نجاح أول تجربة للاستنساخ الجسدي (اللاجسي) وولادة النعجة "دوللي".

1996: ولادة أول توأم من قرود "الريزوس" وهما من أقرب الثدييات للإنسان، بطريقة الاستنساخ الجنسي...²

إن ممارسات استنساخ البشر ستستمر لا محالة، فالمرأة الأمريكية أو الأوروبية بإمكانها الذهاب إلى احد بنوك البذور الإنجابية لتختار حيوانا منويا يستخدم في إخصاب بويضتها حتى تحصل على الطفل الذي تريد، فالتقنيات المستخدمة بسيطة يمكن إتقانها في آلاف العيادات الصغيرة في مختلف بلدان العالم، ومن الصعب التحكم في ممارستها حتى في حالة صدور تشريعات تحضرها، ومن طبيعة المتاهة التي تجرنا إليه هذه الممارسة؛ سهولة الحصول على المادة الوراثية للإنسان، فهي موجودة في كل خلية من خلايا أنسجته مثل: الجلد، اللثة، بصيلة شعر أو نقطة الدم... إذ يمكن أخذها منه حتى دون أن يدري في عيادة الأسنان أو صالون الحلاقة أو في الطريق العام، ثم يتم استنساخها فيما بعد...³

¹ د. عبد الهادي مصباح، الاستنساخ بين العلم والدين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط2، يناير 1999، ص24.

² د. عبد الهادي مصباح، المرجع السابق، ص24.

³ د. محمد فتحي، الاستنساخ، المرجع السابق، ص08-09.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

إن الاهتمام تركز في الأساس على صنع نسخ من الإنسان، ومبررات ذلك لا تحتاج إلى بحث طويل، فكل إنسان أو وليد يطمح إلى نقل ما يملكه لابنه، فما بالك إذا كان بالإمكان أن يجيء هذا الابن على شاكلته تماما؟¹

وقد فجر "ريتشارد سبيد" عالم الفيزياء الأمريكي المتمرد، في مؤتمر سنة 1998 قنبلة علمية شديدة الانفجار، حيث كان قد تفاوض مع إحدى عيادات الخصوبة في شيكاغو انه سيستنسخ نفسه خلال عامين، بعد موافقة زوجته على حمل البويضة المزودة بالمادة الوراثية في إحدى خلاياه في رحمها حتى تلد نسخته، وبلغ الأمر أن صرح المتحدث الرسمي للبيت الأبيض الأمريكي "...أن "ريتشارد سبيد" إنسان غير مسئول ولا أخلاق له وليس على مستوى علمي يسمح له بالخوض فما يتحدث عنه، وقد بدأ اهتمامه بالتقنيات الإنجابية منذ فترة مبكرة إذ شارك في 1970 في تأسيس شركة طورت تقنية نقل الأجنة في الحيوانات، مطبقة نفس الطريقة أو التقنية على البشر فيما بعد، بمحاولة نقل الأجنة من النسوة السليمات إلى العقيمت، إلا أن الإخصاب العلمي (تقنية أطفال الأنابيب) سرعان ما قضت على تقنيته، ومع تجارب استنساخ الإنسان رجح بحث أجراه في المركز الطبي بجامعة ديوك (نورث كارولينا) أن يكون المورث بعينه هو السبب وراء التشوهات لكونه يتحكم في طريقة نمو الخلايا بصورة خارجة عن السيطرة عندما يعمل بصورة غير صحيحة، الأمر الذي يتسبب في نمو أورام سرطانية، ففي عملية التكاثر العادي تنتقل نسخة من هذا الموروث من كلا الأبوين إلى النطفة، لكن الحيوانات لا تنتقل إلى النطفة سوى نسخة واحدة تؤثر عملية الاستنساخ عليها لينمو الجنين

¹ المرجع السابق، ص56.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيواييتيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

المستنسخ على نحو غير محكوم، ومن هنا التخريج بان استنساخ الإنسان سيكون أسهل من استنساخ حيوان.¹

وعلى الرغم أن الرئيس الأمريكي أعلن وقف دعم البرامج الحكومية التي تمول البرامج وأبحاث نسخ الأجنة البشرية، فهم يرون أن ذلك إرادة الله وعبث في خلقه، إلا أن ذلك لم يمنع العلماء الذين يعملون في معامل، وشركات خاصة من أن يكملوا أبحاثهم، وتجاربهم في هذا المجال، وقال العلماء أن هذه الأبحاث والتجارب في حالة نسخ الأجنة البشرية سوف يفيد الانسان في:

1- في حالة أطفال الأنابيب، فإن نسخ الأجنة سوف يساعد على إنجاح هذه العملية، حيث أن نسبة نجاح العملية في أحسن الحالات في حالة وجود جنين مخصب واحد لا تتعدى 20 %، ولكن في حالة وجود أكثر من جنين مخصب فسوف ترتفع إلى أكثر من 80 % أو أكثر.

2- في حالة وجود أمراض وراثية فإن نسخ الأجنة ووجود أكثر من نطفة مخصبة تحمل نفس الجينات والصفات الوراثية سوف يساعد العلماء على اكتشاف إصابة الجنين بمرض أو عدمه، ومحاولة علاجه وهو مازال في مرحلة نطفة، قبل وضعه في رحم الأم من خلال العلاج الجيني.

3- إن وجود نسخة ثانية من الطفل المولود يساعد الوالدان على توفير قطع غيار ادمية للطفل الأول إن أصابه مرض.

4- سوف يصبح من المتاح للام أن تلد توأماً متطابقاً، ولكن على سنوات متباعدة، حيث أن عملية النسخ تتم، ويتم وضع نسخة واحدة في الأم وبالتالي يتم الاحتفاظ بالنسخ الباقية

¹ د. محمد فتحي، المرجع السابق، ص 56-63.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيواي تي قا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

في ثلاثيات تحتوي على النيتروجين (سائل عند درجة 80 تحت الصفر)، لتكن تحت الطلب عند احتياج الأم إليها بعد عدة سنوات وقد يصبح من المتاح أيضا للام أن تحمل توأمها المحفوظ منذ ولادتها الأولى، لتحصل على نسخة طبق الأصل من نفسها بعد أن تكبر.

5- مع تعميم التجربة وانتشارها سوف يصبح من المتاح عمل بنوك لنطف هذه الأطفال المنسوخة، وبالطبع تكون إحدى هذه النسخ قد تم ولادتها وتصويرها، ومن خلال الصورة والخريطة الجينية يمكن للام والأب اختيار ما يناسبها من الأطفال بالثمن والسعر الذي يحدده البنك.

6- يمكن من عملية نسخ الأجنة التركيز على الأشخاص الذين يحملون صفات وراثية متميزة للوصول إلى حلم "السوبرمان"

عند النظر إلى كل هذه الحجج التي يسوقها العلماء، نجد أن أضرارها قد تكون أكثر من نفعها، وسوف يضل الجدل والمناقشات حول موضوع استنساخ الأجنة قائما، ولن يمنع العلماء من أن يرتادوا هذا المجال من المجد والشهرة، ونحن لا ننكر العلم، ولا ننكر فضل الهندسة الوراثية على البشر، ونحن مع كل ما يفيد البشرية من علاج ووقاية وصحة، أما عندما يتدخل العلماء ويلعبوا دور الإله، ويغيروا في أساس وصفات الخلق، وعندما تتداخل الصفات الوراثية في الأجناس، وتختلط الأنساب، وتضيع الهوية، فهذا ما يرفضه العقل والضمير الإنساني في كل مكان، وفي ضل أي دين، ولعل المولى عز وجل قد نبأنا بأن هناك من سوف يأتي ليعبث بخلق الله ويدعي لنفسه الخلق فقال: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)، إن كل ما يحدث من استنساخ ليس خلقا جديدا، فالخلية الحية من خلق الله، والبويضة كذلك، والرحم الذي توضع فيه من خلق الله، ولعلنا ندرك قيمة الدعوة الماثورة : "اللهم ارزقني علما

نافعا وقلبا خاشعا"، " اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا" فليس كل علم نافع ولكن قد يكون مصدر للهلاك¹

I. 4.1 الموت الرحيم Euthanasie

شهد النصف الثاني من القرن العشرين تقدما كبيرا في العلوم عامة، والتقنيات الطبية خاصة كان لها أثر كبير في تحسين أداء الأطباء لمواجهة الكثير من الأمراض الخطيرة التي كانت تؤدي بحياة الملايين من الناس، هذا من جانب، ومن جانب آخر نجد في كثير من الأحيان إنسانا مصابا بمرض عضال يجعله مريضا طريح الفراش لفترة زمنية يعاني فيها من أوجاع وآلام جسدية ونفسية، ومنه يقف العلم والعلاج عاجزين عن شفاء هذا المريض الميؤوس منه، فيفقد بذلك كل أمل في العودة إلى حياته العادية، مما يولد لديه الرغبة في وضع حد لحياته²، ويتم ذلك باللجوء إلى تقنية في الميدان الطبي تعرف بالموت الرحيم، الذي أثار مشكلة أخلاقية بالأساس تلغي حقوق الإنسان، والحريات الشخصية، والضمير الإنساني والطبي، مما يستدعينا للكشف عن هذه التقنية، وتطورها عبر التاريخ البشري، وأغلب الأفكار المبررة والرافضة لها.

إن الموت الرحيم يعود في الأصل إلى كلمة إغريقية هي: euthanasia - الأوثانازية، وهي في اللغة اللاتينية مكونة من مقطعين eu وتعني الحسن أو الطيب، الرحيم، أو الميسر، والثاني tathanas وتعني الموت أو القتل، وهناك من يعتبرها قتل الطبيب لمريضه بتسميمه بعقار قاتل³، ولقد شاع استعمال كلمة القتل الرحيم في اللغة العربية، والراجح أن كلمة الميسر

1 عبد الهادي مصباح، الاستتساخ بين العلم والدين، المرجع السابق، ص45-48.

2 عتيقة بلجيل، القتل الرحيم بين الإباحة والتحريم، مجلة الفكر الصادرة عن جامعة بسكرة، العدد السادس، ص245.

3 مارشيل للحياة، اليوثانازية، يوم 2020/2/1، ص1، على الموقع التالي: euthanae.htm.marchabel.lilhayat.com

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

أقرب للحقيقة من الرحيم، إذ ليس في القتل رحمة مهما كانت الأسباب أو الأنواع أو الأهداف، فقد تعددت تسميات هذا النوع من القتل كالقتل الرحيم، الموت الرحيم، رصاصه الرحمة، قتل الرحمة القتل، بدافع الرحمة، القتل بدافع الشفقة، ووردت العديد من التعريفات منها:

1- أنه ذلك الموت الرحيم الذي يخلص مريضاً لا يرجى شفاؤه من آلامه¹
2- استجابة الطبيب لرغبة المريض بإنهاء حياته بعدما لم يعد هذا الأخير يتحمل الآلام المبرحة، والميؤوس من شفائها نهائياً وقطعياً.

- ومن خلال هذه التعارف، يمكننا القول إن الموت الرحيم في العلم الحديث: هو تيسير الموت لمريض اشتدت آلامه، واستعصى علاجه، وقاربت نهايته، ويكون ذلك بناء على رغبة ملحة منه لطبيبه، أو بطلب من أهله، أو دون طلب من المريض ولا من أهله.

أنواعه: للقتل الرحيم صور متعددة وأنواع مختلفة منها:

(1) - القتل الرحيم المباشر المتعمد: وهو إجراءات تؤدي إلى تقديم ساعات الوفاة بشكل مقصود ومباشر ويصنف إلى نوعين:

(أ) - فعال أو (ب) - سلبي

(أ) - فعال: وهو التسبب بموت هذا المريض بشكل مقصود وواضح باستخدام جرعات مميتة ومركبات قاتلة أو مخدر قوي بجرعة كبيرة بهدف قتله، ونقول عنه أنه فعال لأن الطبيب فعل شيئاً وهو التسبب في الوفاة سواء كان بطلب من المريض أو دون إذنه، لكن بتقدير الطبيب واعتقاده أن القتل في صالح المريض العاقل والبالغ، أو دون إذن المريض، وبتقدير الطبيب أن القتل في صالح المريض غير العاقل «صبي أو معتوه».

¹ هدى قشقوش، القتل بدافع الشفقة، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996، ص7.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

(ب) - سلبي : وهو وقف العلاج « الذي يجعل المريض على قيد الحياة » مما يتسبب في وفاته، أو وقف التغذية عن طريق الوريد لضحايا الموت الدماغي، ونقول عنه أنه سلبي لأن الطبيب امتنع أو توقف عن فعل شيء للتسبب في الوفاة.¹

(2) - الانتحار المساعد: وفي هذه الحالة يتولى المريض بنفسه عملية القتل بناء على توجيهات وإرشادات الطرف الآخر حيث يقدم للمريض كل التعليمات والوسائل اللازمة والمطلوبة التي تساعد المريض على القيام بقتل ذاته والمتسبب هو الذي يهيأ الظروف والأدوات والوسائل للانتحار، لكنه لم يباشره، بل المباشر هو المنتحر نفسه، فالانتحار المساعد يقصد به أن يلجأ المريض الميؤوس من شفاؤه برغبته ورضاه للتخلص من حياته إلى الطبيب ليساعده²

(3) - القتل الرحيم غير المباشر: وهو التسبب في تعجيل الوفاة، ولكن بدون أن يكون هذا الأمر هو المقصد المباشر، فمثلاً: استخدام جرعات كبيرة ومنتزيدة من المورفين لمريض ببعض أنواع السرطان المميت في مرحلته النهائية، والمقصود بالمورفين هو أن لا يعاني هذا المريض من آلام وعذاب الساعات الأخيرة، لكن المورفين يتسبب بانخفاض مستوى الوعي والإدراك لدى المريض وقد يدخله في غيبوبة، كما أنه يعجل حصول الوفاة.³

1 - تطور الموت الرحيم عبر التاريخ: ينسب مصطلح القتل الرحيم إلى الطبيب والفيلسوف "روجيه فرانسوا بيكون" وذلك في القرن السابع عشر ميلادي في كتابه "علاج المرضى الميؤوس شفاؤهم"، للإشارة إلى وسيلة موت سهلة، سعيدة، وغير مؤلمة، حيث تكون مسؤولية الطبيب لتخفيف المعاناة البدنية عن الجسم وذلك ما نجده في قوله: « على الأطباء أن يعملوا

¹ ياسين سويحة، الموت الرحيم... قرار بين الفلسفة والأخلاق والدين والعلم والدين، ليوم 2020/02/12، ص2 على الموقع التالي: <http://www.syxiahgawoche.com>

² هدى قشقوش، القتل بدافع الشفقة، المرجع السابق، ص117.

³ ياسين سويحة، الموت الرحيم... قرار بين الفلسفة والأخلاق والعلم، الرابط السابق، ص2.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

على إعادة الصحة إلى المرضى، وتخفيف آلامهم، ولكن إذا وجدوا أن شفاءهم لا أمل فيه، فيجب عليهم أن يهيئوا موتاً هادئاً وسهلاً، وإن الأطباء لا يزالون يعذبون مرضاهم، رغم قناعتهم بأنهم لا يرجى شفاؤهم، وفي رأيي أن عليهم فقط في هذه الأحوال أن يطفئوا بأيديهم الآلام، والنزع الأخير¹».

- ونجد هذا النوع من القتل عند اليونان من خلال ما نقل عن الفيلسوف اليوناني " أفلاطون " في كتابه الجمهورية، " يوجب تقديم كل عناية للمواطنين الأصحاء جسماً وعقلاً، أما الذين تتقصهم سلامة الأجسام فيجب أن يتركوا للموت " وما نستطيع أن نستنتج من خلال هذه العبارة أن أفلاطون قام بتأسيس قاعدة لقتل الإنسان لحاجة ما وهي نقص الجسم، وهو دليل على وجود القتل الرحيم في المجتمع اليوناني، إلا أن الرحمة كانت للأصحاء لا للمرضى، وهذا الكلام نجده موافقاً لموقف سقراط " التدبير الذاتي للموت بشرف " من خلال سعيه لتطبيق ذلك على نفسه بالرغم من أن طلابه هيئوا له الوضع لتهدئته من السجن، فرفض ذلك ولجأ لتناول السم ليموت بشرف.²

- وكذلك في العصر الحديث نجد العديد من الدول وضعت مشروع قانون يجيز ولا يجرم ما يسمى بقتل الرحمة، بناء على طلب المريض منها: الولايات المتحدة الأمريكية، روسيا، فرنسا، إنجلترا، مما أدى إلى ظهور مؤيدين للقتل الرحيم كحق للمريض، استناداً لمبدأ الحرية في الموت مقابل الحق في الحياة، ومعارضين له، وهو ما سيتم التطرق لأرائهم لاحقاً.

فقد ظهر مصطلح جديد يعبر عن القتل الرحيم، وهو ما يعرف بسياحة الانتحار كنوع جديد من أنواع السياحة في العصر، بعد ارتفاع حالات الانتحار الطوعي في العالم المعاصر

¹ هدى حامد قشقوش، المرجع السابق، ص31-32.

² سلام حمار عطية، فكرة للحق في الموت، ليوم 2020/03/01، ص1، على الموقع التالي: www.m.hemar.org

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

نظرا للأزمات والظروف المعقدة في عالمنا اليوم، فيطلق هذا المصطلح « سياحة الانتحار » عندما يذهب السائح لبلد ما ليس بغرض العلاج أو التنزه أو الترفيه، بل يذهب للبحث عن انتحار رحيم نتيجة لأسباب نفسية أو عضوية، ويشرف على هذه العملية مختصون، قد تكون أو لا تكون لهم علاقة بمهنة الطب حسب القوانين المعمول بها في البلد، بتحويل قوانين تنظيم هذه العملية للدولة المستضيفة للسائح، حيث يجد هناك من يساعده في وضع حد لحياته والوصول إلى الموت، أو ما يصطلح عليه بعملية الموت الرحيم، أي توفير الطرق العلمية المناسبة التي تساعد على تجاوز مسألة الألم.

أما في عالمنا اليوم، أصبحت كل البلدان المتقدمة تشرع للموت الرحيم، فالقانون يجيزه ولا يحرمه بناء على بعض القواعد والشروط، باستثناء بريطانيا التي تعتبر من أكبر الدول الراضية للموت الرحيم، وسنقوم بتقديم هذه الدول التي تجيز عملية القتل الرحيم، ونسب الضحايا إن صح التعبير لهذه التقنية.

«... نجد في فرنسا بعد ما اقرت قانون الموت الرحيم الذي يسمح للأطباء بتخدير المرضى الميؤوس من شفائهم، إحياء جدل كبير في أوروبا، وذلك بعد ما انضمت فرنسا بدورها الى الدول التي قننت هذا القانون ومنها: هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ، إذ يرى بعض الأطباء في فرنسا أن الموت الرحيم ربما يكون أكثر إنسانية، فيما يرى الآخرون أن هذا القانون يساعد على الانتحار، وينقسم الأوروبيين اليوم إلى ما بين مؤيد للتشريعات التي تسمح بممارسة القتل الرحيم، وبين معارض، يرى أن الحياة ليست ملكا لأحد كي يساعد في منع الموت، فقد وافق مجلس النواب الفرنسي على مشروع قانون يسمح بالقتل الرحيم مما يعطي الضوء الأخضر للأطباء بإنهاء حياة المريض بدلا من وضعه على الأجهزة مدى الحياة. »

كما نجد بلجيكا من أوائل الدول التي شرعت للموت الرحيم، ونفذت أكثر من الفين (2000) حالة من القتل الرحيم، ويعتبر أكبر عدد منذ أن تم إنشاء القانون في عام 2002،

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

شروط أن يكون المريض فوق 18 سنة، وهو ما يتطلب موافقة طبية صارمة، وفي 2013 تبين أن الوفيات الناتجة عن القتل الرحيم وصلت إلى 25%، وتعتبر واحدة من سياسات الدول الأكثر إثارة للجدل، إذ امتد الأمر إلى الأطفال المرضى الميؤوس من شفائهم نظرا لاكتشاف أن حالات القتل الرحيم تتم دون موافقة، تفوق 30 %، في بعض الأماكن في بلجيكا.

- أما كندا فقد أجازت المحكمة العليا قانون الموت الرحيم بعدما كان محظورا في البلاد، وذلك حين قالت المحكمة أنها أجازت هذا القانون في ظروف معينة.

- في هولندا صدر قانون الموت الرحيم في 2002، ووصلت الحالات في 2013 إلى 1600 حالة ثم ارتفعت إلى 4188 حالة، مجموع الوفيات في هولندا بمساعدة طبية، مع العلم أن 78 % منهم مصابين بمرض السرطان.

- وفي سويسرا نجد الانتحار يتم تنفيذه بواسطة طرف ثالث "بمساعدة الغير" وقد يكون هذا السبب وراء سفر الكثير من الأجانب إلى سويسرا للانتحار بمساعدة الغير عبر حدود ألمانيا "سياحة الانتحار"¹.

2- الأفكار المؤيدة للموت الرحيم:

يبرر المؤيدون للموت الرحيم موقفهم اتجاه تطبيق هذه التقنية من خلال ثلاثة تبريرات

أساسية:

(أ) **المبرر الإنساني:** يعد الموت الرحيم من الوسائل المعبرة عن ممارسة الحرية الشخصية، فعن طريقه يقدم للمريض راحته، وتخليصه من معاناته التي عجز الطب عن معالجتها، فلم يبق لذلك إلا سبيلا واحدا وهو الموت الذي يخلصه من مأساته ليسهل له الوصول إلى تلك الراحة بدلا من النظر إليه وهو في اشد حالات الألم، ومن جهة أخرى امام أعين عاجزة عن

¹ فاطمة شوقي، فرنسا تقنين الموت الرحيم للمرضى، يوم 17/02/2020، ص1، على الموقع التالي: <http://www.youm7.com/story>

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

معالجته، كما ان للمريض الحق في الموت كما له الحق في الحياة، فهو بذلك أمام حقين، له أن يختار بين الحياة والموت، فإذا كان له أن يفضل الموت عن الحياة، فيجب ان يجد العناية لذلك.¹، ومثل هذه السلوكيات تمت في بعض المجتمعات الانسانية فمثلا "الاسكيمو" في كندا كانوا يتركون كبار السن على الجليد لتنتهي حياتهم على البرد القارص، وفي اليابان كانوا يحملون كبار السن الى ربوة عالية تسمى "ربوة الموت"، ثم امتد هذا السلوك ليشمل الأطفال المعاقين، ثم المرضى بمرض عضال، كما قدمت الدكتورة "هدى قشقوش" شهادتها على المبررات الانسانية للموت الرحيم، والتي عرفت تأييد شريحة واسعة من المجتمع الفرنسي والألماني لهذه الفكرة حيث قالت :

« لقد عاصرت بنفسى في عام 1987 بفرنسا وألمانيا تزايد اتجاهات الرأي العام لقبول فكرة اباحة القتل شفقة، والمطالبة بتعديل التشريعات الجنائية للسماح بإباحته وانتشار جمعيات المتطوعين اللذين يدعمون هذا الاتجاه وبالذات في قضية دانياالا، تلك الفتاة الألمانية التي تبلغ من العمر 27 سنة، والتي أصيبت في حادث تصادم سنة 1983 بشلل كلي لمدة خمسة سنوات فطالبت بحقها في الموت وانظم إليها الرأي العام في ألمانيا، إلى أن تطوعت فتاة مجهولة في منظمة "الموت الإنساني" في تاريخ 23 ديسمبر 1983 ساعدتها المتطوعة المجهولة على الموت»²

ب) المبرر الاجتماعي: الموت الرحيم اضافة الى تخفيف معاناة المريض، فهو كذلك يخفف من معاناة من يحيط به من أقارب وأصدقاء، ومحبيه الذين يتألمون لألمه ويشعرون بالعجز لعجزه دون القدرة على مساعدته، بل وأصبح وجود المريض عبئا كبيرا عليهم يستنفذ عواطفهم

¹ ي. ماركس، القتل الرحيم، يوم 2020/02/16، ص1، على الموقع التالي: <http://www.arabworldbooks.com>

² هدى حامد قشقوش، القتل بدافع الشفقة، المرجع السابق، ص13-14.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

ووقتهم دون جدوى، لكن موته يجعلهم يتألمون ويحزنون مرة واحدة فقط، وهذا ما جعل البعض يشترط أن يكون الموت الرحيم في نطاق الاسرة بوصفه وسيلة سهلة تيسر على المريض مهمة انهاء حياته لتريحه من أوجاعه وآلامه، فضلا عن كونه يخفف عن كاهل أسرة المريض أو مجتمعه.¹

ج) المبرر الاقتصادي: الموت الرحيم يخفف من الاعباء المادية التي يتطلبها إبقاء المريض على قيد الحياة، وتقديم الرعاية الطبية الكاملة له، وهو ما أدى ببعض الدول إلى إباحته والاستفادة من مصاريفه في تمويل مشاريع مدنية مختلفة بما في ذلك الطبية التي تعود بالنفع على شريحة كبيرة من الناس أو تفتح آفاق علمية جديدة لإيجاد علاجات شبيهة بحالات أولئك المرضى، وبذلك فقيمة الإنسان تكون مرهونة بقدر إسهاماته في تطور الحياة الإنسانية من خلال ما ينتجه او يبدعه لصالح المجتمع.²

3- الآراء الراضة للموت الرحيم: تأتي وجهات النظر الدينية في مقدمة الآراء المضادة للقتل الرحيم، باعتبار أن الحياة هبة من الله لا يجوز لأي إنسان مصادرتها وللالله وحده الحق في ذلك، تتفق الأديان كلها حول تحريم القتل باستثناء حالات محددة، والأهداف الإنسانية التي يدعيها أنصار القتل الرحيم، ويدعمون وجهات نظرهم في ذلك بحالات نادرة، تم فيها شفاء بعض المرضى صنفوا على أنهم انتحاريون أو ميؤوس من حالتهم، وعادوا بعد ذلك لحياتهم الطبيعية دون أن يجد الأطباء أي تفسير علمي لذلك.³

¹ ي. ي. ماركس، القتل الرحيم، الرابط السابق، ص2.

² ي. ي. ماركس، المرجع السابق، الرابط نفسه، ص2.

³ ي. ي. ماركس، المرجع نفسه، الرابط السابق، ص03.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

تتفق الديانات السماوية كلها على أن المرض هو سنة ماضية في الانسان مهما كانت نوعيته، وهو ابتلاء من الله لعبده، والألم مهما كانت شدته فهو يحمل معاني الرحمة الإلهية التي قضت أن لكل داء دواء، وفي هذا الصدد عنت الشريعة الإسلامية بحفظ النفس عناية فائقة، بل وسعت إلى حمايتها، وجعلتها مقصدًا من مقاصدها وهو ما أكدته حجة الإسلام "الغزالي" حين بيّن «أن مقصود الشرع من الخلق يجب حفظها: الدين، النفس، العقل، النسل والمال، وحفظها هو مصلحة، وما دون ذلك مفسدة»¹

ويستند علماء الإسلام في تحريم قتل النفس بأي طريقة كانت بما في ذلك الموت الرحيم إلى كتاب الله وسنة الرسول (ص): ومن النصوص القرآنية قوله تعالى: « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا »² وقوله تعالى: « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا »³

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ آثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (68)»⁴

¹ الغزالي، ابو حامد محمد بن محمد، المصطفى، تر: محمد مصطفى ابو العلي، مكتبة الجندي، مصر، ص251.

² سورة النساء، الآية 93.

³ سورة الاسراء، الآية، 33.

⁴ سورة، الآية 67-68.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

اما في السنة النبوية قوله عليه الصلاة والسلام: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا¹»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا²».

إضافة إلى الآراء الدينية السابقة تعالت الكثير من الأصوات والأفكار الراضية للقتل الرحيم مطالبة وضرورة التفكير مليا في هذه العملية قبل الشروع فيها، ومعاينة حالتها وحالات أصحابها، وهو ما تؤكد لبعض علماء الاجتماع، وعلماء النفس أن المرضى المصابين بحالات الاكتئاب والإحباط الشديد أن حياتهم لا تعجبهم، ويشعرون بالذنب وأنهم يشكلون عبئا على أسرهم، وغالبيتهم عندما يتكلمون عن الانتحار يحاولون جلب انتباه وعطف من حولهم وكأنهم يريدون أن يقال لهم « أرجوك لا تمت إننا نحبك»، وبذلك لا يجب أن تصدر حكما عليهم أنهم قرروا الموت فعلا عن إرادة ووعي عندما يطلبون من الطبيب مساعدتهم على الانتحار، فهم بذلك ليسوا موضوعا للقتل الرحيم.³

وفرضا أن المجتمع الإنساني يكون قد شرع الموت الرحيم، فقد يكون ذلك ذريعة سيستغلها بعض الأطراف بالتواطؤ مع الأطباء لإنهاء حياة ذلك المريض، وهو ما أطلعتنا عليه الاحداث اليومية أن بعض حالات الموت الرحيم أصبحت وسيلة للقتل غير الرحيم وأهداف غير إنسانية.

ومن الآراء المعارضة أيضا تلك التي تحتج على الفكرة القائلة أن الموت الرحيم يوفر في الانفاق الحكومي الصحي في أمور غير ذي نفع، ويردون عليها بأن من الأجدر للحكومات

¹ أخرجه مسلم، صحيح مسلم، وتحت رقم: 1218

² أخرجه البخاري، صحيح البخاري، تحت رقم: 6878

³ ي. ي. ماركس، القتل الرحيم، الرابط السابق، ص 04.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

إذا ما أرادت التوفير، أن تفعل ذلك من قطاعات أخرى لا حاجة للإنسان بها كنفقات الحروب والتسلح، أليس أكثر عار من أن تقتل إنسانا مريضا وتستخدم أموال علاجه في قتل اخر سوي؛ كما أن القتل الرحيم يعتبر استهتارا بأهمية وقيمة الحياة الإنسانية كمفهوم مطلق، فالإنسان هو أرقى المخلوقات، وهو الوحيد بينها الذي يمتلك ميزة الإدراك والوعي بالذات، ولا بد أن تكون حياته مقدسة باعتبارها أعلى قيمة، ولا ينظر له من منطلق النفع أو عدمه، فإذا ما شرع القتل الرحيم في المجتمعات الإنسانية فان هذا سيحط من قدسية الحياة البشرية، ويجعل منها قيمة رخيصة تخضع لتجاذبات الغرائز البشرية المختلفة، كما يجمع العديد من الاطباء والعلماء على رفض الموت الرحيم لأسباب متعددة منها¹:

أ- لا يمكن سلب أي إنسان كرامته: أمام بعض مظاهر الحياة من الصعب لأي إنسان أخذ قرار وضع حد للحياة بحكم أن هذه الحياة ليست كريمة والموت وحده هو الذي يعطينا هذه الكرامة فمثلا " الام تريزا*" كانت تعالج مرض الجذام للميتوسيين من حياتهم بدلا من القضاء عليهم.

ب- لا يمكن ضمان كرامة الإنسان بإعطائه الموت: ما يجب هو ضمان الكرامة في إطار الحياة، والأولى أن نكون بجانب أولئك الذين يعملون من اجل ضمان كرامة أشخاص وإنقاذهم من الموت.

¹ Erwan le Morhedec, Les 14 bonnes raisons de dire non à l'euthanasie, 28/02/2020, P2-3, le lien :

<http://www.koztousjours.fr/>

* الام تريزا: هي الراهبة ذات الاصول الابانية، حائزة على جائزة نوبل للسلام عام 1979 م، توفيت في كالكوتا في 05 سبتمبر 1997 بعد مرض عضال.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

- ت- الموت الرحيم هو استقالة جماعية: فهي تعبر عن مجتمع تخلى عن طموحه أن يكون مجتمعا يضم بصحة أفراده وكرامته، فهو مجتمع لا يعالج المشكلة، وإنما عن طريق الموت الرحيم يقضي عليهم.
- ث- الموت الرحيم هو اختيار مجتمع مادي وأناي: فهو لا يقبل حالات الضعف وإنما ينظر الى حالة الشباب والجمال والأفراح والأجساد، كما أن الإعاقة تخيفه وترهبه، فيجب القضاء عليها.
- ج- الموت الرحيم اختيار متوهم: عندما يتم وضع اختيار يفترض وجود بدائل تؤول إلى الحياة، ويجب أن تكون فعلية، فهل يمكن المخاطرة بالحياة ونحن نريد الموت، أو الموت ونحن نريد الحياة.
- ح- الموت هو لحظة حياة: بل يجب احترامه في الإنسان وهذه اللحظة الحميمة بين الإنسان والموت فهو في لحظة ينزع فيها نحو السلم الأبدي، فيجب تنظيم لحظات الموت بدلا من تعجيله.

I. 2 المبحث الثاني: البيوايثيقا والأخلاق التطبيقية

لقد عرف المجتمع الإنساني المعاصر تقدما كبيرا في شتى المجالات، نتج عنها نشأة مصطلحات جديدة لم يألفها الفكر البشري، أضيفت إلى القاموس الأخلاقي، وهي مصطلحات جاءت مساندة لقضايا العصر، ووجدت لها مكانه في الخطاب الفلسفي عموما والخطاب الأخلاقي خصوصا، وهي مصطلحات أقلت المفاهيم اللغوية والفكرية التي سبقتها من قبل، فبعيدا عن المصطلح الذي تناقلته القواميس، ألحقت المصطلحات الجديدة ارتدادات بالمجال المفاهيمي للمعاني التي كانت عليها من قبل، فكلمة " البيوايثيقا " التي تحمل في روح معانيها الجانب الأخلاقي لكنها لم تتعلق بالمجال القيمي لأفعال وسلوكيات الإنسان، وإنما أصبحت تتعلق بالجانب العضوي (المادي) للإنسان في أدق تفاصيله التي اطلعتنا تفاصيله

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيويثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

أداة المكونات البيولوجية ودخلت في أغوار الحياه الإنسانية، ليصبح المشروع الإنساني قائما عليها، ويواجه أسئلة شائكة تؤول إلى مقارنة العلم وما خلفه من أثر على الحياه الإنسانية. إذا كان مجال " البيو " تحدد علميا وتقنيا، فان كلمه "إيثيقا" لم تحتضن كلمه "بيو" ليكون منطلقا نحو معرفه جديده بل " الإيثيقا خاصة، كانت موضع خلاف، والاختلاف بين مصالحننا وغاياتنا الأخلاقية وتجاوز نحو الثقافتين الذاتية والمجتمعية"¹.

انطلاقا من هذا التباين جاء الخلاف واضحا بين القيمة والمعرفة وهو ما يمكن تحديده في طبيعة العلاقة بين القيمة الأخلاقية والمعرفة العلمية.

المسألة الأخلاقية في الفلسفة التقليدية كانت ترتبط أساسا بأفعال وسلوكيات الإنسان، أي ما يجب أن يكون عليه الفعل، نسبه إلى القيمة التي نضفيها للفعل بناء على مبادئ، أي الاستحسان والاستهجان (الخير والشر)، لكن "البيويثيقا" وعلى غير المؤلف اتسعت لتشمل خصوصية الكائن الحي وأبعاده الأنطولوجية، لقد امتد السؤال في البيويثيقا إلى بداية الحياة الإنسانية ونهايتها وقدسيتها، شأنها شأن جذوة النار التي فتحت للإنسان كل معاني الحياة للسيطرة على الطبيعة، إلا أن الأمر هنا أصبح يتعلق بالإنسان، وبدلا من السيطرة على الطبيعة تمت السيطرة على الإنسان ذاته، وقدمت لنا البيويثيقا مفهوما جديدا للإنسان، بل وتصورا جديدا لإنسان جديد، يتم تعديله وتغييره، وفي كل مرة تعرف البيوتكنولوجيا تطورات جديدة تمكن العلماء من إحداث قفزة نوعية تتغير من خلالها النظرة اللاحقة عن السابقة حول طبيعة الإنسان، ومنها على حد تعبير "يروغان هابرماس" يتحول الإنسان من إنسان طبيعي إلى إنسان ثقافي، " وبالفعل فان غيظ الإنسان يتمرد والذي ييأس من أن يكون هو نفسه، له

¹ Pascal Chabot : Entre bio et éthique. Science et avenir. Mars-avril. 2002. p97.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايْتِيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

غيظ يوجه ضد شخص آخر. وبالمقابل فإن ما ليس عليه أي مأخذ نحن الأشخاص القادرين على الكلام والفعل، فنحن مرتبطون بقلنا بعد النجاح كما نأمل، وإنه ليس بمقدورنا إلا الانطلاق من مقدمات ما بعد ميتافيزيقية مع الله في الزمان".¹

النموذج الحدائي الذي سيطرت عليه النزعة الوضعية المادية بشتى توجهاتها، أفرغت العلم من كل الأبعاد الفلسفية والقيم الميتافيزيقية خاصة منها الأخلاقية، مما جعل " فان رينسلاير بوتير" (Van Reenslayer Potter) يسلط الضوء على مسؤولية العلماء في مجال الطب والبيولوجية، وهي مسؤولية اجتماعية، لأن التقدم العلمي والتكنولوجي أصبح يهدد البشرية جمعاء، مما جعل الضرورة ملحة لفكر أخلاقي جديد يتمحور حول مبدأ المسؤولية".²

في نظر "بوتر" كلمة بيوايْتِيقا تهدف إلى ربط الصلة الممزقة بين الأخلاق والبيولوجية التي فرضها النموذج الحدائي الغربي الذي يفصل بين القيمة والمعرفة، والتي أصبحت الصفة المميزة في الثقافة الغربية بالبيوايْتِيقا:

أما في شقها الأول " بيو" ترتبط أساسا بالجسد الذي يمثل محور الدراسات البيوتكنولوجية المعاصرة، بينما في شقها الثاني "إيْتِيقا" والذي يرتبط أساسا بالأخلاق التي تمثل جانبا أساسيا من موضوع الفلسفة (فلسفه القيم)، وفي نظر "بوتر" الغاية الأساسية من هذا العلم الذي سماه << علم جديد وهو علم البقاء >> تكون الأخلاق الدعامة الأساسية لكل الممارسات البيولوجية، وتهدف نحو غاية واحدة هي تحسين الوضع الإنساني، والذي حدده في كتابه الشهير " البيوايْتِيقا جسر نحو المستقبل".³

¹ يورغان هابرماس، مستقبل الطبيعة الإنسانية. نحو نسالة ليبرالية، تر: جورج كتورة، المكتبة الشرقية بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص18.

² Guy Durant. Introduction générale à la bioéthique. Fides. Montréal. Québec. Canada. 2007. P18

³ Van Reenslayer Potter. 1911–2001. Bioethics, Bridge to the Future, Prentice –Hall, 1971

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيويثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

إن أخلاق البيويثيقا هي قبل كل شيء تجاوز لمفهوم الأخلاق الكلاسيكي، التي كانت تمارس في إطار نظري حول القيم المعيارية (علوم معيارية)، فالبيويثيقا ترتبط بالواقع، وهو ما يجعل الرهان هنا رهانا عمليا تتحدد كل معانيه في الجانب المادي من الإنسان (الجسد)، إضافة إلى تلك الممارسات العلمية والتقنية التي وضعت في إطار البيوتكنولوجيا.

I. 1.2 البيويثيقا والممارسات الطبية:

لقد عرفت الإنسانية الأخلاق الطبية منذ زمن قديم، وتجسد فعليا مع قسم "أبقراط"، لكن أخلاقيات علم الأحياء التي تحددت لاحقا بالبيويثيقا لم تعرفها الإنسانية إلا في النصف الثاني من القرن العشرين.

إن الأخلاقيات الطبية تحدد لنا القواعد التي يجب أن يكون عليها الطبيب والمبادئ التي يجب الالتزام بها في ممارساته الطبية، والعلاقات التي يسلكها مع نظرائه ومع المرضى، وهي عادة تدخل في الآداب والأخلاق، ومن خلالها تبدو سلطة الطبيب في ممارسة مهنة الطب، فهو أعلم بأحوال الطب والمرضى، لذا تسلم له كل الأمور، حتى وإن كانت هذه الاعتبارات لقت العديد من الانتقادات لكونها تعطي الطبيب سلطة أبوية، لا يولي فيها أي اعتبار أو اهتمام للمريض ولمتطلباته ومعاناته فيكون الطبيب فيها في حالة استعلاء، لأن هناك حقائق لا يعرفها إلا المريض عن ذاته ولا يريد إيداعها، ومن هنا نتساءل: هل المريض هو مجرد جسد يخلو من الانطباعات الأخرى؟ أليس للمريض حياة خاصة؟ أليست له ميولات ومشاعر وعواطف؟ أليس له أسلوبه الخاص في الحياة؟ أكل، مشرب، مسكن، أسرة وحياة اجتماعية؟ الأطباء غالبا ما يهتمون بالأعراض التي تزجج مريضا بعينه بمعزل عن السياق الذي أنتج هذه الحالات.¹

¹ علي عبود المحمداوي، البيويثيقا والمهمة الفلسفية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014، ص303.

لذلك البيوايثيقا يجب أن تكون أوسع بكثير من أخلاقيات الطب التقليدي والدوافع التي وجدت من أجلها تيرر ذلك.

لماذا البيوايثيقا؟: لقد ظهرت البيوايثيقا نتيجة عاملين أساسيين هما:

1 التقدم التكنولوجي المذهل: والذي استطاع أن يغمر جميع مجالات العلم، خاصة منها ما يتعلق بالبيولوجيا المعاصرة التي تطلعت إلى حقائق خفية في جسم الإنسان، مكنت العلماء من رفع اللثام على معضلات معقدة، منها ما يتعلق ببداية ونهاية الحياة، فتجاوزت السلوك الأخلاقي، بل وحتى الحقائق الخفية ذاتها، فلم تعد معاملة الطبيب للمريض تعني شيئا أمام واقع علمي تجاوز السلوك الأخلاقي التقليدي، أصبح الطبيب نفسه يتجاوز تلك القيم الأخلاقية، والأدلة على ذلك كثيرة، منها انه اصبح يزرع عضوا أو الحفاظ عليه بعد موت صاحبه، كالقلب الذي يحتفظ عناصر حياته لينقل لشخص آخر، ضف إلى ذلك استئجار الأرحام الذي وصل إلى حد التفكير في محاولة إيجاد رحم اصطناعي يولد فيه الإنسان خارج رحم المرأة، وكذلك الاستنساخ وغيرها من العمليات البيوتكنولوجية.

2 الأبوية الطبية: إن المكانة التي أصبح الطبيب يحتلها في عملية التطبيب، جعلت من بعض العلماء يرون أن الأطباء أصبحوا يمارسون سلطة أبويه على المريض، سلبت منه كل مقاومته الشخصية وأصبح مجرد أداة في يد الطبيب يفعل بها ما يشاء، لكن مع تطور الفكر ما بعد الحداثي في كل الميادين، ومع استقلالية المريض التي أخذت بعدا جديدا في تجديد العلاقة بين الطبيب والمريض، فلم يعد المريض يخضع للطبيب وسلطته الفائقة التي يتسلط بها على مرضاه، بل أصبح من حق المريض المطالبة بحقوقه الخاصة، كمرض وكذلك كإنسان جدير بالاحترام.

كذلك يجدر بنا أن نشير إلى وجود عوامل خارجية أخرى كان لها تأثير كبير على ظهور البيوايثيقا في أواخر القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة عرفت مختلف العلوم والتكنولوجيا

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

المعاصرة تطورا كبيرا، فتحت بذلك المجال أمام العلم على حساب الفلسفة التي في الوقت نفسه تراجع فيها الفكر النسقي، وانطلقت في الفترة نفسها شموع فلسفية كبيرة كانت بصمتها بادية وواضحة في شؤون الفلسفة، انطلاقا من فدجنشتاين، هايدجر، كيكجورد، ميرلوبونتي، باشلار، أدرنو، هوركهايمر، ماركيز، سارتر، لاكان، فوكو، التوسير، يونس، دولوز، ليوتار، غادمير، رولس، دريدا، ريكور..... وغيرهم كبار الفلاسفة العرب مثل الجابري، اركون، حامد أبو زيد... وغيرهم.

في هذا الوقت البئيس الذي تعيشه الفلسفة المعاصرة، معظم الفلاسفة المتبقون انصبت اهتمامهم نحو الاكتشافات العلمية والإنجازات التكنولوجية، وهذا ما جعل الفكر الفلسفي يتحول صوبا من جديد في مواضيع تنحصر في الأخلاقيات التطبيقية، واصبح الفكر جماعيا، وبذلك انتهى وقت الفيلسوف الموسوعي والعصامي، وانتهى وقت النسق الفلسفي ومسائل التفكيك والتأويل، إنه مجتمع جديد وفكر جديد وبالضرورة يتطلب فلسفة جديدة، وفي هذا السياق جاءت البيوايثيقا ضمن الفلسفة التطبيقية لتعالج مسائل جديدة في ميدان الطب والبيولوجيا، وذلك كغيرها من المجالات الأخرى التي حظيت بمجالات فلسفية خاصة بها على غرار: السياسة، البيئة، تكنولوجيا الاتصال وفلسفة الجسد...

وما يهمنا في مجال بحثنا هذا هو: البيوايثيقا التي تتدرج ضمن الأخلاق التطبيقية، وجاء هذا الاهتمام ضمن تطور الطب والبيولوجيا من جهة، وتطور العلم والتكنولوجيا من جهة أخرى، والمزج بينهما أنتج البيوتكنولوجيا، هذه الأخيرة بقدر ما حققت من نتائج واكتشافات ابتهج بها العلماء، إلا أن عواقبها كانت وخيمة، لذلك أصبحت الضرورة ملحة لإيجاد أخلاق تهذب هذه الممارسات البيوتكنولوجية لأنها اربكت الإنسان والحقت به مخاوف كبيرة، وصلت إلى حد المساس بقداسة الحياة الإنسانية ذاتها، وزادت من أطماع العلماء إلى درجة أراد فيها المخلوق أخذ مكانه الخالق.

I. 2.2 البيوايْتِيقا والبيوتكنولوجيا:

لقد ارتبط مصطلح البيوايْتِيقا أساسا بالبيوتكنولوجيا، وذلك بسبب التقدم الكبير الذي عرفته علوم الحياة في إطار تطبيق التكنولوجيا المعاصرة مما أدى إلى طرح تساؤلات تتعلق بمجمل الممارسات البيوتكنولوجيا خاصة منها عملية الاستنساخ، الإنجاب الاصطناعي، النسالة، استئجار الأرحام، الإجهاض، الموت الرحيم، الأعضاء الاصطناعية، وزرع أعضاء الحيوان في الإنسان... وغيرها من الممارسات أكثر دقة وإثارة.

لكن هذا التوجه الجديد لأخلاقيات الطب والبيولوجيا جاء في إطار التقدم الكبير الذي عرفه المجتمع الإنساني في مجالات أخرى تتعلق بالتطور الاجتماعي والثقافي الذي تمت معه مجالات فكرية اجتماعية ومدنية نتجت عنها ثوره اجتماعية وثقافية في مواجهة مختلف المؤسسات السلطوية خاصة منها سلطة الأطباء والعلماء في المجال البيو طبي، حيث كانت تطبق أعمال وممارسات منافية لأخلاقيات مهنة الطب.

وبذلك البيوايْتِيقا هي تعبير عن الحالة الاجتماعية التي كانت تعيشها فئة واسعة من المجتمع كانت تمارس عليها كل التجارب والاختبارات دون أي رعاية أو عناية، في الوقت الذي كان يجب أن يكون كل عمل الأطباء والممارسات البيوتكنولوجية في خدمة هؤلاء. إن البيوايْتِيقا جاءت لمواجهة التجاوزات التي تعرضت لها الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان من انتهاك في إطار أبحاث وتجارب الطب والبيولوجيا المعاصرين...¹

لقد كان أول استعمال لمصطلح "بيوايْتِيقا" على يد العالم "ف. ب. رينسلاير" (Van Reenslayer Potter) سنة 1970، وبعيدا عن مفهوم هذا المصطلح وترجماته اللغوية، ما يهمننا في مجال بحثنا هذا هو تحديد مجالات استعماله، لأن ذلك سيأخذنا إلى صميم

¹ Hubert Doucet. Au pays de la bioéthique. Labor et Fides. 1996. pp18-19.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

الموضوع الذي سنجد خلاله مكانة الإنسان وقداسة الحياة الإنسانية وأكبر تجاذب حول مجال استعمال مصطلح " البيوايثيقا" كان بين العالمين " اندري هيليغرز" من جهة و" فان بوتز رينسلاير (Van Reenslayer Potter) من جهة أخرى.

أما " هيليغرز (André Hellegers) «: فيرى أن البيوايثيقا تعود لممارسات الطب الكلاسيكية التي عرفها المجتمع الإنساني منذ زمن بعيد وأهم صورة له هو " قسم أبقراط" ومنه كأنسب صورة للبيوايثيقا هو "أخلاقيات الطب".

بينما " بوتز": تصوره يتميز بطابع الشمولية، حيث تعد " أخلاقيات الطب التي قال بها "هيليغرز" جزء منها ومرحلة تاريخيه ممهدة لها، وبذلك البيوايثيقا تشمل كل الأخلاقيات التطبيقية الأخرى كأخلاقيات البيئة خاصة، باعتبارها تتعلق بعالم الأحياء كالنبات والحيوان، التي تجرى عليها كل التجارب المخبرية أو التعديلات الوراثية ثم الانتقال إلى مجال بيئي شامل كما هو الشأن في الأسلحة البيولوجية والبكتريولوجية.

ويعود الفضل إلى العالم "جوزيف فليتشر" الذي أخرج البيوايثيقا إلى مجال الدراسات الأكاديمية حيث درس " أخلاقيات الطب" بجامعة فرجينيا، وما يميز عمل " فليتشر" أنه لم يستند في كلامه عن أخلاق الطب إلى العقائد المسيحية اللاهوتية، ومواقف الأطباء وإنما انطلق من مطالب المرضى وحقوقهم وانشغالاتهم، وسعى إلى تأسيس نظرية أخلاقية جديدة في كتابه: >>... أخلاقيات الحالات الخاصة: التوجه الأخلاقي الجديد. 1960.

I. 3.2 البيوايثيقا والفلسفة:

إذا كانت الأخلاق من سياق الفلسفة وهي ملازمة لسلوكيات الإنسان وفكره في إطار فلسفة القيم، ولما كانت الفلسفة اليونانية مهد كل الفلسفات، فلا بد أن يكون اثرها امتدا إلى مجمل المجالات الحياة الإنسانية، بما في ذلك الممارسات الطبية، لذلك هناك من يرد الثورة الطبية البيولوجية بالأساطير اليونانية، التي تكلمت عن الإنسان القوي الذي استطاع أن يتغلب

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

على الآلهة وينترع منهم جذوة من النار بقصة كان بطلها " بروميثيوس " التي اخذ جذوة من النار المقدسة وأعطاهها للإنسان، الذي صنع منها حضارته، كما تناولت الميثولوجيا اليونانية روايات كائنات تشبه في نصفها الإنسان وفي نصفه الآخر الحيوان، وهو ما سيعرف الكائن الهجين مستقبلا، وكذلك منها من يتكلم عن إنسان قوي بقوة الآلهة، وهي الفكرة التي ألهمت العلماء المعاصرين إلى التفكير في الإنسان المتفوق عن طريق عمليات بيولوجية يتم من خلالها تحسين النسل واختيار الصفات الجسمانية، العقلية والنفسية.

إن فكرة تحسين النسل أو النسالة (Eugénisme)، نجد لها جذورا في فلسفة أفلاطون حيث اقترح في كتابه الشهير "الجمهورية" بتزويج الأقوياء من الجنسين لبعضهم البعض، وتعميم الظلال حتى يتأسس المجتمع المثالي كما ينشده أفلاطون، أليست هذه هي الفكرة التي تبناها الفكر النازي وحاول أبرز أطبائه تطبيقها من اجل صنع الرجل المتفوق الذي كان يتكلم عنه الفيلسوف الألماني ذاته " فريدريك نيتشه".

إضافة إلى الجانب الفلسفي عرف المجتمع اليوناني تقدما في المجال الطبي الذي كان يمارس على أوسع نطاق، وكان أبرز الأطباء "أبقراط" أهم ما تركه هو ما يعرف "بقسم أبقراط" وهو مجموعة من القواعد التي يلتزم بها الطبيب أثناء ممارسته مهنة الطب، وهي قواعد الأخلاقية سلوكية وعملية موجهة للأطباء بقيت آثارها إلى يومنا هذا.

أما في عصر الأنوار كانت الدعوة إلى السيطرة على الطبيعة عن طريق العقل الفيلسوف الفرنسي ديكارت الذي رفع شعار: "لنكن أسيادا ومالكي الطبيعة"، أما الفيلسوف الإنجليزي "فرانسيس بيكون" (Francis Bacon) كان يدعو إلى السيطرة على الطبيعة عن طريق العلم من خلال كتابه الشهير "الاورغانون الجديد أو التوجيهات الصحيحة المتعلقة بتفسير الطبيعة"¹.

فرانسيس بيكون. الاورغانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة. تر: مصطفى عادل. 2013. المكتبة العربية للكتب¹

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

لكن الكلام عن البيوايثيقا يجعلنا نشير إلى الطرف الثاني من الكلمة إيثيقا في عصر الأنوار، حيث كان اهتمام الفلاسفة الكبير بالأخلاق، فمن فلاسفة العقد الاجتماعي، الفيلسوف "جون لوك" (John Lock) يرى أن الفلسفة مبنية على الطبيعة الخيرة للإنسان وعليه يجب احترامها والسعي إلى ما يخدم مصلحته، وواجب رجال السلطة والسياسة تقديم الرعاية والعناية. كذلك الثورة الأخلاقية التي أحدثها الفيلسوف الألماني "كانط" (Emmanuel Kant)

جاءت لتؤكد بدورها أن كرامة الإنسان خاصية تميز البشر عن غيرهم من الكائنات. إن الفكر البيوايثيقي يستمد روحه من توجهات فلسفيه وفكرية عريقة منها ما هو فلسفي، وما هو علمي وما هو أخلاقي، مادتها الأساسية احترام الإنسان وعدم المساس بمقوماته الأساسية خاصة منها كرامة الإنسان وقدسية حياته.

أما في الفلسفة المعاصرة، تطور الفكر وانتشار الوعي، تنامت معه وعي الشعوب والأمم في محاربة الأنظمة الاستعمارية والمتسلطة، فكانت فكرة حقوق الإنسان، التي سعى إليها فلاسفة كبار في سياقات مختلفة، تجسدت في شعار الثورة الفرنسية " الحرية، المساواة والأخوة" جاء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ليكرس هذا المطلب الإنساني ويجعله مطلباً وحقاً لكل فرد ومجتمع وفئة وأمة على هذه الأرض.

ومن وحي هذه الحقوق بدأت تلوح إلى الوجود فكرة حقوق الإنسان في كل مستوياته بما في ذلك حقوق المريض، وذلك في إطار " علاقة الطبيب بالمريض"، فيجب نبذ أي سلطة أبوية للطبيب على المريض.

ألا نستطيع أن نقول إن هذه الفكرة هي امتداد لفكرة أفرزتها " البيوتكنولوجيا المعاصرة" وهي "حق الموت" أو ما يعرف بحق المريض في تقرير المصير والموت بكرامة...

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

من جهة أخرى أليس من حق الطبيب والباحث الذي أفنى حياته في طلب العلم وكرس كل جهوده للكشف عن خبايا الحياة أن يجسد أو يحقق أفكار أبحاثه، فالاستتساخ والنسالة هي حقوق مشروعة للعالم، قد تحقق منافع لا يمكن إلا للعالم أن يعرف منافعها على البشرية. فبين حقوق المريض وحقوق الطبيب جاءت البيوايثيقا لتلقي بظلالها على الفكر الإنساني وجاء الخطاب الفلسفي المعاصر بكل تجاذباته ليضع أمامنا الرهانات التي تواجهها حياة الإنسان في ظل البيوتكنولوجيا المعاصرة.

I. 4.2 البيوايثيقا وما بعد "قانون نورنبرغ":

لقد عرفت الحرب العالمية الثانية مظهرين أساسيين: أما أولهما: فهو ظاهر الحرب التي كانت بالأسلحة وعرفت خسائر مادية وبشرية كبيرة كانت نهايتها وخيمة، وهي انفجار قنبلتين نوويتين مدمرتين الحقنا دمارا وذعرا بالإنسان المعاصر، وما ينتظره مستقبلا نتيجة تطور مثل هذه الأسلحة المدمرة. بينما الثاني: وهو المظهر الخفي من الحرب الذي كان فيه الصراع والتسابق الحثيث بين العلماء في مجالات أخرى تتعلق بالإنسان ومكوناته، إنها حرب بيولوجية لم ترع فيها أدنى حقوق الإنسان أو كرامته، بل وتم الاعتداء على قدسية الحياة الإنسانية بشكل بشع، فجزور العملية تعود إلى الفلسفة الوضعية (أوغست كونت - August Comte -) التي بنت فكرها على ضرورة الفصل بين القيمة والمعرفة وعقدت آمالا كبيرة على العلم لتطوير الطبيعة والإنسان.

لقد تجسدت الفكرة عند "كلود برنارد" (Claude Bernard) مؤسس الطب التجريبي، الذي كان ينادي إلى تجريب أكبر قدر ممكن من الأدوية الجديدة على البشر ولو اقتضى الأمر يتم استخدام المحكوم عليهم بالإعدام لتحقيق ذلك الهدف، إلى حد القول: لماذا على

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

سبيل المثال لا يتم إرغام المحكوم عليهم بالموت تحت المقصلة على ابتلاع كمية من ديدان الأمعاء كي نعاين بعد موتهم كيف تتطور هذه الحشرات داخل الأمعاء..

كذلك العالم "لويس باستور" وغيره من العلماء الذين وصلوا إلى درجة العمى إلى أن قال العالم لويس باستور "(Luis Pasteur)": "إن العالم الفيزيولوجي ليس إنسانا عاديا، بل هو عالم سيطرت عليه الفكرة العلمية التي يشتغل في إطارها، فهو لا يرى أمامه إلا الأجساد، والطبيب الجراح لا يوقفه صراخ ولا الدموع المؤثرة في سعيه لهدف العملية التي يقوم بها، وعالم التشريح بدوره لا يحس بأنه يوجد وسط مسلخة رهيبة، فهو يختفي وراء فكرة علمية تدفعه.

الصورة نفسها تجلت أثناء الحرب العالمية الثانية، فالجلاد النازي " جوزيف منجيل" (Josef Mengele) كان طبيبا في محتشد "اشويتز" (1943)، كان يجري تجارب على المسجونين بالغاز وتحقين الطاعنين في السن بعقاقير تجريبية.

كذلك الطبيب "كلوبرغ" (Carl Clauberg) الذي كان يبحث في عملية التعقيم أجراها على النساء وذلك بعملية التحقين مباشرة في الرحم، فهذا الطبيب كان في سباق مع طبيب آخر هو "هورست شومان" الذي كان يخضع الأعضاء التناسلية للأشعة السينية. واعتبرت هذه العمليات عند أحد أقطاب النازية "رودولف هيس" (Rudolph Hoss) تكريسا للتقدم الذي وصلت إليه الإنسانية حيث عبر قائلا: "إن الاشتراكية الوطنية ليست أكثر من تطبيق البيولوجيا".

بينما زعيم النازية "هتلر" (Adolph Hitler) معبرا عن ذلك في كتابه كفاحي (1923) قائلا: السياسة اليوم عمياء دون أساس بيولوجي.

من جذور الفكر البيوايثيقي في الفلسفة المعاصرة، ما جاء به الفيلسوف الألماني المعاصر "هانس يونس" صاحب مبدأ المسؤولية، الذي نادى فيه إلى مسؤولية الأطباء

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوأيتيكا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

والباحثين، لكن هذه المسؤولية ليس كما كان متعارف عليها، بناء على ما نحن عليه أو ما مر بنا من أفعال أو أحداث، وإنما تكون هذه المسؤولية على الأجيال القادمة لأنه أصبح بإمكان الباحث والعالم معرفه بالتطلع إلى مستقبل الإنسان من خلال المخزون الوراثي والتحكم فيه وتحويله، واختيار الصفات الجسمانية والعقلية إن طاب له فعل ذلك، وهو ما يؤثر على الأجيال المقبلة، وبذلك تصبح المسؤولية على أفعال الحاضر والمستقبل.

لقد تميزت فلسفه الحياة عند يوناس باعتبارها فلسفة بيولوجية، وبناء حياة في نظره تبدأ بالانطلاق مما كان يشتغل به البيولوجيون، وليس الشعور بالحياة كما كان يبدو عند فلاسفة الحياة الرومانسية.

في الوقت الذي ازدادت فيه الاكتشافات العلمية والبيولوجية مجتمعة في البيوتكنولوجيا المعاصرة، وبدلاً من السيطرة على الطبيعة تمت السيطرة على الإنسان، إلا أن الأمور أفلتت عن قبضة العلماء والباحثين وتجاوزت حدود المعقول إلى درجة المساس بكرامة الإنسان وقديسية حياته، وفي هذا المضمار يطل علينا الفيلسوف "هانس يوناس" بتصور جديد عرف بمبدأ المسؤولية، وفيه يجب أن تتساوى مسؤولية الإنسان مع تقدم التكنولوجيا ويعبر على ذلك صراحه: "إن مسؤوليات الإنسان يجب أن تسير بذات خطى استمرارية الحياة البشرية بالكيفية التي ينشدها كل فرد... ويجب أن تكون المسؤولية موضوعها الأساسي فهو يتتبع تلقائياً تقييماً للحياة في ذاتها، فهي بذلك تمثل العلاقة الجدلية بين الطبيعة والإنسان...¹، وهذا ما يطلعنا على حقيقة المشروع الأخلاقي الذي يريد يوناس بناءه، وفي نظره الأخلاق بالمفهوم الكلاسيكي لا تستطيع الإجابة على الأسئلة التي تطرحها الرهانات البيوتكنولوجية المعاصرة، لأنها أخلاق تقوم على علاقات بين الناس، لكن البيوأيتيكا تجعلنا نفكر في التزاماتنا تجاه الطبيعة في الوقت

¹ Hans Jonas. Pour une éthique du futur. Op.cit. P70

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

نفسه ونحن نتقرب الحاضر يجب علينا التفكير في المستقبل وهنا يضع يوناس آلية تحقق مبدأ المسؤولية وهي تبني مبدأ أولي هو كشف الخوف، ولا يعني بذلك الخوف من المسؤولية وإنما هو خوف يتقرب الخوف من اخطار التقنية وما ألحقته من تغيرات وتأثير على الإنسان، وهي الفكرة التي سيكون لها اثر كبير على الدراسات البيولوجية والبيئية من بعد...¹

رغم ذلك موقف يوناس البيوايثيقي يبدو واضحا من خلال قبوله التدخلات المعالجة للمرض لكن ليس كل التدخلات خاصة إذا كانت تمس بكرامة الإنسان وتهدد مستقبل الأجيال، في نظره الأولى على الأشخاص الذين يحملون أمراض وراثية عدم الإنجاب، كذلك موقفه تجاه الإجهاض كان واضحا فهو يرفضه إلا في حالة ما إذا كان يهدد حياة المولود، بينما الاستنساخ والنسالة فيرفضهما قطعيا لانهما يضعان مباشرة أمام مساءلات قد تتعدى قدرة العلماء الإجابة عنها (وهذا ما سنكشف لاحقا في أنطولوجيا الجسد).²

¹ جان فرانسوا دورتيي، معجم العلوم الإنسانية، ص322.

² سمية بيدوح، فلسفة الجسد، مرجع سابق، صص 106-107.

I. 3 المبحث الثالث: "هانس يوناس" والبيوتكنولوجيا

I. 1.3 أساس الفلسفة البيوتكنولوجية عند "هانس يوناس":

يشير "هانس يوناس" للتكنولوجيا المعاصرة على أنها وضعت القوى الإنسانية فوق كل شيء معروف، بل فوق أشياء لم تخطر على أحلامنا من قبل، إنها قوى فوق العادة وفوق الحياة على الأرض، وفوق الإنسان نفسه، وينظر الى التكنولوجيا على أنها أرقى تجليات العقلانية حيث أنها تجسد دقة الفعل الإنساني العاقل، وعلى الرغم من ذلك يمكن أن تتسم التكنولوجيا باللاعقلانية عند ما تكون خاضعة لاستخدام غير عقلائي¹.

سنحاول في بحثنا هذا أن نتطرق لنظرة "هانس يوناس" للبيوتكنولوجيا التي يطلق عليها اسم "الجراحات الجينية". إن ما يميز نظرة "يوناس" هذه هو تجاوزه تصورات وأفكار معاصريه من فلاسفة وعلماء حول التقنية عموماً، فهو يقترح علينا تحليلاً غير مسبوق للبيوتكنولوجيا، حيث يقدم لنا تحليلات ومقارنات حول التكنولوجيات التقليدية والممارسات البيوتكنولوجية في الجزء الأخير من كتابه "فن الطب والمسؤولية الإنسانية"² وكذلك في الفصل السابع من "محاولات فلسفية"³ يشهدان له على ذلك.

في جوابه عن السؤال ما هي البيوتكنولوجيا؟ "هانس يوناس" لم يتسرع للإجابة، حتى لا يعطيها المعنى الأدبي، فنظرته التحليلية والمتأنية جعلته يميز في البداية بين التكنولوجيات التقليدية والتكنولوجيات المعاصرة التي جعلت من الإنسان موضوعها المباشر، ومادتها الأساسية.

¹ وجدي خيري نسيم، الفلسفة وقضايا البيئة، أخلاق البيئة: هانس يوناس "نموذجاً. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2009، ص21.

² Hans Jonas. L'art médical et la responsabilité humaine. Trad. Éric Pommier. Paris. Cerf. 2012.

³ Hans Jonas. Essais philosophique, du crédo ancien à l'homme technologique. Paris. Vrin. 2013.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

مبدئياً البيوتكنولوجيا هي قبل كل شيء تغيير الهياكل، عكس التكنولوجيات القديمة التي هي في نظر "يوناس" ...تصميم ونتاج مادي معقد، موجه للاستعمال الإنساني¹.
لما كانت التكنولوجيات عموماً تعمل على صناعة نماذج مطلوبة بدافع نفعي، أو بعبارة أخرى صناعة مواد جامدة لخدمة الإنسان، فإن البيوتكنولوجيا تتقدم عكس ذلك تماماً لتغير مجرى ما هو موجود، فهي تتميز عادة بتغيير ما تم تصميمه².

إن هذا الانطباع للبيوتكنولوجيا إذا نظرنا إليها من زاوية التغيير تسمح لنا من جانب آخر من مشاهدة النموذج البيوتكنولوجي بمنطق التدخل، وهو الأمر الذي يتجلى لنا حقيقة في التصنيع المشترك للتكنولوجيا التقليدية، فالمهندس يكون وحيداً أمام مادة جامدة، وفي مثل هكذا منطق التصنيع المشترك، يصبح بالطبع المهندس هو الفاعل الوحيد الذي يصمم ويؤثر على المادة السلبية (الجامدة)، بالمقابل في الحالات البيوتكنولوجية، المادة تأثيرها ليس سلبياً وجامداً وإنما يتعلق الأمر بجهاز حيوي يساهم في التغيير والتصميم فالنظام البيولوجي يساهم بكثير في تغيير الكائن الحي المطلوب .

فبعض الدراسات أطلعتنا على أن بعض حالات البحث، يقوم فيها العالم بالتقليد والمساهمة في النظام الطبيعي فهو في حقيقة الأمر لا يمتلك أي هامش للمناورة، ان لم نقول إنه يترك نفسه مسيراً من طرف المادة الحية، وهو يأخذ فقط بعين الاعتبار آليات التأثير حسب خصوصية كل عضو بيولوجي.

إضافة إلى ذلك يطرح شكل التوقعات البيوتكنولوجية، وعدد كبير من التوقعات المجهولة، فإذا كانت الاحتمالات أو التوقعات مؤكدة في التكنولوجيا الكلاسيكية، فإنها تكاد

¹ Hans Jonas. L'art médical et la responsabilité humaine. Op.cit. 192.

² Hans Jonas. Idem. P193.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

تكون منعدمة في البحوث والتجارب البيوتكنولوجية، ومثل هذه الحالة تقودنا الى حالة فعل لا مناص منها لتصبح كخاصيات للبيوتكنولوجيا المعاصرة نفسها.

كما تطرح كذلك مسلمة الموضوعية، فالعلم والتكنولوجيا الكلاسيكيان مقيدان بالبديهية التجريبية وهذه التجارب يمكن تغييرها وإعادة النظر فيها أو تصحيحها، ليتم في الأخير قبولها أو رفضها كنموذج، لكن مثل هذه الاجراءات تكاد تكون مستحيلة في البيوتكنولوجيا المعاصرة عموما والتي تتعلق بالإنسان خصوصا.

إن التجربة في حقيقتها تكون حول عينة من البشر تصبح كفنران تجارب، وهذا ما عبر عنه "يوناس":..التجربة هي الفعل الحقيقي، والفعل الحقيقي هو تجربة خالصة.¹

في نظر "هانس يوناس" البيوتكنولوجيا لا يمكن لها أن تصحح أخطاءها على خلاف التكنولوجيات التقليدية حيث يستطيع العالم أو المهندس التحكم فيها وتحويلها، لأن المواد العضوية لها خاصية التغيير، عكس ذلك تماما علوم الأحياء لا يمكنها اصلاح ذات إنسانية كما تفعله العلوم الميكانيكية التي يمكنها أن تحول سيارات الى المصنع لإصلاح الأخطاء والأعطاب

هناك منطق آخر للبيوتكنولوجيا المعاصرة هو قدرتها على السيطرة وتشبيء عناصر العضوية بالرغم من الاختلافات الواضحة بين التكنولوجيات الكلاسيكية والبيوتكنولوجيا المعاصرة إلا أنهما يسعيان لنفس الغاية، وهي السيطرة والتشبيء، ولكن بغض النظر عن سلطة الانسان على الطبيعة على حد تعبير "فرانسيس بيكون" والتي تتحدد أساسا في التكنولوجيا المعاصرة، فإن البيوتكنولوجيا المعاصرة تجاوزت عتبة منطق السيطرة على الطبيعة لتصل الى عتبة السيطرة على الإنسان.

¹ Hans Jonas. Essais philosophique. Du crédo ancien à l'homme technologique. Op.cit. p 194.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

إن معاناة التطور عن طريق الهندسة الوراثية يبدو كخطوة ما قبل الأخيرة لبلوغ نبع الفتوة (Fontaine de Jouvence)، إلا أن هذا الإنجاز الكبير يحمل في ثناياه مشكلا جديدا للاستلاب والسيطرة التي سيخضع لها الانسان مستقبلا أمام اختيارات المخططين له، وذلك كله يحفزنا للنظر في الهدف الحقيقي الذي يحرك منطق البيوتكنولوجيات المعاصرة.

إن منطق التكنولوجيا التقليدية نجده في النظرة البراغماتية، بينما منطق البيوتكنولوجيا اليوم يأخذنا الى منطق تكنولوجيا الانسان على الانسان، حتى لا تدعي خلق الانسان لأنه مخلوق من قبل، وإنما تحاول خلق انسان جديد في صورة أحسن مما كان عليه من قبل انسان كامل، الا أنه يبقى هنا أن نحدد الأساس الذي يتم بمقتضاه معرفة صفات التفوق التي يبني عليها، نسبة الى ما تم تحديدها.

إن صورة البيوتكنولوجيا المعاصرة الخلاقة تضعنا أمام مسألة جديدة، وهي صورة الإنسان، وبذلك تتحدد لنا فكرة "يوناس" حول البيوتكنولوجيا المعاصرة على أنها تتمثل في ثلاثة أنظمة وهي:

-النظام المحافظ

-النظام المطور

-النظام الخلاق أو المستقبلي

-في نظر يوناس هذه الأنظمة البيوتكنولوجية تعمل حسب الحالات : حالة بسيطة، حالة قوية، حالة معقدة، وهي حالات مادتها الإنسان ككائن حي، وهذا ما يقودنا إلى الكلام عن مكانة ودور الإنسان في البيوتكنولوجيا عند "هانس يوناس".

I. 2.3 الإنسان في الفلسفة البيوتكنولوجية عند "هانس يوناس":

ان خيالات البيوتكنولوجيا المعاصرة لم تعد تهدف الى الوقاية والعلاج والشفاء، وإنما كذلك اصبحت تطمح الى فكرة تمديد حياة الانسان، بل وحتى تقرير وجوده بعيدا عن قدراته الطبيعية، وبذلك لا تعود الحياة نتاج الطبيعة، وإنما هي مصنعة، فلم يعد هناك تمييز ممكن بين البيولوجي والفيزيائي.

إن البيولوجي أصبح يصنع، يبني، يجمع، ويفك مثل أي مادة جامدة في الطبيعة، وهو ما عبر عنه "فرنسوا داغونني قائلا عن العلم: «بعد الوصف والتعرف ومحاولة المعرفة، العلم أصبح يتحكم اخيرا ويعيد التنظيم. وبالموازاة مع ذلك بدأ عصر البيوتكنولوجيا، أين اصبحت الضرورة ملحة للفصل بين علوم المادة وعلوم الحياة¹...»

ان القوة العلمية منحت للإنسان سلطة مطلقة يحاول فيها الانسان المخلوق اخذ مكانة الخالق، وهو ما جعل العالم الفيلسوف "سابرونتا نالين" يعبر عن مخاوفه مما آلت إليه البيوتكنولوجيا المعاصرة، وخاصة منها الهندسة الوراثية حيث يقول: "...لكن يبقى علينا ان نعلم هل يسمح لنا قانونيا تغيير الجينوم لأجيالنا المقبلة بهدف تحسينه حتى تزداد حظوظه ليكون عالما رياضيا؟ وابعد من الحالة القانونية للمسألة، كذلك هناك المعنى الاخلاقي الذي يفرض نفسه².

ان محاولة فهم الفلسفة البيولوجية عند "هانس يوناس" تستوجب علينا توضيح سيمانطيقا لفظ "تحسين الكائن البشري" وهي تأخذنا مباشرة الى معنى تغيرات الكائن البشري غير المبررة من وجهة نظر العلاجات الطبية، لكنها تهدف الى تحسين القدرات والمؤهلات وطباع الافراد.

¹ François Dagognet. la maitrise du vivant .Paris hachette. 1988. P95.

² Sapranta. D. Nalin. Liberté de procréation génétique .in. Raisons politiques. N.12 Nov. 2012. P31.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايْتِيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

العديد من العلماء يعتبرون تقوية المؤهلات او تغيير سلوكيات قد تسبب ضررا، لكن بالنسبة لمن استفاد من ذلك يعد امرا ايجابيا فيما يتعلق بنوعية الحياة بالنسبة إليه وللمحيط الذي كان ينتمي اليه.

إن مصطلح تحسين الكائن البشري يكون بمعنى ما يكون عليه في العمليات الطبية أو البيوايْتِيقية، والتي تهدف الى تغيير الكائن الانساني في احواله ومظاهره بكيفية تكون هذه التغيرات قد حققت تحسينات ملحوظة¹.

بالنسبة ل «هانس يونس» المسألة لا تطرح في معنى نوعية الحياة او قدسيتها ابتداء من الاختيار، أو في منظور الحياة، وإنما تطرح بالنظرة الحالية للعلم، فالمسألة تطرح بالنسبة للهوية والانطولوجيا اللتين يمنحانهما "التقنو-علميون" للكائن الحي.

ما يؤخذ عليه "هانس يونس" غيره في هذا المجال، هو تجاهلهم النظرة الأرسطية للعلم والطبيعة، وتمسكهم بالانتصارات العلمية الكبيرة وتأكيدهم على النظرة الثنائية بين الانسان والطبيعة، وبذلك يكون اهتمام يونس الأكبر هو محاوله تأهيل صورة الانسان والمحافظة على مكانته وفق أخلاق المسؤولية بأفاق مستقبلية.

I. 3.3 أخلاق المسؤولية

لقد حاول معظم فلاسفة البيولوجيا التمييز بين الحياة والعدم من أجل تعريف أدق لمعنى "الكائن الإنساني"، فكان ردهم بذلك واضحا على المثالية، فالبيولوجيا حاولت وضع تصور أكثر تلاؤم للحياة، يكون منطلقها العلم ذاته، ومتجاوزين بذلك الاختزال الذي طرحتة المادية

¹ Susan Braner. L'amélioration de l'humain par des substances pharmacologiques, Bulletin des médecines Suisses. N° 92. Berne. oct. 2011. P43

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

العلمية، وتطوير صورة علم قادر على تحديد وتفسير الصفات والخصائص المميزة للكائنات الحية.

إن أهم صعوبة اعترضت الفلسفة البيولوجية هي عدم تجاوز المادية العلمية وعدم قدرتها الاجابة على السؤال "ما معنى الحياة؟".

إن محاولة الإجابة عن هذا السؤال تفرض على العلماء التسليم مبدئياً أنه لا يمكن الفصل بين العلم وفلسفة الطبيعة من أجل فهم جيد للحياة، وهو ما أشار اليه "هانس يوناس" في مقدمة كتابه الشهير "مبدأ المسؤولية" حيث يقول: "...حاليا التحقيقات الجارية، كما أنها تريد أن تشق لنفسها طريقاً نحو أقصى حدود الفلسفة المثالية والوجودية، فهي كذلك تحاول بلوغ تخوم المادية لعلوم المادة، والقطبان في حقيقتهما متداخلان...¹"

إن التناقضات الكبيرة التي اكتشفها الإنسان في ذاته: كالحرية والضرورة، الاستقلالية والخضوع، الذات والعالم، العلاقة والانعزال، الإبداعية والأخلاقية لها كلها آثار ابتدائية في أشكال الحياة البدائية منها، فكل واحدة منها في توازن ظرفي أو عابر بين الوجود والعدم، وكل واحدة منها مزودة في ذاتها بأفاق التحول والسمو.

سنسائر في هذا الموضوع الغامض لكل نوع من الحياة في تطورها حسب نظام تصاعدي للملكات والوظائف العضوية: التحولات، الحركة والرغبة، الاحساس والادراك، التخيل، الفن، الفكر، تدرج تصاعدي من الحرية والمخاطر، إنه الذروة عند الإنسان الذي يستطيع أن يفهم وبتكاليف أقل ما ينفرد بامتلاكه، عندما يكف عن الاعتبارات الذاتية في عزلة ميتافيزيقية.²

¹ Hans Jonas. Le phénomène de la vie. De Broeck. Université de Bruxelles. 2001. p09

² Hans Jonas. Le Phénomène de la vie. Idem. P20

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

إن قوة الفلسفة البيولوجية عند "هانس يوناس" تتمثل في تلك الجهود الكبيرة التي استغرقت وقتا طويلا في التفكير حول الشعور الانساني والتجريب، حيث أثبت وجود أبعاد لوجودها تتجاوز العلوم التقليدية.

نفهم من توجه "يوناس" أن مشروعه حول "البيولوجية الفلسفية" يحاول فيه إحداث تصالح بين علوم البيولوجيا وظواهر الحياة التي تفلت عن القوانين الفيزيائية-الكيميائية مقوضا بذلك الهوة بين المثالية والواقعية، وبين الروحانية والمادية.

إن هذا المشروع جلب انتباه العديد من العلماء الذين تأثروا أو انجذبوا للميتافيزيقا التي جسدها "شارل سندرز بيرس"، "هنري برغسون"، "ألفريد وايتهيد" وغيرهم... وهي الفكرة نفسها التي جسدها "هانس يوناس" من أجل رفض ثنائية تمثلت في نسقية بين المثالية والواقعية، وذلك من أجل معاينة جيدة للعلوم البيولوجية، وفي الوقت نفسه يجعل من معنى الفلسفة البيولوجية أكثر وضوحا.

I. 4.3 الفلسفة البيولوجية عند "هانس يوناس": من الفينومينولوجيا إلى فلسفة الحياة:

الكلام عن الفلسفة البيولوجية سيكون بعيدا عن اعتبارات تاريخية كما جرت العادة على حد قول "توماس برادو": الفلسفة البيولوجية تعني الدراسة النقدية للأسس المفاهيمية النظرية والمنهجية لعلوم الأحياء المعاصرة.¹

مبدئيا يجدر بنا أن نحدد أن أصل الفلسفة البيولوجية التي تعود إلى الفيلسوف اليوناني "أرسطو" والذي يعد أول من أقر فلسفة البيولوجيا.²، لكن هذه الأخيرة عرفت تحولات جذرية مع الفلسفة "الكانطية"، إلا أنه مع ذلك وبعيدا عن الأصول الأرسطية والتأثيرات "الكانطية"،

¹ Thomas Pradeu. Philosophie de la biologie. In. Précis de philosophie des sciences. Paris. Vuibert. 2011.

² Aristote. Histoire des animaux. Trad. J. Barthélémy. Saint Hilaire. Paris. Hachette. 1965. P83

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

عرفت الفلسفة البيولوجية تقدما كبيرا مع فينومينولوجيا "هوسرل" وهذا ما جعل الاعتقاد عند غالبية الفلاسفة المعاصرين أن هذا الموضوع لا تكتمل صورته إلا مع "فينومينولوجيا هوسرل". في التحليل المفاهيمي "الشك الديكارتي" ما يمكن استخلاصه هو أن "الديكارتيّة" عموما لا تفهم إلا في السياق الفلسفي السائد لتلك الفترة، لكن ذلك لا يعني أننا سنلغي الديكارتيّة كلية، وهو الأمر الذي جعل "هوسرل" يستند إلى "الكوجيتو" الديكارتي لتأسيس الفكر الفينومينولوجي فهناك علاقة تناظرية بين "التأملات الديكارتيّة" و" تأملات هوسرل".

كان هدف ديكارت هو تأسيس علم صارم، وهي رياضيات عالمية، وفي نفس التصور أراد هوسرل تطوير الفلسفة كعلم صارم والتي تكون بدورها أساس كل العلوم الأخرى. يعتبر "هوسرل" أن كل فلسفة أصلية يجب أن تؤسس¹، بالرجوع إلى الأنا المفكرة¹، وما يؤكد عليه "هوسرل" في تأملاته هو الشك المنهجي الذي تنحصر مهمته في رفض كل ما هو بالتأكيد غير مؤكد، ولذلك فالعالم يجب أن يوضع في حالة مؤقتة والأنا الخالص وحده لا يمكن محوه حتى ولو لم يكن العالم موجودا²، فالأنا يختزل، وهو وحده يستطيع أن يجد في باطنه مظهرا خارجيا موضوعيا³.

الاختزال الفينومينولوجي "لهوسرل" يشبه إلى حد ما الاختزال الديكارتي، لكنه يرجع إلى الظواهر بمعنى آخر، إلى الأشياء ذاتها عن طريق مراجعة نقدية، إذا كان الشك الديكارتي ينتقل من الأنا المفكرة إلى الجوهر المفكر حيث "... أن الجوهر كله أن يفكر..."، فإن الموضوع بالنسبة إلى هوسرل هو ما يتم فهمه كأمر متعالٍ (خالص)، إن الأنا المتعالٍ (المتأمل) هو

¹ إدموند هوسرل، تأملات ديكارتيّة، تر: تيسير شيخ الأرض، الدار المصرية للنشر، ص16.

² إدموند هوسرل، المرجع السابق، ص3.

³ إدموند هوسرل، المرجع نفسه، ص3.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

الأصل لكل التأكيدات وكل المبررات الموضوعية¹، وفي هذا الأساس طور هوسرل فكرته الفينومينولوجية، التي يبدو أن تأثير أستاذه "فرانز برينتانو" فيها له دور كبير.

لقد كان الاعتقاد أن "فينومينولوجية هوسرل" ستحدث ثورة في الفلسفة المعاصرة بعد الثورة الأولى التي أطلقها ديكارت في الفلسفة الحديثة، إلا أن هناك أصوات كثيرة منتقدة لفلسفة "هوسرل"، فهناك من اعتبرها انها مثالية، فالتيار الأنثروبولوجي والفلسفة البيولوجية لم يترددا في رفض "المثالية الهوسرلية"، لكنهما تمسكا بالطبيعة النقدية حول تطور الفيزياء الرياضية، وانخرطا في "هيرمونيظيقا" "هوسرل" التي ورثها عن الكانطية الحديثة وأخذا عنه خاصة الأرسطية التي ورثها عن أستاذه "فرانز برينتانو".

وهكذا البيولوجية الفلسفية تم تطويرها لوضع قاعدة للأنثروبولوجيا الفلسفية².

إن الاجابة عن السؤال الرابع الذي طرحه "كانط": ما هو الانسان؟، "يحدده" ماكس شيللر" في "مكانة الانسان في الطبيعة"، ليوضح مفهومه للكائن الإنساني، اهتم " شيللر " بالنبات فاستخلص أن جانب الحياة فيها سلبي، وذلك لغياب الوعي فيها، ولذلك يتحدد وجودها في الأكل، النمو، التكاثر والموت، دون أي مدة حياة مخصصة، وبالنسبة "شيللر" المرحلة الأولى للحياة الداخلية موجودة في كل الحيوانات حتى الإنسان³.

من خلال هذه المفارقة بين عالم الحيوان والنبات، هذا الأخير تتعدم فيه أي حياة داخلية، والشعور الحيوي عند شيللر " يكمن في الوعي، هذا الوعي الذي يتحول إلى أساس يحدد الإنسانية.

¹ إدموند هوسرل، المرجع نفسه، ص22.

² Frantz Brentano. Psychologie du point de vue empirique. Paris Vrin .1965. P102

³ Max Schiller. Man's place in nature. Trad. Hans Mayer holf. New York. Moon Day. Press. 1968. P13.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

إن تأثير "هوسرل" على فلسفة الحياة استغلها "مارتن هايدجر" الذي حاول تطوير مفهومه للوجود الإنساني المهيكل مؤقتا فيرى أن الحجر ليس له عالم، والحيوان فقير في العالم، أما الانسان فهو كل شيء في هذا العالم.¹

إضافة إلى ما سبق الفينومينولوجي "موريس ميرلوبونتي" يذهب في نفس الاتجاه من الذين سبقوه.

يمكن لنا ان نقول ان نقطة المنطلق هذه لتطوير مفهوم الانسان تاريخيا، ينتمص ليمتلك كل الوعي بهذا الوجود في العالم.

إذا كنا نريد معرفة الفرق بين الكائنات الحية والآلات، يجب ان تكون الحياة نقطة اهتمامنا الاساسية ولعله هو ما يكون الحدود الفاصلة بين الاحياء وغير الأحياء.

وفي هذا السياق بالضبط انصبت دراسات "هانس يوناس" التي ارادت إعادة الاعتبار للبيولوجيا الأرسطية انطلاقا من الفينومينولوجيا، ومعارضة الفكر الديكارتي في نفس الوقت. يرى "يوناس" ان اللغة العالمية (الكلية) للفيزياء الرياضية لتفسير كل ظواهر الحياة ستفشل لا محالة أمام أبسط صورة لحياة "الاميبيا".

إن الاميبيا جزء من هذا الكون، ومبدأ الخلق للكون يجب ان يأخذ ذلك بعين الاعتبار. إن الصغر لا يعني عجزا في الصلة الوثيقة بالوجود، إن وجودها كمخلوق يعد شهادة جوهرية، وهي جزء من شهادة عامة، يجب أن نسمع، لأن كلمة جوهر لها معنى كامل المواصفات.. فهو يتضمن كيانه الداخلي الخالص..²

¹ Martin Heidegger. L'être et le temps. Paris. Gallimard. 1964

² Hans Jonas. Le phénomène de la vie. Op.cit. P76.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

يرى "يوناس" أن الحياة والكائن الحي لا يمكن اختزالهما في الحتمية العلمية وإنما يمكن ترجمتها عن طريق ثلاث خصائص أساسية.

-الأولى : التمثل الثنائي لقوة التحول (الأبيض)، والتي تظهر عن طريق الحرية وقدرة تغيير مادتها.

-الثانية : وهي التي تبلغها بالرجوع نحو العالم الخارجي، في عالم أبوة خاصة من الخضوع والإمكان.

والثالثة: وهي أهم خاصية للحياة وهي الحياة الباطنية (الخفية)، التي نشعر بها بصوتها الضعيف¹.

I. 5.3 "هانس يوناس" وما بعد الفينومينولوجيا:

تعليقا عن الفينومينولوجيا؛ كان يوناس يشعر دائما أنه مدان لأستاذه الأول "هيدجر" الذي كان طالبا للتعليم في مادتها، وفيها احترام الظواهر، والخدمة الصارمة في وصفها، تضع لها مواصفات عالية عنده في "فريبورغ" فيقول: "... أقر بامتنان أن الفينومينولوجيا هي فلسفة أصبحت أروع مدرسة تجهدنا على الإجابة... تربية الحدس يمثل ربحا لكل الحياة بالنسبة لمن يتبعها، وسبب الحدس الذي كان مرتبطا بها منذ الفكر الصوفي الأول².

رغم الأثر الكبير للفينومينولوجيا على الفكر المعاصر، إلا أن ذلك لم يمنع "يوناس" من الإشارة الى حدودها، كونها لا تذهب الى أبعد من الوعي الخالص ويصرح عن ذلك قائلا:

¹ Hans Jonas. Le phénomène de la vie. Op.cit. P83

² Hans Jonas. Pour une éthique du futur. trad. S. Comille et P. Evernel. Paris. Rivages. 1998. P28...

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

من جانب آخر تولدت لدي شكوك حول القدرة الكافية حول هذه العقيدة، خاصة فيما يتعلق حدها عند الوعي الخالص..¹

في محاولتها اختزال كل الظواهر في الوعي الخالص، الفينومينولوجيا تجاهلت شرح وفهم الظواهر الجسدية، حسب "يوناس" خطيئة الفينومينولوجيا من منظور "هوسرل" انها تبقى صامته حول معنى الظاهرة الجسدية، حيث يكون من المستحيل حل معادلة (الجوع) «... ماذا يمكن للفينومينولوجيا من النوع "الهوسرلية" أن تقول أمام معطى: أنى جائع؟ لو أننا افترضنا وجود فينومينولوجيا احساس بالجوع والشبعة، ماذا يمكنها أن تقول في هذه الحالة؟².. في نظر "يوناس" الفينومينولوجيا المثالية عند تأكيدها على الوعي الخالص خلصت الى نسيان الظواهر الجسدية التي هي في قلب المشاكل للعدالة الاجتماعية، منها التقسيم العادل للممتلكات، وهذا ما يجعلنا نقول (يوناس) أن الفينومينولوجيا لن تتمكن من جعل الفلسفة علما صارما.

ويقول "يوناس" معبرا عن الفينومينولوجيين: "هم كذلك لم يستطيعوا أن يصنعوا من الفلسفة علما صارما..."³ والوعي الخالص للفينومينولوجيا هو خالص جدا لهذا العالم لحجة واحدة هي: "...إن العلاقة الأولية بين العالم والانا ليس الحدس"⁴.

¹Hans Jonas. Pour une éthique du futur. Op.cit. P29.

² Hans Jonas. Ibid. P29.

³ Hans Jonas. Ibid. p28.

⁴ Hans Jonas. Ibid. p31.

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

لقد كان تحول يوناس نحو الفلسفة الوجودية ل " هايدجر " التي يعتبرها بمثابة هزة أرضية انهار من جرائها كل النموذج البصري تقريبا للفينومينولوجيا.¹

ويعود الفضل ل " هايدجر " انه أعطى أهمية وخصائص الكائن، فأخرج مسألة الكائن من النسيان التي وقع فيها.

رغم المشروع الذي قدمه "هايدجر الذي نزع من النسيان مسألة الكائن، إلا أن ذلك لم يمنع "يوناس" من أن يأخذ مسافات عن أستاذه ويؤاخذه على مسائل تتعلق به، كارتباطه بالنازية وأطلق عليها "بالكارثة الفلسفية".

كما يؤاخذ "يوناس" أستاذه عن تخليه عن "الجوهرية"، فأصبح موضوع الإنسان هو "الوجود" أو بعبارة أخرى الموضوع يصبح "أداء لطريقة الوجود".²

كما يؤاخذه كذلك على التأكيد على الموت في الحياة الإنسانية، لأن هايدجر لم يعالج مسألة الجسد، وهذا ما يجعل في الأخير مسألة الموت معنوية..³

بالنسبة ليوناس " لا وجود للفكر دون جسد، وهذا الأخير يمثل هيكل الوجود وبذلك محاولة "يوناس" هي تطوير فلسفة الحياة التي تجعل في المقدمة وحدة الكائن عن طريق وحدة المادة والفكر.

¹ Hans Jonas. Pour une éthique du futur. Op.cit. ... p46.

²Hans Jonas. Ibid. P33.

³Hans Jonas. Ibid. P40.

خلاصة الفصل الأول

لقد تم في هذا الفصل تحديد أهم تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة والبيوايتيقا، ومن خلاله سعينا للولوج في تحديد بعض أهم تقنياتها، كالهندسة الوراثية، الجينوم البشري، الاستنساخ والموت الرحيم، وكانت الغاية من ذلك هي توضيح التأثير الكبير الذي تركته هذه التقنيات العلمية على الإنسان كموضوع لها، أين أصبح الجانب المادي منه يلعب دورا أساسيا في وجوده، وحتى في مفهوم قدسية الحياة ذاتها، بينما الجانب المعنوي الروحي منه لم يعد يحظى بتلك المكانة المتعالية والمقدسة، فبقدر ما ازدادت البيولوجيا عموما والبيوتكنولوجيا خصوصا تطورا من خلال اكتشافاتها، أصبحت أكثر تشويقا في المعرفة الإنسانية، وازدادت معها مخاوف العلماء والفلاسفة لما أصبح يهدد الإنسان المعاصر في حياته وكيانه.

إن ما أطلعنا عنه التقنيات البيوتكنولوجية المعاصرة من حقائق عن الذات الإنسانية، كان وفي وقت قريب يعد من المقدسات التي لا يمكن التطرق إليها، إلا بالنظر إليه من الجانب اللاهوتي أو الميتافيزيقي (الديني أو الفلسفي)، فهذا التطور أحدث خلافا في تحديد مفهوم الذات الإنسانية، مما أدى إلى ظهور أفكار جديدة مع فلسفة ما بعد الحداثة، كانت نتيجتها هي القطيعة بين الفكر الفلسفي القديم والحديث من جانب، والفكر الفلسفي المعاصر من جانب آخر.

كما بينا في هذا الفصل ان أول ما نتج عن هذا التحول هو ظهور أخلاق جديدة مهمتها هي إعادة تقييم الاكتشافات العلمية وبيان قيمتها المعرفية، وتمثلت هذه الأخلاق في "البيوايتيقا"، حيث تم تحديد علاقتها بالبيوتكنولوجيا باعتبار ان هناك علاقة سببية مباشرة بينهما، فالممارسات البيوتكنولوجية والاختلالات التي أحدثتها هي التي استدعت إلى ضرورة وجود البيوايتيقا. ثم بعد ذلك عرضنا علاقة البيوايتيقا بالفلسفة، لأن الخطاب الفلسفي المعاصر على غرار الفيلسوف "هانس يونس" وغيره من الفلاسفة المعاصرين أثبتوا أن الفلسفتين القديمة

الفصل الأول: تقنيات البيوتكنولوجيا المعاصرة، البيوايثيقا وعلاقتها بالفلسفة اليونانية

والحديث لم تعودا مجديتين مع الفكر العلمي المعاصر، وبذلك البيوايثيقا جاءت كأخلاق جديدة لفكر جديد بين من يرون بضرورة الكف من الممارسات البيوتكنولوجية، والرجوع إلى القيم الاخلاقية في كل الاكتشافات المعاصرة، ومن جانب آخر بين من يرون بعدم إيقاف عجلة العلم التي تعبر عن عبقرية الإنسان وتمكنه من كل مجالات الطبيعة بما فيه ما يتعلق بالإنسان ذاته.

إن الكلام عن البيوتكنولوجيا المعاصرة وما ألحقته بالحياة الإنسانية يتطلب حتما في إطار موضوع بحثنا هذا الكلام عن الفيلسوف "هانس يونس"، لذلك استعرضنا فلسفته البيولوجية، فكانت الانطلاقة من "أسس الفلسفة البيولوجية" ثم عرض الفلسفة الفينومينولوجية التي تعد الركيزة الأساسية لكل فلسفة "هانس يونس"، وكيف استطاع تجاوزها نحو فلسفة جديدة، أصبحت تعرف عنده "بفلسفة الحياة" لكن ليس بالمفهوم الكلاسيكي وإنما بمفهوم جديد وضع على إثرها ما يعرف عنده "فلسفة البيولوجيا"، والتي ستكون منطلق الفصل المقبل (فلسفة الحياة) من أجل استكشاف حقيقة الفلسفة البيولوجية هند "هانس يونس".

II. الفصل الثاني: فلسفة الحياة عند "هانس يونس"

- المبحث الأول: أساس فلسفة الحياة عند هانس يونس
- المبحث الثاني: صورة الانسان في الفلسفة البيولوجيا عند هانس يونس
- المبحث الثالث: تخوفات هانس يونس من البيوتكنولوجيا ومخلفاتها

تمهيد

لقد وضع "هانس يوناس" تصورا مخالفا للذي وضعه "ديكارت" لثنائية الحياة والكائن الحي وذلك انطلاقا من مبدأ ملاحظاته التي تجلّأها في مذكراته " ... أن واقع العالم إذا لم نتركه يحمل من الثنائية، فإن الفضل في مسألة التأثير هو أنه أنتج الحياة في سلسلته الصاعدة للنشاط الحسي. والإنسان من هذا الجانب هو كذلك تعمد وعيا منه.¹

ومن هذا المنطلق حاول "يوناس" تجديد الغائية الأرسطية التي هي الغاية التي تناقض النظرية الآلية للقرن الثامن عشر.

أثناء عرضه شرح مبدأ السببية أراد "أرسطو" استخلاص الغاية الكامنة في طبيعة الأشياء، فالغائية تبدو فيها كتجسيد ضروري، لكن مع ظهور "الأورغانون الجديد".² وانتقاد الغائية، لم يقبل "يوناس" ذلك في مجمله، وحول التشكل البشري (Anthropomorphisme) يرفض الاعتقاد القديم الذي كان هدفه "تحويل العالم عن السعي نحو الأسباب الحقيقية".³

بالنسبة ليوناس "إقصاء الغائية كان حكما قبليا للعلم الحديث"⁴، فالغائية تعد مرحلة أساسية في تشكل الإنسان، والسير ضدها يعني رفض تشكل الإنسان الذي يعني أن أي شيء في عملية التطور يجب أن يتحقق في شكل وحدة نفسية-فيزيائية في أقصى اكتمال وجودي.⁵

وبذلك المعركة ضد الغائية هي مرحلة لمعركة ضد تشكل الإنسان كما يعتقد في العالم الغربي.

¹ Hans Jonas. Souvenirs. Paris rivages. 2005. p264

² فرانسيس بيكون، الأورغانون الجديد، تر: أ. د. منذر محمود محمد، 30- 08- 2016، دار الفرقد للطباعة والنشر، مصر، ص187.

³ Hans Jonas. « Note sur l'anthropomorphisme », in le phénomène de la vie. Vers une biologie philosophique, trad. D. Lorries, De Broeck université, 2001, p46.

⁴ Hans Jonas. « Note sur l'anthropomorphisme », Idem, p46

⁵ Hans Jonas. « Note sur l'anthropomorphisme », Ibid. P33

"الغائية اليونانية" هي أن ن فكر " الكائن الإنساني " في مصطلحات السببية النهائية، ونحن ن فكر في الطبيعة.¹

الإنسان في الأساس هو نتاج تطور تدريجي لا يمكن أن يكون مجرد نتيجة بسيطة لإستخلاف سببي، والحياة ليست نتيجة التقاء عشوائي لتحويلات نفسية -فيزيائية أو تحولات آلية.²، في حالة ما إذا كان التكوين يرفض بحزم النموذج الميكانيكي.

يجدر بنا أن نؤكد أن الغائية تناقض الأسس الميكانيكية، وهي الفكرة التي غزت علوم الحياة التي اختزلت الحياة الإنسانية في مجرد أشياء بسيطة، حتى وإن كانت البيولوجيا تفسر ظهور الكائن الحي عن طريق التطور، الذي يخضع لقوانين واضحة في موضوع الحتمية، لكن الكائن الحي يبقى مشروطا في حالة ما إذا كان ظهوره ناتجا عن لقاء عرضي لمجموعة من الظروف.³

¹ Hans Jonas. « Note sur l'anthropomorphisme » Op cite. P46.

² Hans Jonas. Souvenirs. Op.cit. P265.

³ Hans Jonas. Aspect philosophique du Darwinisme .in. Le phénomène de la vie. Ibid. P54

II. 1 المبحث الأول: أساس فلسفة الحياة عند "يوناس"

II. 2.1 "هانس يوناس" والوضع الأنطولوجي للحياة

إن ظهور الحياة يمثل شيئاً متميزاً في الطبيعة، إنها لحظات غير مسبوقه، وبالنسبة لـ"يوناس"، الحياة تكمن في واقع الحرية نسبة للمادة¹، فالمادة الجامدة تتميز أنطولوجياً بهوية فارغة، حيث طريقة وجودها سهل، دائم وثابت، فهي وجود في ذاته، يخضع للسيطرة. من وجهة نظر فينومينولوجية تبدو المادة كشيء فردي، مثل ذلك شكل حجر، فهذه الهوية الفردية عرضية، فهي ليست من الشيء ذاته، وإنما من الذي يلاحظها كما هي، لكن الكائن الحي بكل أبعاده وبالمقابل من المادة (هوية فارغة) فهي نقيض قضية حقيقية، لا يكون كائننا حياً إلا هذا الكائن (الإنسان) الذي يحتفظ بديمومة وكذلك هويته، بشرط أن يحقق تبادلاً مستمرا في حياته بكل دعائمه المادية.

إن عملية الأيض (التمثيل الغذائي) (Le Métabolisme)، هي الشرط اللازم لكل وجود عضوي، وفي هذه الأثناء "يوناس" يلاحظ عدم مشاركة الحمض النووي (الدنا) في عملية التمثيل الغذائي (الأيض) في مهمتهما الزمكانية² ويقول في هذا الصدد: "...اكتشافات حالية في الميكروبيولوجيا تشير إلى أن مجموع الجزيئات للحمض النووي الكروموزومي الموجودة في كل خلية تمثل الشفرة الوراثية التي تراقب التمثيل الغذائي (الأيض) لباقي الخلية وهو مع ذلك معنى من عملية الأيض بمعنى أنه ليس موضوعاً في التبادل³.

¹ Hans Jonas. Le Phénomène de la vie, vers une biologie philosophique. Trad. De Lorries. Bruxelles. De Broeck. Université. 2001. p27.

² Hans Jonas. Note sur la non-participation de l'ADN au métabolisme. In phénomène de la vie. Op.cit. P107.

³ Hans Jonas. Note sur la non-participation de l'ADN au métabolisme. Ibid. P107.

عملية التمثيل الغذائي (الأيض) وهي الاسم الانطولوجي¹ تعد المعيار المحدد للكائن الحي. الخاصية المحددة لما هو حي، فكل ما هو حي يمتلكه، ولا يمكن لأي كائن غير حي أن يمتلكه.² فإذا كان "الدنا" غير معني بعملية الأيض وهو المبدأ المنظم والمتحكم في الحياة، فلا يمكن إذا اختصار كتاب الحياة في الدنا، فالكائن موجود وهو ليس فقط وجود، وإنما هو تصور أنطولوجي وطباع خالص للفرد.

بالنسبة ليوناس "الشكل العضوي هو" الخاصية الجوهرية للحياة³، والكائن الحي هو كائن متميز في الوجود بما أن الاختلاف بين الشكل والمادة ليس العقل، وإنما هو اختلاف حقيقي تميزه هويته الفردية ذات خصائص، أهمها: الوحدة التي تتشكل في لحظة بالمقابل من المادة الجامدة التي في كل لحظة في وجودها هي نفسها لسابقتها⁴.

يضع "يوناس" في مقدمة كتاب "تطور الحرية" وكتاب "ظاهرة الحياة" أساسا أنطولوجيا خالصا للحرية، إذ يجب إزالة أي دلالة عقلية لمفهوم الحرية... و هذه الحرية يجب أن تحدد أسلوب حياة يمكن تمييزها بموضوعية...⁵

وفي سياق كلامنا عن الحرية نجد مثلا الحيوان يتمتع بحرية أكثر من النبات، لكن صورة الحرية الكاملة نجدها عند الإنسان، والتعبير الأكثر ظهورا للحرية هو وجود اللغة أو التمثيل اللغوي حسب "يوناس"، وبالنسبة للإنسان حريته هي ضرورته.

¹ Hans Jonas. Evolution et liberté. Paris Rivages. Op.cit. P132.

² Hans Jonas. Evolution et liberté. Idem. P132.

³ Hans Jonas. Dieu est-il mathématicien ? La signification du métabolisme. Le phénomène de la vie. Vers une biologie philosophique. Trad.de D. Lorries. BRUXELLES. De Boeck. Université.2001. P90.

⁴ Robert Theis. Jonas, Habiter le monde. Paris. Michalon. 2008. p40.

⁵ Hans Jonas. Le phénomène de la vie, vers une philosophie biologique. Op.cit P15.

انطلاقاً من الوعي الأنطولوجي للحرية، نجد الرابطة المبنية بين الركيزة المادية والكائن الحي، ونستخلص بذلك ان الكائن الحي يخضع للمادة، وهكذا فالكائن الحي وجد ككائن يستطيع أن يتلقى من المادة.¹

عبر الوضع الأنطولوجي للحياة يتجلى لنا موقف " يوناس " الراض للغنوصية (Gnosticisme)، فالكائن الحي عنده يكون خاضعاً لوقائع الحياة. "وتعالى الإنسان بالنسبة للعالم يرتبط بلزوميته له، فهو يعتمد عليه بينما الغنوصي يريد أن يتحرر من هذا الخضوع، فهو يريد أن يكون خارج هذا العالم.²

بالنسبة لـ "يوناس" الحياة تحمل في طياتها الموت، وهذا ما جعله يسعى الى التساؤل حول مغامرة الموت، فخلص الى أن الذي يصنع الفارق بين الإنسان والمادة الجامدة هو الموت، وهو ما يعبر عنه " في الأزمنة الغابرة، اشتكى الأموات عن موتهم وكانوا يحلمون بالإفلات منه، وكانت آمالهم في العثور على حياة الخلود. ويؤكد يوناس "...و انا أعني هنا الإنسان، فمن كل المخلوقات الإنسان وحده يعلم أنه سيموت، والإنسان وحده يبكي أمواته ويتذكر أمواته، وبذلك يكون الموت العلامة المميزة للإنسان... وكلمة الموت أصبحت تعني الإنسان وحده، بالمقابل للخلود أو عدم الموت الذي يخص الحياة الأبدية للآلهة.³

كان ذلك هو الهاجس الذي يمارسه الموت على الإنسان، ويعد ذلك عبئاً ثقيلاً عليه، وامام هذا الطغيان للموت، نجد يوناس يجانب الحوار الذي وضعه " هايدجر " في جانبه الروحي (الغنوصي)، لكنه لم يتوقف عند هذا الحد المتمثل في القلق الذي يحدثه الموت في الوجود،

¹ Hans Jonas. Le phénomène de la vie, Op.cit. P93.

² Robert Theis. Jonas, habiter le monde. Op.cit. P41.

³ Hans Jonas. Le fardeau et la grâce d'un mortel. In. Gilbert Hottois. Aux fondements d'une éthique

Contemporaine. Hans Jonas et H.T. Engelhardt. Paris. Vrin. 1993. P39.

"يوناس" يخص به الانسان الذي يستطيع أن يميز ذاته عن بقية الكائنات الحية والمادة الجامدة عن طريق الوعي، وبذلك ابتداء من هذه الانطولوجيا تتقدم امامنا الفلسفة البيولوجية اليونانية.

II. 1.1 نقد النظرية الآلية

النتيجة التي استخلصها يوناس من التطورية الداروينية هو التباين اللاجيني، فالحياة تعني التبادل في العضوية، والتكيف المطلوب من البيئة، هذا التبادل يفترض تحولا للجوهر أو ما يطلق عليه يوناس " حامل الحياة نحو الوظيفة ونظام العلاقات الموجودة فيه، وهو الذي يكون جانبا آخر للتركيبية بين الضرورة والطوارئ،

وفي هذا المضمار يتساءل "يوناس": ما مجال كل واحد من الأسباب على التوالي؟

فهو يجب ودون أي لبس بالعبارات التالية: "نظريا، ميكانيكيا، الانتقاء الذي لا تتدخل فيه النهاية يأخذ مكان الغائية، فهي التي تقرر جدارة المادة التي تمنحها لها الصدفة فتعملها وفق مواصفات حتى وإن كانت ميكانيكية تفضل التطور في بعض الاتجاهات.¹

لقد استخلص "يوناس" نتائج فلسفية مذهشة في وصف هذه الحالة: إنتاج أشكال تتكيف مع الوسط تشكل في نظره انحراف بالنسبة "للبراد يغم" الذي كان في الأصل. فماذا لو تدخلت عوامل خارجية عن الجهاز، بمعنى من الوسط الذي يفرض ذلك التكيف ففي هذه الحالة النظام المرتفع لحيوان أو إنسان سيبدو مسخا عملاقا كما اعتقدته "الأميبيا الأصلية" عبر قصة طويلة من المرض.²

"يوناس"، يرفض الخصائص الجسدية التي يستعملها المعاصرون لشرح أسباب الحركات بدلا من الأشكال الجوهرية (الروح) التي استعملت عند أرسطو وفلاسفة القرون الوسطى. لكن

¹Hans Jonas. Aspect philosophique du Darwinisme. Op.cit. P61.

²Hans Jonas. Aspect Philosophique du Darwinisme. Ibid. P63.

مفهوم الانحراف يفقد معناه عندما لا يكون الجوهر، لأن رفض أشكال جوهرية يجعلنا نتساءل: «هل البيولوجيا الميكانيكية تستطيع أن تعيد للظواهر الحياة حقها؟¹

في نظر "يوناس" العملية التطورية ليست ضرورية، فهو في لب السببية الميكانيكية وهي التي يعبر عنها "يوناس": بالسببية الفعالة (غائية) هذه السببية الفعالة موجودة في لب المادة التي هي مصدر الحياة، الى غاية ظهور الفكر، وهو ما جعل "يوناس" يتكلم عن «خطة أولية للنمو والتطور.² أو ميل للطبيعة.

انطلاقا من الأشكال الجوهرية والسببية الديناميكية (الغائية) وضع "يوناس" التشكل البشري (Anthropomorphisme) الذي يقابل فكرة المركزية الإنسانية (Anthropocentrisme) المهيمنة.

II. 1.1.1 "هانس يوناس" والمركزية الإنسانية

كان الاعتقاد السائد منذ زمن طويل أن الإنسان يمثل الكيان المركزي الأكثر دلالة في الوجود، ففي الفلسفة اليونانية النبات والحيوان هي الروح المغذية، لكن الحيوان يتمتع بروح حسية التي يعبر من خلالها عن اللذة والألم، لكن الإنسان يمتلك ملكات غذائية، حسية وفكرية،

¹ Hans Jonas. Aspect Philosophique du Darwinisme. Op.cit. P63.

² Hans Jonas. Aspect Philosophique du Darwinisme. Ibid. P92.

وبفضل هذه الأخيرة التي هي غير فانية وغير مادية تجعله يشترك في الطبيعة الإلهية لكن هذه المركزية البشرية المهيمنة لم تدم وقتا طويلا، حيث في منعطف القرن العشرين بقليل سحب "تشارلز داروين" "المركزية الإنسانية" لـ "ليتم" "سيغموند فرويد" سحب وصاية الإنسان، وجعل منه مجرد كائن غرائزي، ويطلق عليه فكرة الجرح النرجسي.

لقد أسقط الإنسان من عرش الوصاية عن طريق "داروين"، وفلسفة الشك (ماركس، نيتشه، فرويد) من بعد هذا السقوط أعلن عن نشأة تشكل بشري سيجعله "يوناس" دائما، وبذلك يكون التشكل البشري (anthropomorphisme) هو التوجه الذي جرد الإنسان من الوصاية وسلم للأشياء الطبيعية والحيوانات وحتى المخلوقات الأسطورية صفات خاصة بالإنسان. لم يعد الإنسان يمثل قمة الخلق حتى يدبر أو يدير شؤون المخلوقات الأخرى، فهو مخلوق ككل المخلوقات الأخرى.

هذا الاعتراف هو الموقف الاستيمولوجي للفكر "اليوناسي" وهو «اعتراف لجريمة احتقار بقيت وقتا طويلا تحتقر التشكل البشري...»¹.

على خلاف الفلسفة الكلاسيكية التي كانت تولي استثناء للإنسان كل الأهمية، بدعوى العقل والوعي، فإن "يوناس" يرى أن هذا الاستثناء الإنساني في مجمله نفسي-فيزيائي (Psycho-physique)، وهذه هي نقطة الفصل بين "يوناس" و"التطورية" التي تنكر بكل بساطة أي وضع متميز للإنسان.²

¹ Hans Jonas. Evolution et liberté. Trad. S. Comille et P. Ivernel. Paris. Rivages. pp.56-59.

² Hans Jonas. Evolution et liberté. Idem. P32

هذا التشكل البشري الابدستيمولوجي عالجه "يونس" مرات عديدة، وكانت وظيفته هي خدمة المبدأ "الهيرمونطقي" لقراءة تنازلية تنتقل من الكائن الإنساني نحو أشكال منظمة أكثر بساطة¹.

"يونس" كان يحاول إعادة بناء الإنسان كوحدة نفسية -فيزيائية من مجموع مواد حقيقية، لذلك فهو يركز حول الخصائص التي يجسدها الكائن، وخاصة منه الكائن الإنساني في مملكة الكائنات الحية.

إن مفهوم الحياة في الفلسفة اليونانية يجعل التشكل الإنساني يؤكد الوضع الأنطولوجي للحياة.

II. 3.1 من فلسفة الحياة الى فلسفة الانسان

لو تمعنا جيدا في فلسفة "يونس" نجد أنها لا تجعل الانسان محور اهتمامها في حالة ما إذا تبين لنا أن الأخلاق متجذرة في كيانه الأنطولوجي وتضمن وتحمل تشكل مركزي كما سبق وأشرنا اليه.

"يونس" يرفض بناء صرحه الفلسفي على الكائن الإنساني بالرغم من ضرورته الأنطولوجية، فالإنسان يكتسي معنى خاص به في هذا الصرح الذي يريد "يونس" بناءه، مما يجعلنا أمام اغراء نعتبر من خلاله " البيولوجيا الفلسفية ليونس فلسفة أنثربولوجية"، وهذا الاعتبار هو نتاج الدفاع عن ضرورة الانسان كما ورد في كتابه (ظاهرة الحياة) فيما يتعلق الانتقال الذي يمر من فلسفة العضوية الى " فلسفة الانسان".

ان أول ما سعى اليه "يونس" هو المحافظة على صورة الانسان، فأبدى معارضة جذرية لأخلاق بشرية مركزية، ثم بعد ذلك يوضح يونس قائلا: "... الاخلاق التي تدع نفسها تؤسس

¹ Robert Theis, Jonas, Habiter le monde, Paris, Michalon, 2008, p37.

على هذا النحو لا يمكنها أن تتوقف عند المركزية البشرية التي تميز الأخلاق التقليدية.¹ رغم هذه المعارضة الصريحة للمركزية البشرية، بقي "يوناس" يخصص مكانة متميزة للإنسان في الطبيعة، فهو يأخذ بذلك بمقولة "بروتاغوراس" الشهيرة: "الإنسان هو مقياس كل شيء".² ففي أعلى قمة للكائنات الحية يوجد الإنسان حيث الحرية تتضاعف بتأويل خاص، لعل ذلك ما يجعل البيولوجيا الفلسفية عند "يوناس" تنتهي إلى فلسفة الإنسان.

>>... ان نهاية تحرياتنا ما هي الا الافتتاح لمهام أكثر اتساعا، أعتقد أكثر من أي وقت أن الفلسفة تفرض نفسها: فهي بيولوجيا فلسفية وبدونها لا يمكن ان يكون من جانب اخر فلسفة الطبيعة.³

فالحرية هي ما سيميز الإنسان عن طريق المفهوم الباطني والتي ستتحول دون أي شك الى ذاتية، لكننا عندما نتكلم عن الأحوال الباطنية، فنحن نتكلم كذلك عن التعالي الذي يتمتع به الإنسان، الذي يمتلك عالما داخليا باطنيا أو ذاتيا، والتي برغم صوتها المنخفض فهو متشعب بصفة الهوية التي يشعر بها الإنسان في كل لقاءاته.⁴ فهي العواطف، التخيل، الإدراك، الحساسة، الوجدان، المشاعر التي هي غريبة عن المادة الجامدة.

إن مبدأ الباطنية كالحرية ليس سلبيا، فالوعي هو الذي يعبر عنه، وفي نظر "يوناس" الباطنية عند الإنسان تأخذ شكلا أعلى مما هو عند الحيوان، ولا يمكن أن تتحقق العلاقة بالعالم الخارجي إلا بوجود المهارات الحركية، الإدراك والعاطفة والتي يجب تطويرها في كل مرة، ليجد الإنسان نفسه أمام مجالين أساسيين هما الزمان والمكان فهما يتجلبان في العنصر

¹ Hans Jonas. Le Principe responsabilité. Trad. Jean Greish. Paris Cerf. 1990. p72.

² Hans Jonas. Le Phénomène de la vie, vers une biologie philosophique. Op.cit. P33.

³ Hans Jonas. Le Phénomène de la vie, vers une biologie philosophique. Idem. P100.

⁴ Hans Jonas. Dieu est-il Mathématicien ? Le Phénomène de la vie. Op.cit. P93.

الباطني، أما الأول (الزمان) يتوجه نحو الداخل، بينما الثاني (المكان) يتوجه نحو الخارج ...
والفراغ بحكم طبيعته يواجه المستقبل، وحتى ما هو في الخارج في تضيق الوقت¹.

II.1.3.1 رمزية الانسان في الفلسفة المعاصرة

ان الاجابة عن السؤال: ما هو الإنسان؟ وببساطة كلماته ومعناه العام، عرف تفسيرات وتأويلات متباينة سواء في الفلسفة القديمة انطلاقا من أرسطو الذي يعرفه أنه كائن مدني (الانسان مدني بطبعه)، كائن صانع (برغسون)، كائن اقتصادي (فيفريدو باريتو)، كائن تقني (بيار تويليبي) ، لكن الكانطية الحديثة بمدرسة "ماربورغ" خاصة منها "ارنست كاسيرير" (الانسان كائن رمزي) عكس التيار العقلاني (الفطري) والتجريبيين، لتحقيق نظريتهم للمعرفة يعتبر اتباع "مدرسة ماربورغ" المعرفة كإدراك ناتج عن الشيء في الواقع، فمثلا في الفلسفة الحسية، الصور تحقق نقطة اتصال ورابطة بين الشيء والموضوع، وهي نفسها النظرية التي وضعها "أرسطو" و"أبيقور"، لكن المثالية المعاصرة الديكارتية الكانطية، رفضت هذه النظرية للمعرفة، فمثلا بالنسبة "لكانط" لا يمكن للإنسان معرفة "الشيء في ذاته (Noumène)" بالمقابل للظاهرة (phénomène) ، ولفهم ظاهرة العالم الحسي، الإنسان يصنع رموزا انطلاقا من كل نشاط فكري، فيتحول الرمز وسيطا ضروريا، للوصول في الأخير إلى الكائن الحقيقي، الأساسي، المحجب (مستتر).² أو بعبارة أخرى الإنسان الخالص.

هذه الرمزية تم تطويرها من طرف الكانطية الحديثة لمدرسة "ماربورغ" التي كان شعارها "الرجوع إلى كانط، وأبرز رموز هذه المدرسة " أرنست كاسيرير" (Ernest Cassirer) الذي يعتبر نفسه " كانطيا"، لكن مع ذلك اتخذ مسافة

¹ Hans Jonas. Dieu est-il Mathématicien ? Le Phénomène de la vie. Op.cit. P112.

² Ernest Cassirer. Le Concept de forme symbolique, in Trois essais sur le symbolique. Trad. Jean Carro et Joël Gaubert. Paris. Cerf. 1997. p 163.

بينه وبين فلسفة كانط، خاصة منها فلسفته الميتافيزيقية، التي لم يتخذ فيها بوضوح وجدية مشكلة الإنسان، خاصة منها الغائية من حياة الإنسان التي دحضها كل من "نيتشه"، "ماركس" و"فرويد".

عكس الفلسفة الوضعية التي كانت تريد لنفسها رائدة في المجال العلمي مؤبنة الميتافيزيقا الموروثة عن "الهيكلية" المعاصرة يرى "كاسيرير" أن مسألة الإنسان يجب أن تطرح بتبصر وعناية خاصة.

بالنسبة لكاسيرير "الإنسان يبحث ويصنع معنى، فالعلاقة بين الروح والبدن يجب أن تكون متميزة وإعادتها تكون انطلاقاً من المعنى، فالإنسان على ذلك هو "كائن رمزي" أي أنه يحمل المعنى، هذه الفكرة لا تلغي التعريف التقليدي للإنسان (كائن عاقل) ولكنه يحاول توسيعه، إن مفهوم العقل غير ملائم كلية إذا كنا نريد صور الثقافة في كليتها وتنوعها¹.

وبذلك نجد أن العناصر الأنثروبولوجية لفلسفة الأشكال الرمزية تجسد صورة الإنسان المتطورة حسب مدرسة "ماربورغ" وهي التي ستوضح فكرة الإنسان في القرن العشرين لكن سرعان ما تلاشت هذه النظرة نتيجة الخلافات الأنثروبولوجية المعاصرة والتي يعبر عنها "كاسيرير" قائلاً: "النظرية المعاصرة فقدت مركزية مرجعيتها الفكرية، لكننا بالمقابل نكون قد جنينا فوزى عارمة للفكر".²

ومع ذلك تبقى الرموز أهم وسيط بين الإنسان والعالم، ويكون فيها الوعي أساس استقرار الإنسان بفضل الأشكال الرمزية، والفكر ينتج إشارات ورموز في علاقته مع الظواهر، "عندها الصورة تتوقف على أن تكون مجرد شيء يتم استقباله من الخارج، لتصبح شيئاً رمزياً

¹ Ernest Cassirer. Essai sur l'homme. Trad. Norbert Massa. Paris. MINUIT ; 1975. P39.

² Ernest Cassirer. Essai sur l'homme. Idem. P39.

من الباطن الذي يسود فيه مبدءا أساسيا للأبداع الحر¹، فالرموز التي يولدها العقل البشري تنتج بالمقابل عالما ذات حقيقة ومعنى إنساني.

رمزية الإنسان عند "كاسيرير" تحدد الإنسان كحيوان رمزي، والرمز الذي يولده العقل الإنساني هو لحمته التي تمكنه من معرفة عالمه معرفة جيدة.

إضافة إلى "كاسيرير" وبعض أتباع مدرسة "ماربورغ" الذين أشاروا إلى الخاصية الرمزية للإنسان، فإن "هانس يوناس" يعتبر أنه عبر الأنطولوجيا، ومن بين كل الأحياء يبقى الإنسان وحده الأكثر تطورا باسم التواضع والحرية التي تسمح له من الرقي إلى الأشكال الأكثر تميزا انطلاقا من الرموز.

II. 4.1 الرمزية اليونانية والقانون الأنثروبولوجي للحياة

انخرط "يوناس" في فكرة مواصلة التشكل البشري (Anthropomorphisme) التي يجعل فيها الإنسان في وحدة نفسية - فيزيائية في مجمل واقع مادي، فهو يضع تصور "أنثروبولوجيا فلسفية" والتي تحدد خصوصية الانسان في مملكة الحيوان.

لقد وضع "يوناس" فلسفة إنسان وذلك بالمقارنة مع الحيوان، ففي النص السابع "محاولة في ظاهرة الحياة" بعنوان: "إنتاج الصورة والحرية الإنسانية"² توضح ما سماه وريث "هايدجر" بالجوانب العابرة للإنسان في محاولة لترسيخ قواعد أنثروبولوجيا فلسفية، ويعبر عن ذلك: "...ما يتبع هو محاولة أنثروبولوجية فلسفية تحاول أن تحدد الفرق الجوهرية للإنسان في مملكة الحيوان".³

¹ Ernest Cassirer. Trois essais sur le symbolique. Trad. Jean Carro et Joël Gaubert. Paris. Cerf. 1997. P15.

² Hans Jonas. La production d'image et la liberté humaine. Op-cite. P167.

³ Hans Jonas. La production d'image et la liberté humaine. Ibid. P167.

إن هذه المقارنة بين الإنسان والحيوان يؤكدتها "يوناس" مرة أخرى في محاولة بعنوان: "أداة، صورة وقبر" (1985)، فالإنسان هو الذي يصنع الخط الفاصل بينه وبين الكائنات الحية الأخرى. فالتجديد، التمثيل والرمزية هي من بين هذه الجوانب للصورة التي لفتت انتباه "يوناس" كخصائص أساسية لتحديد الخاصية الإنسانية، وأبسط صور هذه المفارقة هو الكلام الذي يعد خاصية إنسان.

في نظر "يوناس" المحامي هو: "كائن متكلم، مفكر، مبدع، ومتميز"¹، فالمحامي يعد واصله بين الإنسان العاقل والإنسان الصانع، فهو يبين أنهما وجهتان لعملة واحدة². عبر "هيرمونيطيقا" الصورة كعامل محدد لخصوصية الإنسان، فإننتاج الصورة هو الذي يبين الحدود العابرة للإنسان عن الحيوان، فالإنسان لا يدرك الصورة وحسب بل يستطيع تصميمها كصورة، أي أنه يستطيع التمييز بين الصورة المعتمدة والصورة الموجودة حقيقة، فالتجربة حول قردة الشمبانزي التي أجريت مخبريا تؤكد ذلك، فهذه القردة تتعلم استعمال عدد محدود من الرموز لكنها لا تستطيع اختراعها، وخاصة أنها لا تستطيع استعمالها في عملية التواصل فيما بينهما. عكس كل الحيوانات الأخرى الإنسان يفرق إراديا بين هذه الصورة المدركة في الشكل والمادة، يعبر يوناسبين عن ذلك "...هذا التمييز الذي اكتشفناه مزدوج: الصورة يجب أن تكون متميزة عن ركيزتها الفيزيائية، والشيء المصور يجب أن يكون متميزا عن الاثنين"³.

¹ Hans Jonas. La production d'image et la liberté humaine. Op.cit. P168.

² Hans Jonas. La production d'image et la liberté humaine Ibid. P181.

³ Hans Jonas. La production d'image et la liberté humaine Ibid. P175.

1.4.1.II "هانس يونس" ورمزية الصورة عند الإنسان

إذا كان كلامنا موجها لفكرة الرمزية عموما فإن يونس في كتابه (ظاهرة الحياة، نحو بيولوجيا فلسفية" في محاولة: إنتاج الصورة والحرية الإنسانية) يتطرق الى الصورة ضمن كلامه عن: الأداة، الصورة والقبر، (Outil, Image et Tombeau) من خلال تحديده لشكلين هما: الأداة والقبر كعاملين محددين لإنسان مغاير للحيوان، وأحسن صورة في نظر "يونس" هو الإنسان المفكر، وهي فكرة نقلها عن "هنري برغسون"، الذي يرى أن الإنسان لديه القدرة على صناعة أدواته فيقول: "إن الطبيعة التي حرمت الإنسان من المخالب، الأنياب والفرو، منحته بالمقابل ذكاء، هذا الأخير أعطى عظمة أبدية للغريزة، وأعلن بذلك سيادته على الطبيعة،"¹ وبذلك فالذكاء هو الذي يصنع الفارق بين الإنسان والحيوان، فالإنسان المفكر يعبر عن ذكائه بتغيير العالم، ولكن ذلك لا ينحصر في الطبيعة وحدها، وإنما في طبيعته هو، أي نوعه الإنساني.

يرى "يونس" أن الأداة في معناها أكثر لزوما للحيوان لأنها تحقق له مطالبه البيولوجية الحيوية، لكنها عند الإنسان تكتسح خصوصية، وذلك أن الإنسان لديه القدرة على إدخال عناصر اصطناعية بين الموضوع والشيء الذي يريد تغييره. فصناعة أداة عند الإنسان تطلعننا على صفة تضاف إلى فئة تمتاز بقدرتها على تبيين تفاصيل الصور المتخيلة كإنتاج للصورة. في نظر "يونس" الإنسان هو الكائن المصور والكائن المفكر الذي يموت ويعرف أنه يموت، وهذا ما جاء في الأساطير القديمة، أن الإنسان الفان اشتكى من فنائه، وحاول الإفلات من الموت، أملا في أن يعثر على الحياة الأبدية، فمن بين كل المخلوقات الإنسان وحده هو الكائن الذي يعلم أنه سيموت، وهذا ما جعل منه يبكي على أمواته، ويخلد ذكرى موتهم، ولذلك

¹ Henri Bergson. L'évolution créatrice. Paris. P.U.F. Chap. II. Pp 138-141.

نجد أن كلمة موت تعني إنسان، بينما الخلود من خصوصيات الآلهة كما جاء في الفلسفة اليونانية والديانات من بعدها.¹

من جهة أخرى يضع "يوناس" أمامنا حقيقة أخرى وهي "القبر" (Tombeau)، فهو يعبر عن الوعي الذي ينتهي إلى سؤال حول أصلنا وحول مصيرنا، وبإيجاز حول هويتنا، بسؤال ذات معنى ودلالة عميقين وهو: من أنا؟ انطلاقاً من السؤال السابق شرع "يوناس" في "تقديس الإنسان" ليس في المعنى الأول الذي يقضي "أن الإنسان شيء مقدس للإنسان" وإنما لتتصيه كقمة لكل خلق، وفكرة القبر كانت نتاج تساؤلات تجاوزت فكرتي الصورة والأداة وخلصت إلى أسئلة ميتافيزيقية "من القبور تنشأ الميتافيزيقا...²، بهذه الكيفية تتضح خصوصية الإنسان عن طريق الصورة، فإذا كانت الأداة والقبر وكل ما يشق منهما هو الفن، فالتقنية والميتافيزيقا إطارهما الحرية.

يجب أن نشير في هذا الصدد أن "يوناس" في تأملاته وتحليلاته حول "الخصوصية الإنسانية" التي أسسها على الحرية لم يكشف لنا عن أبعاد هذه الحرية. لكن في مقالته: "المادة، الروح والخلق" الذي نشره سنة 1988 ظهرت أربعة إيضاحات يعبر عنها "يوناس" بـ "شهادة بشرية" فيقول:

1. البعد الأول للحرية هو تقرير المصير، وهو يسمح للإنسان أن يقوم باختيار

فيقول: «العقل يمكنه أن يتأمل بجدية وأحياناً بتفاهة...³»

2. البعد الثاني هو حرية تحويل وتعديل المعطى عن طريق الخيال.

¹ Hans Jonas. Outil, Image et Tombeau. In Evolution et Liberté. Op.cit. P160.

² Hans Jonas. Outil, Image et Tombeau, in Evolution et Liberté. Ibid. P77.

³ Hans Jonas. Outil, Image et Tombeau, in Evolution et Liberté. Ibid. P214.

3. البعد الثالث للحرية أن تبقى في كل الأحوال نظرية، وهي حرية تخرق المعطى في مجمله دون أي اعتبار لبعده النظري.

4. البعد الرابع وهو الذي يتم فيه التعبير على الشكل العملي لهذه الحرية، فالإنسان يضع غايات يقبل الخضوع لها. أو هذه الغايات تصبح بالنسبة للإنسان قيما.

إن ما قام به "يوناس" هنا هو "جينالوجيا الحرية والقيم الأخلاقية". فهو يعتبر هذه الحرية من أكثر معانيها تعاليا، وأخطرها، لأنها كذلك هي حرية إنكار للذات والصمم المتعمد، قد يكون اختيار إمضاء إلى درجة الشر الجذري... معرفة الخير والشر والقدرة على التمييز بينهما هي كذلك القدرة على فعل الخير والشر¹، في نظر يوناس هذه الحرية هي حرية مستقبلية، لكنها تحمل معها من الخطورة لأنها مهددة من الداخل، بمعنى أن هناك دائما في الطبيعة الإنسانية ميل قوي للشر على حد تعبير "كانط" يتبين لنا أن تحليل "يوناس" للحرية العملية وما بعدها، المسؤولية ليست فقط انتقال بين البيولوجيا الفلسفية والمنعرج الأخلاقي الذي يريد الوصول إليه، فهي تفكير حول أبعاد الحياة في مجملها منذ ظهورها الابتدائي في الكائن الحي الذي يدرك كمون الذاتية في المادة².

فمن الضروري أن نفهم أنه من خلال كل التصورات السابقة، فإن يوناس يريد الحفاظ على الإنسانية وصورة الإنسان رافضا بذلك أي تدخل حول الإنسان بهدف تحسينه.

II. 2 المبحث الثاني: صورة الإنسان في الفلسفة البيولوجية عند "هانس يوناس"

II. 1.2 القراءة السوسيوبيولوجية للإنسان عند "هانس يوناس"

قبل الولوج في قراءات "يوناس" السوسيوبيولوجية للإنسان، يجب أن نحدد بداية المجال البيولوجي للإنسان، وبداية تكون من الجسد، ثم بعد ذلك الجانب النفسي وبهما تكتمل صورة

¹Hans Jonas. Matière Esprit et Création, in Evolution et Liberté. Paris. Rivages. 2000. p216.

² Hans Jonas. Matière, Esprit et Création, Idem. P211.

الإنسان، فبداية سؤالنا يكون: ما هو جسد الإنسان في منظور العلم عموماً والبيولوجيا خصوصاً؟

فالجواب يكاد يكون واحداً وهو: جسد الإنسان يكاد لا يختلف عن الآلة؟ كآلة صنعها الإنسان للقيام بمهام محددة بطريقة محكمة وفي اقصر الأجال، وهذا ما جعل طائفة من الماديين يعتبرون جسم الإنسان حيواناً آلة، وهو ما عبر عنه العالم "دوكونينك" (Charles de konninck) حول الآلية البيولوجية قائلاً: "...العضوية لا تحتوي فقط عن آليات، ولكن جسد الإنسان ما هو إلا آلة فهو يمتلك نشاطات خاصة به، ويستطيع الفعل دون تدخل الروح، فحركاته وحرارته الحيوية لا يتم تفسيرها عن طريق الروح، فهي نشاطات من طبيعة فيزيائية شبيهة بنشاطات النظام العضوي، التي يجب أن يفسرها الإنسان بنفس الكيفية التي تحدث، انه خطأ أن ننسبها للروح....¹

ومنه يتعين علينا أن نتساءل مره أخرى ما هو الفرق بين جسد حيوان وجسد إنسان؟ في هذا الأساس يبدو رد "ديكارت" واضحاً حيث يرى أن الاختلاف الوحيد يكمن في أن جسد الإنسان حتى وإن كان أكبر موضوعاً للتقنية، فهو أكثر تنظيمياً، من الجسد الآلة، وهو ما ورد في كتابه "مقالة الطريقة"، إن آلة تم صنعها بيد الله، هي أكثر تنظيمياً ويوجد فيها حركات أكثر روعة، من التي يمكن أن يخترعها الإنسان.²

وما يجدر بنا الإشارة إليه هو: إن ما ينطبق على جسد الإنسان، ينطبق كذلك على جسد الحيوان في جانبه الآلي. وجاء تعبير "ديكارت" شاملاً للدقة التي وصف بها وظيفة العين، الدماغ، القلب، ليوضح وظائف الجسد الإنساني بطريقه عجيبة قائلاً: " كل الوظائف

¹ Charles de konninck. Cours de Psychologie Expérimentale, in Archives Charles de konninck. N°393. 1935.p30-31.

² René Descartes. Discours de la Méthode. Op.cit.P164.

التي نسبتها إلى هذه الآلة، كالهضم ونبضات القلب والأوعية، والأكل ونمو الأطراف، اليقظة والنوم، الأصوات والأذواق، الروائح وحالات أخرى في أعضاء الحواس الخارجية... هذه الوظائف تتبع بشكل طبيعي في هذه الآلة بتوفر هذه الأعضاء لا أقل ولا أكثر، كحركات عقارب الساعة أو أي آلة أخرى. فلا يوجد فيه أي روح... أو أي أساس للحياة..¹.

إن الصورة الميكانيكية لجسد الإنسان والحيوان تتضح أكثر بتحديد طابعها الفيزيولوجي، وهذا ما قام به الطب المعاصر، حيث نستخلص ما يعرف مجازيا بالآلة، وما يعلل ذلك في عملية زرع الأعضاء تتطلب تغيير قطع غيار في هذه الآلة المعقدة ثم إصلاحها لتتطرق من جديد، أو أكثر من ذلك يمكننا استعمال أعضاء اصطناعية لتأخذ مكان أعضاء أخرى غير صالحة.

لكن مع ذلك الإنسان يبقى أنسانا وليس حيوانا، عن طريق الروح التي بها يتمتع بالعقل والإرادة وله الوعي بما أنه يفكر، وبذلك الاختلاف بين الإنسان والحيوان ليس اختلافا في الدرجة وإنما هو اختلاف في الطبيعة... لأن الحيوانات ليس لأن ليس لديها درجة أقل من الوعي إنما ليس لديها كليا²...، فهذه الآلة أو الحيوان رغم صنعه المتقن فإنه يفتقد اللغة، والإبداع.

كل الطروحات الاجتماعية تتجاهل عدم انتقائية السلوك الإنساني بتفسيرات بيولوجية منذ صدور كتاب "داروين" الشهير، "أصل الأنواع" فنظرية التطور الداروينية قوضت القراءة الأرستقراطية للإنسان التي اصطدمت بالقراءة الديمقراطية، فالتعريفات النخبوية للإنسان تمت التضحية بها على مذبح الأخلاق، فجرد بذلك الإنسان من مركزيته، وتبين لبعض علماء الأخلاق أن الإنسان وبشكل بعيد هو أكبر كائن دموي من الحيوانات بأكملها، لينتهي

¹ René Descartes. Traité de L'homme. Paris. La Pléiade. 1953. P 873.

² René Descartes. Discours de la Méthode. Op.cit. P165.

الإيكولوجيون إلى القول انه حان الوقت للانتهاء من الإنسان قبل أن ينتهي الإنسان مع الطبيعة.

II. 2.2 هل هناك اختزال بيولوجي بين الإنسان والحيوان؟

إن عملية اختزال الإنسان في صورة الحيوانية لا تعود إلى الأمس القريب، فالفلاسفة والعلماء كانوا يتساءلون دوما حول التماثل "المورفولوجي" والوظيفي بين الإنسان والحيوان؟ لقد اعتنى "أرسطو" قديما بهذه الفكرة، وكذلك عند المسيحيين في القرون الوسطى، لكن في القرن الثامن عشر العالم "ليني" ¹ (Carl Linné) في كتابه "نظام الطبيعة" (1735م)، قام بتصنيف عالم الحيوانات، فوضع الإنسان في أعلى سلم الترتيب الحيواني. ثم جاءت النظرية التطورية لتؤكد فكرة التقارب بين الإنسان والحيوان بسبب عقدة جينيالوجيا.

في الوقت المعاصر البيوكيمياء أطلعتنا على اكتشافات مذهلة حول التشابه الوراثي بين هيئات مختلفة عند بعض الحيوانات والإنسان، خاصة منها تلك التي بين بعض القردة الراقية والإنسان، حيث تقترب النسبة بينهما حوالي 95 بالمائة من الرصيد الوراثي.

ما لفت علم الأخلاق هو تماثل بعض السلوكيات عند الإنسان والحيوان، وهو ما جعل علم الوراثة المقارن يقوم بمقارنة بعض الآليات الوراثية التي تؤسس عليها هذه التماثلات، والتي عبر عنها "ادغار موران" (بالبراد يغم المفقود): الوعي الأخلاقي، حيث بين أنه توجد عند بعض الأنواع من الحيوانات سلوكيات وقدرات كانت تعرف منذ القدم أنها تخص الإنسان وحده، مثل التواصل، الحياة الاجتماعية وفق ترتيب سلمي، سلوكيات رمزية، المداعبات، اللعب، بعض الطقوسات... الخ، حتى بعض الممارسات التقنية، فمثلا عند قردة الشمبانزي تصنع بيدها بعض الأدوات، وكذلك قدرتها على تعلم بعض المهارات الفردية والجماعية، فالتجارب التي قام بها "غاردنر" حول أنثى الشمبانزي، "واشو" و"سارة"؛ الشمبانزي "واشو"

1 كارل ليننيوس (كارل ليني). عالم نبات سويدي. ولد 1707-1778. أستاذ بجامعة كوبنهاغن. اهم مؤلفاته: نظام الطبيعة- الأنواع النباتية

تعلمت استعمال رموز الصم والبكم، بينما "سارة" تعلمت الألوان، وأشكال مختلفة تضعها في مكانها المخصص بإتقان "إن هذه التجارب جعلت "ادغار موران" يعتبرها نسخة فردية شبيهة "بالكوجيتو الديكارتية".

إن الوجه الأخلاقي للقردة الراقية يقودنا مباشرة إلى القطيعة مع الأفكار القديمة حول الانقسام التقليدي بين الإنسان والحيوان، حيث كان الإنسان يعد مخلوقا مميزا ومقدسا. التقارب الابستيمولوجي بين الأنثروبولوجيا وعلم الحيوان أو بين الطبيعة والثقافة، كان ناتجا عن هذه القطيعة بين الإنسانية والحيوانية.

هناك دراسات في علم الوراثة المقارن وصلت إلى نفس المعادلة إنسان-حيوان في علم الأخلاق وترتكز في ذلك إلى ما يطلق عليه البعض النتائج المعرفية الإيكولوجية الأخلاقية البيولوجية وباصطلاح آخر "السوسيوبولوجيا".

عالم السوسيوبولوجيا "ادوارد ويلسون" (Edward Wilson) يرى أن القراءة الحيوانية للظاهرة الإنسانية سمحت له أن يخلص إلى أن السلوكات السوسيو-ثقافية للإنسان في مواقفه الأخلاقية والدينية محددة وراثيا، فسلوك أي كائن حي هو رد بيولوجي أو طلب من الوسط على المستوى الفردي أو الجماعي ينتقل حسب قوانين وراثية، ولا يمكن لأي نوع بما في ذلك النوع الإنساني أن يكون في مواجهه شيء يقع خارج التراث الجيني.

يعتبر "ادوارد ويلسون" أن الإنسان يتقاسم مع القردة حوالي 95 بالمائة من الرصيد الجيني، وأكثر من 99 بالمائة من تاريخ التطور لكل منهما، ولذلك فإن مركزية الإنسان في الكون تعد خطأ من أن تجعل الإنسان نتيجة ثقافية خالصة، فهو نتيجة خالصة للوراثة، وهو ما أكدته دراسات بيولوجية أمريكية معاصرة أن سلوكياتنا بما في ذلك عواطفنا تحددنا مورثات، فالمودة والاجتماعية تتحكم فيها مورثات والمودة ماهي إلا مسألة جينية.

إن المواقف التي يسلكها الإنسان وبعض القرود تخضع لشفرة وراثية واحدة، وهذا الاعتقاد جعل السوسيوبولوجي "دوارد ويلسون" يستنتج الإنسان ويوضح ذلك من خلال معيارين أساسيين يخصانه، وهما: الذكاء والبعد الأخلاقي الديني.

وفي نظر "ويلسون" الطابع الفيزيائي للدماغ يكتسب طابعا بيولوجيا خاصا، ودليله في ذلك أن وجود الدماغ هو الذي يضمن تكاثر وحياة الجينات (المورثات) فالطابع الفيزيائي هنا يبين أن الطابع العقلي هو عبارة عن آلية، ولا يوجد بذلك أي شيء خارج الأشياء الفيزيائية، فالعقل هو حقيقة فيزيائية، وهي التي امتدت إلى كل المعارف وإلى لغة الفيزياء واللغة العالمية للعلم، والمعارف الأخرى كما أرادت "حلقة فيينا" و "مدرسة فرانكفورت" في ظل النموذج ما بعد الحداثي، وهذا ما جعل "ويلسون" يؤكد أن البعد الأخلاقي الديني هو من طبيعة بيولوجية، ويؤكد ذلك على النحو التالي :

1- الغريزة الوراثية دفعت الإنسان إلى منع زواج أو زنا المحارم لأن قرابة العصب تفقد صاحبها قدرة وراثية معتبرة.

2- الغيرية تطلعننا على تفسير حيادي، فالسوسيوبولوجيا لا ترى في الغيرية إلا صورة مموهة للذاتية، فالغيرية ليست خيارا حرا أو اختيارا جديرا لعمل وراثي لاختيار الحياة في رصيده الوراثة أو البيولوجي الخاص.

3- هناك الطابع البيولوجي للأخلاق، حقوق الإنسان يقبلها الجميع بما أننا كلنا من صنف الثدييات، فالفرد الذي يحارب من أجل تكاثر جيناته عليه أن يقبل الحلول التي تضمن له استقرارا اجتماعيا.

في نظر "ويلسون" أعلى أشكال الممارسات الدينية والأخلاقية مدرجة في السلوك الإنساني لأنها تمنح فوائد بيولوجية.

II. 3.2 الأسطورة السوسيوبولوجية

عملية اصطفااف الانسان بالحيوان التي عرضها السوسيولوجيون اسالت الكثير من الحبر عند الكثير من البيولوجيين (فرانسوا جاكوب وجاك روفيي)، وفلاسفة البيولوجيا (أرنولد "جيهلن" و"رودولف بولتمان")، وعلماء الوراثة ("تيودور سيوس" و"دوبزونسكي" و"فرانسييسكو أياالا")، فهم يرفضون الاختزال الحيواني للإنسان، ويعنون أصالة هيكلية وظيفية وأنطولوجية، دون تجاهل البعد البيولوجي. فهذه المواصفات تجعل من الاختزال أمرا مستحيلا لحيوانية ذات طابع كيميائي خالص.

إن الغاية من عملنا هذا ليس وضع مواجهات ضد الاختزال البيولوجي من خلال عرض حجج تعارضها، وإنما انشغالنا ينصب الى وضع مقارنة بين الأدلة التي وضعها "ولسون" ومن حذي حذوه، ونجعل بعدها نظرية "هانس يونس" كإجابة عليها.

إن الرد على المواقف الاختزالية منطلقه قناعة أساسية على المستوى البيولوجي، فالإنسان له خاصية متميزة، فهو بحكم تركيبه البيولوجي كائن ناقص، فالأعضاء ليست مكتملة بالمعنى الذي يمكن أن نتصورها مكتملة في وحدة عضوية في تناسقها وأدائها، فالكائن البشري هو أكمل الحيوانات، ولكن الى ماذا يمكن أن نعزي ذلك؟، هل كما اعتقدت السوسيولوجيا والبيولوجيا إلى اختزاله الى الجانب البيولوجي، وهل سيصبح الإنسان والشمبانزي في نفس المرتبة؟

إن الجواب عن هذه الأسئلة يبدو بديها، فكيف يمكن لهذا الإنسان المحدود عضويا، أن يعلن تفوقه على الطبيعة وعلى كل المخلوقات الأخرى، إنه الذكاء المتميز، الذي أعلن به سيادته على الكون، على حد تعبير "برغسون": "إن الطبيعة التي حرمت الإنسان من الفرو ومن المخالب، أعطته بالمقابل هذا الذكاء، الذي أعطى عطلا أبدية للغريزة، وأعلن سيادته على الطبيعة.¹

¹ Henri Bergson. L'évolution créatrice. Op Cite. P145

ومن هنا يجب أن نميز بين المستوى البيولوجي للحيوان والمستوى البيولوجي للإنسان: -أما الحيوان : فكيفانه يمثل نهاية الحدود العملية لكل سلوكاته وتصرفاته، فالنحلة في بناء العسالة (الخلية)، والعنكبوت في بناء بيتها، والطيور على اختلاف أنواعها في بناء عشها، كل حسب نوعه، وحيوانات أخرى في بناء جحورها المختلفة بقيت هي نفسها، إنها استجابة للغريزة، فهي كلها مدونة في كيانها الوراثي، لا يمكن أن تطورها أو أن تسلك سلوكا غيرها، فلا يمكن للنحلة أن تبني بيتا، أو للعنكبوت أن تبني خلية.

حتى الحيوانات التي قد تظهر لنا سلوكات شبه إنسانية، ليست في نقطة تحول أو انطلاق لتصبح شبيهة بالإنسان، وإنما هذا التحول كان نتيجة تأثير من طرف الإنسان، كانت بدايته معرفة لغة ذلك النوع من الحيوان، وهنا يكمن الاختلاف: أي اللغة. فلغة الإنسان متميزة، بداية هي لغة تواصلية، وكما يرى العالم "تورب*" أن لغة الإنسان لغة انعكاسية، أي أنها لها قدرة التواصل حول نظام الاتصال نفسه، وهي ميزة لا توجد عند أي مخلوق في المملكة الحيوانية، فلغة الإنسان فريدة، وعلى حد تعبير "علماء الاجتماع واللغويين": "اللغة خاصية إنسانية بامتياز".

كل التجارب المخبرية التي أجريت حول الحيوانات أثبتت أن الحيوان في أقصى الحدود، مثل ما قام به العالم "غاردرنر*" حول اناث الشمبانزي (راشو وسارة)، في أحسن الحالات تعلمتا استعمال عدد جد محدود من الرموز، ولا تستطيعان صنع أو ابتكار أي رمز آخر غير الذي تعلمتا، أو استعملتا في التواصل فيما بينهما.¹

الإنسان وحده يمتلك لغة وتقنية، وهما يمثلان الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان، وكذلك الإنسان وحده يمتلك الوعي الذي يمثل السلطة الرمزية له. فمثلا لو وضعنا إنسان وقرد الشمبانزي أمام نفس الموقف أو أمام نفس الشيء فهما لا يريانه بنفس الكيفية، فإذا كان

¹ فرانسيسكو أيلالا، أنا قرد، ستة أسئلة حول التطور، بالتمور، جامعة جون هوبكنز، الولايات المتحدة الأمريكية، 2010.

الحيوان يعرف، فإن الإنسان يعرف أنه يعرف، إنه الوعي بالذات وبالموضوع، ويستطيع أن يكون هو نفسه موضوع تفكيره.

إن الصراع الذي وقع بين الاختزاليين والتيار المضاد للاختزاليين ليس محور بحثنا وإنما الهدف هو إظهار القراءة السوسيوبولوجية للإنسان حتى يتسنى لنا حمل موقف "هانس يونس" البيولوجي من أسسه العلمية والمعرفية، لأن الأثر الذي تركته السوسيو-بيولوجيا عموما وعلى رأسها "ولسون" خصوصا كان له تأثير كبير على طبيعة العلاقة بين الأخلاق والوراثة، وهناك من استغل نظرية "ولسون" لأغراض سياسية (العنصرية الجديدة)، متخذين منها غطاء علميا في الحوارات السوسيوسياسية.

إن الانتقادات التي وجهتها الأنثروبولوجيا حول النتائج، والبيولوجيا حول الأسباب الى السوسيوبولوجيا، تتقاطع مع مبتغات بحثنا حول "هانس يونس"، حول العلاقة بين قداسة الحياة الإنسانية والبيوتكنولوجيا المعاصرة، فإذا كانت اكتشافات البيوتكنولوجيا المعاصرة أثبتت أن بعض الجينات تلعب دورا كبيرا في تحديد بعض سلوكيات الإنسان، فهل هذا يعني أن الحياة الإنسانية تحدد كلها وراثيا؟ وعليه يجب علينا أن نعتزف أن هناك مجالات أخرى تخص الإنسان كإنسان، ولا يمكن القول "بالكل وراثي" وهو ما جعل العالم "فرانسوا جاكوب*" يرى أنه لا داعي الى البحث في التطور البيولوجي على قواعد أخلاقية أو تفسير لمعادلة رياضية أو تفسير لقصيدة شعرية، وعملية اختزال الأخلاق في البيولوجيا يعد انحرافا ايديولوجيا للعلمية.

II. 4.2 التصورات البيولوجية للفرد

قبل التطرق للتصورات البيولوجية للفرد، علينا أن نحدد مفهوم الفرد أولا، فما هو الفرد؟ إن الإجابات تكون ملتبسة وأحيانا متناقضة، لكن المتفق عليه عموما عند الفلاسفة هو تعريف السكولائيين (المدرسيون): "الفرد هو كيان في ذاته ومتميز على أي كائن آخر"، لكن بعيدا عن هذا الميدان الميتافيزيقي، ان تصميم الفردية عند الأحياء عن طريق العلوم البيولوجية المعاصرة يبدو كذلك غامضا:

- من جانب: أن كل كيان بيولوجي هو فرد عندما يكون عضوية أو عندما يمثل وحدة متكاملة من الهياكل والوظائف.

-ومن جهة أخرى، الوحدة البيولوجية للكائنات الحية هي قبل كل شيء وحدة عضوية، أو كيان موحد كفيل بأن يتماسك وأن يعيش كفرد في الذات.

انطلاقاً من المفهوم الثاني أي الوحدة البيولوجية، نفهم أن الخلية البكتيرية هي فرد إذا كانت بهذا المعنى مزودة بتمثيل غذائي وقدرة على التكاثر الذاتي.

إن هاتين الخاصيتين للفردية وهما: التمثيل الغذائي والتكاثر الذاتي، نجد لهما صدى عند "أرسطو" كمعيارين للمرور من العالم اللاعضوي الى العالم الحي.

الخلية البكتيرية لها تركيب معقد في تنظيم تمثيلها الغذائي والتي تؤثر في سير مورثها ومجموع الجينات أو كذلك الرسالة الوراثية.

إن البكتيريا لها خاصية أخرى وهي أنها تضم المراحل الأربع الأساسية للوحدة التي نجدها في كل سلم الحياة وهي:

-الوحدة الكيميائية: الجزيئات الأولية نجدها عند كل الكائنات الحية مهما كانت درجة تعقيدها.
- وحدة الطاقة: التمثيل الغذائي.

-الوحدة الخلوية.

-الوحدة الوراثية.

فهذه الوحدات الأربع تمثل كما يقول "باسكال" (Blaise Pascal) الكل واحد والكل مختلف. وبذلك الكائن الحي يجمع بين الوحدة والتنوع، ما عدا الفيروس (virus) الذي لديه خاصة الفردية المستقلة. فالكائنات البيولوجية ليست أفراداً، فعلم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) من جهة، وعلم الأجنة من جهة أخرى، هما تخصصان يفرضان نفسيهما لقبول هذا التعريف.

فإذا كانت الفيزيولوجيا وعلم الأجنة يقران بنوع من التعددية للكائنات الحية فإن علم المناعة (immunologie) قدم صورة قوية لمفهوم التفرد (الصورة الفردية)، وهو الذات الجزيئية، وهذه الأخيرة لديها القدرة على معرفة وتجسيد وحتى تحطيم كل الهياكل الغريبة عنه. الجهاز المناعي يتمتع بذاكرته وخصوصيته، والجهاز المناعي عموماً عند الكائن الحي لديه قدرة رد الفعل على المستوى البيولوجي ضد أي اعتداء خارجي، وهذا ما يجعلنا نقول إن مناعة أي عضو وقدرته على تحطيم أي عنصر خارجي لا تتم معرفته أو تحديده بصفته عنصراً أجنبياً وغريباً عن العضوية ما هو إلا إشارة على فرديته.

II. 5.2 خيالات الإنسان المعاصر

إن البيوتكنولوجيا المعاصرة تجاوزت دورها الأصلي، وانخرطت في سياق تشكيل رؤية جديدة تعكس في مضمونها مفهوماً مخصوصاً عن الإنسان، فالخيالات العلمانية التي فرضتها فلسفة ما بعد الحداثة متمثلة في النزعة الوضعية (أوغست كونت) وامتداداتها الفلسفية العلمية لمدرسة فرانكفورت خاصة منها الوضعية المنطقية، أخرجت خيالات الإنسان المعاصر من مجرد أفكار إلى اكتشافات علمية، أبرزها تلك التي تتعلق بالإنسان وجسدها البيوتكنولوجيا المعاصرة، وأصبح فيها الكلام عن الإجهاض بأبسط الطرق، وكذلك اختيار جنس المولود وصفاته الجسمانية أمراً ممكناً، وانتقل الخيال إلى أبعد حدوده وهو تخليق الإنسان المماثل عن طريق استنساخه، ثم تجاوز الإنسان نفسه وذلك عن طريق إيجاد إنسان آلي مزود بقطع ورقاقات مماثلة لجزيئات الخلية وهو ما اشتغلت به اليوم "النانو تكنولوجيا"، ولكن الأغرب من ذلك هو أن تضع أماننا البيوتكنولوجيا المعاصرة منظوراً جديداً حول الإنسان وهو: "آلة إنسان" أو ما يصطلح عليه "بالسيبورغ*" (cyborg) بدلاً من "إنسان آلي"، وينتهي الخيال إلى مسألة تفوق واقع الإنسان وحياته وقداسته، وهي محاولة ابتكار بيئة جينية يولد فيها الإنسان خارج رحم المرأة، ثم إيجاد أعضاء اصطناعية بديلة عن الأعضاء الطبيعية، فماذا عن قلب مصنوع من مادة زلالية، أو عن دماغ اصطناعي، فماذا يعني الإنسان بعد كل هذا؟

إنها نهاية الإنسان، التي جاءت لترسخ فكرة النهايات التي توالت عليها الفلسفات الحدائثة وما بعد الحدائثة، كنهاية الإله، ونهاية التاريخ، نهاية الجغرافيا، نهاية الفلسفة، نهاية الكتاب، نهاية المثقف ونهاية المدرسة ... وغيرها من النهايات، هي في حقيقتها اعلان بموت، لكنها بالمقابل هي اعلان بحياة أو بداية عهد جديد.

إن البيوتكنولوجيا المعاصرة أطلت علينا بإنسان جديد ومعه حضارة جديدة، على حد تعبير "شبلنغر"، إنها حضارة الرجل "الفاوستي"، الذي إلتهم كل المعارف إلى درجة أنه إلتهم نفسه، ولم يبق صورته كإنسان، أو بتعبير آخر "نهاية الإنسان المؤمن"، كما كان يعتقد "فرانسيس فوكوياما" فبدلاً من السيطرة على الطبيعة كما كان يقول "ديكارت" (لنكن أسيادا ومالكي الطبيعة)¹، فإنه سيطر على نفسه، فيكون بذلك الإنسان قد تحول إلى مجرد كائن بيولوجي، ومجرد شفرة وراثية، ولم يعد كما كان يعتقد كانط: "الإنسان موضوع لكل شيء، وكائنا متعاليا"، فتحول إلى "مجرد جينوم خارطة وراثية وليس كائنا متعاليا...".

إن البيوتكنولوجيا أصبحت تعكس يوتوبيا جديدة تحلم بإنسانية جديدة، فالحلم العلمي كما يعتقد "راي كورز فيل" (Ray Kurz Weil) "بعد أربعين سنة مستقبلا إن الاكتشافات التكنولوجية الكبيرة ستفوق الفهم الإنساني، وتتركه تحت مسؤولية الآلات"²، فهذا العالم يقدم لنا الفردية العلمية كفترة زمنية يتم خلالها الذكاء غير البيولوجي الذي سينظم إلى فكر وذكاء الإنسان ويتجاوزه، ويعد ذلك تأكيدا لفكرة إلغاء الوعي، ويذهب "كورز فيل" إلى أبعد من ذلك حين يؤكد أنه يصبح بإمكان أي إنسان وبمبلغ "سبعين ألف دولار" أن يقتني نظام كمبيوتر يكون أكثر فعالية من عقل الإنسان ذاته مستقبلا.

¹ René Descartes. Discours de la Méthode. Op.cit. P165

² Ray Kurz Weil. Le Singulier est Proche, quand les humains transcendent la biologie. New-York. Pingouins books. 2005. p241

إن فكرة "كورز فيل" هذه تجسد فكرة لطالما راودت الإنسان منذ أقدم العصور، وهي فكرة الخلود، المستوحاة من "ينبوع الحياة" الذي يمنح للإنسان الحياة الأبدية، فهذه الأسطورة تبين رغبة الإنسان في تمديد فترة حياته متمتعاً بصحة كاملة حتى ينعم من خيرات الطبيعة، وهذا ما دفع الفكر الإنساني إلى البحث عن وسائل بديلة تمنع بأي شكل من الأشكال الشيخوخة والموت، وبذلك يستطيع الإنسان أن ينحت تمثاله، فكانت البداية مع الممارسات الطبية التي تعالج الإنسان وإسقامه من أجل غاية محددة وهي إطالة مدة الحياة عنده.

إذا كان هذا جانب الفلسفة والطب، فإن تطور البيولوجيا وخاصة منها نظرية التطور التي جاء بها "تشارلز دارون" (أصل الأنواع)، أحدث ثورة في مجال البيولوجيا وكانت آثارها قوية على مختلف مجالات المعرفة الفلسفية والعلمية فيما بعد، وكان "دارون" يصرح أن الإنسانية كما نعرفها اليوم ليست في مرحلتها النهائية من التطور، وإنما هي في مرحلة البداية، إن هذه الاعتبارات الداروينية دفعت العلماء عموماً والبيولوجيين خصوصاً إلى محاولة إسراع وتيرة البحث عن البدائل الاصطناعية، فكان لتطور العلم والتقنية أثراً على تطور الأبحاث البيولوجية، فترتب عن ذلك ما يصطلح عليه البيوتكنولوجيا، وكانت أكبر آثارها هي الثورة الوراثية التي مكنت العلماء والأطباء من القضاء على الكثير من الأمراض وبالتالي تمديد فترة الحياة الإنسانية.

العالم "جوليان هوكسلي"¹ (Julian Huxley) كان يعتقد بإمكانية تحقيق "الإنسان المتفوق" (نيتشه) هذا الإنسان الذي سيتعالى هو نفسه ويظهر لنا في وضوح النهار إمكانات جديدة عن طبيعته الإنسانية.

لقد ترسخت في الفكر الإنساني المعاصر إيديولوجيا ما بعد الإنسانية، وأخذت بعدا غير مسبوق في الولايات المتحدة الأمريكية في الثمانينات من القرن الماضي (1980) وكانت

¹ جوليان هوكسلي، ما بعد الإنسانية، في زجاجات جديدة للنبيذ، لندن، شاتو وفيندوس، 1957، ص 13-15.

عقيدتها: "إنسان جديد من عمله هو، والأداة تغير ذاتها الخاصة". فهذه العقيدة ترمي إلى تطوير عملية تجاوز النوع الإنساني الناقص نحو "إنسانية سيبرانية" كاملة هدفها الأول هو التغلب على كل الأمراض، الموت والشيخوخة، وإن أمكنها ستغزو عالم الخلود.

إن تيار "ما بعد الإنسانية" أصبح أكثر رواجاً بين العلماء، ويسعى إلى تطوير جذري لظروف الإنسان ويفضل التكنولوجيات الجديدة تم إعادة بناء كامل لجسد الإنسان عن طريق زرع أعضاء طبيعية واصطناعية ورقاقات الكترونية. ما بعد الإنسانية هي الإنسان الجديد، وهو إنسان هجين مطور يمتلك القدرات والكفاءات البدنية، العاطفية، الحسية والخلقية جد متطورة. فهم يأملون في صناعة "إنسان آلي" أبدي وكلي العلم، إنه انقطاع أنطولوجي رهيب ينزل الإنسان الأساسي إلى درجة الحيوانية...¹

إن هذا الحلم "ما بعد الإنسانية" لتوليف الحياة ليس ظاهرة جديدة، العالم "بارا سيلز" كان يخمر "المني" في المخبر لتوليد إنسان².

يرى "يوناس": "أن لا واحد من هذه الجذور الفلسفية والعلمية للإنسان الجديد، هو أحسن من حلم "غوته". لقد نشر "غوته" (J.V.Goeth) في رائعة من روائعه، روايته الأدبية، نصاً بعنوان "فاوست" في مجموعة من الفصول وأروعها ما جاء في "فاوست 2" الذي نشر سنة 1830 حين أخذ "ميفيستوفيليس" فاوست إلى مخبر "فاغنر" وهو يصنع إنساناً اصطناعياً مبيناً له كيف يستطيع الإبداع الإنساني خلق إنسان، ويطور إنجاز الخالق، "فاغنر" بإنجازه هذا أمام "ميفيستوفيليس" يخلق بفضل الكيمياء رجلاً صغيراً اصطناعياً.³

¹ Bernadette Bonsande Vincent. Fabriquer la vie, Ou va la Biologie de Synthèse. Paris. Seuil. 2011.

² Hans Jonas. Technique Morale et Génie Génétique. Trad. Rémi Brague. In, Communto N°9. Nov-Dec 1984.p60.

³ Tugdval Derville. Trans humanisme, Qu'allons-nous faire de nous. In. La Croix. 2012.

فإذا كان "فاوست" يصول ويجول في أرجاء العالم باحثا عن السعادة والثبات، فإن "فاغنر" كان مشغولا في مخبره بمشروع غريب، قد لا يخطر ببال إنسان آخر وهو صناعة أو خلق كائن (إنسان) كان من قبل من صنع الطبيعة، وفي رائعة هذه القصة "ميفيستوفيليس" الذي جاء من عالم آخر، أصبح هو نفسه قلقا لمثل هذا المشروع خوفا من أن يكون مدمرا أو يتحول الى كابوس، فجعله ذلك يقرر البقاء لمتابعة بقية انجاز المشروع، ثم تحويله الى حسابه الخاص، علما أن "ميفيستوفيليس" جاء من أعماق الجحيم وهو أحد الأمراء السبع للجحيم. وهو يتابع عمل "فاغنر" تساءل "ميفيستوفيليس": ماذا يوجد هناك؟ فرد عليه "فاغنر" بكل هدوء "إنسان سيصنع".

لكن ما لم يكن بحسبان "فاغنر" أن هذا المشروع سيفلت عن قبضته عندما يخرج الى العيان، فإن الكائن الاصطناعي سيتحرر من سيده أو خالقه، ليكون خادما للأمير الجحيم "ميفيستوفيليس". وهذا ما جعل فاغنر يتمنى أن الإنسانية يجب عليها ألا تتبع النظام الطبيعي وأن تتحرر من قوانين الطبيعة.

الغريب في هذه القصة، أن فاغنر أنهى انجازه والرجل الاصطناعي خرج الى الوجود. فحق له أن يفرح وأن يعبر عن انجازه الكبير.

إن هذا الحلم القديم الذي راود "فاغنر"، ليس بعيدا أن يكون اليوم في ظل التكنولوجيا العلمية المتطورة، والبيوتكنولوجيا المعاصرة التي في أساسها تهتم بالإنسان في أصغر مكوناته وجزئياته، ومنها في "البيولوجيا الجزئية تبدو اغراءات واضحة لصناعة صورتنا الخاصة وتطويرها¹، فبعض الأحلام القديمة ستصبح حقيقية في ظل اكتشاف بعض التقنيات، ويبدو الإنسان بذلك قادرا على التحكم في مصيره البيولوجي ويضع نفسه كخالق لوجوده الخاص.

¹ Hans Jonas. La Science comme vécu personnel. In Etudes Phénoménologiques. N°8 Bruxelles. 1988. p28.

ويصبح بإمكان الإنسان أن يصنع إنسانا جديدا، والذي بإمكانه أن يتجاوز ظروف الإنسان الحالي.

ماذا لو أمعنا النظر جيدا في أحلام "غوته"، فسنرى، ان ابتهاج "فاغنر" كان لفترة قصيرة، رغم الإنجاز الكبير، لكن هناك شك وقلق ومعهما خوف يبدو واضحا من طرف الإنسان الصغير الاصطناعي، الذي سيكتشف هشاشته بحكم طبيعته الاصطناعية.

فماذا لو قال لأبيه (صانعه): شكرا لك أبي ضمنى إلى صدرك بقوة لأشعر بدفء حنانك ... لكن توقف ليس بقوة؟؟، لأنك ستكسر رقاقتي والزجاج الذي يحميها، وستتلف كل مكوناتي لأن ذلك يدخل في طبيعة مثل هذه الأشياء وخصوصياتها من أن تتلف.¹

أكثر من ذلك "المخلوق الصغير" سيكتشف أنه ليس حرا، وإنما صنع لهدف محدد وهو مرافقة "ميفيستوفيليس" الى اليونان، فهو جاء الى العالم في نفس الوقت مع فكرة جولة الى اليونان نشأت في ذهن "ميفيستوفيليس"، فالمخلوق الصغير ليس في ذهنه شيء لأن سيده لم يلقنه شيئا آخر بعد، إن المخلوق الصغير ليست له هوية، فهو آلة تطبق الأوامر وتتنجز الأعمال التي تؤمر بأدائها فهو مصنوع الى حد المطابقة.²

إن هشاشة الحياة وعدم استقرار الحياة الاصطناعية، والخوف المنبعث من مخبر "فاغنر" يؤكد مشروعية قلق وفكر "يوناس" الذي يخشى تشويه الإنسان.

إن أحلام العلموية الطوباوية سوف لن تتوقف عن تشويه صورة الإنسان فالتطور المفرط، أو المعرفة المفرطة، اللتان وسائلهما النظرية والتطبيقية تسجل قطيعة كاملة مع المعارف الإنسانية التقليدية، فهي لا تقضي على المعارف المعطاة على أنها مجرد أوهام،

¹Johan. V. Goethe. Faust2.Trad : Henri blase. Paris. Charbonnier. 1847.P363.

² Hans Jonas. Le Principe Responsabilité. Trad. Jean Greish. Paris. Cerf. 1990. p293.

ولكن على الإنسانية نفسها¹. إن الاختزال المادي للفكر في شروط بيوكيماوية ممكنة، يتطلب ماديا مفكرا ليعلن ذلك، أو بعبارة أخرى، إذا كان الدماغ شيئا مستقلا، يجب موضوع لوضعه، فهو ليس وضعا ذاتيا.² إن هذه المخاوف هي منطلق المسؤولية اليونانية التي أخذت كل بعدها معتبرة سرابات العلم عبارة عن أحلام طوباوية، تتطلب صرامة للحفاظ على الوجود الإنساني.

II. 6.2 رفض "هانس يوناس" للتمييز :

الإنسان مهما كانت صفات تشكله الإنساني فهو يحمل في ذاته الشكل الكامل للشروط الإنسانية، فيكفي أن يكون إنسانا ليكتسب ذلك، لكن عكس ذلك يرى الموسوعيون³ أنه لا يمكن اكتسابها وإنما استمالتها بالتعليم أو فقدانها.

إن موقف الموسوعيين حول الكرامة الإنسانية له صدى إيجابي في ميدان الأخلاق إلى يومنا هذا، في حين ما تجاهله الموسوعيون هو أن "الكرامة" ليست حقيقة تؤسس عليها حقائق أخرى، وإنما هي قيمة تفرضها أخلاق باعتبار أن وجود الإنسانية لا تتوقف عند شروطها وإنما عند معناها الأنطولوجي. إن الكرامة لا يجب أن تكون مشروطة بحالة، بل يجب أن تكون دون أي شرط، وكرامة صورة الإنسان تصبح عندئذ مفهوما رائدا في نظامه الفلسفي. لتأكيد تصوره هذا استند "يوناس" إلى التحفظات التي أبدتها "حنه أردنت" حول موضوع "فكرة حول طبيعة الإنسان" التي بإمكاننا معرفتها، ويمكننا القفز فوق ظلها.⁴

¹ Michel Henri. Barbarisme. P.U.F. Paris. 1987. P10.

² Geoffroy Michel. La Patience de l'inquiétude. Paris. Romillat. 2004. P259.

³ هم أعضاء جمعية أدبية فرنسية ساهموا في تطوير إنسيكلوبيدي (الموسوعة) من يونيو 1751 إلى ديسمبر 1765.³

⁴ حنه اردنت، شروط الإنسان المعاصر، باريس، كالمان-ليفيفي، 1961، ص 17 - ص 19.

فما يريده "يوناس" ليس الحفاظ الدائم على السؤال التقليدي حول الطبيعة الإنسانية، وإنما طرق الباب على امكانيات اخرى، ويعبر يوناس عن ذلك "... ما يهم الآن هو ليس إدامة أو إنشاء صورة لإنسان محدد، وإنما في المجال الأول أن نبقي أفق الإمكانية مفتوحا كما هو في حالة الإنسان، معطى مع وجود النوع كما هو، ويعطي دائما من جديد الحظ للجوهر الإنساني...¹

هذا ما جعل "يوناس" يتساءل: لماذا نريد المحافظة على صورة محددة للإنسان؟ ينطلق "يوناس" من مبدأ الاحتياط المرتبط هنا بكشف الخوف الناتج عن عدم اليقين التقني. يرى يوناس أنه "... فقط تشويه الإنسان الذي يعطينا صورة الإنسان ... فنحن بحاجة الى تهديد ضد صورة الإنسان.. حتى نتأكد من الصورة الحقيقية بفضل الخوف الناتج عن هذا التهديد...² إن الخوف من الوقوع في الفوضى العارمة (الشواش)(Chaos) أو الكارثية ستكون بوصلتنا، فالتهديدات بذلك لها دور كاشف عن الجوانب الإنسانية للإنسان والإنسانية اللذان بقيا دون أن يلاحظا من قبل، وهو ما يسمح "ليوناس" من وضع عدة جوانب لحقوق الإنسان التي ألحق بها "البيو-علميون" مساسا.

بالنسبة "ليوناس" الخطر الحقيقي الذي يواجه الإنسانية لا يوجد في التهديدات الموجودة في العلوم البيولوجية الموجودة، وإنما يكمن في المشاريع الطوباوية التي تنتاب عقول الباحثين والطامحين في انسان جديد، وبذلك يظهر لنا أن النقد "اليوناسي" ليس موجها صوب البيولوجيا وإنما لمشاريعها المستقبلية.

إن أكبر خطر يواجه إنسانية الإنسان قد يكون مصدره من أولئك الذين يريدون أكبر خير له، والقلق للمحافظة على الانسان يتطلب حذرا كبيرا من أحلام انسانية مفرطة.

¹ Hans Jonas. Le Principe Responsabilité. Op.cit. P191.

² Hans Jonas. Le Principe Responsabilité Ibid. P49

وهنا يبدو أن نقد "يوناس" لا يقع أكثر على ما هو ممكن التحقق، بل مما هو مرغوب فيه، المهم هنا هو ليست معرفة طوباويات "بلوخ" أنها ممكنة التحقق، وإنما معرفة هل هي مرغوب فيها؟؟.

يؤخذ "يوناس" الفكرة القائلة أن الإنسان الحقيقي لا يوجد بعد، بل هو مطلوب أن يتحقق مستقبلا عن طريق التكنولوجيات المتطورة، فنحن لا نعرف حقيقة من نكون؟؟، وهو مفهوم بلغ ذروته في أنطولوجيا ليس الآن..¹

في هذه النظرة التحسينية أو ما بعد الإنسانية، الحاضر والماضي ليسا مقصين، وإنما يجعلان الإنسان يأمل في الإتيان مستقبلا، فكل الإنجازات الماضية مازالت مصدر إلهام أفكار ممكنة التحقيق يوما ما، وهذه هي عقيدة الطوباويين من أمثال "لي سيلفر" و"رأي كورز فيل" وغيرهم من الذين يراهنون على العلم والتقنية لبلوغ هذا الحلم لمحاربة الظروف الإنسانية كالموت، الشيخوخة والأمراض.

إذا كان "يوناس" لا يشك في امكانية تحقيق الإنسان الأصيل الذي يريده ما بعد إنسانيون*، فهو يعترف بقيمة الحاضر والماضي، لكن المستقبل قد تحدث فيه تغييرات بالنسبة للإنسان، فهو ليس كالفراشة التي تمر بمراحل يرقية... فوجوده على خلاف اليرقة التي يجب أن تتحول لزوما الى فراشة، فهي في كل مرحلة كاملة لتلك المرحلة.²

أهم انتقاد قدمه يوناس لفكرة "ما يجب أن يكون عليه الإنسان الأصيل" هو أنه سيكون انسانا لا لبس عليه، يكون قد تجاوز كل الغموض وتناقضات الطبيعة الإنسانية، خاصة التناقض الأخلاقي للطبيعة الإنسانية.

¹ Hans Jonas. Le Principe Responsabilité. Ibid. P293.

² Hans Jonas. Le Principe Responsabilité. Ibid. P294.

في نظر "يونس" نظرة "بلوخ" ومن حذي حذوه تعد خطأ أنثروبولوجيا «.. فالإنسان الأصيل كان موجودا دائما في أعلاه وأدناه، في كبره وبؤسه، في سعادته وعذابه، في تبريره أو اتهامه ... باختصار في كل تناقضه الذي يفارقه هو.¹

إن طوباوية "بلوخ" هذه حول الإنسان الذي هو على المقاس ولا لبس عليه، جعلت "يونس" يطرح فكرة مناقضة لها، نظرة ملتبسة لإنسان يصر على أهم تناقض للكائن الإنساني، ويقم التخلي لما هو مثالي لكمال إنساني تام، فيعبر عن ذلك قائلا: " يجب أن نقتنع أنه لا توجد طبيعة إنسانية لا لبس عليها."²

لا يعني ذلك أن الإنسان لا يستطيع تجاوز ظروفه، فهو يستطيع أحيانا أن يلامس اللامبالاة ويحقق نوعا بشريا خال من الغموض يكون إما قديسا أو وحشا. يمكن أن ما لا لبس عليه في الخير أو الشر أن تبرز من التناقض البشري الواحد، وعندها نقوم بتجربة القديسين ووحوش الإنسانية، ولكن أن نفكر أنه يمكننا تحقيق البعض دون البعض الآخر هو توهم في التصميم.³

ان إمكانية تحقيق الانسان الذي "لا لبس عليه" غير مستبعدة، ولكن سيتعلق الأمر بكابوس "رجل آلي" كما جاء في بعض قصص علم الخيال، وعندها سيمثل تهديدا على المجتمع على المستوى السياسي، الأخلاقي وحتى الاقتصادي.⁴

يقول يونس في هذا الصدد: "... الرجل الطوباوي الذي أصبح حقيقة لا لبس عليه، ما هو الا وحة مستقبلية للتكنولوجيا الاجتماعية، مشروطة بشكل بئس على سلوك حسن

¹ Hans Jonas. Le Principe Responsabilité. Ibid. P293.

² Hans Jonas. Le Principe Responsabilité. Ibid. P295.

³ Hans Jonas. Le Principe Responsabilité. Ibid. P382.

⁴ Francis Fukuyama, La Fin de l'homme, les conséquences de la révolution biotechnique, Paris, La Table Ronde, 2002,

ورفاهية مروض الى النخاع على المطابقة، هي اليوم أحد الأشياء التي يجب أن نخشاها مستقبلا... وكل رضا سيولد عدم الرضا، وكل هدوء سيولد قلقا، وكل سعادة تولد بؤسا... وهذا ما يمكن أن نعتد عليه، وقد تكون اليقين الوحيد الذي هو عندنا عن الانسان.¹

الرجل الأصل الذي ينتظره العلم كمنقذ هو سراب، وعليه يجب كتابة قصة متسقة للإنسان وفق نظام الطبيعة.

إن خرق النظام الرمزي للطبيعة شبيه بعملية قطع الحشيش من تحت الارجل على حد تعبير "بيرتولد بريخ" (Berthold Brecht): "يقطعون الأغصان التي تحملهم وهم يصرخون فرحا بمهارتهم وتجربتهم في القطع السريع، ويهوي الجميع للأسفل بينما الذين كانوا يتابعونهم يطأطئون رؤوسهم ويواصلون القطع بهدوء."²

الصفات المميزة للطبيعة الإنسانية ناتجة عن ديناميكية الغاية المحركة للطبيعة، وبذلك التغييرات الفعلية التي يمكن أن نلحقها برصيدنا الوراثي عن طريق الخلق أو التثبيت، تكون قد الحقت مساسا بصورتنا، والذي في أبسط حال يكون قد قضى على الصدفة التي كانت توجه تطور الطبيعة الى حد الآن، انه اقضاء الصدفة، فهو صدى لمقولة "فاغنر": "إننا نريد أن نضحك على الصدفة."³

لكن بالنسبة "ليوناس" يرى أن الصدفة تجعل ممكنا ظهور الشيء أن يكون دائما جديدا ومدهشا "... فالصدفة هي مصدر لتطور الأنواع لكل جيل من الجنسين، والضمانة لكل فرد عند ولادته أن يكون فريدا ولا يمكن لأحد اخر أن يشبهه، فالصدفة تضمن المفاجأة لما هو جديد."⁴

¹ Hans Jonas. Le Principe Responsabilité. Ibidem. P293.

² Berthold Brecht, Exil 3, Œuvres Complètes, Poèmes, Trad., P. Mayer, Paris, 1967, p68.

³ Hans Jonas, Technique, Morale et Génie Génétique, Trad., Rémy Bragne, In, Communto, N°09,1984, p60.

⁴ Hans Jonas, Technique, Morale et Génie Génétique. Idem. P60.

II. 3 المبحث الثالث: تخوفات "هانس يونس" من البيوتكنولوجيا ومخلفاتها

II. 1.3 تخوفات "هانس يونس" البيوايائية

لو تطلعنا الى الطب المعاصر، وخاصة منه طب الألفية الثالثة إلا ونجد فيه خيالات في أبعد حدودها، وهو ما يبدو واضحا من خلال التلاعب الجيني، الذي أصبح يخيف كل العلماء والمنتبعين، فالأمراض الجينية أصبحت تجمع حولها عددا كبيرا من الناس من خلال الجمعيات الطبية والخيرية التي تجمع تبرعات مالية كبيرة، تعد بعشرات الملايير من الدولارات، ويعد ذلك تعبيرا عن الخوف الذي ينتاب الأفراد والمجتمعات، وما يزيد من هذه التخوفات هي الصرخات المتزايدة من مخاطر التمييز الجيني بالنسبة للبنوك والتأمينات، لأولئك الذين يعملون في مجال طب الأوبئة (*épidémiologies*) التي أصبحت تسمع هنا وهناك من أنحاء العالم، فماذا لو نظرنا للوباء القاتل الذي صعق العالم كله في أيامنا هذه، وانتقل من مجرد وباء الى جائحة، أصبحت "جائحة كورونا" * (Covid19) اليوم كلام الكبير والصغير والعام والخاص، فمن يعوض كل هذه الأرواح التي أزهقت ويعوض كل هذه الأسر التي بقيت تواجه مصيرها دون معين أو معيل؟

إن الأمراض الجينية أصبحت تلفت انتباه الفلاسفة والعلماء حول هذا الخطر وكيفية مواجهته، فالأمراض الخطيرة كداء الغشاء المخاطي (*muscovisadose*) الهيموفيليا (*hémophilie*) الاعتلال العضلي (*myopathie*) ، مرض الخلايا المنجلية (*drépanocytose*)، التلاسيميا (*thalassémie*) ... فالأفراد والعائلات التي تمسها مثل هذه الأمراض الجينية أمنيتها هي أن لا تتوقف الأبحاث في هذه المجالات واكتشاف علاجات لها، لكن هذه الأمنيات لا شك أنها ستبعث بأخرى أكثر مشروعية منها، وهي استئصال مثل هذه الأمراض الوراثية أو الأوبئة التي تصيب الإنسان وهو كما يرى العالم "سيكار" (*Didier Sicard*) أن الخطاب سيصبح عنيفا بطريقة لا واعية لتلك الرهانات فيقول:

"...إننا نخاطر بذلك باستئصال كائنات إنسانية لما نريد استئصال العنف من المجتمع أو النمل الأبيض من البيت".¹

إن معنى "استئصال" هو اقتلاع الأمر من جذوره، أو في الحالة التي نحن عليها في مجال الطب والبيولوجيا نعني بهما إيقاف عملية الحمل عن طريق الفحص قبل الولادة واختيار جنين سليم من أي أعراض أو أمراض ممكنة، قبل عملية الزرع في الرحم، فمن البديهي أن أي أسرة في هذه الحالة لا تريد ولادة طفل يحمل أمراض وراثية.

إن البحث عن الحالة العادية تستحوذنا نفسياً، لأن الطفل العادي لا يوجد، فهناك أطفال غير عاديين ويستطيعون العيش أو التأقلم مع ظروف أو بيئة صعبة، وبذلك، الأمر لا يتعلق بالاختيار القبلي لمولود على آخر، فنكون قد فتحنا مجالاً للتمييز، علماً أننا قد نجد طفلاً مصاباً بالهيموفيليا وينعم بحياة سعيدة وقد يكون نافعا لمجتمعه فمثلاً: "ابراهيم لينكولن" (Abraham Lincoln) أو "افريست غالو" (Evariste Galois) كانا مصابان بمرض مارفان (Syndrome de Marfan) لكن الإنسانية لا تأسف على وجودهما لما قدماه لها.

فلا أحد إذن يرفض الطب الوراثي الذي يقدم علاجاً ولا يسعى إلى تغيير الكائن البشري. إن إيتيقا المستقبل تضع أمامنا مبدأ الحيطة والحذر أمام ممارسات قد تحل بنظام الحياة الإنسانية وممارسات قد تحرك رمادا تشتعل من خلاله نارا قديمة يخرج منها شياطين إنسانية جديدة، وما الشيطان النازي أو غيره من الشياطين الذين هم يقعون في مختبراتهم لا يبالون بالإنسان وقيمه إلا عينة من الذين همهم الوحيد هو تحقيق نتائج، وهم ينعمون بغطاء سياسي ومالي.

¹ Didier Sicard, L'Art Médical et la Bioéthique, Paris, P.U.F, 2009, pp 38-41

إن هذا الكلام يقودنا حتما إلى "الفكر العولمي" الذي يراد به اليوم وضع سجل تدون فيه كل المعلومات التي تخص الفرد، وأهمها الخارطة الجينية التي من خلالها يمكن معرفة الحالات الجسمانية، العقلية وحتى النفسية للفرد.

إن عملية تحديد إعاقة مستقبلية أو مرض قاتل من خلال الكشف الجيني يعد في حد ذاته مساسا بالكيان الشخصي أو الاجتماعي (الأسرة)، ويصبح تاريخ الفرد الماضي المستقبلي في يد أي هيئة أو مؤسسة، ويصبح من حق رب العمل أن يطلب من عامله أن يقدم فحصا جينيا كليا قبل إبرام عقد العمل؛ وبالمقابل ماذا لو لم تكن مثل هذه الفحوصات، ويعلم المريض مصير حياته فيقبل على إبرام عقد تأمين مدى الحياة ليستفيد منه ذويه، أو أن يقوم باقتراض مبلغ كبير من المؤسسات المالية وهو يعلم مصير حياته.

الكشف الجيني يعد حرية فردية، والمساس به هو إخلال بالحقوق الفردية للإنسان، فالطبيب لا يستطيع من تلقاء نفسه القيام بمثل هذه الاكتشافات الجينية دون موافقة المعني بها، وما لم تكن لصالحه، وإلا ماذا سيكون بالنسبة لموضوع خاص بالاستقلالية؟

ولكن بما أن الإخصاب الاصطناعي يسمح بخلق جنين يمكن زرعه مع إمكانية نزع إحدى الخلايا الأربع دون أي إتلاف، فباستطاعة العلماء دراسة الجينات قبل زرعها في الرحم ووجود جينا ضارا يؤدي إلى تحطيم الجنين، لعل ذلك ما دفع العلماء إلى النظر في الخلايا الجذعية التي ستسمح بدراسة العملية المرضية أثناء تطورها، إن مثل هذه العملية معمول بها في الدول المتطورة اليوم، وتطبق في دراسة الأمراض الخطيرة لكن ماذا سيصبح الأمر بحضور جينات سرطانية؟

إذا كان الجواب بنعم، فإن المسألة حينئذ ستعمم لكل أنواع السرطان؟ أين سنجد في يوم آخر الأصل الجيني لها، لكن بعد 50 سنة مستقبلا. وإذا نظرنا إلى الوتيرة التي تتقدم بها البيوتكنولوجيا والاكتشافات التي ستحقق مستقبلا، هل يحق لنا أن نقول: إن السرطان سيصنف كمرض خطير؟

بعيدا عن الكلام عن السرطان، البحث عن التشوهات الكروموزومية وتريزوميا 21، بمجرد تسمية مجموعة من الأفراد بهذه التسمية (ت21) يعد إقصاء من الكيان الاجتماعي، وي طرح مسألة أخلاقية كبيرة، نكون قد عرفنا أو تعرفنا على شخص أو إنسان عن طريق الجينوم، ويعد ذلك اختزالا لحقيقة الإنسان في مجال بيولوجي، والأدهى والأمر تعريفه بجين يشخص حالته المرضية.

إن هذا الجين يذكرنا من زاوية أخرى أننا كلنا نحمل جينات مماثلة قابلة لأن تتحول إلى حالات سرطانية أو أمراض خطيرة، كمرض الزهايمر.

إن ما يشهده العالم اليوم في مجال البيولوجيا الجزيئية، والطب الوقائي فهو أمام جدار الاقتصاد النيو ليبرالي الذي يميل إلى عقلانية أدواته أكثر منها عن الحقيقة التي يراد لها في التصورات البيولوجية أو البيوتكنولوجية.

II. 2.3 تخوفات "هانس يوناس" من انحرافات الطب المعاصر وقدرته على التنبؤ بالأمراض المستقبلية.

إن الكلام عن التخوفات التي يبديها "يوناس"، لا يعني أننا بصدد إنكار مكانة ودور الطب التنبئي الذي يطلعنا على أمراض تكون ممكنة بفضل علم الوراثة، لأن بالنسبة للإنسان "الوقاية خير من العلاج" كما يقال، فمزايا الطب التنبئي لا يمكن انكارها، فمثلا بعض الأمراض العائلية مثل: مرض السكري، مرض الغدة الدرقية، النقص البصري... فكل ذلك يبدو ايجابيا ، لكنه يخفي من وراءه نظرة أخرى سلبية، فالأشخاص الذي يولدون بجينوم معدل سيتعرضون لتمييز أثناء الأبحاث أو التحقيقات الجينية، فالبنوك، التأمينات، والوظائف يمكن أن تستغل إعاقاتهم ويخضعون لظلم اجتماعي.

الطبيب "جاك روفيني" يرى أنه ليس من السهل للحتمية الوراثة أن تتوقع بيقين علمي مرضي يحدد الأمراض بتلك الكيفية التي هي في بعض الأمراض العضوية أحادية المنشأ (affections mono génique)، فعالية الأمراض تتحد عن طريق مجموعة من الجينات

غير معروفة أو أنها تكون خاضعة لتأثير كبير للوسط الذي يكون فيه أو الظروف المعيشية التي يكون عليها صاحبها.¹

الأخطر من ذلك ماذا لو عممنا تلك الممارسة إلى مجتمع بأكمله، فيصبح الأمر تمييزا على أكبر مستوى، سيتم فيه تصنيف الكائنات الإنسانية حسب الخطر الوراثي.² ألم يعد ذلك كافيا حتى تتبنى السلطة الحاكمة "قانونا بيواتيقيا" يمنع تأمينات ضد العجز أو الموت؟ على أنها لا تأخذ بعين الاعتبار نتائج تشخيص الصفات الوراثية لشخص يطلب الاستقادة من هذا الضمان.³

ما يمكن أن نأخذ عليه الطب التنبئي هو أن نعتقد بكل سذاجة إمكانية اختزال الإنسان في الجينات، ومنه يجب على العلماء والأطباء تجنب فكرة الاختزالية الجينية، والعوامل اللاحينية تشهد على ذلك.

بالرغم من اعترافنا أو تسليمنا بأهمية الطب التنبئي للوقاية وعلاج الأمراض الوراثية، لكن يبقى علينا في كل الأحوال أن نقدم تقييما موضوعيا للمشاكل الأخلاقية التي يطرحها والنظر في حدودها.

فبداية: كل الممارسين في الميدان عليهم تقديم معلومات صحيحة، واضحة، دقيقة وملائمة.

كذلك على الممارسين أثناء التنبؤ بالأخطار الوراثية تقديم حلول علاجية أو تنبئية، دون إهمال المتابعة النفسية إن أمكن الحال.

¹ Jacques Ruffié, Naissance de la Médecine Prédictive, Paris, Odile Jacob, 1993.

² Jean François Mattei et AL, Questions d'Ethique Médicale, Paris, Flammarion, 2008, p258.

³ Jean François Mattei et AL, Idem, p259.

فالطب التنبئي يجب ألا ينجر في حماقة أو اليوتوبيا أو قوانين السوق، أو يقرر أن مستقبل النوع الإنساني بخير، فيمكن لنا عندئذ أن نحكي بحرية الإنسان على مذبح الفكر الزائف للحتمية البيولوجية مكان الدفاع عن الحريات الفردية.

إن تخوفات "هانس يونس" لم تكن فقط في حدود المجال العلمي والطبي، وذلك لمواكبته عصر البيوتكنولوجيا والبيوطب، وما حققه من نتائج كبيرة، بل استقرأ الفكر الفلسفي من بدايته ومن جذوره، لأن فكرة تجديد الإنسان وجدت لها سندا عند كبار فلاسفة القرن العشرين، على أن نحدد نموذجين هما: "ماكس فيبر" (Max Webber) و"هيربرت ماركيز" (Herbert Marcuse) اللذان حذرا من مخاطر إعادة تجديد الإنسان، نتيجة العواقب التي قد تلحق الإنسانية مستقبلا.

أما "ماكس فيبر" فقد حذر من قبل ضد الآثار السلبية الملازمة للتقدم التكنولوجي، ولم يكن الوحيد في موقفه هذا الموجه "للتقنوعلمية"، ف "ماركيوز" في ظل نظرية نقد مدرسة "فرانكفورت" حيث قدم ردا قويا حول تجديد الإنسان في ظل البيوتكنولوجيا المعاصرة والممارسات البيوطبية... "إن التطور الحاصل يبدو مرتبطا بتقوية الخضوع في كل عالم الحضارة الصناعية، إنها سيطرة الإنسان على الإنسان، ولا يبدو هذا التوجه كتراجع عرضي ومؤقت في طريق التقدم، فمعسكرات الاعتقال، الإبادة الجماعية في الحروب العالمية، والقنابل النووية.. ليست انتكاسات في الهمجية، وإنما هي نتائج الفتوحات المعاصرة للتقنية وحب السيطرة. إن سيطرة الإنسان على الإنسان نجدها في أعلى الحضارة، في الوقت الذي تبدو فيه الإنجازات المادية والفكرية تسعى لخلق عالم حر حقيقي".¹

يشير "ماركيوز" إلى المفارقة المعاصرة لمجتمع مستلب عن طريق أدواته الخاصة المزعومة للحرية، وعقلانية وقعت في فخ منطق الاستغلال.

¹ Herbert Marcuse, Eros et Civilisation, Paris, Edition, de Minuit, 1963.

قبل "ماركيوز" بفترة من الوقت، "هيديجر" اخضع العملية التقنية لنقد أنطولوجي، ففي نظره العقلانية التكنولوجية المعاصرة تفرغ الواقع من محتواه وتحاول التلاعب بالإنسان كمادة من المواد الأخرى، فمنطق التطور التقني هو منطق استغلال يستعبد الإنسان ويبدد كل موارده، "إن استنزاف كل المواد بما في ذلك المادة الأولية "الإنسان" لفائدة الإنتاج التقني في أقصى الحدود لصناعة كل شيء، هي محددة بسرية بفرغ كامل، تكون فيه البسة الواقع معلقة..¹ فحسب "هيديجر" التقنية إنما تتحدد كذلك بالتسلط، فالتقنية لا تنتج، وإنما تستحوذ على كل ما يوجد في الطبيعة لتستغله كما تشاء.

فالتبيعة والإنسان هما وسيلتان تستغلهما التكنولوجيا المسيطرة، مما يعني أن كل كائن يعد كشيء، ومما لا شك فيه أن الإنسان سيصبح بذلك مادة أولية، أو مجرد قطعه غيار موجودة في المخزون المتوفر.

المشكلة ليست في التقنية ذاتها، وإنما في الهوية التي ستمنحها للإنسان في ظل هذه العقلانية الادائية.

لكي يقنع "هيديجر" بخطورة سلب الحالة الطبيعية للإنسان عن طريق التقنية، فهو يقدم لنا الآثار الظاهرة للتقنية والمظاهر المدمرة لها، فهي تمنع الإنسان الذي أصبح كارثيا، "فنحن لا نعلم ما تهيئه لنا الوسائل التقنية، إنه اعتداء على الحياة وضد الكائن الإنساني كذلك."²

¹ Martin Heidegger, Essais et Conférences, Paris, Gallimard, 1958, p75.

² Martin Heidegger, Essais et Conférences. Op.cit. p76.

إذا لم يقدم لنا "هيد يجر" حلولاً للمسائل التي يطرحها التفكير التقني وتصميمه الاختزالي، لكنه يسمح لنا مع ذلك تحديد آثار الخطاب الفلسفي المعاصر للحتمية البيولوجية الميكانيكية ذات الإلهام المادي.

الفكر التقني يعمل على اختزال الإنسان كشيء من كل الزوايا، وبلغ قمته في ظل الخدعة البيوتكنولوجية التي ترمي إلى إعادة تشكيل الإنسان من أجل تطويره.

الابتكارات الجديدة والمتنوعة في علوم الحياة لم تعد تهدف إلى إطالة وجود الكائن الإنساني، وإنما أصبحت تدعي أنه بإمكانها أن تقرر وجوده بمعزل عن الإمكانيات الطبيعية لهذا الوجود، فالحياة لم تعد من أساس طبيعي وإنما نتيجة إنتاج اصطناعي.

فالبيولوجيا لم تعد مختلفة عن الفيزياء سواء بموضوعها أو بمنهجها، فالكائن الحي يمكن بناؤه بنفس الكيفية التي يتم بها بناء كائن مادي، وهذا ما جاء في صريح العبارة على لسان "فرانسوا داغونيهي" (François Dagognet) " .. بعد أن وصفت، اعترفت، ثم حاولت أن تعرف أنها تتحكم أخيراً وتعيد الترتيب... يبدأ بالموازاة عهد البيوتكنولوجيا، أين سيفرض في الأخير التمييز بين علوم المادة وعلوم الحياة.¹

يطلعنا " داغونيهي" في هذا الجانب عن ظهور تصميم اختزالي يمكن للعلم أن يتدخل في جميع مناحي الحياة وبذلك زمن العلوم اللوجستية قد ولى.²

II. 3.3 تخوفات "هانس يوناس" من خيالات البيوتكنولوجيا

الخيالات البيوتكنولوجية تجاوزت التصميم الأدوات الذي سلمته كل من المعرفة والسلطة التقنية للإنسان معتبرة التقنيات العلمية كمجموعة أدوات في خدمته.

¹ François Dagognet, La Maitrise du Vivant, Paris, Hachette, 1988.

² Gilbert Hottois, Philosophie des Sciences, Philosophie des Techniques, Paris, Odile Jacob, 2004, p18.

إن الخيالات البيوتكنولوجية ترتبط بالرغبات الغامضة لصنع أو كسر الطبيعة كما نشاء، وتظهر قلقا يرتبط بهذه الشكوك، وهناك العديد من الفلاسفة والمفكرين تطرقوا لهذه المسألة، ف"بول رامسي"¹ (Paul Ramsey) في كتابه "صناعة الإنسان" أو "ماري شيللي"² (Mary Shelley) في "فرانكينشتاين أو بروميثيوس المعاصر"... يترجمان جيدا هذه الشكوك.

العلم لما أصبح عمليا، ويترجم كل الحقائق وضع الإنسان خارج وظيفته الطبيعية في نظام الكون، فكل ما يقوم به لتطوير العالم يفترض أنه بعيد من أن يكون كاملا وفي الوقت نفسه يقضي على كل المزايا والفوائد المفترضة لعمله.

"فرانكينشتاين" مثله كمثل "بروميثيوس" زود الإنسان "بالنار المقدسة" التي هي رمز التقنوعلمية التي تحذر الإنسان من هيمنة الطبيعة، لكنها ستعمل في ما بعد على تحطيمه. إن خيالات البيوتكنولوجيا المعاصرة وجدت لها سندا في الأعمال الأدبية والسنيماية والفنية، وهي كلها تقوم على فكرة تطوير الإنسان.

إن قصة "فانسون فريمان" تجسد حقيقة صورة الخيالات البيوتكنولوجية، فهذا الطفل المولود حديثا وفي ظروف طبيعية كان يعاني من إعاقات، لكن طموحاته كانت أكبر من ذلك، فكان يحلم دائما أن يكون "رائد فضاء"، ولتحقيق ذلك يجب عليه أن يلتحق بمراكز "غاتاكا" للأبحاث الفضائية، وهو مركز مخصص فقط لمن يمتلكون رصيذا وراثيا لا تشوبه شائبة، لكن والداه "أنطونيو" و"ماري" كانا يرغبان في إتباع الإيقاع والنظام الرمزي للطبيعة، فرفضوا اللجوء إلى التلاعبات الجينية لمولودهما الأول.

لكن حساب الرصيد الوراثي للطفل "فانسون" عن طريق حاسوب عند الولادة بين أن الطفل له قابلية التعرض لاضطرابات قلبية لا تسمح له أن يعيش أكثر من ثلاثين سنة، وبعدها

¹ بول رامسي، عالم أخلاقي مسيحي أستاذ جامعي أمريكي. 1913-1988.

² ماري شيللي. (1797-1851)، كاتبة إنجليزية، أبدعت شخصية فرانكينشتاين، 1818.

كل المدارس رفضت قبول الطفل نتيجة الأعراض التي كان يعاني منها، وبعيدا عن قصة ابنهما الأول المؤلمة، قرر الزوجان "أنطونيو" و"ماري" فريمان، هذه المرة اللجوء إلى البيوطب والتلاعب الجيني لحماية مولودهما الثاني "أنطون" من يनावيب الطبيعة، فكانت النتيجة مبهرة وحققت لهما رغبتهما وجسد مشروعهما.

كان الرصيد الجيني جد متطور للمولود الثاني، وكان ينجح في كل التحديات التي كان يواجه فيها أخوه الأكبر "فانسون"، إلا في حالة واحدة أنقذ هذا الأخير (فانسون) أخاه الذكي من الغرق خلال تحد بينهما في السباحة... ومنذ تلك اللحظة الطفل المعاق جينيا أدرك أنه ليس هناك شيء اسمه "مستحيل" لتحقيق غاياته... خاصة منها الفكرة أو الحلم الذي كان يراوده دائما وهو "الذهاب إلى الفضاء" والدخول إلى مركز "غاتاكا" للأبحاث الفضائية ...

وبداية تحقيق الحلم تكون بالدخول إلى مركز "غاتاكا"¹، إنه مركز المستقبل، وتخطى عتبة المركز يتطلب نمطا جينيا لأطفال يتم اختيارهم وتصنيفهم وفق معايير محددة.

ومراكز الدراسات والبحث مخصصة للمرشحين الذين يمتلكون رصيذا جينيا متميزا، والقبول يكون بناء على قاعدة التحليل وفك التشفير الجيني، فلا مكان بذلك للمعاقين على مستوى كل الأصعدة... فليس هناك بهذا المركز تمييز عنصري أو جنسي وإنما تمييز جيني؟؟؟ إن مثل هذا التمييز لا يريد أحد أن يكون عرضة له ونكون حينها أمام موقفين:

أما أولهما: التمييز العنصري أو الجنسي قد نجد فيه مواساة من قلوب رحيمة، تضمنا إليها ويكون لنا دور في المجتمع مع أشخاص غير الذين ينبذوننا، ويعد ذلك من جانب آخر كشف لغطاء على بشاعة البيوتكنولوجيا، وما وصلت إليه، فهي لا تدع لمن تنبذه أي مكانة أو دور يلعبه في المجتمع، فهو مرفوض مهما كانت المحاولات.

¹ Andrew Nicole, Bienvenue à Gattaca, 1997, (Guanine, Adénine, Thymine, Cytosine), 4 bases nucléiques de l'ADN correspondants au nom GATACA.

وأما ثانيهما: فالمجتمع بأكمله سيدخل في سباق التلاعبات الجينية عن طريق الإخصاب الاصطناعي، حيث يتم اختيار صفة المولود العقلية والجسمانية، عن طريق اليوجينيا (النسالة)، وعندها ندخل منطق جديد ومجتمع جديد لا ندري عواقبه، لعل ذلك ما كان يتخوف منه الفيلسوف "هانس يوناس" ونكون أمام مجتمعين:

-أما الأول: فهو الذي تم انتقاؤه بكل المواصفات والتعديلات.

- بينما المجتمع الثاني: وهو الذي يكون فيه المولودون من رجال ونساء حسب نظام الطبيعة سينحدرون إلى الصف الأدنى، وتسد إليهم مهام دنيا، إنهم سيكونون عاجزين أمام عبقرية المجتمع الأول ومتطلباته التي لا يفهمها إلا من كان معدلا جينيا.

إن في مثل هكذا مجتمع تكنولوجي يطبق النسالة (اليوجينيا) بشكل محدود أو على أكبر نطاق، يحق لنا أن نتساءل: ما هو مصير الإنسان فيه؟ وما هي الأسس السياسية والاجتماعية فيه؟ (سيجيب عنه لاحقا يوناس في المسؤولية الأبوية والمسؤولية السياسية) فمن كل هذا "غاتاكا" يمثل عالما يكون فيه الاختيار الجيني الوسيلة المميزة بين الأشخاص (الصالح والطالح) وتنظيم المجتمع ..¹

هل بقي لنا أن نفكر في عالم نعيش فيه اسمه "غاتاكا"؟ إن بمجرد التفكير فيه، سينتابنا الخوف والشكوك ومخاطر هذا العالم المستقبلي!!؟ ألا يحق لنا أن نفكر بنفس منطق المستقبل كذلك؟

"هانس يوناس" انتبه لهذه المخاطر، وفي نظره حتى وإن كان طموحنا أكبر، فيجب أن نؤسس له أخلاقا مناسبة، إنها أخلاق عالم المستقبل، عالم تكنولوجي بامتياز، وهذا ما جعل فيلسوفنا "يوناس" قبل الكلام عن أخلاق المستقبل، قام بتحليل وتمحيص كل الأسس التقنية والعلمية (التقنوعلمية)، ومنها فكرة الاختزال التي أخذت لها مجالا واسعا في البيوتكنولوجيا.

¹ Andrew Nicole, Bienvenue à Gattaca, 1997, Columbia pictures, Jersey Films, Etats Unis.

بالنسبة "ليوناس" المشكلة ليست في التقنية ذاتها حتى لا ننجر في تطرف مضاد للعلم، وإنما إلى الهوية التي تمنحها للإنسان في ظل منطق أداتي أو بعبارة أخرى المادية الاختزالية. كذلك المشكلة ليست الآثار الواضحة والمقلقة والكارثية للتقنية وإنما للأنطولوجيا التي توحى بها.

في نظر يونس هذا العلم الاختزالي، وهذه البيوتكنولوجيا المتسلطة يجب أن نقابلها بفلسفة بيولوجية تكون قاعدة لأخلاق، ومعيارا لتقييم التكنولوجيات الصاعدة. وعليه سيتعلق الأمر بأخلاق قاعدتها فلسفة بيولوجية ترفض أنثروبولوجيا آلية ذات طابع مادي تقوم عليها العلوم المعاصرة.

خلاصة الفصل الثاني

كانت انطلاقتنا في هذا الفصل بالتطرق لفلسفة الحياة عند "هانس يوناس"، وذلك من خلال عرض الأسس التي استند إليها "يوناس" لتأسيس أخلاق المستقبل، فكانت البداية من توجيهه انتقادين لكل من النظرية الآلية، وفكرة المركزية الإنسانية، فلم يعد الإنسان يمثل قمة الخلق، وإنما هو مجرد مخلوق ككل المخلوقات الأخرى، وهو ما انتهى به إلى فكرة التشكل البشري، وبها تم تجريد الإنسان من الوصاية على المخلوقات، ثم بعد ذلك تطرقنا للوضع الأنطولوجي للحياة من وجهة فينومينولوجية، وفيها يكون الكائن الحي خاضعا لواقع الحياة.

أهم ما تميزت به فلسفة "يوناس" هو اتخاذها الإنسان محور اهتماماتها، باعتبار أن الأخلاق متجذرة في كيانه الأنطولوجي، فهي تحمل تشكلا مركزيا كما تمت الإشارة إليه، فالإنسان له معنى خاص في نظر "هانس يوناس" وهذا ما يجعلنا نقول ان البيولوجيا الفلسفية هي فلسفة أنثربولوجية، وهو ما دافع عنه "يوناس" في كتابه "ظاهرة الحياة" الذي مكنه من الانتقال من فلسفة عضوية إلى فلسفة الإنسان.

إن أهم ما ميز فلسفة "يوناس" هو رفضه أخلاق بشرية مركزية كما كانت عليها الأخلاق التقليدية.

كما تبني "يوناس" فكرة الإنسان كائن رمزي، ويرى أن الرموز هي أهم وسيط بين الإنسان والعالم، لكن بشرط أن يكون الوعي أساس استقرار الإنسان، ويبقى الإنسان هو الأكثر تطورا من بين كل الأحياء.

الرمزية اليونانية أطلعتنا على تصور أنثربولوجيا فلسفية تحدد خصوصية الإنسان في مملكة الحيوان.

ما ميز الفلسفة البيولوجية عند "يوناس" هو انتقاله من الجسد إلى الجانب النفسي، ومن خلالها عرض علينا صورة الإنسان، فهو يرفض صورة الاختزال البيولوجي بين الإنسان والحيوان.

لقد طرح "يونس" تصورا سوسولوجيا وبيولوجيا للإنسان، وبين أن الإنسان هو كائن متميز بوعيه ولغته وابداعه، كذلك الإنسان وحده يمتلك القدرة على التواصل والحياة الاجتماعية، أو سلوكيات رمزية وممارسة بعض الطقوسات.

ما كان يريده "هانس يونس" هو أن الاكتشافات العلمية والبيوتكنولوجية إذا كانت قد أثبتت ان بعض الجينات تلعب دورا كبيرا في تحديد بعض سلوكيات الإنسان، فهل هذا يعني أن الحياة الإنسانية تحدد كلها وراثيا؟ الفيلسوف "هانس يونس" يرفض فكرة "الكل الوراثي"، وهناك مجالات تخص الإنسان كإنسان، لكنه لم ينف ما حققته البيوتكنولوجية المعاصرة من اكتشافات، والرؤية الجديدة التي وصلت إليها حول الإنسان، نتجت عنها خيالات تجاوزت حدود العلم والأخلاق، وأصبح فيها الكلام عن "يوتوبيا جديدة" وإنسان جديد، جعلت تخوفات متعددة تلحق بالعلم والأخلاق، وحتى بالفيلسوف "هانس يونس" نفسه مما جعله يدق أجراس الخطر الذي تواجهه الإنسانية في وجودها، والإنسان في كيانه وكرامته وقدسيتها حياته، ولكبح جموح تلك الخيالات العلموية، وخيالات حضارة الرجل الفاوستي على حد تعبير "شبنلغر"، سعى "هانس يونس" إلى تبني أخلاق جديدة، لمجتمع جديد إنها أخلاق المستقبل التي جسدها في " أخلاق المسؤولية".

III. الفصل الثالث: الأخلاق اليونانية في ميزان الفلسفة

- المبحث الأول: مقارنة بين الفلسفة الأخلاقية عند " هانس يوناس " والفلسفة اليونانية
- المبحث الثاني: رفض " هانس يوناس " للأخلاق التقليدية
- المبحث الثالث: المسألة الأخلاقية عند " هانس يوناس " في الفلسفة المعاصرة

تمهيد

شاءت الأقدار أن تكون الحضارة اليونانية مهد نشأة الفلسفة، وكانت أول خطوات تصوراتها عن طريق بلورة خطاب مشبع بالعقلانية، ومعتمدة في ذلك على ثلاثة مجالات أساسية لوضع حججها وهي: الفيزياء أو نظرية الطبيعة، الأخلاق والمنطق، إذا كان هذا الأخير يعالج قواعد الفكر، فالأخلاق ترتبط بسلوكيات الحياة الإنسانية للسعي نحو تحقيق السعادة، فمنذ تلك الفترة والفلاسفة يعبرون عن أفكارهم بأراء حادة ومتناقضة حول البعد الأخلاقي، الأنطولوجي والابستمولوجي فكان تأثيرها واضحا على مجمل الحياة الإنسانية.

سننتظر في هذا الفصل إلى أصول الفلسفة الأخلاقية عند "يونان"، على أن تكون الانطلاقة جديدة للإنسانية، لكن اهتمامنا سيكون منصبا حول علاقة الأخلاق بالحياة الإنسانية وقدسيتها، ونحاول أن نفهم أن هذه المسألة ليست جديدة، وبالتالي فإن الصدى والتعقيدات التي تحدثها لا يمكن تحديدها إلا من خلال تسليط الضوء على المعالم التي ميزت الحياة الإنسانية طيلة تاريخها، أو بعبارة أخرى، إن تطرقنا للمسائل الأخلاقية التي تتعلق بالحياة الإنسانية سيعود بنا إلى أصولها التي نحدد من خلالها مختلف الصيغ للمشكلة عبر التاريخ، وأهم شيء في ذلك هو تحديد المعنى العميق للمشكلة باعتبارها تعد ترسيخا للموقف الميتافيزيقي المتجذر في الإنسان منذ القدم، وهو ما يسمح لنا من اكتشاف ما كان يريده الفيلسوف "هانس يونان" في محاولته لإعادة تأسيس أخلاق في الوقت الراهن على أساس ميتافيزيقي، لأنه بالنسبة إليه أي أخلاق، حتى التي هي أكثر نفعية، الأكثر ايمانا والأكثر جوهرية، فهي تحتوي ضمنا على ميتافيزيقا... والمادية مثلا ستكون واحدة...¹.

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P97.

الأخلاق التي يسعى "هانس يوناس" لتأسيسها ليست صورة لأخلاق قديمة، وإنما هي أخلاق جديدة جاءت في ظروف لم يألفها الإنسان من قبل، كما أنها ليست أخلاقاً لظرف طارئ في الحاضر، وإنما هي تمتد نحو المستقبل مما يجعل منها "أخلاق المستقبل" وهي تخص بالدرجة الأولى الأجيال المقبلة. إن السؤال الذي يواجهنا في هذا الصدد حول ضرورة الرجوع إلى الجذور الأخلاقية عند "يوناس" نحدده كما يلي: "لماذا الإنسان يجب أن يكون في هذا الوجود؟"، في نظر "يوناس" مجرد أن نقول "لماذا" يعد واجبا غير مشروط للإنسان للحفاظ على وجوده، وذلك بالنسبة ليوناس " يعيد الطريقة التي يجب أن يكون بها الرجوع إلى الأوقات الكبيرة لتاريخ الفكر الفلسفي وتمييز بعض الوجوه اللامعة التي قد تكون لها علاقة عن قريب أو من بعيد على فكر الفيلسوف " هانس يوناس"، أو قد ندخل في حوار جوهري معه حول المسألة الأخلاقية بالكيفية التي أراد أن يناقش بها أخلاق المستقبل في ظل مبدأ المسؤولية. ستكون مناقشتنا للمسألة الأخلاقية عند "يوناس" عبر مسار تاريخي من خلال نماذج فلسفية كان لها أثر كبير على الفكر الفلسفي عموماً، وعلى المسألة الأخلاقية خصوصاً، وهو ما يعترف به "يوناس" نفسه في تأسيسه لأخلاق المستقبل.

III. 1 المبحث الأول: مقارنة بين الفلسفة الأخلاقية عند "هانس يونس" والفلسفة

اليونانية

III. 1.1 هانس يونس" و" أرسطو":

الكلام عن الأخلاق اليونانية يتطلب منا بالضرورة الرجوع إلى الأصول الأخلاقية، وأبرزها تأثيرا عليها هي الأخلاق الأرسطية (أرسطو)، حيث نجد نقاط تقاطع أو تداخل بينهما، وليس الهدف من ذلك هو وضع مقارنة أو مواجهة بين الأخلاق اليونانية والأرسطية، وإنما نسعى إلى محاولة إيجاد بعض ملامح أخلاق "ارسطو" التي تمت صياغتها أو مناقشتها عند "هانس يونس" في إطار فلسفي معاصر.

إن أول ما يلفت انتباهنا هنا هو ما قاله "هيجل" في حق "أرسطو" مصرحا: " إن "أرسطو" اخترق الكتلة بكاملها وجميع جوانب الكون الحقيقي، ومعظم العلوم الفلسفية مدينة له بتمايزها وبدايتها"¹.

وأول تساؤل نطرحه هنا هو: هل البيولوجيا الفلسفية التي قدمها "يونس" مستخلصة من فلسفة "أرسطو" الطبيعية؟ لم يتردد الفيلسوف "ستانجنيك" (A. Stanguennec) ليجيب قائلا: " المسار الفلسفي الفيزيقي المتبع منذ أرسطو يمثل أولا بيولوجيا أرسطية، وما بعد هايدجر النقدية، وهو ما قدمه "يونس" في كتابه " فينومينولوجيا الحياة" الذي كان يعتقد فيه بإمكانية السير في هذا المسار حتى ولو لم يتبعه كما هو"².

¹ Hegel, Leçon sur l'histoire de la philosophie, Introduction, Bibliographie, Philosophie orientale, Trad. Giles Marmasse, Paris, Vrin, 2004, p154.

² A. Stanguennec. Etre, soi, sens, Les antécédences herméneutiques, de la dialectique réflexive, Lille, Presse, université de septentrion, 2008, p249.

إن أول نقطة تتقاطع فيها فلسفة "يوناس" مع "أرسطو"، هو التعريف الذي قدمه هذا الأخير لكلمة "طبيعة"، فهي مستوحاة من الكلمة اليونانية "فيزقيا" وهي مشتقة من فعل "يلد" أو "ينمو". فالطبيعة إذا ترتبط بعملية النمو، وهو ما عبر عنه "أرسطو قائلًا: " كما سبق وأن قلنا، الطبيعة الأولى بالمعنى الصحيح هي جوهر الأشياء التي تمتلك مبدأ الحركة في ذاتها كما هي، ويقال إن المادة هي طبيعة لأنها تستطيع قبول هذا المبدأ، والأجيال والنمو هم حركة لأن مصدرها الطبيعة"¹.

إن المقاربة التي نريد أن نخلص إليها تتعلق أساسا بالحركة للكائنات الطبيعية، وهي حركة موجودة في ذات الطبيعة، وتتحرك فيها، وهذا ما جعل أرسطو " يميز بين الحركة الطبيعية بالمقابل من الحركة العنيفة التي ستبدو كظاهرة غريبة في الوسط الطبيعي، وهذا ما عبر عنه "أرسطو" قائلًا: " كل حركة إما أن تكون مقيدة أو طبيعية، وإذا كان المقيد موجودا، فمن الضروري أن يكون الطبيعي موجودا كذلك؛ بالفعل المقيد ضد الطبيعة، وما هو غير طبيعي فهو خارج عن المطابقة الطبيعية"².

كما جاء عند "أرسطو" في " أخلاق الى نيقوماقوس" حول الفعل القسري "من كان مبدؤه خارجا عنا دون أي مساعدة من مساعد يتعرض للإكراه..."³. هذه المقولات وغيرها هي التي ألهمت الفيلسوف "هانس يوناس" المشكلة التي يعبر عنها بمعنى: الثوران العنيف للإنسان في النظام الكوني، فالحركات التي نقوم بها خارج وجودنا الأنطولوجي وتقيد الطبيعة فهي ليست طبيعية. فمثلا لو سقط أحدنا من أعلى قمة جبل، فحركة السقوط طبيعية، لأن طبيعتنا هنا هي السقوط

¹ Aristote, Métaphysique, Livre 4, Paris, Flammarion, 2008, p186.

² Aristote, La Physique, Livre4, Paris, Librairie philosophique, J. Vrin, 1999, p170.

³ Aristote, Ethique à Nicomaque, Part 3, p 15.

بحكم عدم وجود أي دعم، لكننا لو استعملنا تقنية تحملنا للأعلى فإننا نكون عكس حركتنا الطبيعية، فنحن نقاوم الطبيعة.

أرسطو يطرح علينا فكرة نهاية تختص بعملية تطور الكائنات الطبيعية، التي باستطاعتها أن تساعدنا على فهم قاعدة الفكر الأخلاقي للطبيعة، وهي الفكرة التي تبناها "يونان" لاحقاً، بالمقابل مع أشياء ينتجها حرفي ليس لها أي قدرة في ذاتها للتغيير، يقول "أرسطو" في هذا السياق: " لا تمتلك أي دافع فطري للتغيير"¹، كما يرى "ارسطو" أن الكائنات الطبيعية؛ كالحيوانات، النباتات، الأجسام البسيطة كالماء والنار... يمكنها النمو أو التعديل الداخلي، وفيها فقط تبدو مادتها.

النموذج الأرسطي يطلعنا على مبدأ السببية بكل مركباته، أن الطبيعة توجهها غايات، فمثلاً: اليد ليست يداً إلا بما مدى قدرتها أن تمسك الأشياء، وليس بشكلها أو بحجمها؛ فاليد التي لا تقوم بمهامها لا يمكنها أن تكون يداً.

إن موقف "أرسطو" يقوم على مبدأ " أن الطبيعة ذاتها هي من بين الأسباب لشيء ما"²، بمعنى أنها تحدث أشياء أو تنتجها ليس من قبيل الصدفة، ودليله في ذلك أن كل الأشياء الطبيعية تتم دائماً بنفس الطريقة وبصفة متشابهة وليس من قبيل الصدفة أو التلقائي.

يتضح لنا مما سبق أن كل الأشياء التي تحدثها الطبيعة تكون لغايات، وهذا ما يجعلنا نعود إلى معنى الأخلاق التقليدية التي تتحدد فيها حياة الإنسان بانسجام مع الطبيعة، وهذا يأخذنا مباشرة إلى فيلسوفنا "هانس يونان" وبالضبط إلى كتابه الشهير " مبدأ المسؤولية"، حيث يعلن فيه نظريته الغائية للطبيعة انطلاقاً من اعتبارات ذاتية وموضوعية، إذا كانت الغاية

¹ Aristote, La Physique, Op.cit. P116.

² Aristote, La Physique, Idem. P148.

(النهاية) التي تتبعها الطبيعة تتمثل بالصورة التي تتطلب فعلا غائيا تمارسه قوة المادة، بينما "هانس يوناس" أعاد صياغة المسألة باهتمامه بالعلاقات التي تربط الغايات بالقيم، ولعل هنا نجد أساس المشروع "اليوناسي" الذي جعلنا منه مشروع أطروحتنا حول "مبدأ المسؤولية" كأساس لأخلاق المستقبل، حيث تكون المسؤولية مستمدة من واجب المحافظة على الكائن الإنساني (الإنسان) في البيئة الطبيعية، وخصوصا البيولوجيا وتطوراتها المذهلة التي تجلت في البيوتكنولوجيا المعاصرة وما ألحقته من تغييرات في صورة الإنسان المعاصر، ولتأكيد ذلك يعبر لنا الفيلسوف "يوناس" قائلا: "سؤالنا الأخلاقي-الميتافيزيقي لواجب الوجود الإنساني في عالم كان يجب أن يكون، يتحول إلى هذا السؤال المنطقي عن حالة القيم في حد ذاتها".¹

إن أول خلاصة نستنتجها من هذه المقاربة الأرسطية-اليونانية هي أن مفهوم "النهاية" يجيبنا عند كليهما عن السؤال: "على ضوء ماذا؟" ويكون هدفنا من التعبير مثلا؛ على ضوء ماذا يوجد شيء؟ أو على ضوء ماذا نقوم بفعل؟ فجوابنا يكون واضح المعالم، فالمطرقة وجدت لنطرق بها الأشياء، والأمعاء وجدت لعملية الهضم، والمحافظة على حياة العضوية وسلامة صحتها...². الأمثلة التي أوردها "يوناس" هي نفسها التي نجدها عند أرسطو" في الجزء الثاني من كتاب "الفيزياء"، بالنسبة "ليوناس" الغايات كما تم عرضها هي من قبيل الملاحظة دون التطرق لقيمتها، ومعاينتنا للسؤال: من أجل ماذا وجدت الأشياء؟ لا يبرر حكم قيمة من طرفنا، لأننا قد نصدر أحكاما دون قيمة، ولكن بالمقابل نحن مطالبون بقبولها كغايات لأشياء مماثلة إذا كان شرحنا مناسباً.

¹ Hans Jonas, Le Principe responsabilité, Op.cit. P106.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem, P107.

إن تطرق الفيلسوف "يوناس" لمسألتني الغاية والقيمة، والأمثلة التي أوردتها في هذا المجال؛ كان يريد أن يخلص بنا الى " أن في كل الأحوال آخر غاية هو: الإنسان"¹.

انطلاقا مما سبق ذكره يبقى الإنسان هو النهاية التي تتم من خلالها الأشياء والوظائف الاصطناعية التي يتم تهيئتها، فماذا بقي إذا للأشياء والوظائف الطبيعية؟ إن هذا التساؤل يدفع بنا إلى فحص الفرق بين الاصطناعي والطبيعي عند "يوناس" من زاوية المسؤولية النهائية. يضع "يوناس" أمامنا مثالين حول هذه المسألة وهما: السير والعضو المسؤول عن الهضم، فكلاهما يدخل في إطار ذاتي، لكنهما يخرجان على التوالي عن الطابع الإرادي واللاإرادي للأفعال، بمعنى الذي يخضع للوعي والذي هو دون ذلك (اللاوعي).

ففي حالة المشي يبين "يوناس" أن الساقين ومجمل جهاز الأعصاب العضلية المرتبطة بها هي الوسيلة التي منحها الطبيعة، والتي بدونها لا نستطيع الحركة، وبذلك وجود العضو يختلف عن استعماله، كما هو الشأن في الاختلاف بين الوسيلة والوظيفة، فأنا حر أن أمشي أم لا؟ أو لأذهب هنا أو هناك، دون أن يكون ذلك متوقفا على وجود ساقين قادرتين لذلك، ويقول "يوناس" في ذلك: "... الرجلين كالمطرقة يكملان غايتهما بالمشي أو الضرب، ولكن لم يتحدد بعد هل ستبلغان غايتهما أم تخفقان فيها..."². وهكذا في هذه الحالة طابع الإصرار على النهاية يتطلب الخضوع الذاتي للنهاية.

حتى ولو كان هناك شك في اتباع إطار تحمل مسؤولية أفعالنا أنه يجب إعادة تقييم فكرة قوة سببية للغايات الذاتية، لأن هذه الأخيرة تتطلب دورا موضوعيا في عملية هيكلية شاملة تسمح بتطور عزيمة جسمانية في الوسط الطبيعي، ويعبر عن ذلك يوناس قائلا: "... وإعادة

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité. Op.cit. P108.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P120.

تأهيل الشهادة البدائية للذاتية، أي نشاطها المستقل الذي ترفضه المادية، وتدهور الى مرتبة الظواهر، فهذه هي كذلك موضوعية في عالم الأشياء، ففاعليتها تعني كفاءتها، أي سببية داخلية وخارجية، وبالتالي قوة تقرير مصير الفكر بالفكر وتأكيد الجسدي عن طريق الفعل¹. أما كلام "يوناس" عن العضو المسؤول عن الهضم، فهو يعبر عن العملية اللاواعية واللاإرادية للحياة، وكان يهدف من وراء ذلك رغبته في معرفة؛ هل هناك شيء كالنهاية مثلا هو من صنع الطبيعة الشامل الذي يحمل الحياة، بما في ذلك مجمل حياة العناصر التي ينعدم فيها الوعي وبالتالي الذاتية؟

العضو المسؤول عن عملية الهضم في الجسم، وككل الأعضاء الأخرى في العضوية عن طريق الوظيفة التي يؤديها يقوم بغاية خاصة، كما أنه يشارك في غاية عامة، وهي حياة العضوية في مجملها، وهذا يجعلنا نقول إن العضو الفيزيائي لا يمثل المقر النهائي الذي يحدد الحياة.

يقول "يوناس": "...إن ذاتية النهاية يفترض أنها ترافق بطريقة أو أخرى موضوعية الفعل السببي، دون إعطائها أكثر من مظهر غائي، ومن جانب آخر الموضوع الذي يبدو فكره وفعله الخاص تحكمهما غايات، -وهما بالمناسبة -بفعل هذا السبب الكائن، وفعل العضوية في العالم تحكمهما النهايات"². نفهم مما سبق أن مقر نهاية الأعضاء المادية ما هو إلا نهاية أولية نحو سبب عام، في ضوء المفهوم الأرسطي للكائن الحي على أنه عضوي، في هذا الأساس "هانس يوناس" يؤيد الفكرة القائلة ان الهياكل الوظيفية للجسم، سواء المساعدة منها

¹ Hans Jonas, Le Principe responsabilité, Op.cit. P134.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P134.

أو الحركية؛ الداخلية أو الخارجية، الحسية أو الكيميائية هي أدوات بمعنى شيء ينجز عملاً، أو بمعنى آخر بفضلها العمل أنجز.¹

إن فكرة المرافقة للنهائية الذاتية التي أشار إليها "يوناَس" سابقاً لها دلالات كثيرة؛ فهي موجودة من جهة بين التفسير الثنائي الذي يرى فيه "يوناَس" مآسي أنطولوجية وفقاً لحجة قوية للمادية التي تنص "... كل تجربة إنسانية تبين أنه بالتأكيد هنالك مادة دون روح، ولكن لا وجود لروح دون مادة، ولا نعلم أي مثال لروح مادية."²

ومن جهة أخرى؛ النظرية الأحادية للظهور يبدو الدفاع عنها منطقياً، وهي تفترض أن الهياكل السببية الجديدة أكثر شمولاً (الهياكل الذرية، الجزئية، العضوية ...) تتداخل بقفزات على الطبقات الداخلية التي تم تكوينها من قبل عند بلوغ درجات حاسمة من التنظيم³ انطلاقاً من فكرة التركيب التدريجي للمستويات، وخضوع كل مستوى أو المحافظة عليه (المستويين العلوي والسفلي)، يشير الفيلسوف "يوناَس" إلى موقفه قائلاً: " الوجود أو الطبيعة هي واحدة وتشهد على نفسها فيما يسمح لها بالانتقال منها ... كما هو للذاتية بمعنى ظاهرة سطحية في الطبيعة، -تشير إلى قمة جبل جليدي كبير - فهي تتكلم عن داخل أبكم، بما أن الذاتية تظهر نهاية نشطة، وإنها تعيش بالكامل على ذلك، فالجزء الداخلي الصامت (أبكم) الذي يصعد إلى حد الكلام بفضلها، أو بعبارة أخرى أنه يحمل في ذاته تلك النهاية في صورة غير ذاتية أو أحد مماثلها..."⁴

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P120.

² Hans Jonas. Le principe responsabilité. Idem. P136.

³ Hans Jonas, Le principe responsabilité. Idem. P137.

⁴ Hans Jonas, Le principe responsabilité. Idem. Pp140-143.

ما يمكننا استخلاصه هو أن الفكر الأنطولوجي لعالم وحدوي يبعث الموقف النقدي "لهانس يوناس" في مكان التقاليد الثنائية، لذلك فهو يعتقد أنه لا يجب الخلط بين المنهجية المطلوبة في العلم والقرار الأنطولوجي، ومنه يكون واجب الفيلسوف هو أن يبين: أن شهادة وجود مفهوم النهاية لا يقتصر على الإطار الوحيد للذاتية، ولكنها تظل ظاهرة طبيعية في مجملها، نهاية غير ذاتية.

إن الكلام عن النهاية غير الذاتية جعل "يوناس" يلجأ إلى "أرسطو"، وهو ما يبدو واضحاً في كتابه "مبدأ المسؤولية"، حيث يؤيد المفهوم الأرسطي للوجود أنه ليس متناقضاً ولا يتعارض مع التفسير الحديث للطبيعة، فهو يخطئ فقط لعدم قبوله أن تفسيراً سببياً يمكن هيكلته بمعزل عن الأسباب النهائية.

"هانس يوناس" يعتقد أن تنوع الحياة الموجودة تكون في إطار سلم تصاعدي تكون فيها تعقيدات الصور، جذب الحواس والرغبات، احكام الضمير والبحث عن الحقيقة. تمكن "أرسطو" من قراءة هذا التسلسل في سجل المجال العضوي دون اللجوء إلى التطور¹.

يبدو من خلال الفكرة السابقة على حد تعبير "ستانجنيك": "أن" أرسطو حتى ولو لم يكن تطورياً استطاع أن يميز درجات التعقيد بين الظواهر الطبيعية²، وبذلك المفهوم الأرسطي المطلق للوجود جعله يلجأ الى الأسباب المطلقة، وهي الفكرة التي تبناها الفيلسوف "يوناس" والتي مفادها: " أن القدرة على تشجيع الجهل بالأسباب الحقيقية للجوء إلى معرفة زائفة لا تترك أي مجال لمزيد من البحث³.

¹ Hans Jonas, Le Phénomène de la vie. Vers une philosophie biologique, Op.cit. P14.

² A. Stanguennec. Les antécédences herméneutiques de la dialectique réflexive, Op.cit. P249.

³ Hans Jonas, Le Principe responsabilité, Op.cit, P143.

في نظر "هانس يوناس" الطريقة السببية التي أخذ بها "أرسطو" تختلف عن الطريقة الحديثة للطبيعة، وما يمكن مؤاخذة "أرسطو" عليه هو أنه اتبع مبدءاً منهجياً ليس له بعداً أنطولوجياً على حد تعبير "جلبرت هوتوا"¹، وذلك بحكم العلم الحديث يرفض الأسباب النهائية، وكل غائية في تفسير الظواهر الطبيعية، وبناء على ما سبق فإن أي تفسير بالأسباب النهائية ليس علمياً، ولعل هنا يكمن سر بداية المعرفة العلمية والاكتشافات المتتالية التي عرفها العلم الحديث والمعاصر، وهو ما عبر عنه "يوناس" قائلاً: "المشكل الأساسي يكمن في الأسباب النهائية كطريقة عمل للطبيعة نفسها وفيها، وتاريخياً كان رفضهم جزءاً من المعركة الكبرى ضد الأرسطية التي سجلت ميلاد العلم الحديث الذي كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً في هذا السياق بالهجوم على الأشكال الجوهرية².

لقد استطاع "يوناس" من إقامة الحجة التي كانت تقوم على استبعاد الغائية، لكن ذلك لا يعود إلى نتيجة استقرائية، وإنما هو انبثاق من العلم الذي كان يحظر ذلك لوقت طويل، وما جعل الفيلسوف "هانس يوناس" يسلك هذا التوجه هو اعتقاده الكبير أن علوم الطبيعة لا تطلعنا على كل شيء في الطبيعة، وهذا ما جعله يبقى متفتحاً على مختلف مناهج المقاربات المتعلقة بمفهوم الطبيعة، حتى أنه يتعلق الأمر في تصورات هذه بتفسير وجود نهايات في الطبيعة، فيقول في ذلك: "نترك المجال مفتوحاً تماماً بالطريقة التي تظهر بها "نهاية" شاملة في الطبيعة بشكل غير واع في آليتها السببية الحتمية... كما يجب على علوم الطبيعة أن

¹ Gilbert Hottois, Une analyse critique dans la philosophie de H. Jonas, dans Hans Jonas Nature et responsabilité, Paris, Vrin, 1993, P22.

² Hans Jonas, le phénomène de la vie. Vers une philosophie biologique, Op.cit. p46.

تترك مجال السؤال مفتوحا لمعرفة مدى كثافة أو مرونة المجال السببي في قواعده الأولية للأشياء في أدنى عتبة كمية¹.

فلسفة "يونايس" تطلعتنا على مدى تمكنه من الربط بين النهايات والقيم في الطبيعة، ونظريته في المسؤولية الأخلاقية تستند إلى غائية شاملة ترتبط تقليديا بأرسطو الذي تقوم فكرته على أن الطبيعة تتحدد في التنوع الذي تتأسس عليه، فهي واحدة ومتعددة، وهذا ما يجعلنا نقول: "إن "يونايس" استطاع أن يسلط الضوء على الطريق المسدود للطريقة التحليلية للعلوم الحديثة، على حد تعبير "ناتالي فرونيو": "لقد انخرط "يونايس" في فينومينولوجية الكائن الحي كما انخرط "أرسطو" بالفيزياء في دراسة الكائن الحي..."².

نستخلص من هذه المقاربة الأولى أن "هانيس يونايس" استطاع أن يوضح أن الخير والقيمة يخضعان لهندسة الوجود، أو بمعنى آخر أن القيم هي جزء من الوجود.

III. 2.1 هانس يونايس و"أبيقور".

إن المبدأ الذي يؤسس عليه "هانيس يونايس" أخلاق المسؤولية يبدو متجزرا في كل إنسان له سلطة التصرف، بحكم أنه مسؤول عن كل أحكام تصدرها هذه السلطة وما يترتب عليها من نتائج، وهنا تبدأ تجليات مقاربة الأخلاق اليونانية مع الأخلاق الأبيقورية، خاصة إذا علمنا أن أخلاق هذا الأخير ليست موجهة إلى الفرد العادي بقدر ما هي موجهة إلى فرد يسلم لذاته، وذلك بحكم أن الذاتية عند "يونايس" هي المجال المشترك الذي يتدخل فيه "مبدأ الحياة" ويصح نفسه مع "مبدأ المسؤولية" الذي بتعاليه يؤدي إلى أكبر مظاهر المسؤولية الحديثة؛

¹ Hans Jonas, Le Principe responsabilité, Op.cit. P144.

² Nathalie Frogneux, Hans Jonas ou la vie du monde, Bruxelles, De Boeck & Larcier, S.A. 2001, p151.

مسؤولية تجاه الحياة. ودراستنا لأخلاق أبيقور ستكشف لنا الأساس الذي ينطلق منه الفكر الأخلاقي والميتافيزيقي الذي تركز عليه المسؤولية السلوكية.

إن مسألة أخلاق المسؤولية عند "يوناس" تجد مادتها الأولية للبناء الذاتي في مبدأ الرغبة التي أقام عليها "أبيقور" مذهبه الأخلاقي، فحكمة اللذة التي جاءت بها الأبيقورية اليونانية هي التي سنولي لها اهتمامنا لكن ليس من أجل استقراء تاريخي، وإنما لنتطلع إلى أي مدى كان تأثيرها كبيرا على أخلاق المسؤولية عند "هانس يوناس".

يرى "نيتشه" أن "سعادة الوجود" تمثل الركيزة الأساسية للأخلاق الأبيقورية، والسؤال الذي يتجدد في كل مرة تطرح فيه الأخلاق الأبيقورية هو: كيف يمكن لنا معرفة السعادة في عالم فاسد؟ في عالمنا الحالي الإجابة عن ذلك لا تطرح أي عناء، فانحطاط القيم وزيادة المطالب الزائفة في الحياة أخلت بتوازن كل مجالات الحياة في مجتمع تفاقمت فيه الرغبات في الوقت الذي أصبحت فيه مختلف البيئات التي يعيش فيها الإنسان أكثر هشاشة، مما جعل الأخلاق الأبيقورية تطفو إلى الواجهة وتستعيد مكانتها وأصبح اهتمام الفلاسفة بها كبيرا.

إن اللذة المعتدلة التي تكتمل فيها السعادة (الأتاراكسيا) التي نادى بها "أبيقور" تجعلنا نقول: ان "أبيقور" يعد محفزا من أجل حياة يقاوم فيها صاحبها لتحقيق حكمة المتعة والسعادة، ويصبح الأمر يتعلق بفن الحياة بدلا من إصلاحات سياسية أو إعادة تنظيم اقتصادي للمجتمع، حتى وإن كنا نسلم أن مثل هذه الظروف هي مصدر الاضطرابات التي تعيشها المجتمعات المعاصرة، من هذا المنظور تأتي أخلاق المسؤولية من أجل حضارة تكنولوجية كما يتصورها "يوناس" لتقترح على الأفراد تغيير طريقة عملهم في أسلوب حياتهم، وهي الفكرة ذاتها التي نجدها عند "أبيقور" في "رسائل وحكم"¹ حيث كان يطالب بأسلوب "فن الحياة"، وهذا ما يجعلنا

¹ Epicure, Lettres et Maximes, Paris, P.U.F. 1987.

نقول أن هناك ثمة تقاطع بين أخلاق كل منهما، في البحث عن أساس حدود ما يمكن أن يؤدي إلى حياة سعيدة، فأخلاق كل منهما تؤكد أن حياة اللذة والسعادة تقوم على الاعتدال.

يرى "هانس يوناس" أن تجاوز معاناة حضارتنا التكنولوجية يتطلب معرفة فن الحياة كذلك، بشرط معرفة التسلسل الهرمي للاحتياجات التي يريدها الإنسان، ويتطلب ذلك حكمة وتعقل كبيرين، وتحديد دقيق للاعتبارات والقيم التي تميز مواقف وأفعال الأفراد، ومن المهم جدا أن ينخرط كل فرد في المبادئ الأخلاقية في شخصه.

في نظر "يوناس" أبسط المسائل التي قد تطرح أمامنا، كتساؤلنا: كيف نتغذى؟ كيف نلبس ثيابنا؟ أو أين أسكن؟ لم يعد تحليلها يقتصر فقط على جانب المحاسن الاقتصادية، فالتطور والانفتاح الفردي يجب أن يبقى طبيعيا، ولا تتحكم فيه قوى خارجية كالإشهار أو التخفيضات أو غيرها.

لقد ميز "أبيقور" بين ثلاثة أنواع من الرغبات وهي:

أولا- رغبات طبيعية ضرورية: وتكون حسب نظام تنازلي، وتساهم في تحقيق السعادة وسلامة الجسم في الحياة، وهدفها إرواء دوافعنا، ويجب تحقيقها، وإلا تعرض صاحبها للهلاك والمرض، ومثال ذلك الجوع والعطش، وهذه الرغبة يجب تلبيةها ولكن يجب الاعتدال في طلبها.

ثانيا- رغبات طبيعية غير ضرورية: وهي التي نستطيع أن نعيش بدونها، والحكيم هو الذي يستطيع كبحها أو إرضاءها بتوادة حتى لا يصبح عبدا لها، ومثال ذلك؛ الأغذية المترفة.

ثالثا- رغبات ليست طبيعية وليست ضرورية: وهي التي يكون الإنسان هو الذي أوجدها بنفسه ولنفسه، ومثال ذلك؛ الشهرة، المجد وحب المال، فالإنسان الحكيم هو الذي يقهرها ويرفض اللذات الناجمة عنها لأنها لا تعرف حدا تقف عنده.¹

¹ Epicure, Lettres, Maximes, sentences, Paris, Livre de poche, 1994, p117.

ما يهمنا هو النوع الثالث من هذه الرغبات التي يؤكد فيها "أبيقور" أن مثل هذه الرغبات الفارغة، لأنها ناشئة من آراء فارغة كأن يأمل الإنسان في الخلود، وهو يعلم أن كل إنسان مآله الموت، فلا يستطيع الإنسان أن يضمن حياته لليوم التالي، وهذا ما عبر عنه "يونا" قائلاً: " الحياة هي الموت، وهذا هو تناقضها الأساسي لا ينفصل عن ماهيتها، فكل وجود هو وجود في خطر، ووجود عابر".¹

إن الفلسفة الأبيقورية عموماً، والأخلاق الأبيقورية خصوصاً توحى بفكرة عدم الخضوع وإرادة التحكم في الذات للحياة، وهنا تكمن المقاربة مع فكرة "تشكل الخوف" عند "يونا"، وهي "أخلاق الحذر"، وهو ما جعل "أبيقور" يطالب من الأنسان أن يكون في حالة الدفاع ولا يطالب إلا بالنصف، أو ما هو مطلوب حسب الضرورة فقط، والابتعاد عن الرغبات التي قد تزعزع استقرار هويتنا، وكل ما يعرض جسدنا للخطر يجب محاربتة، فما يريده "أبيقور" بالتمتع بالنصف شبيه بفكرة التخلي عن المظاهر السلوكية المفرطة أو الأفعال الغريبة التي يرفضها "يونا".

رغم التباعد الزمني بين "أبيقور" و"يونا"، واختلاف الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلا أن فكرة "الحذر" عند "يونا" تبدو مستوحاة من الأخلاق الأبيقورية، وفي سياق إشكالتنا تبدو الاستفادة واضحة لسلوكيات أخلاق المسؤولية التي تتطلب البحث عن الرغبات المحدودة في ظل نظام رأسمالي متوحش الذي يقوم على طلب رغبات متزايد وهيستيري، لكن ذلك لا يعني في أي حال فكرة "الأتاراكسيا" عند "أبيقور"، وما يريده الفيلسوف "هانس يونا" هو "مبدأ المسؤولية" نسبة إلى أفعالنا في عالمنا الحالي، فليس كل ما هو

¹ Hans Jonas, Evolution et Liberté, Op.cit. Pp 14-15.

مسموح به نتمناه أو نطالب به، فكل رغبة قد تصبح مؤلمة عندما لا نستطيع كبحها، ويصرح "يوناس" في ذلك " عندما لا نكون مستعدين للتضحية لا وجود للأمل"¹.

الفرضية الأساسية التي تربط موضوع إشكاليتنا بالفكر "الأبيقوري" هي مسلمة الحذر في التجربة الأخلاقية بوجه إنساني، فالإنسان ليفعل قدراته الإنسانية الخاصة بأفعاله واختياراته فهو بحاجة إلى بعض الفضائل، وبفعل "الحذر" الذي يبدو مبدءا عند "أبيقور"، الحياة الفاضلة تتحدد بحياة المتعة، ويقول في ذلك: " الفلسفة كنشاط تعلمنا أننا لا نستطيع أن نعيش متعة دون أن نعيش بحذر، ولا نستطيع أن نعيش بكيفية حسنة وصحيحة دون أن نعيش برغبة، فكل الفضائل مرتبطة بطبيعتها بالحياة بمتعة، والعيش بمتعة لا يمكن فصله عن الفضائل."² نستخلص مما سبق أن الأخلاق "الأبيقورية" ألهمت الفيلسوف " هانس يوناس" حكمة تتناسب مع حياة الإنسان المعاصر كونها تتلاءم مع طبيعة كل فرد يسعى في كل لحظة إلى تطوير وجوده حسب رغباته الخاصة والحقيقية، وهو ما جعل "يوناس" يعتقد أن رهانات الوقت الحالي تبعث بتصور أكبر من أي وقت مضى، فإلى جانب الاعتدال كفضيلة، كل فرد اليوم مطالب أن يبعد نفسه عن طلب الرغبات المفرطة ويسعى إلى انتقاء الرغبات وحساب اللذات، وهو الأمر الذي يتطلب حكمة وتبصرا والتمتع بالحرية.

الأخلاق بهذا التصور لا تعد عبارة عن مجموعة قواعد وأحكام تسيّر سلوكياتنا الخارجية، وإنما هي نظام حياة يجب على كل فرد إدماجها بعمق في مواقفه ونشاطاته، وهذه هي الفكرة التي سنبينها لاحقا في العلاقة بين تشكل الخوف وأخلاق المسؤولية عند "يوناس".

¹ Hans Jonas, Une Ethique pour la nature, Op.cit. P119.

² Epicure, Lettres, maximes et sentences, Op.cit. p196.

III. 2 المبحث الثاني: رفض " هانس يوناس " للأخلاق التقليدية

III. 1.2 "هانس يوناس" في مواجهة "ديكارت": رفض الثنائية الديكارتية

يعتقد "هانس يوناس" أن العصر الحديث يعد مرحلة حاسمة في تحول الدراسات الأخلاقية، وتأسيس المشكلة الأخلاقية، وكان القرن السابع عشر من افتتاح هذه المرحلة بثورة علمية تحول فيها الكلام عن الطبيعة ومكوناتها إلى لغة الأرقام (الرياضيات)، وتحققت معها تنبؤات " غاليلي " لفهم جيد للطبيعة يجب تحويلها إلى لغة الأرقام، وهي الفكرة التي أعجب بها "ديكارت" كثيرا، واعتبرها (الرياضيات هي لغة) أنها السبيل الأفضل للبحث عن الحقيقة في مجال العلوم، ولم يخف "هانس يوناس" نظرتة في ذلك حيث قال: " علم الطبيعة هو ميكانيكا... من هذا العلم قدم "غاليلي" و"ديكارت" المقدمات المضاربة وطريقة تركيب أعطت نشأة لنظرية ذات إمكانات تكنولوجية متأصلة، لقد أعطيا تأثيرا لهذا الاندماج بين النظرية والتجريب التي كان يحلم بها " بيكون"..."¹

لقد أقلب الحداثيون الفكر على عقبه، لم يعد الكلام عن الغائية، وإنما أصبح الكلام عن الميكانيكا الطبيعية، وأصبح التحدي واضحا لكل فكر قديم، لقد أصبحت الروح البشرية على نفس مقياس الكائنات الأخرى، أو بعبارة أخرى من وجهات نظر لاهوتية وفنية، تبين لنا الإرادة الفعلية للحداثيين لإبعاد أي غائية عن الطبيعة عموما وطبيعة الأشياء خصوصا، وهو ما سيتطور لاحقا إلى حد الإعلان عن مشروع إبعاد فكرة الخالق للطبيعة وهدم الأساس الديني، وهو ما يقربنا من موضوع اطروحتنا هذه حول ما ألحق من خرق حول قداسة الحياة الإنسانية. إن الأساس الميكانيكي الذي تبناه "ديكارت" يضعنا أمام الإشكالية الأخلاقية التي نحن بصدد مناقشتها مع الفيلسوف "هانس يوناس"، والتي تتطلب منا النظر في المبدأ الميكانيكي

¹ Hans Jonas, Le phénomène de la vie. Vers une biologie philosophique, Op.cit. P197.

عند "ديكارت"، الذي حول الطبيعة بكل مكوناتها إلى آلة كبيرة، يكون فيها الإنسان في مواجهتها، بمعنى موضوع المعرفة في مواجهة مادة المعرفة.

III. 2.2 نقد التصور الديكارتي

إن نقد التصور الديكارتي نبدأه بسؤال نجعل منه منطلق بحثنا وهو: "كيف وصل بنا الأمر إلى الإساءة للعالم؟"، إنه سؤال سيعود بنا إلى مركز محور إشكاليتنا، وهي محاولتنا لفهم الدوافع الأساسية لتجاوزات الأفعال الإنسانية، كما أنها ستضعنا بالنسبة للأهداف المحددة المخصصة في تحليلنا، ومنه نتساءل بدورنا: فيما يمكن أن يساعدنا النقد اليوناني للثنائية الديكارتية أن نفهم المسألة الأخلاقية في ظل البيوتكنولوجيا المعاصرة في أساسها؟

كمحاولة لإجابتنا على التساؤل السابق سنسعى تدريجيا إلى تقييم الآثار المفاهيمية للميكانيكا والفيزياء الديكارتية في ضوء أخلاقيات الطبيعة التي طورها "يونس".

في نظر "هانس يونس" تعد "الديكارتية" منطلق الثنائية الحديثة نتيجة الدوافع التي حفزت "ديكارت" إلى تأسيس منهجية جديدة، وميتافيزيقا للعلوم الطبيعية التي تتميز أساسا بثنائية.

إن أهم ما يميز الثنائية الديكارتية، هو تحديد الصفات الذاتية والموضوعية، فمثلا علوم الطبيعة بإمكانها دراسة أي مادة في الطبيعة بعيدا عن أي اعتبار له علاقة بالنفس الإنسانية، وبالتالي التطرق للأشياء بكل موضوعية بتفسير رياضي أو فيزيائي، يقول "يونس" في هذا الصدد: "لقد استطاع "ديكارت" أن يرفع الافتراض المسبق إلى رتبة مبدأ منهجي، فالواقع الخارجي المنفصل تماما عن الواقع الداخلي يمثل مجالا مستقلا للتطبيق العالمي للتحليل الرياضي والميكانيكي، فكرة "الجسم" نفسها تم تحويلها بالحدوث الثنائي..."¹

¹ Hans Jonas, Le Phénomène de la vie. Vers une biologie philosophique, Op.cit. P47.

الثنائية الديكارتية أسست مبدأ موضوعية علوم الطبيعة معتبرة أن الكائن يتحدد حسب تفاعلات كيميائية وقوانين فيزيائية، هذه الفكرة كانت الدعامة الأساسية للعلوم الحديثة، التي كانت تفسر الظواهر بمحاولة معرفة الآليات التي تتحكم في الكائن الحي.

نستطيع أن نقول ان الموضوعية ابتداء من القرن السابع عشر أصبحت ترفض الأخذ بالأسباب النهائية (الغايات) لصالح الأسباب الفاعلة. فنتاج الثنائية الديكارتية التي تم تأسيسها على الموضوعية هو تحديد لثنائية هي: من جهة النفس (الفكر)، ومن جهة أخرى الجسد (المادة)، وابتداء من هذا التقسيم يرى "ديكارت" أنه لا يوجد في الطبيعة إلا المادة والحركة التي هي أشياء الميكانيكا بنفس مستوى الجسد عند الإنسان، ويبقى الإنسان وحده من يمتلك روحا داخلية، بينما الحيوانات فهي كالألات تعمل بطريقة آلية وفقا لقوانين المادة، وهو ما جعل "هانس يونس" يقول في رده في الجزء الخامس من كتاب "مقالة الطريقة" بصريح العبارة: " الآلية الحيوانية حتى وإن كانت محددة بقواعد المادة، فهي مبنية كذلك، حيث يوحي عملها للإنسان الملاحظ أن داخلها مماثل له دون أن يكون لها ذلك..."¹

إن الثنائية "الديكارتية" بفصلها بين الروح والمادة حددت ذلك في الإنسان بشكل أدق من خلال الوعي والجسد، وهو ما أعطى الإنسان مكانة متميزة في مملكة الكائنات الحية، فهو الكائن الوحيد العاقل والواعي الذي يستطيع أن يجعل لنفسه غايات يتبعها أو يتحرك وفقها.

حتى وإن كان ديكارت نفسه شكك في الجسد في "تأملاته" ووصل إلى حقيقة "وعي الأنا" فهو لا ينفي فكرة التكامل، ويعتبر أن الإنسان يمثل وحدة بين الجسد والنفس، وهذه الثنائية التأسيسية للإنسان تمثل جوهر الفلسفة الديكارتية، وهي تعبر من جهة أخرى على الاختلاف بين الإنسان والكائنات الحية الأخرى، الإنسان وحده يستطيع أن يسمو إلى معرفة

¹ Hans Jonas, Le phénomène de la vie, Op.cit. P66.

شاملة بفضل العقل، ويستطيع أن يكتسب سلطة ليسيتر ويتحكم في الطبيعة: "... فور اكتسابي بعض المفاهيم العامة ذات صلة بالفيزياء، وشروعي في اختبارها في صعوبات خاصة، لاحظت إلى أي مدى يمكن أن تقودنا، وكم هي تختلف عن المبادئ التي كنا نستعملها حتى الآن، بينت لي أننا نستطيع الوصول إلى معارف جد نافعة للحياة، بدلا من هذه الفلسفة المضاربة التي نعلمها في المدارس، في حين يمكن لنا أن نجد تجارب عن طريقها نعرف عمل النار والماء، النجوم، السماوات، وكل الأجسام الأخرى المحيطة بها... وبذلك أصبح أسيادا ومالكي الطبيعة..."¹، الإنسان يمكنه أن يكون سيذا ومالك الطبيعة، لكن بشرط ان يمتلك علما وتقنية تسمحان له بذلك، وهذا ما تأكد مع تطور التكنولوجيا المعاصرة، فكأنما تنبؤات "ديكارت" تحققت. لكن هل حقيقة أصبح الإنسان سيذا ومالكا للطبيعة اليوم؟

ماذا لو تطلع ديكارت إلى الانتكاسات والدمار الذي ألحقه الإنسان بالطبيعة وبذاته وحتى بوجوده؟ ألم يعد العلم الذي طالبنا به "ديكارت" مجرد وسيلة لتحقيق غايات؟ ولم يبق للإنسان وللأخلاق خاصة إلا أن تبقى متفرجة على ما يعبث به الإنسان بذاته ومستقبله ومستقبل الإنسانية كلها. عند حدود هذه الحالة البائسة التي آلت إليها وضعية الإنسان المعاصر تتبدى لنا أطروحة فيلسوفنا "هانس يوناس" حيث يقول: " العضوية حتى في كل أشكالها الدنيا، تنذر بالروح، والروح حتى فيما تصل إليه من الأعلى تبقى جزءا لا يتجزأ من العضوية"².

يعبر هذا التأكيد عن استمرارية تصف الحياة على أنها ارتباط كامل بين المادة والروح، وأي تخوف من ثنائية داخل الحياة سيبدو غير لائق، لذلك حدد "يوناس" النقطة الأولى التي

¹ René Descartes, Discours de la méthode, Sixième partie, Paris, Flammarion, 2000, P98.

² Hans Jonas, Le Phénomène de la vie. Vers une biologie philosophique, op.cit. P13.

يعتبرها نقطة تعثر عند "ديكارت"، فاتخذ منها مرجعا للانطلاق التي ثبّطت فهم العالم العضوي حدده في مقاربتين هما:

المقاربة الأولى: وهي التي يحتفظ بها التقليد الفلسفي الغربي، الذي يحمل نظرة خاصة على الإنسان ويعطيه صفات تجد حقيقتها في الوجود العضوي.

المقاربة الثانية: وهي التي تتعلق بالبيولوجيا العلمية التي ترتبط بقواعدها ومناهجها بالواقع الفيزيائي الخارجي، وهي لا تعترف بالبعد الداخلي الكامن في بالحياة، وحسب "يونس": "العضوية كشيء جسدي هي حالة امتداد، إذا هي جزء من هذا العالم، ومهما كان تكوين أجزائها لا يمكن أن تكون مختلفة بشكل أساسي عن بقية العالم، أي عن الكائن بشكل عام.¹ وبذلك فإن ما يعاب على المقاربة الأولى هو منعها الإنسان من فهم بعض المعارف المتعلقة بالحياة الخارجة عن الإطار الإنساني.

بينما المقاربة الثانية تعطي تفسيرات كاملة ذات طابع مادي لا يكشف دائما أغاز الحياة، وفهم الكائن الإنساني، وبذلك كامل الحياة العضوية تعاني من التمييز بين المادة والروح.

لعل ذلك ما جعل "يونس" يقول: " يجب علينا أن نبقى متفتحين على فكرة أن علوم الطبيعة لا تقدم لنا كل الحقيقة حول موضوعات الطبيعة"²

إن رفض الثنائية الديكارتية عند "يونس" عبر عنها قائلا: "... بالنسبة " لديكارت": الثنائية سلكت تحولها الأخير والمميت، لتتميز في فرعين عقيمين كبديل للمثالية والمادية، لأول مرة في تاريخهما الطويل، أي نوع من الوعي مهما كان حسي أو عاطفي، فهو من ناحية

¹ Hans Jonas, Le phénomène de la vie, Op.cit. P23.

² Hans Jonas, Le Principe responsabilité, op.cit. P35.

مرتبط بالعقل، ومن جهة أخرى يعارض أي نوع من الكائنات الخاصة بما في ذلك شكلها الرياضي أي "العقلاني"... المادة بمعنى "الجسد" تكون أكثر عقلانية من الروح.¹

يبين لنا "يوناس" أن عملية الفصل بين الحقائق الخارجية والداخلية أدت إلى الاحتكار الاستيمولوجي الممنوح للنمط الإدراكي للمعرفة، وبالتالي الموضوعية أصبحت المعيار الأساسي لتطوير البيانات الحساسة الخارجية على حساب أساليب مقارنة أخرى من الواقع كالاتصال بين حياة وحياة أخرى، أو تجربة الصدمة ومقاومة الأشياء في الجهد الجسدي.

هذه الهيمنة للمعرفة الإدراكية التي وضعت على مسافة وموضوعية، اتهمها "يوناس" على أنها استعملت في الثنائية لتأسيس حضر صارم على أي تحويل لسمات التجربة الداخلية لتفسير العالم الخارجي²، كذلك "ديكارت لا يعترف بأي اختلاف بين الآلات التي يصنعها الحرفيون والأجسام المختلفة التي تولفها الطبيعة، بما في ذلك جسم الإنسان، لكن التطورات الكبيرة التي حققتها مجالات العلم، وما ألحقته من تغييرات في الكائن الإنساني تمثل جانبا من هذا عدم الاعتراف، بما أن كل قوانين الميكانيكا تخضع للفيزياء، ويبين "يوناس" ذلك قائلا: "تميز جسم الإنسان داخل مملكة الحيوان، أنه على أدنى اعتبار عضو لروح، فهو كذلك ألغى عن طريق الخيالات الظرفية، التي أصبح فيها جسم الإنسان آليا تماما ككل العضويات الأخرى."³

إن فكرة آلية الجسم الإنساني كانت منطلق التلاعبات الجينية التي أصبحت ممكنة بفضل تقدم العلوم البيوطبية، التي مست بكرامة الإنسان وبقديسية حياته.

¹ Hans Jonas, Le Phénomène de la vie. Vers une biologie philosophique, Op.cit. P83.

² Hans Jonas. Le phénomène de la vie, Op.cit. P47.

³ Hans Jonas, Le phénomène de la vie, Idem. P71.

في إطار فلسفته التطبيقية التي خصصها للتقنية، الطب والأخلاق استطاع "هانس يوناس" هيكله منظور فكري حول "البيوايثيقا" لحماية الكائن الإنساني وكرامته، نتيجة استعمالات التقنيات الجديدة في العلوم البيوطبية.

انتقاد "هانس يوناس" للثنائية حاول من خلالها أن يبين أن التفكير البيوايثيقي يهدف إلى تحديد ما الذي لا يجب تجاوزه للفعل المسؤول، إلا أن المعرفة التقنية للعلوم البيوطبية أصبحت توفر إمكانات جد مفيدة تجعل من الصعب تحديد تلك الحدود، وهو الأمر الذي جعل "يوناس" يعتبر "مبدأ تشكل الخوف" يجعلنا لا نغامر بالوجود الإنساني، لأن فقدانه لا يمكن المغامرة به مهما كان الثمن لذلك.

من وجهة نظر إبستمولوجية يرى الفيلسوف "هانس يوناس" أن "ديكارت" حتى وإن بين أن العقل أفضل بكثير من الجسد، فإن طريقته العلمية الخاصة تفند ذلك، فالمعرفة عنده تخضع لنظام تحليلي لا تتم إلا بطريقة على مستوى الوقائع الخارجية، بينما المعرفة على مستوى النفس تتطلب معرفة مباشرة وسريعة عن طريق معرفة الذات لأحوالها (معرفة حدسية). هنا تكمن المفارقة، ألم يعد العقل ذاته كيانا غير منطقي، وأصبح الذكاء غير واضح داخل النظام الفكري للمعرفة العلمية؟ بمعنى آخر الذات العارفة أصبحت هي نفسها جزءا من أشيائها، أي في عالم غير معروف بامتياز.¹

يعتقد "هانس يوناس" أن الضرورة أصبحت ملحة لإعادة قراءة النص البيولوجي لبلوغ الأبعاد الداخلية، وبذلك الطريقة الثنائية الديكارتية تمت محاربتها ليس فقط لإعادة تأهيل الوسط الطبيعي، وإنما كذلك لتجاوز حدود الثنائية التي أثرت سلبا على فهم الإنسان والعالم، وفي

¹ Hans Jonas, Le Phénomène de la vie. Vers une biologie philosophique, op.cit. P84.

كتابه الشهير "فينومينولوجيا الحياة" يرى "يونس" أن عقيدة التطور سجلت الانتصار النهائي للأحادية ضد كل ثنائية بما فيها الديكارتية.

لقد استخلص "يونس" النتائج الفلسفية على النحو التالي: النظرية الميكانيكية العضوية وآلية الحيوان تتناقضان حتى ولو كانت هناك نتيجة منطقية لمبدئه الميتافيزيقي والابستمولوجي.

لقد اتضح للفيلسوف "هانس يونس" أن البيولوجيا الميكانيكية تبقى عاجزة لتطلعنا على الحياة بحكم أن المادة الجامدة في ذاتها بسيطة بين الأيدي، في حين أن التحولات في العضوية تشكل تقيدات بين الظواهر الطبيعية وأي تغيير فيها يؤدي الى تدهور في طاقاتها، وهو ما يحد من قدرتنا أن نكون أسيادا ومالكي الطبيعة، فتصبح بذلك الآلية عبارة عن شكل من أشكال الفكر المجزأ الذي لا يفتح أي آفاق بين الموجودات فيما بينها.

III. 3.2 "هانس يونس" في مواجهة "كانط": الأمر القطعي

الكلام عن الأخلاق لا يمكن أن يكتمل دون الإشارة إلى أخلاق الفيلسوف الألماني "كانط"، الذي أحدث ثورة في فلسفة الأخلاق، متجاوزا كل المذاهب الأخلاقية على اختلاف أنواعها، ومعتبرا إياها أنها مذاهب انتهازية لا تمثل في الأخلاق شيئا، حيث اتخذت من الأخلاق وسيلة في حين أن الأخلاق يجب أن تكون منزهة عن عوارض الزمان والمكان والجنس، والثقافة أو أي ميل طبيعي آخر، والأخلاق يجب أن تكون غاية في ذاتها.

ما بعد "كانط" جعل الاعتقاد أن الأخلاق اكتملت صورتها وتحدت معانيها، وأصبح اهتمام الفلاسفة يميل أكثر للعلم والاكتشافات العظيمة التي بلغتها التكنولوجيا المعاصرة، وما ألحقته بالطبيعة والإنسان أصبح مصيرهما مهددا بذلك.

الفيلسوف "هانس يونس" لم يكن مولعا بالأخلاق أو مذاهبها، بل كانت اهتماماته الأولى بفلسفة "غوته"، "شيلر"، و"شوبنهاور" والكتاب المقدس، لكن شاءت الأقدار أن يقع بين يديه

كتاب "أسس ميتافيزيقا الأخلاق" للفيلسوف الألماني "كانط"، وبعد الانتهاء من دراسته عبر عنه قائلا: "العبارة الأولى من هذا الكتاب ستبقى راسخة بذاكرتي إلى الأبد؛ من بين كل ما يمكن تصويره بالعالم، بل بوجه عام خارج العالم، ليس ثمة ما يمكن اعتباره خيرا دون تحفظ، إن لم يكن الإرادة الخيرة"¹. لم يخف "يونس" مدى تأثير هذه العبارة في فكره الفلسفي الأخلاقي، لكن في كتابه الشهير "مبدأ المسؤولية، أخلاق من أجل حضارة تكنولوجية"، انتقد فيه الأخلاق الكانطية، وبين محدوديتها خاصة ما يتعلق منها بالأمر القطعي كما سنبين لاحقا.

لو تمعنا جيدا في بعض المفاهيم الأخلاقية الأساسية كالمسؤولية، الكرامة، الاحترام... فهي من الأخلاق الكانطية التي لا يمكن تجاهلها. وفي نظر "كانط" أي فعل لكي يكون أخلاقيا ينبغي على صاحبه أن يعي المبدأ الأول الذي يحدد معنى الأخلاق وهو ما يعبر عنه قائلا: "... والأخلاق من حيث هي علم يجب أن تتأسس على مبادئ عقلية أولية حتى تتصف بالكلية والضرورة"²، وفي نظر كانط تحقيق هذين الشرطين (الضرورة والكلية) يتطلب الوعي الذي يعد المحرك الأساسي لكل فعل أخلاقي وهو المشرع لها، لكن بشرط أن يكون حرا، وبذلك يكون الوعي والحرية والإرادة شروطا مرتبطة بقوانين غير مشروطة، ويجمع "كانط" كل ذلك في "الإرادة الخيرة"، لأن الأفعال الوحيدة التي تكون خيرة هي التي تكون صادرة عن الإرادة الخيرة، لأن الفعل فيها كما سبق وأن أشرنا لا يكون مشروطا بشيء قبله، وإنما يكون الفعل فيها من أجل الفعل، مما يجعل الإرادة الخيرة ترتبط بالواجب الأخلاقي والفعل الصادر

¹ Hans Jonas, Le Principe responsabilité, Op.cit. p40.

² إيمانويل كانط، أنطولوجيا الوجود، تر: جمال محم دسيهان، درا التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2009، ص ص 410 - 415.

عنها يكون احتراماً للقانون أو الواجب الأخلاقي، ويعبر عن ذلك قائلاً: " إن احترام القانون الأخلاقي هو إذا الدافع الأخلاقي الوحيد والقطعي في الوقت نفسه"¹.

وبذلك يكون الواجب الأخلاقي عند "كانط" سوريا محضاً ومنزهاً بحكم الإرادة الخيرة التي هي مصدره، وأن يكون غير مشروط، أي لا يرجع لأي شيء آخر.² إن أول مقارنة بين "الأخلاق الكانطية" و"الأخلاق اليونانية" تبدو معالمها واضحة في محاولة "هانس يوناس" صياغة "مبدأ المسؤولية" في شكل أمر قطعي، رغم الانتقادات التي وجهها له، حيث يعتبر الأخلاق الكانطية صورية، لكن ما يهمنا هنا هو أن نبين الكيفية التي قام بها "يوناس" لإعادة هيكلة الواجب القطعي عند "كانط"، لا شك أن ذلك سيثير الفكر الكانطي خاصة فيما يتعلق بالفصل بين الوجود والواجب.

لقد سبق وأن أشرنا إلى أن "كانط" يربط بين الواجب القطعي وضرورة احترام القانون الأخلاقي، وبالنسبة لكانط إرادتنا الحرة هي في نفس الوقت تعني إرادة تخضع لقوانين أخلاقية، لأن الحرية وهي شرط أساسي للفعل الأخلاقي لا تعني أن أفعل ما أشاء، وإنما أعمل حسب قانون العقل، والمثال الذي أورده "كانط" نفسه حول "الحمامة البيضاء" يبين حقيقة الحرية... فالحمامة البيضاء في طيرانها تقاوم الهواء، قد يكون اعتقادها أنها ستطير أحسن من ذلك دون هذا الحاجز، لكن حسب "كانط" ... هذه الحمامة تجهل أن دون الهواء لا تستطيع الطيران، فالهواء الذي يعد عائقاً هو في نفس الوقت يعد شرطاً.

كذلك بالنسبة لنا نحن البشر قد نجد متعة في التفكير بحياة دون قواعد وفوق القوانين، ومتجاهلين في الوقت نفسه أن دون هذه العقوبات، الحرية المزعومة لا يمكن ممارستها، بمعنى

¹ إيمانويل كانط، نقد العقل العملي، تر: غانم هنا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص252.

² إبراهيم زكريا، مشكلات فلسفية. المشكلة الأخلاقية، دار نصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، د.ت، ص 171.

آخر سنشعر بحاجز آخر يعترضنا هو في الواقع شرط ممارسة أفعالنا، وهكذا فإن أفعالنا لا يجب أن تكون مجرد أفعال مطابقة للواجب، ويقول "كانط" في ذلك: "الواجب هو ضرورة أداء الفعل احتراماً للقانون... ثم افعل فقط طبقاً للقاعدة التي تجعل في إمكانك أن تريد لها في ذات الوقت أن تغدو قانوناً كلياً"¹.

إن عالمية القانون الأخلاقي عند "كانط"، أن يكون الفعل الأخلاقي مخصصاً لنفسه، بمعنى أن القانون الأخلاقي في الحاضر مبدأ لتشريع عام وجامع، أي كوني.²، إن هذه الاعتبارات الكانطية التي تجعل الفعل قانوناً كلياً، أليس فيها نوع من المبالغة؟ ماذا لو كان اختياري في الحاضر مبنياً على كل المعطيات التي يريدها "كانط"، وأنا لا أبالي بالمستقبل، بل مضحياً بخير لا أعلمه مستقبلاً، فقد يضحى بالإنسانية في حالة ما إذا اختار لنفسه وللآخرين، فنستخلص بذلك أن الواجب الكانطي يتعين في دائرة ضيقة لأفعالنا ولا يعكس إلا آثاراً محدودة، وهو يجهل ما قد يترتب عليها مستقبلاً، وعليه يجب إعادة صياغة الواجب الأخلاقي الكانطي على النحو التالي: "اعمل دوماً بحيث تكون نتائج أفعالك غير مدمرة لإمكانية حياة مستقبلية" بمعنى آخر؛ "أدرج دوماً في اختيارك الحاضر سلامة الإنسان كموضوع ثان لإرادتك... ويكمل "يوناس"... إن الواجب الجديد يثبت صراحة أنه لدينا الحق أن نجازف بحياة الإنسانية ونختار اللاوجود."³

مبدئياً مما سبق ذكره تبدو أخلاق "هانس يوناس" مختلفة عن أخلاق "كانط"، لكن الأمر غير ذلك، فأخلاق "يوناس" في حقيقتها أكثر صرامة مما يقال إن أخلاق "كانط" هي «أخلاق

¹ إيمانويل كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، تر: محمد فتحي الشنيطي، دار النهضة للطباعة والنشر، ط2، 1970، ص111.

² إيمانويل كانط، المرجع السابق، ص ص 108-109.

³ Hans Jonas, Le Principe responsabilité, Op.cit. Pp 40-41.

صارمة"، فيبقى علينا أن نقول: "إن "يوناس" إما أنه يجهل أنه كانطي، أو أنه لا يريد أن يعترف بذلك، لكن في كل الأحوال هناك تباعد نقدي ليوناس عن كانط، وهو أمر ظاهر يعود إلى الاختلاف بين الأسس الجوهرية وصورية العالمية. وما يحدد الأمر القطعي عند "يوناس" على خلاف "كانط" هو إنشاء الضرورة القطعية اليونانية بفكرة الأنطولوجيا " أن تكون البشرية"¹.

كما يؤخذ "يوناس" الضرورة الكانطية أنها لا تتناسب مع المشاكل الخاصة التي يسببها التطور التكنولوجي، لأجل ذلك يقترح يوناس صياغة جديدة للواجب القطعي عند "كانط" حتى يكون أكثر تلاؤماً مع الفعل الإنساني لمسائل جديدة طرحها التقدم التكنولوجي المعاصر، فيقول في ذلك: " تصرف بحيث تتوافق آثار أفعالك مع ديمومة بشرية حقيقية على الأرض؛ أو بتعبير سلبي: " تصرف بحيث آثار أفعالك لا تكون مدمرة لمستقبل في مثل هكذا حياة."؛ أو ببساطة: "لا تخل بشروط بقاء الإنسانية على الأرض"؛ أو إعادة صياغتها بشكل إيجابي: أدخل في اختيارك الحالي كل سلامة الإنسان المستقبلية كشيء ثانوي لما تريده."²

يرى "يوناس" أن أساس الأخلاق عند "كانط"، ليس أخلاقياً، وإنما هو منطقي؛ ودليله في ذلك هو: إن قول "كانط": تصرف بطريقة تستطيع أن يكون المبدأ الأساسي لفعلك قانوناً عالمياً للطبيعة"، فعبارة "تستطيع أن يكون" في نظر "يوناس" هو العقل واتفاقه مع نفسه، فالاعتبار الأخلاقي على هذا المستوى ليس في حد ذاته أخلاقياً وإنما هو منطقي، لأنك "أن تريد أو لا تريد" يعبر عن حالة تطابق أو عدم تطابق منطقي وليس الموافقة أو عدم الموافقة

¹ Hans Jonas, Le Principe responsabilité, Op.cit. P94.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P40.

الأخلاقية كما يعتقد "كانط". وبذلك القانون الأخلاقي عند كانط" لا نستطيع تعريفه بمحتوى، مبدأ الإرادة.

دائماً في سياق نقد اخلاق الواجب عند "كانط" يطرح علينا "يوناس" فكرة قد تراودنا في أي لحظة وهي: أنه في يوم ما الإنسانية ستتوقف عن الوجود، لا تحتوي عن أي تناقض في ذاتها، أو على أدنى اعتبار الفكرة القائلة: إن سعادة الجيل الحالي أو الأجيال المقبلة يمكن شراؤها بثمن الشقاء أو حتى عدم وجود الأجيال اللاحقة أو العكس، والعقل لا يتعارض مع ذاته في فكرة وجود وحتى سعادة الأجيال اللاحقة يتم شراؤها بثمن الشقاء والتعاسة أو سوء الحظ، أو بثمن التضحية بالأجيال الحالية.¹

يرى الفيلسوف " هانس يوناس " أن الضرورة الكانطية تفترض أن وجود الإنسانية يجب أن تكون دائماً كذلك، والإشكالية كلها تكمن في هذا الوجود، فهل سيقوم هو بدوره (يوناس) بتحديد الضرورة القطعية في حدود الضرورة الكانطية؟

يرى "يوناس" أن الشعور بالاحترام الذي يقدمه "كانط" في تحديد الإرادة على أنه شعور صادر عن العقل لا يؤثر على صفاء النية الأخلاقية، فيجب علينا إذا أن نخرج من دائرة التماسك المنطقي للعقل حتى نعطي للأخلاق أساساً ميتافيزيقياً، لأن الخطر المحدق بالإنسانية بحكم أفعال الإنسان يتطلب ضرورة جوهرية وليس شكلية، وانطلاقاً من هذا الاعتبار الضرورة اليونانية تتطلب الواجب الأخلاقي ليس نسبة لآثار الفعل، وإنما لضرورة الفعل من أجل بقاء الإنسانية، بمعنى "ميتافيزيقاً مادية لصورته".

وبصريح العبارة نستطيع أن نقول: " في ظل الأمر القطعي الجديد الذي يقترحه يوناس"، نستطيع أن نضحي بحياتنا الخاصة وليس بالإنسانية، وهذا ما يجعلنا نستنتج أن الأخلاق

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P39.

اليونانية هي بناء يحتوي مبدأ ميتافيزيقيا وأنطولوجيا أساسه نظرية النهايات ونظرية القيم التي يكون حسبها الوجود أفضل من اللاوجود¹.

لقد عبر "يوناس" في أكثر من موقف أنه لا يحق لنا أن نخترع عدم وجود الأجيال المقبلة بسبب الأجيال الحالية، ولا حتى أن نغامر بذلك، ومنه يصبح الإلزام اليوناني ضرورة غير مشروطة لوجود الإنسانية كبدئية أولية دون مبرر. فالضرورة اليونانية لا تتطلب تماسك الفعل بالاتفاق مع نفسه وإنما بتأثيراته النهائية مع بقاء النشاط الإنساني في المستقبل، بشعار: "لتكن إنسانية" فهو أمر قطعي وليس افتراضي، وهي فكرة أنطولوجيا الإنسان، فالكائن الإنساني يتأسس بواجب الوجود، وسعادة الأجيال المقبلة يتطلب طبيعة افتراضية للضرورة، لأنه يفترض قبل كل شيء وجود رجال هذه الأجيال.

نستخلص من كل ما سبق أن الفيلسوف "هانس يوناس" لا يختلف كلياً مع "كانط" فيما يتعلق بصياغة الأمر القطعي، وإنما يؤاخذ على الطبيعة الصورية لأخلاقه التي تستبعد العاطفة والتجربة، وهو ما اتخذ "يوناس" في خدمة نظريته الخاصة للعالم؛ أي الضرورة غير المشروطة لوجود الإنسانية، وهي إنسانية تتمثل في الوجود الذي نعرفه في كامل الإنسانية، كمصدر للفعل المسؤول.

¹ M.-G. Pinsart, Jonas et la liberté, Dimensions théologiques, ontologiques, éthiques et politiques, Op.cit. p155.

III. 3 المبحث الثالث: المسألة الأخلاقية عند "هانس يوناس" في الفلسفة المعاصرة

الأخلاق اليونانية في أساسها تعود إلى التطور الكبير وغير المحدود الذي عرفته ميادين العلوم والتقنية، وخاصة منها البيوتكنولوجيا المعاصرة وما ألحقته بالإنسان والطبيعة من آثار جعلت مستقبلهما مهددا، وطرحت بذلك مشاكل جديدة لم يألّفها الإنسان من قبل، وفي نظر "هانس يوناس" أصبحت للأخلاق وظيفة أساسية وهي إعادة الأمور إلى مسارها الصحيح، خاصة إذا علمنا أن العالم المعاصر أصبح رهينة أنظمة سياسية، اقتصادية، مالية وعلمية، لا تبالى بالمخاطر المحدقة التي تتعقب الطبيعة عموما والإنسان خصوصا، وهو ما جعل "يوناس" يعتقد " أن المحتوى الرمزي، الطبيعي والذاتي للمسؤولية يستطيع أن يتحكم في التدفق الاصطناعي واللامرزي للمسار التقنوعلمي¹.

يرى "يوناس" أن الأحداث غير المتوقعة التي أحدثتها التكنولوجيا تحمل معها مخاطرا شديدة، تتطلب بدورها تفكيرا قويا، تكون بدايته من إعادة التفكير في الثنائية الديكارتية، وذلك بصياغة أخلاق جديدة تتمحور حول عملية استكشاف مبدأ طبيعي مشترك في كل شيء، وهو ما يتطلب بدوره " فلسفة للطبيعة" قادرة على تجاوز الانقسامات التي سلمت الوسط الطبيعي لعلوم الطبيعة.

لكن هذا ألا يعني أن الفيلسوف "هانس يوناس" يعاكس الرياح العاتية للفكر الحدائي المعاصر الذي يفصل بين القيمة والمعرفة بمعنى بين الطبيعة والأخلاق؟ وهل بإمكانه الولوج في عالم أخلاق الطبيعة بعد ذلك؟

يرى "يوناس" أن الطبيعة سمحت لنفسها أن تكون موضوعا لأداتية إنسانية جردتها من غاياتها، فجعلتها تفقد روحها لمصلحة الإنسان، ومن هنا سيحاول الفيلسوف " هانس يوناس"

¹ M.-G. Pinsart, Jonas et la liberté. Dimensions théologiques, éthiques, et politiques, Op.cit. p140.

أن يوضح حدود ومخاطر العلم، على أن يكون اهتمامه موجها خصوصا نحو توسع السلطة التكنولوجية لتطوير الإنسان والعواقب الدرامية الممكنة لهذا الوسع في الوسط الطبيعي باعتبار وسط مشروط لكل وجود، وفيه يجد كل إنسان مشروعية واجباته ككائن مسؤول في بعد وجودي يفرض عليه أخلاقا تناسب كل الكفاءات التكنولوجية.

في مقارباته الأخلاقية يبين لنا "يونايس" أن الروح تمثل كل كرامة الحياة الإنسانية، لكنها تعد كذلك عاملا لحجب آفاق الأجيال القادمة، وفي إطار هذا التفكير المميز يضع "يونايس" فكرة جديدة و متميزة في فلسفة الأخلاق وهي "تشكل الخوف"، الهدف من هذه الفكرة هو تطوير الوعي بمسؤوليتنا، من خلال عرضه التهديدات التي شكلها الإنسان على الإنسانية. يسعى "هانس يونايس" إلى إيقاظ الوعي الإنساني وإصلاح العلاقة بين الروح والجسد وببم الفكر والمادة، وفي ظل مساءلتنا للفلسفة اليونانية حول أخلاق المستقبل في الوقت الراهن، الضرورة تقتضي أن نعرض على أكثر الفلاسفة المعاصرين تأثيرا عليه.

III. 1.3 من تراث الأساتذة (هوسرل، هايدجر وبولتمان) إلى فكر انتقائي عند "هانس

يونايس"

يطلعنا تاريخ الفكر الفلسفي أن الفلسفة ليست شمسا تشع بذاتها، كما أنها ليست مجرد تراث يستطيع كل من يرثه أن يضع قواعد تفكير تضمن استمراريته دون أن يترك لمستته الخاصة الحقيقية، فكل فلسفة تنسب لصاحبها تمثل تيارا فكريا أو تتمثل كمنهج مقارنة لظواهر ذات طبيعة وجودية عن طريق فكر نقدي يتضمن بعدا تجديدا لمؤلفه مع تركه ظهور بعض الآثار التاريخية لجذوره الفكرية.

لكن هناك من الفلاسفة من يصعب التعرف عليهم في فكر أساتذتهم الذين أثروا في مساهمهم الفكري، والفيلسوف "هانس يونايس" هو نموذجا من هؤلاء الفلاسفة، حيث تبدو فلسفته جريئة، فهو لا يلقي بشباك في بحر الفلسفة ليصطاد فكر الآخرين، فيونايس نفسه لا ينكر

فضل أساتذته الذين أثروا فيه، حتى وإن كان لا يذكرهم إلا قليلا، المؤكد أنه إذا أردنا أن نحدد الإشكالية الأخلاقية عند " هانس يوناس " في الفلسفة المعاصرة فمعالمها تبدو واضحة، وما علينا إلا تتبع خطواته الفكرية ابتداء من تأملاته حول الظاهرة الغنوصية إلى التفسير الوجودي لمعنى المسؤولية الإنسانية.

أهم ما يميز الطابع الانتقائي للفكر اليوناني يتمثل في مساره الذي نقله من الغنوصية إلى مبدأ المسؤولية، والذي انتهى به إلى تأسيس مشروعته حول " البيولوجيا الفلسفية"، وكان هدفه الأساسي هو وضع مبادئ أخلاق جديدة تواكب العصر التكنولوجي.

موضوع رسالتنا هذه الذي جعلنا فيه الفيلسوف الألماني "هانس يوناس" نموذجا، سنبين من خلاله كيف استطاع أن يكتسب رصيذا معرفيا عن أساتذته، ويبني على آثاره صرحا جديدا لمعالم أخلاق جديدة لمجتمع تكنولوجي، وهو ما يجعلنا نتساءل مرة أخرى: إلى أي مدى يمكن اعتبار وجود آثار فلسفة أساتذته في أسس المسألة الأخلاقية التي سيبنى عليها تجربته الفلسفية؟

III. 1.1.3 تأثر "هانس يوناس" بالأستاذ الأول "إدموند هوسرل"

يعد " إدموند هوسرل " الأستاذ الأول الذي تعلم على يده الفيلسوف " هانس يوناس " فور التحاقه بالجامعة، وكان معجبا به نظرا للمكانة والسمعة التي كان يتمتع بهما بين أوساط فلاسفة تلك الفترة بنظريته "الفيينومينولوجية".

كان "هوسرل" يحاول أن يجعل فلسفته علما برهانيا اعتمادا على التحرر من كل رأي سابق، وتعليق الأحكام الخاصة بالأشياء والأفكار بوضعها بين أقواس إلى غاية التقرير الدقيق لمعانيها ومصادرتها المنطقية بواسطة البرهان التحليلي والتصنيف الصارم¹.

¹ إدموند هوسرل، تأملات ديكرتية، تر: تيسير شيخ الأرض، التأمل الأول، دار الكتاب المصرية، ص53.

المعرفة الحقيقية عند "هوسرل" هي معرفة الجوهر، بمعنى أن الإدراك لا يصف الأشياء من معطيات نظرية وإنما يصفها كأشياء بسيطة وفورية للارتباط بالعالم، الفينومينولوجية "الهوسرلية" لا تهتم بالخصائص الموضوعية للأشياء، وإنما هي تحلل كل ما يبدو لها كمعطى فوري للوعي، ويتمثل العالم كله على أنه إنتاج الوعي، وقال "يوناس" معبرا عن ذلك: "أعترف وبكل امتنان أن الفينومينولوجية كانت لمستقبل الفيلسوف مدرسة رائعة لتعلم مهنته، احترام الظواهر، ممارسة حدسه، والخدمة الصارمة لوصفهم، تحدد معايير عالية والتي نجتهد للإجابة عنها"¹. رغم اعترافه بفضل الفينومينولوجية عليه لكن ما لبث "هانس يوناس" أن يبتعد عليها مبكرا معتبرا أن ذلك يعود إلى أن الفينومينولوجية الهوسرلية تتحدد في "الوعي الخالص"؛ يقول يوناس "متسائلا: " ماذا عن وجود جسدنا هنا؟ هل يمكننا اختزاله في معطى الوعي كذلك، دون أن نمنعه من معناه، أي أنه موجود حول وجود الشخص نفسه وعدم وجوده؟² إن تعثر الفينومينولوجيا حسب "يوناس" هو أنها لم تتجح في استعادة الإحساس بالجسدية، ماذا عسانا أن نقول كظواهريين عند عبارة "إني جائع"، لو أننا افترضنا وجود فينومينولوجية إحساسات الجوع والشبع، فهل لها ما تخبرنا حول هذا الأمر؟ أعني لماذا يأكل الإنسان؟ وكم سيأكل؟³ إن هذه التساؤلات وغيرها هي مقارنة نقدية للفيلسوف "يوناس" تشير إلى الطريق المسدود للفينومينولوجيا الهوسرلية فيما يتعلق بالأسئلة المتعلقة بالجسدية.

¹ Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Op.cit. P28.

² Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Idem. P29.

³ Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Idem P29.

كما أشار "يوناس" أن المنهج الفينومينولوجي تجاهل وحدة الظاهرة الحية، ولم يستطع تحديد التجربة الأصلية والنوعية للجسم الحي، ولم يكتف سوى بالجوهر الخالص، بمعنى الاختزال الفينومينولوجي الذي يضع الوجود التجريبي جانبا.

يبدو هكذا؛ أن "يوناس" يتهم الفينومينولوجية الهوسرلية أنها لم تستطع تجاوز مواصفات الأحكام المسبقة للفلسفة التقليدية، أي "أولوية الوعي"، وإلا كم من المسائل التي هي من طبيعة كمية لا يمكن طرحها على الحدس الخالص، وهذا ما يجعلنا نقول ان الفينومينولوجيا بمفهوم "هوسرل" كانت بعيدة عن المسائل المهمة للعصر، ولم يكن بمقدورها أن تعترض مقولة الفيلسوف "ارنست بلوخ" الشهيرة التي أثارت جدلا بين الفلاسفة: " الأكل أولا ثم الأخلاق"¹

المقاربة الفينومينولوجية عند "يوناس" لا يمكن حصرها في الانتقادات التي وجهها لأستاذه، وإنما نستطيع العثور على بعض المعطيات الفينومينولوجية التي استعملها "يوناس" كأدوات أساسية لحفر محاور التحليل الخاصة بفلسفته، ولعل ما ألهم "يوناس" إلى فينومينولوجيا الحواس يشهد بإعادته لميراث أستاذه "هوسرل"، والأدلة الفينومينولوجية التي ساقها "يوناس" لمعرفة الغايات والقيم في التجربة الطبيعية تؤكد ذلك حيث يقول: " هناك شيء يمكن ملاحظته بالحجم الواقعي الكبير وهو تجريبية لأجسادنا"²، فكل ظاهرة أو أن شيء بالنسبة إلينا له معنى عندما نكون على وعي بحواسنا.

فنستخلص بذلك أن "يوناس" وضع معالم فينومينولوجية جديدة للطبيعة وهي في تطور، ومعها يدرك الإنسان مسؤوليته الأنطولوجية لأن الغايات والقيم التي قد تبدوا غامضة في الحياة الأولية مدينة بتطورها للإنسانية كلها.

¹ Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Op.cit. P30.

² Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Idem. P30.

لقد تمكن "يونايس" من رصد فكرة الأساس الأخلاقي داخل الفينومينولوجية الهوسرلية، وهي فكرة ذات أساس أخلاقي ناتجة عن رفض الثنائية الديكارتية بفضل العلاقة بين الفكر والوعي والظاهرة والملاحظة التي استعملها "هوسرل" لمشروعه "الفلسفة كعلم".

III. 2.1.3 تأثر "هانيس يونايس" بالأستاذ الثاني "مارتن هايدجر"

سبق وأن أشرنا في فصل سابق أن "هايدجر" هو الأستاذ الثاني للفيلسوف "هانيس يونايس"، ويعد الأكثر تأثيراً عليه، وكان "يونايس" نفسه يعبر عن أول لحظة التقى فيها به قائلاً: "لقد التقيت بمصيري، وكان لدي شعور أن شيئاً ما سيحدث...".¹ لقد وجد "يونايس" بجامعة "فريبورغ" كل راحته واعجابه بهيدجر، وأول ما صدم فكره هو مقولة هذا الفيلسوف ذات التوجه الفينومينولوجي مصرحاً: "الوعي الخالص نقي جداً لهذا العالم، والأسلوب الأساسي للعلاقة بين العالم والذات ليس الحدس".² في كل مساراته التعليمية، من مدرسة "فريبورغ" إلى مدرسة "ماربورغ" تبقى فلسفة "هايدجر" رغم الانقطاع الذي حصل بينهما (سبق ذكر ذلك في مبحث سابق) الأكثر تأثيراً عليه، و"هايدجر" هو الفيلسوف الذي تعلم عليه كثيراً.³ وجاء اعتراف "يونايس" لأستاذه على النحو التالي: "...مهما كان الأمر الذي بيننا لا يمكنني أن أنسى أنكم كنتم الأستاذ الذي حددني، وأنكم كنتم دائماً مصدر الهاماتي الفلسفية".⁴

رغم هذا الوفاء وهذا الجميل لأستاذه، لم يمنع ذلك "يونايس" من توجيه انتقادات صارمة لأستاذه في مواقف وأراء فلسفية مختلفة.

¹ Hans Jonas, Souvenirs, Op.cit. P58.

² Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Op.cit. P31.

³ Hans Jonas, Souvenirs. Ibidem. P229.

⁴ Hans Jonas, cité par Dominique Janicaud, dans en guise d'introduction à H. Jonas, Esprit, N° 51, 1988, p163.

لقد كان كتاب "هايدجر" الشهير: "الوجود والزمن" هو سبب تحول "يوناس"، وكان الكتاب يعالج أساسا "مسألة الوجود"، وأهم ما قال فيه هايدجر: " لدينا فهم مشترك عن الوجود لكنه فهم غامض"¹. لم يخرج "يوناس" عن محتوى فكرة "هايدجر" القائلة ان الإنسان موجه نحو غايات معينة، والتقاطع الحاصل مع فكر "يوناس" في هذا الباب هو ان "يوناس" يرى ان غاية الحياة الإنسانية غير ثابتة والوجود مهدد بالخطر والهلاك"².

كذلك الموت بالنسبة لهايدجر، حيث يعتبر ان إمكانية الموت من إمكانيات الوجود لا يمكن تفاديه مطلقا، فوجود الموجود هو وجود تجاه الموت، كما أنه تكلم عن القلق أي قلق الموجود (الذات)، وهذا القلق قد يتجه نحو الآخر³، وهنا يكمن اختلاف "يوناس" مع أستاذه الذي كان يقصد بالموت: "الموت المعنوي"، متجاهلا الجسد، ومنه فالموت المعنوي هو نظرة شمولية موروثية عن الفلسفة التقليدية، وهي نظرة أحادية للواقع يتفق حولها الفينومينولوجيون على غرار "هوسرل" و"هايدجر"⁴، وهذا ما يختلف فيه "يوناس" مع سابقيه فهو يرى أنه لا يمكن الفصل بين الجسد والعقل، ووجب أن تكون نظرتنا للإنسان نظرة كلية واحدة وموحدة، بما في ذلك علاقة الإنسان ببيئته ومجاله الحيوي.

في نظر "يوناس"، لقد تخلى "هايدجر" عن مفهوم الوعي باعتباره أساس عملية الإدراك، والموضوع الإنساني أصبح " الموجود" (DASEIN)، وبطريقة تحليلية يبين لنا "يوناس" ان

¹ Martin Heidegger, Etre et Temps, Trad. Emmanuel Martineu, Edition Numérique non commercialisée, 1980, pp 25-31.

² Hans Jonas, Pour une éthique du futur, op.cit. P32.

³ Hans Jonas, Le principe responsabilité, une éthique pour une civilisation technologique, op.cit. P41.

⁴ Hans Jonas, Le phénomène de la vie, op.cit. P62.

كلمة "أكون هنا" هي كلمة مركبة؛ فالكلمة الثانية "هنا" تبين أن هذا الكائن بالذات يطور انطلاقاً من نفسه أفقا يغرق فيه حياته، انه ديناميكي يدخل في صيغة المصدر في وصف أي علاقة مع أنا/العالم...¹، ففكرة "هايدجر" "موجود هنا" للموجود (Dasein) هي كمثل ذلك الموجود الذي في وجوده هو بالضبط هذا الموجود، هناك شيء له هو منه هذا الموجود يحدد فكرة الغائية لكل كائن، فهذه الفكرة أن كل إنسان موجه نحو غاية، هو ذاته محوراً الأول، سمحت لفيلسوفنا "يوناس" أن يضع المعالم الأساسية لخطر "الموجود هنا" بعدم استقرار يتعلق بوجوده، ويقول "يوناس" "...وأخيراً نرى الإرادة تسود على الحدس، والعالم أولاً وقبل كل شيء عملياً هو "هنا" للموجود هنا...²

في نظر "يوناس" كل "موجود هنا" يكون معرضاً للعدم، لأنه شرطه لعدم الهدر، فيقول في ذلك: "وأخيراً مع وجود نهاية... الجانب المهدد للموجود هنا، لأنه فان (الموت) يجب أن يذهب هو للوجود على أنه كذلك، هذا الأخير يجب أن يكسبه لأنه على وشك الموت، لذلك النمط الأساسي للموجود والموجود هنا هو "القلق"³.

يرى "يوناس" أن "هايدجر" أخفق في الخطوة التي كان بإمكانها أن توصل انطولوجيا الوجود إلى أخلاق السلوك، رغم تمييزه بين الصحة وعدم الصحة للوجود، لم يقدم "هايدجر" سوى مواصفات بسيطة لحالات وجود بديلة لكل موجود هنا⁴.

¹ Hans Jonas, Pour une éthique du futur, op.cit. Pp33-34.

² Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Idem. P35.

³ Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Idem. P36.

⁴ Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Idem. P37.

نستخلص مما سبق، حسب "يونايس"؛ ان هايدجر " إضافة إلى تجاهله للجسد، هناك آثار الثنائية الميتافيزيقية التي عانت منها الفلسفة إلى وقت قريب، كره وازدراء للطبيعة من جانب الروح التي تشعر أنها في أعلى مرتبة منها"¹، وهو ما جعل "يونايس" يندد بتلك المعارضة المفاهيمية التقليدية بين الروح والمادة، النفس والجسد، والحياة الداخلية والعالم الخارجي، لنقل الفكر الديكارتي بين مركبين لشيء واحد، ومع مرور الوقت أصبح الواحد غريب عن الثاني "...وهذه المعرفة تقاسمتها الجامعة بين علوم الطبيعة وعلوم الروح، وهذا ما جعل الفلسفة تجد نفسها الأخيرة، في الوقت الذي كان يجب أن تكون فوق كل هذه الاعتبارات..."².

الكلام عن العلاقة بين "يونايس" وأستاذه "هايدجر"، تستوقفنا لزوما عند كتاب هذا الأخير "الوجود والزمن" الذي يعتبره التلميذ "يونايس": المنعرج في حياته الفلسفية، وبالرجوع إلى السؤال: ماذا يعني العالم للكائن الذي هو موجود؟ ماذا يعني: موجود هنا؟ بمعنى؛ الإنسان في العالم الذي يعيش فيه، ويخص كل واحد منا. في الحالة الأولى: الإنسان هو أساس كل علاقة. وفي الحالة الثانية: الوجود، لكن في كلامه هذا تجاهل "هايدجر" طرفا أساسيا في معادلة كلامه وهو "الجسد" بالنسبة ليونايس " إدراك الوجود كعظمة روحية كبرى أو كأساس حامل تمت دون رعاية العلاقة بين الإنسان والطبيعة ... علاقة دخلت في مرحلة حرجة...³، هذه المرحلة الحرجة التي يتكلم عنها " يونايس " عايشها هو نفسه ولكن الأخطر عاشته الإنسانية جمعاء خلال الحرب العالمية الثانية، بانفجار قنبلتين نوويتين مدمرتين (هيروشيما وناغازاكي)، لقد اتخذ "هانس يونايس" موقفا نقديا صارما من المشاكل التي طرحتها التكنولوجيا المعاصرة في

¹ Hans Jonas, Pour une éthique du futur, op.cit. P40.

² Hans Jonas, Pour une éthique du futur Idem, P42.

³ Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Idem. P44.

العالم الغربي، " وهكذا منذ ولادته، النقد الفلسفي للتقنية بدى واضحا بقلق... ولم يفقد طابعه المروع.¹، لكن من جانب آخر، وبعيدا عن تلك المخاوف المروعة، لقد عرف التطور العلمي والتكنولوجي في مجالي البيولوجيا والطب تقدما كبيرا، حقق تعاوننا مهما بين الفلاسفة وعلماء الطبيعة والأحياء ساهم في توضيح مسائل مطروحة تتعلق بالإنسان ومستقبله وقداسته، وأخذ بعين الاعتبار التحديات الراهنة التي تتعرض سبيله وسبيل الإنسانية كلها.

يبدو أن "هانس يوناس" أخذ موقفا متأنيا عقلانيا لكنه مشوبا بالخوف؛ فهو خوف مشروع، خاصة إذا علمنا أن الأمر يتعلق بالمحافظة على الكائن الإنساني وكرامته وقديسيته، ولقد جعله "يوناس" جزءا من تأسيس فلسفة أخلاق المستقبل بعنوان "تشكل الخوف"² (كما سنبين لاحقا).

في موضوع دراستنا هذه بدأنا نتطلع شيئا فشيئا إلى أن المشكلة التي يطرحها "يوناس" تتمثل أساسا في الأثر الذي تمارسه التكنولوجيا على الإنسانية والطبيعة، والخطر لا يكون مفاجئا، وإنما هو خطر يزحف تدريجيا مع التطور التدريجي للتكنولوجيات المختلفة، سيعترض سبيل الإنسان ومصيره مستقبلا، فالشعور والمسؤولية سيكونان من رهان الحاضر والمستقبل، وهو ما يصبو إليه "يوناس" من خلال "مبدأ المسؤولية الذي يجعل الإنسان مسؤولا في الحاضر والمستقبل.

¹ Hans Jonas, Pour une éthique du futur Op.cit, p50.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P65.

III. 3.1.3 تأثر "هانس يوناس" بالأستاذ الثالث الفيلسوف "رودولف بولتمان"

يعد "رودولف بولتمان" الأستاذ الثالث دون منازع للفيلسوف "هانس يوناس"، فالجوانب الفلسفية واللاهوتية لبولتمان تمثل جزءا من تراث الأساتذة للفكر الفلسفي عند "يوناس". لم يخف الفيلسوف "هانس يوناس" اعترافه وامتنانه لهذا الفيلسوف الكبير حيث يقول: "لقد عرفته، كان أستاذاً وصديقي، حضوره رافق حياتي بنور صارم وثابت"¹. كما يعترف "يوناس" أنه لما التحق بندوة رجل الدين البروتستانتي "بولتمان" حول "العهد الجديد"، وجد النموذج الخاص الذي كان يبحث عنه، نموذج يعبر عن اهتماماته التي كان يوليها للدين، والتي تتماشى مع التزاماته الفلسفية في المقام الأول، فيقول في ذلك: "كان الأمر يتعلق بالفهم وليس أن أوافق، العمق لم يعد أبدياً. كانت مداولات وليس تأكيدات في محادثات"². في إطار اشكاليتنا التي نحن بصدد معالجتها، يجدر بنا أن نشير أن ذكريات الفيلسوف "هانس يوناس" فيما يخص علاقاته مع "بولتمان" حيث يقول: "لقد أدركت ثبات فكره، واهتمامه الشديد بخراب العالم، وفجأة علمت أنه من الممكن استئناف واستمرار فيما نحتاج أن نؤمن به من أجل الإنسان"³، ويبدو أن "يوناس" قد تأثر كثيراً بالصفات النبيلة للإنسان التي جسدها "بولتمان".

رغم التوجه الديني لأستاذه إلا أن "يوناس" استخلص مقاربتين فلسفيتين ساهمتا في عمق تفكيره الخاص، وهما مقاربتان تتعلقان بإزالة الفكر الخرافي الذي يرتبط بنظرية التفسير،

¹ Hans Jonas, Entre le néant et l'éternité, France, Belin, 1996, P145.

² Hans Jonas, Entre le néant et l'éternité. Idem, P146

³ Hans Jonas, Entre le néant et l'éternité. Idem. P146.

والعلاقة بالعلم الحديث. وما أثار "يوناس" هو أن "بولتمان" تتبع هدفين في عملية إزالة الخرافات والأساطير، وذلك على النحو التالي:

-أما الأول فيهدف إلى تحرير النص من كل الشوائب والعوائق قصد تحقيق قراءة وجودية.
-بينما الثاني فيهدف إلى ابعاد العقبات التي من شأنها أن تهدد الإيمان.

هذه العقبات نفسها ناتجة عن الصراع بين الطرح الأسطوري والرؤية الحديثة للعالم.

يرى "يوناس" ان عملية إزالة الخرافات والأساطير هي التطبيق الجذري لمبدأ التبيرير بالإيمان في مجالي المعرفة والفكر¹، وحسب رأيه دائماً هذه العملية هي طريقة "هيرمونيظيقا" بمعنى عملية تأويل تساؤل النص فيما يتعلق وجود الإنسان، ولم يعد الأمر بذلك يخص المؤسسة الدينية. وهنا تكمن المقاربة بين الفكر اليوناني وفكر "بولتمان"، فالتفكير الفلسفي مثلما هو في الدين مهمته ترجمة معنى الأساطير في لغة مناسبة، أي دون الوقوع في الاستعارة، والتعبير عن الأشياء دون التفاف في مصطلح مناسب للوجود الملموس، ويعد ذلك بالنسبة لبولتمان سابقة كما يقول "يوناس": ما هو جديد عند "بولتمان" هو قراره اعتبار أن أساس ما يجب تأويله هو " الوجود الإنساني" وهو ما يعني أن " فلسفة الوجود" هي التي تمنح المفتاح لتفسيرها.²

ما يجدر بنا الإشارة إليه هو أن "هانس يوناس" يحمل نظرة مخالفة لأستاذه "بولتمان"، فالأمر ليس أن نعرف كيف نتخيل لغة غامضة تكون مناسبة لموضوع الدين، وإنما كيف نحافظ على الشفافية حول عدم كفاية لغة الدين (اللاهوت) ضرورية مقارنة إلى ما يشير إليه

¹ Hans Jonas, Entre le néant et l'éternité, Op.cit .P151.

² Hans Jonas, Entre le néant et l'éternité, Idem. P154.

هذا الأخير، لأننا نستطيع أن نمر من كناية لأخرى أكثر جذابة، لأننا عادة ما لا نستطيع وصفه نعبر عنه بطريقة غير مباشرة بدلا من ألا نقول عنه شيئا.

يخلص بنا الفيلسوف " هانس يوناس " إلى أنه يطرح علينا إمكانيات وليس حقائق. وتفكير أستاذه "بولتمان" مكنه من رسم معالم فكر في إطار هذا الفراغ الفكري والجهل... وشخصية "بولتمان" هي التي زادتني قوة " لهذا الإيمان الذي كان مهددا"، الذي يستحق أن أكون به رجلا¹

ما يمكن استخلاصه من كل ما سبق ان "يوناس" رغم اعترافه وامتنانه لأساتذته الثلاثة مما قدموه لشخصه وفكره، لكنه لم يخف قلة معرفتهم بالعلوم الفيزيائية، ويؤخذ خاصة "هايدجر" على الطابع التجريدي للمفهوم الأخلاقي عنده، فهو لم يبال بالعلاقة بين الروح والجسد، في حين أن الجسد هو أساس الوجود (Dasein)، وطبيعة كيان كل إنسان مادية، ولعل هذا ما ساق الفيلسوف "هانس يوناس" إلى الاهتمام بالمجال البيولوجي للإنسان، فاتخذ منه منطلقا لفلسفته البيولوجية التي سيؤسس عليها أخلاقا جديدة تسير عصر العلم والتكنولوجيا، اللذان أصبحا يهددان الطبيعة وكيان الإنسان في وجوده وقديسيته.

¹ Hans Jonas, Entre le néant et l'éternité, Op.cit. P174.

III. 2.3 نقد "هانس يوناس" مبدأ الأمل عند "ارنست بلوخ"

لقد كان انتقاد "يوناس" للطوباويات الحديثة شديداً، وأهم انتقاد كان موجهاً للماركسية، لكن حقيقة الأمر أن انتقاده كان يعني به "ارنست بلوخ"، وذلك من خلال مؤلفه الضخم "مبدأ الأمل" (Le principe espérance)، ويعد هذا المؤلف في نظر الكثير منطلقاً "لمبدأ المسؤولية" عند "يوناس" والذي حاول من خلاله معالجة العلاقة بين مستقبل الإنسانية والطبيعة، لذلك يجمع الفلاسفة والناقد أن "مبدأ الأمل" ليس فقط المنافس الأساسي الذي خصص له "يوناس" الفصل الأخير من مؤلفه الشهير، وإنما هو مصدر إلهام عنوان هذا المؤلف الذي جاء بعنوان: "مبدأ المسؤولية".

وبذلك يبدو أن "يوناس" لم يتوجه مباشرة لماركس، وإنما "لأرنست بلوخ" الذي تبني البعد الطوباوي في تأويل الماركسية، إلا أن الأمر أصبح يعني "ماركس" مباشرة، بدليل أن "يوناس" بين حدود الطوباوية الماركسية، مبيناً أن مدح اليوتوبيا من خلال التطور العلمي والتقني هو مرتبط في أساسه بالمسؤولية الجماعية.

لقد رصد الفيلسوف "هانس يوناس" التحولات التي أحدثها الفعل الإنساني في الطبيعة، وشرع في تأسيس نظريته حول المسؤولية الأخلاقية من منظور ميتافيزيقي للوجود والواجب، بمعنى تأسيس أنطولوجيا لفعل إنساني مسؤول، وهذا ما يفسر موقف "يوناس" الراض لأبي يوتوبيا في التاريخ.

ما يهمنا في موضوعنا هذا هو نقد اليوتوبيا التي لها علاقة "بمبدأ الأمل" عند "ارنست بلوخ"؛ أول ما أثار انتباه "يوناس" هو قلقه حول فهم "معنى الإنسان الجديد" الذي تتبناه الماركسية في ظل القضاء على الطبقة وتحقيق الحرية كشرط حقيقي للتاريخ، وأطلعنا يوناس

في هذا الصدد إلى عبارة مؤثرة في "مبدأ الأمل" جاء فيها: "بروميثيوس الهائج"¹، الذي يهزأ لكل اعتبار للوسط الطبيعي، وكذلك كرامة الإنسان، وهذا ما جعل "هانس يوناس" يرفض أساساً فكرة الإنسان الحقيقي سيكون مستقبلاً، وأن الإنسان الحالي غير حقيقي حسب نظرة "ارنست بلوخ" في معادلة "س ليس بعد ب"، ويعبر "يوناس" عن ذلك قائلاً: "الإنسان الحقيقي سيأتي فقط، وإنسان الماضي والحاضر لن يحن بعد، ولم يكن من قبل أبداً، فكل التاريخ حتى الآن، وما قبل تاريخ الإنسان الحقيقي، كما يمكن أن يكون أو كما ينبغي أن يكون..."²

بالنسبة ليوناس الصيغة المميزة "س ليس بعد ب" تعني أن الموضوع لم يكن نتاجه بعد، والكائن "ب" جوهرياً هو "س" وليس فقط ما يستطيع تحقيقه، وإنما ما يجب تحقيقه حتى يكون حقيقة "س"، فهذا التصور جعل "يوناس" يؤمن بالتقدم الذي يحققه الإنسان، لكن المثالية بالكيفية التي يضعها "ارنست بلوخ" تحتوي على جانبين: أولهما إيجابي، والثاني سلبي، وسيكون تركيزنا على هذا الأخير الذي سيتمأشى مع مضمون دراستنا مع العلم أن الفيلسوف "هانس يوناس" يعطي الأولوية دائماً للاقتراحات السيئة.

في نظر "يوناس" الأطروحة القائلة ان التاريخ لم يطلعنا بعد عن الإنسان الحقيقي، هو نفسه يؤكد لنا أن التاريخ السابق كله مؤقت، وتحليله كان كله من زاوية "أنطولوجيا لم يوجد بعد" عند "ارنست بلوخ"³.

لمحاولة فهم فكر "بلوخ" المرتبط بفكرة: "الإنسان كما يستطيع، وكما يجب، لم يوجد حتى الآن، وإنما سيحدث"، قام "يوناس" بعملية العزل التدريجي للمعاني التي ما من شأنها أن

¹ Hans Jonas, Le Principe responsabilité, Op.cit. P15.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem, Pp272-273.

³ Hans Jonas, Le Principe responsabilité. Idem. P403.

توضح المعنى العميق لمثل هذه الفكرة، سبق وأن أشرنا إلى أن "يوناس" لم يضبط مفهوم التقدم الذي عبر عنه "بلوخ" بعبارة "عدم وجود الإنسان بعد" في معنى تطور الحضارة الذي يفترض أن بعض الأشياء غير موجودة في مرحلة معينة من التاريخ، وهذا لا يعني بالضرورة أن الكائن الإنساني الحقيقي هو في طور التكوين نتيجة الأحداث المقبلة.

فكرة "بلوخ" القائلة "لم يكن بعد موجود" لا تسجل في منطق استمرار غير متواصل للتطور السابق الذي يشير في اتجاه تطور الحضارة، وإنما يعني طبيعة الإنسان أو الكيان الجوهري للأفراد. ويؤكد "يوناس" في تحليله للموقف السابق؛ أن الأمر لا يتعلق بالعظمة المهنية للنخب من هنا أو هناك في التاريخ، ولا حتى التوزيع الرقمي للمواضيع الاستثنائية فيها، ولكن معرفة هل هؤلاء يمثلون فعلا الإنسان الحقيقي؟ إذا لم يكن هذا الوجود قد اكتمل، فإن ذلك سيعيدنا إلى المعنى الأرسطي الذي يعتبر أن كل من يتعرض للتغيير يمتلك في تحيينه الخاص المستمر قدرة من التغيير على هذا النحو¹، بحكم هذا التصور كل الأفراد والكائنات الحية يخضعون لعملية التغيير، فتبقى امكاناتهم مفتوحة على كل جديد لم يكن بعد، وبذلك الانتقاد الموجه "بلوخ" لا يعني كلية تحيينه أو تحديثه كهدف في حد ذاته²، كما أن "يوناس" يرفض أن يساق هذا المفهوم بالمعنى "الهيدجري" للمستقبل، "القدرة الأنطولوجية للإنسان المتعلقة بالحياة في اتجاه المستقبل (هايدجر) دون أن يكون هدفا سيء للماضي³.
يخلص بنا الفيلسوف "هانس يوناس" إلى أن فكرة "بلوخ" ليس بعد موجود" هي مجرد "ثورة ابتكارية سلبية" فيما أن "س" ليس بعد "ب" فهو ليس نفسه بعد، وهذا هو بيت القصيد

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité. Op.cit. P404.

² Hans Jonas, Idem, P405.

³ Hans Jonas, Idem. P406.

"ليس بعد " فيوجد هنا "غائبة خفية" تترجم حقيقة "س" أنه يعيش رغبة داخلية في تحقيق ذاته، لذلك كان اعتقاد "يونايس" أن " الإنسان الحقيقي" موجود دائما بكل إيجابياته وسلبياته المكونة له، وانطلاقا من هذا الإنسان يجب أن نخط الآمال والمخاوف المتعلقة بمستقبله، ولذلك لا تفهم أي فترة من التاريخ أنها تعد من عصور ما قبل التاريخ للإنسان، ويعبر "يونايس" قائلا: " إنه جد مهم أن نفهم أن كل حاضر للإنسان هو نهايته الخاصة، وأنه كان في أي ماضي... الكل هو "انتقال" في ضوء ما بعد، وكثير من الأشياء هي نتاج في ضوء ما قبل... ولا شيء هو ظهور للأصلي فقط ليأتي..."¹

يبدو أن "هانس يونايس" يرفض أي حتمية تاريخية، لأن كل حادثة تكون فيما بعد حسب ضرورة حتمية تنزع عن الإنسان كل مسؤولية، وهذا ما يجعلنا نقول ان نقد اليوتوبيا هي في نفس الوقت مرافعة من أجل المسؤولية، وهنا تكمن أصلية الفكرة والتجديد اليوناسي لمبدأ المسؤولية، الذي يبين كيف يمكن للأخلاق المعاصرة أن تتجاوز التصورات الأخلاقية التقليدية، هذه الأخيرة التي ترتبط عادة بالسعادة والفضيلة، وبذلك ليست مناسبة لمواجهة القوة الخارقة للتقنية التي أصبحت تهدد بقاء الإنسان على وجه الأرض.

حسب "يونايس" الفيلسوف "بلوخ" كان ينادي دائما "بحلم اليقظة لحياة مثالية"، ولا يكون ذلك إلا في أصداد مشروع مؤلف "مبدأ المسؤولية"، وفي هذه الحالة "... القيد أكثر بكثير من النمو يجب أن يصبح شعارا وسيكون هذا أكثر صعوبة لخطباء اليوتوبيا من البراغماتيين الذين لا يرتبطون بإيديولوجية..."

إذا كان " ارنت بلوخ " يعتقد أن الوفرة والرخاء يجب أن تكون في متناول كل إنسان يفضل التطور السريع للتكنولوجيا، فإن نظرة الفيلسوف "يونايس" جاءت غير ذلك تماما حيث

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité. Op.cit P416.

يقول: " وجود الوفرة والرخاء وسهولة التحكم فيها، التقنية أكثر تقدما يمكن أن تثيرها بطريقة جذرية في مواقع ترغم فيها شح الطبيعة السابق لتسلم لنا أسرارها، أو أن تكمل كنوزها الناقصة بكنوز اصطناعية¹، بالنسبة ليوناس ارغام الطبيعة على إخراج أسرارها، وتحرير جهد الإنسان عن طريق الآلة هو حالة من اليوتوبيا بطابع مضاعف من القوة التي لا تقنى، إنها قوة التقنية الإنسانية وقوة الطبيعة التي استجابت له.

ان الاستغلال المفرط للطبيعة يعتبر مشكلا حقيقيا لبقاء الكائنات الحية، لكن "ارنست بلوخ" لم يتردد أن يثني على قوة التكنولوجيا اللامحدودة وقدرة الطبيعة اللامتناهية أنها ستحقق الكثير من المزايا للإنسان، ويعبر عن ذلك: " الأسمدة الكيماوية والأشعة الاصطناعية لن تتأخر بدون شك عن ظهورها، وربما قد تكون في الطريق الصحيح لتحت الأرض على الإنتاج ألف مرة أكثر، وبإفراط دون منازع إلى تصور منتج اصطناعي لحقل قمح في كف اليد... التقنية في حد ذاتها تقريبا قادرة على الانفصال على المعالجة البطيئة والمحدودة محليا للمواد الأولية من طرف الطبيعة...²، لكن "يوناس" وعلى خلاف ذلك يرد على "بلوخ" قائلا: "... حتى وإن كان نجاحها غير موثوق، فإن حظها الفعلي الذي وجد لأجل أن تصبح هدفا ممكنا في حد ذاته في علاقاته مع الصفة غير اللاتقة بالإنسان، والمتمثل في خطر لعبة كل شيء ممكن مع الإنسان، إذ يمكننا أن نغامر بالكل لأجل الكل، وأن نجرب المجازفة القصوى للتقنية

¹ Hans Jonas, Le Principe responsabilité, Op.cit. P348.

² Ernest Bloch, Le Principe espérance, trad. François Wilmard, T2, Les épures des mondes meilleurs, Gallimard, Paris, 1982, p541.

سواء لجني النعمة الربانية أو الكارثة القسوى، وهنا ستكون الخطيئة المميتة للأخلاق والميتافيزيقا وبهذا فالإنسانية ستجعل من نفسها المذنبية...¹

إذا كان "بلوخ" يعتقد بضرورة تغيير قوة العمل الإنساني لصالح الأدوات والتكنولوجيا بدعوى أنها تجسد الصورة المثلى لقوة العمل المحرر من خضوع خارجي، فإن يوناس يعارض ذلك من وجهة نظر أخلاقية فيقول: "المفارقة التي تغاضى عنها "بلوخ" هي أن الطبيعة بالضبط التي لم يغيرها الإنسان، هي الطبيعة المتوحشة، أعني الطبيعة الإنسانية التي تتحدث للإنسان، التي هي خاضعة له تماما، هي الطبيعة للإنسانية بكل اختصار...²

يمكن لنا أن نستخلص من مجمل كلام "يوناس" أن الحقيقة الوحيدة التي يجب أخذها بعين الاعتبار هي أن الإنسان الحقيقي موجود دائما بكل تناقضاته، بسعاده وبؤسه، بعلوه ودنوه، ومحاولة تغيير الإنسان بالنسبة لهذا الواقع هو الرغبة في إلغائه بالطبيعة غير المفهومة لحريته، وهذا ما جعل "هانس يوناس" يتهم المفهوم الطوباوي بافتراض خطأ أنثروبولوجي، خطأ في المفهوم الجوهرى للإنسان.

يرى "هانس يوناس" أن المستقبل يبدو غير مضمون وبغير هدف مع غياب معايير خارجية للإنسان تشير إلى هدف بلوغه أو تحقيقه، " وكل " ليس بعد " الذي يمكن أن يكون فعليا كامنا فيما كان (فيما كان لا يمكن أن يخبرنا عن أي شيء) سيظهر كمفاجأة في وقت حدوث ما تم توقعه، ولا شيء يضمن أنها ستكون مفاجأة سارة، وهذه الأخيرة لا تقترب من نتيجتها، ولا من نقيضها، لا واحد يجسد نهاية محددة مسبقا لطبيعته"³. التخطيط للمستقبل

¹ Hans Jonas, Le Principe responsabilité, Op.cit. P314.

² Hans Jonas, Le Principe responsabilité, Idem, P400.

³ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem, P413.

يبقى مؤسسة غير مضمونة، والأمر يتطلب صورة الإنسان التي لدينا معرفة عنها كمرجعية، والماضي يمثل مصدر معرفة لتخطيط أفعال الإنسان، وهذا ما يجعل من أخلاق "يوناس" تتجه نحو الإنسانية، ويبقى فيها الإنسان مكان كل المعايير الممكنة، بإنسانيته، بكرامته وقدسيتها، وهذا ما جعلنا نقول أن الفيلسوف "هانس يوناس" أراد تغيير "الأمل" بالمسؤولية، ويواجه آفاق اليوتوبيا بضرورات الواقع الفيزيائي، لأن أهم شيء اليوم يواجه الإنسان هو قدرته على تحديد حدود طبيعة الأشياء مع مراقبة مدى تقربنا من هذه الحدود، وهو ما يسوقنا إلى جوهر إشكالية موضوعنا حول قدسية الحياة الإنسانية وعلاقتها بالتطور البيوتكنولوجي المذهل الذي أصبح يهدد الإنسان والإنسانية والطبيعة معا.

خلاصة الفصل الثالث

في هذا الفصل تم التركيز على أسس الفكر اليوناني، فتجلت من خلاله سيطرة الإنسان على الطبيعة، وهو ما أطلعنا على مقاربة أنطولوجية لم تعد تعني بالمعنى الذي ظهر في الفلسفة للأشياء كما بينه "أرسطو"، لقد أقلب "يونان" المفهوم الأنطولوجي للطبيعة في المسار التاريخي، فأصبحت الطبيعة بكل ظواهرها ملزمة أن تسلك مسارها الخاص لتسلم كلية للإنسان في استعمالاته التجريبية، ولم يعد شيء في الطبيعة بما فيه الإنسان يشارك في تطلعاته الداخلية منذ تطور العلم والتكنولوجيا المعاصرين.

إن تخوف "يونان" من عواقب الثورة العلمية والتكنولوجية جعله يتطلع إلى الفلسفات القديمة، الحديثة والمعاصرة، ويمثل ذلك بالنسبة إلينا قيمة مضافة يجب الحفاظ عليها، بالرغم من أن حقيقة الأخلاق اليونانية تبدو لنا بوضوح في تحليلاته التي وردت خاصة منها حول الفلسفة المعاصرة عند أساتذته الأوائل على التوالي: "ادموند هوسرل"، "مارتن هايدجر" و"رودولف بولتمان" أنها أخلاق المستقبل، ومن أجل بناء مجمل طروحات "يونان" الفلسفية كان لزاما علينا أن نستعرض الحوارات والآراء المختلفة لفلاسفة معاصرين كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك، فالتباين كان واضحا بينهم، ففي اعتقادنا اختلاف وجهات النظر هذه والتحليلات التي تبعتها أو الانتقادات التي تم عرضها كانت أساسية في توجيهنا إلى تطوير الفكر اليوناني من أجل بناء أخلاق المستقبل، وما زاد الفيلسوف هانس يونس تطلعا بأخلاق المستقبل هو النقد الذي وجهه للفيلسوف "ارنست بلوخ" حول "مبدأ الأمل"، وهو ما مكنه من تأسيس أخلاق المسؤولية، يكون فيها الإنسان أنطولوجيا محتوا في محدودية العيش الشامل، أو بعبارة أخرى محدودية الطبيعة ستطرح مع نهاية الإنسان، وبذلك كان توجيهنا منصبا نحو نقد فكر الثنائية الإنسانية بمختلف أشكالها: الله والعالم، الإنسان والعالم، المادة والروح، المعلوم وغير المعلوم... ولتوضيح ذلك كان تركيزنا منصبا على فكرة أنطولوجيا الإنسان، وهي فكرة تتوافق

الفصل الثالث: الأخلاق اليونانية في ميزان الفلسفة

مع ما نصبو إليه لأن أخلاق المسؤولية للأجيال المقبلة كما بينا سابقا تؤسس على ميتافيزيقا تسعى للحفاظ على الكائن الإنساني وقيمه كضرورة أنطولوجية.

IV. الفصل الرابع: البيوتكنولوجيا المعاصرة ومبدأ المسؤولية عند "هانس يونس"

- المبحث الأول: أساس مبدأ المسؤولية عند "هانس يونس"
- المبحث الثاني: من الأخلاق التقليدية الى مبدأ المسؤولية
- المبحث الثالث: المسؤولية العلمية والمسؤولية السياسية

تمهيد

تعيش الإنسانية اليوم عصرا جديدا، إنه عصر الهندسة الوراثية التي استطاعت بفضل سلطتها اللامحدودة أن تحدث تغييرات كبيرة وخطيرة في نفس الوقت على النوع الإنساني، وذات عواقب مذهلة، متميزة بتحد جذري في مواجهتها للتفكير الفلسفي عموما والأخلاق خاصة.

لمعالجة هذه المسألة الخطيرة في تاريخ حياة الإنسان المعاصر، المطلوب منا اليوم هو أن نؤسس أخلاقا ذات مرجعية لمواجهة الأخطار التي تهدد الوجود الإنساني، بل وحتى جوهر الإنسان.

إن هذا التحدي قبل به الفيلسوف الألماني "هانس يوناس"، واعتبره نقطة انطلاق "لأخلاق من أجل حضارة تكنولوجية، وأخلاق من طبيعة أخرى، إنه تحد يتميز بإعادة نظر جذرية لطبيعة الوجود والحياة الإنسانية، إنه عصر أصبح فيه "إنسان ما بعد الحداثة" لا يستطيع أن يفكر في عصر غير عصره هو، إنسان أصبحت تسوقه قيم ضعيفة انحرفت عن مسارها الصحيح، أصبح التراجع سمته الأساسية، وتمجد النسبية العامة لثقافة انقطعت عن جذورها الخاصة بها¹، والعقلانية لا تتوقف عن افراغها من مدلولها، والعلم أبعد بدوره الميتافيزيقا من كل مجالاته، بل وفي ميادينها الخاصة بها، إن ما بعد الحداثة تسعى بكل الوسائل المتاحة لها أن تتجاوز الحدود الجغرافية واللغوية والثقافية. للإجابة على التحديات والأخطار المحدقة لحركة التقنو-علميين، يتطلب الأمر منا تأسيس أخلاق ذات مرجعية من أجل استلزام إجراءات وتدابير نضفي عليها الشرعية خاصة منها السياسية، لتجنب المخاطر التي أصبحت تهدد ليس الإنسانية وحسب، بل جوهر كيانها.

¹ جون فرانسوا ماتي، أزمة المعنى، ناننت، منشورات سيسيل ديفولت، يونيو 2006.

بالنسبة للفيلسوف "هانس يوناس" هذا التحدي كان نقطة انطلاق لتأسيس أخلاق لحضارة التكنولوجية من طبيعة أخرى، وهو تحد يتميز بإعادة نظر جذرية، متحدية القيم الإيجابية للوجود وللحياة، خاصة منه الوجود الإنساني.

بدلاً من مؤاخذة التحديات التكنولوجية، أراد "هانس يوناس" أن يكتب على صفحات جديدة لأخلاق جديدة، تليق بالإنسان ومكانته في عصر هو: عصره التكنولوجي، إنه إنسان ما بعد الحداثة، والبداية فيها تكون بأبجديات التفكير، تكون فيه الانطلاقة من نقطة الصفر، من "ما قبل الأشياء" وإن شئنا نقول "ما قبل التفكير، ما قبل الوجود أو ما قبل الإنسان، إنه العدم؟ بالنسبة "هانس يوناس" لا يجب ترك فراغ أو مجالات تكون منفذاً لأفكار قد تغزوا مشروعه الأخلاقي، فمن الأفضل مواجهة تحديات العدمية لمعالجة أفضل للتحديات الأولى بالمقابل من التحديات التقنو-علمية المختلفة، هناك أسئلة مقلقة ومحرجة تطرح علينا:

- لماذا لا نعتبر في هذا العالم غياب الحياة والإنسانية؟؟
- من خول لنا اختيار الوجود والحياة؟ بدلاً من غيابهما؟؟
- أي حق نمتلك للإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب؟ بحكم انقضاء وموت كل شيء، هل هناك ما يدعو للوجود؟ ولماذا نتدمر أمام كل هذه المعاناة التي نعيشها في هذا العالم بسبب أنها تسلب منا كل ما يدعو للحياة؟

IV. 1 المبحث الأول: أساس مبدأ المسؤولية عند "هانس يوناس"

IV.1.1 نقد العدمية

لا شك أن الفيلسوف "هانس يوناس" يعترف بمكانة وقيمة أصوات العدميين التي تقول: "ما أدرانا أن وجود الإنسانية أفضل من عدم وجودها؟ أليس من الأحسن لها ألا تكون موجودة؟ أو ان لا شيء موجود كما كان يريد ويتناه " ميفيستو " لغوته"¹.

إنه سؤال أساسي يتردد منه صدى ميتافيزيقا "ليبنيتز" (Leibnitz) الذي تجدد في فلسفة "هايدجر": "لماذا هناك شيء بدلا من لا شيء؟"²

بالنسبة "ليوناس" لا مجال للتردد للإجابة عن الجزء الأول من السؤال، لأن الجزء الثاني منه لا يمثل شيئا، ويعطي كل معانيه للطرف الأول على حد تعبير "هايدجر".

وفي هذا الإطار تتحدد لنا المحاكمة على دعاة العدمية وأفكارهم، نقد يعني "نعم للموجود" و"لا الى "لا"، إنها محاولة لتأسيس ما يمكن أن نسميه "تأكيد أصلي" كما يقول "بول ريكور"³.

إن دحض العدمية عند "يوناس" لم تركز على المبادئ اللاهوتية، ولم تكن غير معقولة كما أشار اليها الفيلسوف "جلبرت هوتوا" وإنما هي دليل عقلاني كذلك"⁴، وينبغي علينا في هذا الصدد أن نشير أنه لكي يرد على طرق العدميين، يرفض "يوناس" اللجوء إلى الأساطير

¹ Johann. Von. Goethe, Le Faust, Trad., Henri Blaze, Paris, Charpentier, 1840.

² Gottfried W. Leibniz, Principe de la nature et de la grâce, GVI. P602, ou Supra, (2eme partie), p91.

³ Paul Ricœur, Histoire et Vérité, Paris, Seuil, Deuxième Edition, 1964, p336.

⁴ Gilbert Hottois, Une Analyse critique du néo-finalisme dans la philosophie de Hans Jonas, Nature et responsabilité, Paris, Vrin, 1993, pp17-36.

الفصل الرابع: البيوتكنولوجيا المعاصرة ومبدأ المسؤولية عند "هانس يوناس"

والقيم الدينية أو اللاهوتية، فهي تحتاج إلى أساس عقلائي وعلمي لأخلاقيات قوية لمواجهة التقنو-علمية التي لا يمكن تجاوزها في وقتنا الراهن، فهي أساسية وواسعة الانتشار. إن هذا الأساس العقلاني يجب أن يبعد كل دعوة للدين لتحديد المسؤولية التي يأمر بها الوجود وليس الآلهة، بالتأكيد الأسطورة ستكون لها كلمتها في هذا التجديد الأخلاقي.

" في مثل وضعنا للانفصال الكبير للميتافيزيقا، وقبل أن تجد كلمتها الخاصة، يجب علينا وفي كل الظروف أن نثق في هذه الوسيلة المعترف لها بعدم إخلاصها. الأسطورة حبذا لو أنها كانت تعي طبيعتها التجريبية المؤقتة ولا توضع كعقيدة، تستطيع منذ الضرورة التجريبية لهذا الفاصل أن تملأ الفراغ على شكل جسر عائم"¹.

يبدو "يوناس" مترددا من استخدام الأسطورة والقيم الدينية بأي طريقة كانت لتوضيح أخلاق المسؤولية، وعدم رغبة "يوناس" دعم أخلاق المسؤولية عنده لا يتوقف عند هذا الحد، فيقول في هذا الشأن: "يمكن للإيمان أن يوفر أساسا للأخلاق، ولكن هو في حد ذاته ليس متوفرا عند الطلب، حتى وإن وضعنا أقوى حجة للالتزام لا نستطيع أن نسترجع تلك التي كانت غائبة أو تم فقدان الثقة فيها"²... والقيم الدينية واللاهوتية لا يمكن لها أن تملئ علينا وصاياها غير المشروطة للمحافظة على الإنسانية أو "نعم أن تكون"³.

إن إحجام "يوناس" عن الأسس والحجج اللاهوتية لا يتم تحديده فقط على مستوى مبدأ المسؤولية، فهو بقي كذلك مترددا للحجج الدينية واللاهوتية للخلق، وفي نظره لا يجب ربط "الخير" لوجود العالم بالخلق الإلهي. إن وجود العالم له قيمته الخاصة به والمستقلة التي

¹ Hans Jonas, Le Phénomène de la vie vers une Biologie philosophique, Op.cit., p277.

² Hans Jonas. Le Principe Responsabilité, Op.cit. P72.

³ Hans Jonas. Le Principe Responsabilité, Idem. P75 .

تبدو للإله ذاته كسبب معقول وكاف لخلق العالم أو للحكم عليه بمجرد خلقه، وهو جدير أن يستمر بذلك.¹

يبدو أن "يوناس" قام بإعادة السؤال الذي طرحه "سقراط" من قبل، وهو: هل يكون الشيء جيدا لأن الآلهة أقرت ذلك، أم أن الآلهة تأمره لأنه جيد؟²

إن التحليل يدعم مثل هذا التفسير "ليوناس"، هذه القصة هي استمرار لعدة مراحل وهي:

يقول الله: ليكن هذا، ثم: وكان كذلك، وأخيرا: الحكم.

من كل ما سبق يبدو واضحا أن "يوناس" يرفض تأسيس نظرية المسؤولية على حجج دينية أو لاهوتية، علما أنه في كثير من الأحيان يعترف بمكانة الإيمان في المشروع الذي يرمي إلى تأسيسه؛ العقل لا يعارض الإيمان، الذي هو بحاجة إلى العقل، كما ورد في آخر صفحة من كتابه الشهير "من أجل أخلاق المستقبل": " هنا كذلك الإيمان يمكن أن يسبق، والعقل يتبع-بكل قواه-يأتي كمساعد بتفسيراته...بهذه المهمة الإيمانية نختم مقالتنا الأنطولوجية."³

فصلاح الخلق ليس نتيجة أن الله هو المؤلف، فالخير الذي أراده الله في فعل الدينونة لا يتماشى مع اللحظتين السابقتين والحكم، فليس هنالك عالم خير بالضرورة لأنه خلق من

¹ Jacques Dewitte, La Réfutation du nihilisme », in G. Hottos, Aux Fondements d'une éthique contemporaine, Hans Jonas, et H.T. Einghart, Paris, Vrin, 1993, p84.

² Hans Jonas, Le Principe Responsabilité. Op.cit P113.

³ Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Op.cit. P113.

طرف إله خير، إنه حكم اصطناعي بالمعنى "الكانطي" للمصطلح الذي يتبع بتقييم، ويتم التعبير عنه بطريقة لا يمكن التنبؤ بها وغير قابل للخصم ولكن كمفاجأة سعيدة. إن رد "يوناس" على العدميين يتطلب وضع مجال تمهيدي ينبثق من مسألة الغايات والقيم.

ونفضل هنا وجود غايات وقيم بدلا من غيابهما، والمجال التمهيدي هو سابق لكل مسؤولية، ويجب أن يكون موجودا دون قيد أو شرط، حيث يتم الحفاظ على هذه الإمكانية الأساسية مهما يحدث، والإنسانية ليست فقط جديرة أن نحافظ عليها، بل يجب أن تكون كذلك.

IV. 2.1 العدمية والفراغ الأخلاقي

الاعتقاد السائد اليوم هو أن أزمة الحداثة في المجتمعات المعاصرة ترتبط أساسا بعملية خيبة الأمل واللامركزية التي تميز العصرنة الاجتماعية، والضرر يعود أساسا إلى الحداثة التي تبدو وكأنها عملية علمانية تعرف على أنها انفصال جذري مع القيم المتعالية، أو ما يعرف عند "فرانسوا ليوتار": "نهاية القصص الكاملة"¹.

الصراعات التي عرفت القرن الوسطى بين الكنيسة البابوية والإمبراطورية، الإصلاحات البروتستانتية، عصر التنوير، والثورة التقنية وصلت إلى ما أصبح يعرف في الوقت الراهن على حد تعبير "نيتشه": "فقدان المركز"، أو بعبارة أخرى بانحلال التقاليد المشتركة والإيمان في نفس القيم.

حسب "نيتشه" الحداثة ليست قطيعة مع الماضي وحسب، بل هي في الأساس القضاء على جميع أشكال التقاليد، كما يعبر اليوم أحد أتباع المدرسة "النيتشوية المعاصرة" "أندري تاكياف"

¹ Hans Jonas, Le principe Responsabilité, Op.cit., p45

إن أكبر ما يفسد اليوم هو: الغريزة وإرادة التقليد؛ وأن كل المؤسسات التي تدين وجودها لهذه الغريزة فإنها تتعارض مع روح العصر.¹

الحدثة تبدو وكأنها مدمرة لكل نظام متسامي، لكل سلطة ولكل يقين، فهي بذلك عملية انحطاط وتدهور القيم التي كانت تضمن التماسك الاجتماعي، فالحدثة هي إذا عامل تفكيك اجتماعي يسري نحو الفوضى وعدم اليقين، وهي نفس الفكرة التي خلص إليها العالم الاجتماعي "ماكس فيبير" في دراساته حول "ظهور وتطور المجتمعات الحديثة"².

يرى "ماكس فيبير" أن العالم يفقد وحدته، والعالم الحديث العقلاني متعدد في جوهره، وتعدد القيم يجعل وحدة العالم أمرا صعبا بدعوى الاعتقاد أو العلم.³

ما بعد الحدثة أقلبت العلاقة الوطيدة التي كانت قائمة بين العقل والتاريخ، الفيلسوفة "حنة أرندت*" ترى أن ذلك ليس تفككا وإنما تعفن. "أزمة العلم بحجة عدم وجود أي مصدر للمعرفة، أزمة الفلسفة بمختلف مساراتها التي لا تؤدي إلى أي شيء، ونهاية الميتافيزيقا؛ أزمة الديانات التوحيدية، الفن، الاقتصاد وأزمة الثقافة"⁴، انتهت كلها نحو انزعاج وقلق الحدثة إلى حد الانهيار.

سؤال يطرح بعد كل هذه التحليلات حول "ما بعد الحدثة": إلى ماذا يعود هذا القلق؟

¹ Friedrich Nietzsche, Cité par Pierre André Taguieff, « le Paradigme traditionaliste : horreur de la modernité et antilibéralisme, Nietzsche dans la rhétorique réactionnaire, in pourquoi nous ne sommes pas Nietzscheens, Paris, Grasset et Fasquelle, 1991.

² Max Weber, L'Ethique protestante et l'esprit du capitalisme, Paris, Plon, 1964.

³ Max Weber, Idem, p225.

⁴ Hanna Arendt, La crise de la culture, Paris, Gallimard, 1972, p266.

بالنسبة " لنيتشه" يعود إلى فقدان المركز أو التعالي؛ إنسان ما بعد الحداثة يعيش الضياع في عالم منح لعباده "العجل الذهبي الحديث" فهو يستمتع دون إيمان أو قانون، إنه "كائن منغلق على ذاته، دون انفتاح على شيء آخر سوى ضعفه"¹.

اما بالنسبة "ماكس فيبر"، إنسان ما بعد الحداثة أصبح مركز اهتمامه هو نفسه ذاتها، وليس لديه أي دلالة أو إشارة غير نفسه، لا علاقة له بالله، والتحدي المتمثل في الحيادية ونهاية الميتافيزيقا، ومناهضة الحداثيين للأفلاطونية جعلت من "ما بعد الحداثة" إنسانا مستسلما لذاته، والانفتاح على غيره يتحدد فقط في عملية التواصل²، وهذه الأخيرة يبدو أنها تخاطر بفتح سياجها فقط، وبالتالي عدم ثقتها في أي أخلاق إجرائية.³

إن أول ضحية لكارثة العدمية لما بعد الحداثة هي: الأخلاق التي أصبحت فارغة بشكل متزايد، جاهدة نفسها من أجل العثور على أدنى أساس أو أدنى تعال لها.

في هذا الأساس يأتي الفيلسوف " هانس يوناس " ليطل علينا في محاولة يريد من خلالها تقديم أخلاق المسؤولية، كما يعتبرها أخلاقا جميلة وواعدة، ومعها يتم فقدان تلك النماذج المرجعية في بحر التعقيدات الحداثية بعد خيبة أمل العالم الذي حرمانا من البوصلات والأدوات والطرق والقيم الصالحة للاستخدام، حيث لم يعد هناك ملاذ أو غاية يراد بلوغها، يجب علينا إذا السباحة حتى النهاية.⁴

¹ جون فرانسوا ماتى. أزمة المعنى. مرجع سابق. ص 39.

² جون فرانسوا ماتى. أزمة المعنى. المرجع نفسه. ص 40.

³ جون فرانسوا ماتى. أزمة المعنى. المرجع نفسه. ص 41.

⁴ Franco Volpi, « Le paradigme perdu », in Aux fondements d'une éthique contemporaine, H. Jonas et H.T, Engelhardt, Paris, Vrin, 1993, p178.

الخلاصة تبدو واضحة المعالم وهي أن العدمية والتقنوعلمية التي تتبع الضرورة التقنية، تتعارض في الأساس مع الممارسة الرمزية لحرية الإنسان في إطار احترام النظام الطبيعي (وحتى الوجودي) في مواجهة هذه الضرورة، وما بعدها الضرورة "الكانطية" بمرجعياتها الأساسية وهي: العقل والإرادة الإنسانية، فهي تتطلب ضرورة أخرى تبنى على طبيعة الأشياء ذاتها، ولتأسيس هذه الضرورة تكون الميتافيزيقا ممرًا ضروريًا لأبد منه بعد هذا الرد على العدميين.

الفيلسوف "هانس يوناس" يرحب في هذا الأساس بهذا الوسيط بين الفراغ الميتافيزيقي والمعرفة التي لها وظيفة إنسانية وتاريخية.

IV. 3.1 الأساس الميتافيزيقي في المسؤولية اليونانية

إن أهم ما ميز الفلسفة المعاصرة هو سيطرة النموذج الحداثي الذي كانت انطلاقته مع النزعة الوضعية المادية التي امتدت آثارها إلى مجمل جوانب الحياة، وكانت "حلقة فيينا" ثم بعدها الوضعية المنطقية، وغيرهما من التوجهات الفلسفية والعلمية المعاصرة خاصة منها الفلسفة التحليلية، تبنت كلها هذا الاتجاه الذي يقوم أساسًا على الفصل بين القيمة والمعرفة، وأهم ما ميزها هو أنها ضحت بالأخلاق على مذبح المنطق، وتجاوزت الميتافيزيقا عن طريق تحليل منطق اللغة (رودولف كارناب)، فلم يمنع ذلك الفيلسوف "هانس يوناس" من اللجوء إلى "الميتافيزيقا" والأنطولوجيا، والإيمان بهما لتأسيس مشروع الأخلاقي، معبرًا عن ذلك "لتأسيس أخلاق المستقبل، أعترف أولاً بإيماني القوي بالميتافيزيقا"¹، خاصة وأن العلم نفسه مستمد من الميتافيزيقا.

¹ Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Op.cit., p78.

ليس هناك أدنى شك أن "يوناس" يعتبر أن هناك مجال تقاطع وارتباط بين الإلزامية والوصف، أي أن هناك جسر بين الميتافيزيقا والأخلاق، سيكون هذا الجسر أحد أسس أخلاقيات المستقبل.

في نظر "يوناس" مبدأ هذه الأخلاق المستقبلية " لا يوجد هو نفسه في الأخلاق ذاتها كمبدأ في العمل كما توجد كل الالتزامات المتعلقة بالأجيال في المستقبل، وإنما في الميتافيزيقا كإيمان للوجود، حيث يمثل الإنسان جانبا منها.¹

يبدو واضحا هنا أن الفيلسوف "هانس يوناس" يخالف تماما المشروع الهدام للميتافيزيقا الذي تبناه الفيلسوف "كانط*"، ويكون "يوناس" بذلك قد أعاد الى الواجهة قيمة الميتافيزيقا، وذلك على خطى "غامير" (Hans Georg Gadamer) الذي كان يردد مقولة "هيجل" الشهيرة: دون الميتافيزيقا شعب مثقف، يشبه معبدا مزخرفا دون قديسين²

مكانة الميتافيزيقا في فلسفة يوناس الأخلاقية تبدو أساسية، وذلك " عندما يقال لنا: لماذا الرجال يجب أن يكونوا؟؟ وفي نفس الوقت كيف يجب أن يكونوا؟"³، لذلك فإن العدمية بكل أشكالها لا يمكن قبولها إذا علمنا أن الميتافيزيقا هي التي تبرر ما نقبله "بنعم"، وما نعارضه "بلا للوجود".

هناك احتمال آخر يطرح وهو: "إمكانية عدم الوجود"، ولكن لو قررنا لصالح "الوجود" فهذا الحكم يعارض العدم. تسليمنا "بنعم للوجود" هو اعتراف بسبب للوجود، وهذا لا يعني أن العالم كما هو موجود سيكون جيدا، وأن الشر سيكون غائبا تماما، او لا معنى له، وهذا ما

¹ Hans Jonas, Le Principe Responsabilité Op.cit. P70.

² Hans Georg Gadamer, Herméneutique et philosophie, Paris, Beauchesne, 1999, p6.

³ Hans Jonas, Le Principe responsabilité, Ibidem, p70.

جعل الفيلسوف " جاك دويت" يقول: " إن احتمال وجود عالم به كل الخير وكل الشر الذي يحتوي أفضل من غيابه"¹، لعل ذلك سبب من أن يكون بدلا من ألا يكون.

لكن لماذا مثل هذا الاختيار بدلا من لا شيء؟ "نعم أن تكون" قد كان وبدأ في الوجود ذاته، "نعم" موجودة بالفعل في الحياة نفسها قبل ولادة الإنسان... "نعم" الذي هو "الإنسان" وهو امتداد لتأكيد قيمة الكائن الذي هو موجود في الكائن نفسه ويوجد في غاياته"²

لو نظرنا فيما قاله "يوناس أنفا، سيبدو لنا موقفه كرد فعل حيال التقدم العلمي والتكنولوجي المعاصر، حيث أراد أن يقيم أخلاق المستقبل على الضرورة، والأساس الميتافيزيقي يعد أحد دعائمها، والغاية من ذلك هو أن تصمد أمام الانتقادات التي ستزداد مع الوقت نتيجة التطور الكبير الذي ستعرفه البيوتكنولوجيا ومختلف العلوم مستقبلا.

IV. 4.1 المسلمة الأنطولوجية لمبدأ المسؤولية عند "هانس يوناس"

بالنسبة للفيلسوف "هانس يوناس" البديهية الأنطولوجية ما هي إلا أساسا من أسس أخلاق مبدأ المسؤولية، وعن طريقها يؤكد الكائن وجوده في غاياتها، وهي نهاية جديدة تفرض نفسها كواحد من أخلاق المستقبل، فهي بذلك (البديهية الأنطولوجية) كالأساس الميتافيزيقي الذي عن طريقه تم دحض كل أشكال العدمية، فالبديهية الأنطولوجية تفرض علينا أن ننجح في إثبات بطلان العدمية، وهو ما أراده "يوناس" من خلال هذا البعث الأنطولوجي، أن يثبت بدوره "غائية جديدة تم تأسيسها في الطبيعة، وهي غائية نتطلع إليها بالبداية وبطريقة قبلية،

¹ Jacques Dewitte, « La réfutation du nihilisme », in Aux Fondements d'une éthique contemporaine, Jonas, et H.T/Engelhardt, Paris, Vrin, 1993, p86.

² Serge-Christian Mboudou, L'Heuristique de la peur chez Hans Jonas, Paris, Harmattan, 2010, p100.

أو بعبارة أخرى: إنها غائيات ليست من صنع الذكاء الإنساني أو الإرادة الإنسانية، وإنما هي نتائج التطور الطبيعي للأشياء.

الخوض في البديهية الأنطولوجية يستوقفنا عند أمرين أساسيين وضروريين، لكن لكل منهما أساسه المنطقي الخاص به، ولكل منهما درجته ونسبته الخاصة به، وذلك على النحو التالي:

- يجب أن نأكل (معطى أول)

- لكي نأكل يجب أن نعمل (معطى ثان)

أما الأول: ونعني به ضرورة الأكل، فهو ذات قيمة أنطولوجية، لأن الضرورة تقضي أن الإنسان لا يوجد إلا بعملية التبادل المستمر للمادة مع وسطها أو بيئتها الخارجية، وهو ما يصطلح عليه في لغة البيولوجيين بعملية "الأيض" (التحول الغذائي).

بينما الثاني: ونعني به العمل الذي هو ضرورة لتحقيق الأكل، وتتحكم فيه عوامل خارجية مختلفة كالظروف الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والطبيعية وغيرها من الظروف الأخرى، فتصبح الضرورة هنا ظرفية تتحكم فيها عوامل أخرى كالثروة التي يمتلكها صاحبها (مادية أو معنوية)، وهذا ما نقول عنه الأساس الأنطولوجي¹

كذلك ما يثبت هذا الأساس الأنطولوجي منطقياً وتجريبياً هو قولنا "سقراط فان" هو حكم تم استخلاصه من حكم عام هو "كل إنسان فان"، وهي قاعدة يخضع لها كل من كان إنساناً، فالتجربة أثبتت لنا ذلك، أي أن الموت جزء من حياة الإنسان، وهنا يبدو الأساس الأنطولوجي كما يريده "يوناس"، أي وجود ظروف ومبررات أنطولوجية مؤسسة وموضحة للموت.

¹ Hans Jonas Pour une éthique du futur, Op.cit. P70-71.

إن أهم سؤال يعترضنا في فلسفة يوناس الأخلاقية هو: هل هناك تبرير أنطولوجي لمفهوم المسؤولية ومشروعية ضرورتها؟

جاء رد "يوناس" على هذا السؤال كالتالي: "...يعد ذلك رهانا لمعرفة هل يوجد منطقيا وسيلة تنقلنا من الوجود إلى الواجب، وبالتالي موضوعية أخلاقية يبقى أمرها دائما مطروحا كموضوع للنقاش"¹.

الكلام عن "الأساس الأنطولوجي" عند "يوناس" يستوقفنا لزوما عند المعلم الأول في هذا السياق وهو "هايدجر"؛ الأنطولوجيا عنده علم التحديات لكل ما هو موجود، والتساؤل عن العلاقات الممكنة بين الموجودات والنظر إليها من خلال معرفة قبلية وكمواضيع للتجربة، وهذا ما يجعلنا نقول: "إن «هايدجر» أراد تأسيس أنطولوجيا تقوم بالبحث عن حقيقة الوجود بدلا من البحث عن حقيقة الموجودات"².

هدف البديهية الأنطولوجية هو أنها تدعونا إلى ترك النظام الطبيعي يتبع مساره، فالطبيعة تحافظ على غايات في ذاتها ولأهداف معينة، وهذه الغايات يجب احترامها كما هي لأنها هي في ذاتها تمثل قيما... وتفرض نفسها على أنه يجب الحفاظ عليها وتطويرها.³ من أهم تجليات "المسؤولية اليونانية" هو أن الأساس الأنطولوجي يخص الإنسان وحده، فهو المخلوق الوحيد الذي يمكنه أن يتحمل المسؤولية، أي أنه يكون تحت أوامرها ومتطلباتها، فقدرتة على تحمل المسؤولية يترتب عنها "الواجب"، وجدارة الإنسان ذاتها تتوقف

¹ Hans Jonas, Pour une Ethique du futur, Op.cit. P75.

² Martin Heidegger, être et temps, Trad. Sabine Cornille et Philippe Ivernel, Rivage Poche, petite bibliothèque, Paris, 1997, pp 63—64.

³ Gibert Hottis, Une Analyse critique du néo-finalisme dans la philosophie de H. Jonas, in Laval Théologique et philosophique, Vol50, N°1, 1994, p97.

على الكفاءة الأنطولوجية له التي تجعله يختار بوعي، والتحرر من الاختيار في كل مرة تتطلب الضرورة لذلك، فتصبح المسؤولية مكملة للحرية، وهو ما يعبر عنه "يوناس" قائلا: " فلا أبالي إن وجد أحدهم يحملني الآن أو فيما بعد نتائج أفعالي، فالمسؤولية موجودة بوجود الله أو بعدم وجوده، أو إن شئت بوجود محكمة دنيوية أو عدم وجودها، إضافة إلى ذلك أن الأمر يتعلق بالمسؤولية عن شيء وأمام إلحاح الضمير¹.

البديهية الأنطولوجية عند "يوناس" تمثل حجر الزاوية لما يعتبره "البعث الأخلاقي"، فهو يهدف إلى منع الإنسان من المساس بإنسان آخر أيا كان، وأيا كانت الوسيلة المستخدمة، أو بعبارة أخرى؛ حتى محاولة تغيير النوع الإنساني عن طريق التكنولوجيات المتقاربة مهما كان نوعها، لأن حسب "يوناس": "الإنسان الحقيقي المنجز، موجود منذ مطلع البشرية"، وما عبر عنه الفيلسوف "جلبرت هوتوا" بصدد الكلام عن الغائية الجديدة قائلا: " الإنسان ليس في حالة انتظار انتاج أو ظهور طوباوي يكمله، لذلك الإنسانية لم تعد أساسا بحاجة إلى التطور، وإنما الأفراد وحدهم عليهم أن يتطوروا أثناء وجودهم من أجل تحقيق جوهر الإنسانية التي كانت دائما موجودة، والتي ليست تطويرية².

حتى ولو افترضنا أن هذه المسلمة لا يمكن قبولها، ولا يكون لها الحق في الوجود، ولو انقطع الإنسان عن الطبيعة والعقلية الأنطولوجية، ويطرح نفسه كمصدر لكل القيم ولكل الغايات، لكن إلى أي مدى يمكن التسليم بذلك؟ أليس الإنسان مسؤولا عن كل نتائج أفعاله وتصرفاته متى ألحق ضررا بالوجود؟؟ وعندها سيكون موضوع المسؤولية هو "وجود" ألحق به الضرر من طرف الإنسان، وهذا الأمر لا يكون له معنى أخلاقي إلا إذا كان لهذا الوجود ذاته

¹ Hans Jonas. Pour une éthique du futur, Op.cit. P77.

² Gilbert Hottois, Une analyse critique du néo-finalisme, Op.cit. p97.

قيمة، ويكون له حق على الإنسان¹، وبذلك يتجلى لنا الأساس الأنطولوجي في صورته الحقيقية وهو: أن الحرية وقيمة الوجود، ونجد بينهما " المسؤولية باعتبارها "وساطة أخلاقية" يشتركان فيها، على أن تبقى قدرة الإنسان هي التي ستحدد قيمتها نسبة الى الضرر الذي ستلحقه بالوجود.

البديهية الأنطولوجية تضع لنا قيمتين في هدف نهائي واحد وهما: قيمة في ذاتها، وقيمة متفوقة على الإنسانية.

أما القيمة الأولى: وهي التي تبين أن للإنسانية قيمة في ذاتها، وهي موضوعية، بمعنى: مستقلة عن تقييمها الذاتي الذي هو غالبا ما يكون نسبيا، وتقبلها الطبيعة التي هي في تطور منذ الأصل، وهي تحتل قمة هذا التطور الذي تجسد في الإنسانية كهدف أخلاقي أسمى.²

بينما الثانية: وفيها يجدر بنا أن ندرك في هذا المشروع الوجودي "...أن الإنسانية لها قيمة أعلى من كل موجود بفعل الطبيعة، وكل ما يمكن أن يوجد بسبب إبداع إنساني.³

"هانس يوناس" ذاته يلخص هذه القيم التي تتضمن بديهته الأنطولوجية قائلا: " ذلك يعني أن مجرد لامبالاة الكائن تجاه نفسه يصنع الفارق مع عدم وجود القيمة الأساسية لكل القيم"⁴، وبالتالي نكون قد وضعنا هذه البديهية الأنطولوجية كمشروع يتم تسجيله في آفاق

¹ Hans Jonas. Une éthique pour la nature, Op.cit. P 76.

² Gilbert Hottois, Une analyse critique du néo-finalisme, Op.cit, p97.

³ Gilbert Hottois, Une analyse critique du néo-finalisme, Idem. p97.

⁴ Hans Jonas, Le Principe Responsabilité, Op.cit. P117

المحافظة على الإنسانية " الطبيعية-الثقافية" المتضمنة في مفهوم الطبيعة على أنها أكملت تطورها النهائي في الإنسانية التي ترفض بذلك أي تدخل حول الإنسان أو نوع إنساني بأي طريقة كانت.

IV. 2 المبحث الثاني: مبدأ المسؤولية بين حدود المسؤولية الأبوية والمسؤولية السياسية

IV. 1.2 مبدأ المسؤولية عند "هانس يوناس"

تعد المسؤولية من أهم المبادئ التي تقوم عليها الحياة الإنسانية، وبها يتم تنظيم العلاقات بين الافراد، لذا تعد المسؤولية القانونية الأكثر تداولاً بين الناس، لكن الأصل في المسؤولية هي المسؤولية الأخلاقية التي هي نابعة من طبيعة الإنسان ذاته، وهي نابعة من قوة داخلية، هو الضمير الخلقى، فكل عمل يقوم به الإنسان يخضع لمعيار المسؤولية فهو حافز ذاتي لدى الفرد.

إن علماء النفس والتربية جعلوا اليوم من التربية على قيم المسؤولية والقيام بها أمراً يدخل في صميم الحياة الإنسانية.

كذلك علماء الدين والأخلاق يعتبرون المسؤولية مصلحة واحتراماً، وبها تستقيم حياة الإنسان،

إن المسؤولية الأخلاقية والقانونية تتجلبان في وضع الإنسان كفرد وجماعة، لذلك تعد المسؤولية في جميع صورها دافعا للحفاظ على الحياة الفردية أو الجماعية لأنها تحقق المصلحة للإثنين (الفرد أو الجماعة).

لقد كان اهتمام الفلاسفة والعلماء بموضوع المسؤولية كبيراً بوصفها وحي وواجب وفعل أخلاقي، فهي تأخذ أبعاداً مختلفة منها: بعداً أنطولوجياً وقيماً وفلسفياً. ومع تجدد مجالات الفلسفة ومنها الفلسفة التطبيقية التي جاءت مع تطور العلوم، أهل علينا الفيلسوف

الألماني "هانس يوناس" بفكر جديد تناول فيه مفهوم المسؤولية بكونها تأخذ بعدا ذاتيا وكونيا نتيجة ما آلت إليه التكنولوجيا المعاصرة من نتائج، وما ترتب عليها من آثار على الإنسان المعاصر بمختلف أبعادها الأنطولوجية، السياسية والأخلاقية.

في نظر "يوناس" المسؤولية ليست بالنظر الى ما تم من أفعال والحكم عليها، والمسؤولية الحقيقية لا معنى لها من دون منظور المستقبل، وذلك مهما كانت النتائج التي ستترتب عنها (إيجابا أو سلبا)، لأن ذلك سيحقق وقاية من وقوع الفعل والتبعية له.

لما كان الإنسان يطمح دائما نحو المستقبل فتكون تبعية الفعل للفاعل أمرا ضروريا، ومنه فالإنسان يمتلك مستقبلا هو مسؤول عنه، فكل إنسان مسؤول في حدود عمله، والشرط الأساسي للمسؤولية هو الوعي الذي سيصنع الفارق في المسؤولية من مجال لآخر، فمثلا مسؤولية الطبيب تنتهي مع علاج المريض وشفائه، ومسؤولية المهندس المعماري تنتهي مع تصميم مشروع البناء وانجازه، ومسؤولية الأستاذ تنتهي مع نهاية السنة ونجاح الطالب، ويتم ذلك كله بوعي كل واحد من هؤلاء على أداء عمله.

لكن ماذا لو نظرنا الى مولود جديد؟؟ فأول شعور ينتابنا هو أن لهذا الطفل مستقبلا حيا. ويصبح هنا هذا المستقبل جزءا من المسؤولية وأساسا لها، وخوفا على المسؤولية ذاتها، عكس ما رأيناه في الأمثلة السابقة، فالطبيب والأستاذ والمهندس بمجرد انتهاء مهمتهم يشعرون بالراحة، ويكون لديهم شعور بتمام مسؤولياتهم ولا يشعرون بأي خوف بعد ذلك.

بينما الأم التي لديها رضيع؛ يمكنها أن تمنع عنه الرضاعة الطبيعية في أي لحظة تريد ذلك، لكن بشرط أن تكفل له الطبيعة ذلك، لكن غريزة الأمومة والمسؤولية على رضيعها تبقى قائمة، أي استمرارية ممارسة المسؤولية نحو الطفل يجب ألا تنقطع.

إن المسؤولية اليونانية تكتسي وظيفة أخلاقية يجب أن يكون الشعور بها قائماً خاصة في ظل ما أفرزته التكنولوجيا المعاصرة من آثار على الحياة الإنسانية، وما أحدثته من قطيعة في العلاقة بين الإنسان والطبيعة.

الإنسانية تكون قادرة مستقبلاً بفضل هذه التكنولوجيا من إعادة ربط الوصال بين الإنسان والطبيعة، وفي الحالة المقابلة قد يحدث العكس وتتطم كل معاني الحياة الإنسانية.

-في نظر "هانس يوناس" أخلاق المسؤولية أصبحت ضرورة ملحة يفرضها الواقع الإنساني، لذلك فهو يدعو إلى النظر في تأثير العمل فيما يتعلق بإمكانية الحياة.

إن ما يصبو إليه "يوناس" من خلال فلسفته هذه الموسومة تحت "مبدأ المسؤولية" هو رغبته في البحث عن جوهر الوجود الإنساني الذي لم يلتفت إليه الفلاسفة في كلامهم عن المسؤولية وعن الأخلاق، فهذا الجوهر الإنساني لا يتم إلا في ضوء المسؤولية كمبدأ، وبه تتحدد اجتماعيته، وأساسيات معاني الحياة الاجتماعية تكون بالمسؤولية، فالحقوق والواجبات هي من صلب المسؤولية والإحساس بها.

إن أخلاق المسؤولية "اليونانية" تقوم أساساً على الوعي بالمسؤولية وحجمها، وبدائتها تكون من أول بيئة اجتماعية وهي الأسرة ثم في صورتها الواسعة الدولة، فلكل منهما دور في إنماء وعي مسؤول لدى الطفل بالنسبة للأسرة ولدى المواطن بالنسبة للدولة، فاستمرار المسؤولية لا ينقطع بلحظة ليصبح كنقطة رياضية يبدأ بها الشكل وينتهي مع آخر نقطة يتحدد بها نوع الشكل، أو مجموعة من النقاط لامتناهية لا توحى لنا بالغاية من رسمها.

إن المسؤولية تستمر، وفي كل لحظة يكون فيها الوعي بها، فالفرد أو المواطن في كل لحظة له شعور ووعي بوجوده، وبالمسؤولية الملقاة على عاتقه في تلك اللحظة التي تستمر

نحو المستقبل، ومعها يمتد الوعي بتلك المسؤولية، لكن بشرط أن يتبعها الشعور بالقدرة على تحملها، فظلا عن نوعها وحجمها وبها يكون الحكم على أن صاحبها (المسؤول) جدير بها.

IV. 2.2 من المسؤولية التقليدية إلى مبدأ المسؤولية عند "هانس يوناس"

يعد كتاب "مبدأ المسؤولية" أكثر الكتب تأثيرا ورواجا في أوساط "الإيكولوجيين الأنجلوساكسونيين"، فهو يضع المسؤولية كقيمة مركزية ضرورية لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها. لم يسبق لأي فيلسوف قبل "يوناس" أن اتخذ المسؤولية كمفهوم تأسيسي لفلسفته.

إن أول ما يلفت انتباهنا في عنوان هذا الكتاب "المسؤولية كمبدأ" هو الوضع الذي أعطاه يوناس للمسؤولية، فهي ليست فضيلة، وإنما هي أساس لأخلاق يريد "يوناس" تأسيسها لوضع جديد لم تألفه من قبل، أو بتعبير آخر: أخلاق جديدة لوضع جديد، لمجتمع جديد.

أول ما يلاحظ في مؤلف "يوناس" هذا هو قلقه مما يعتبره نهاية العالم، والحياة على الأرض أصبحت في خطر من مناحي مختلفة، وإذا لم نقم بشيء فإنها ستزول، ومثل هذه الاعتبارات تبين لنا مدى اطلاع "يوناس" بالموضوع وإدراكه لخطورة الوضع.

لو أننا افترضنا صحة ما يريده "يوناس" لإنقاذ العالم من هذه النهاية المأسوية فهو يقترح علينا إحساسا بالمسؤولية ووعيا قويا عن طريق استرشاد الخوف.

تعد المسؤولية اليونانية متميزة عن سابقتها، فإذا كان "ماكس فيبر" في كلامه عن

الأخلاق قسمها إلى نوعين:

أما الأولى: فيعرفها بالأخلاق التأملية العقائدية؛ وأساسها الدين والإيديولوجيا.

بينما الثانية: يعرفها بأخلاق المسؤولية؛ وهي التي تصدر عن الذات الفردية وقوامها الوعي الحر، ويكون فيها الفرد مسؤولا عن النتائج المترتبة عن أفعاله.

في حين الفيلسوف الفرنسي "ايمانويل ليفيناس" نجده يمجّد الحضور الكلي أو الوجود في كل مكان بالنسبة إلى أجيال الحاضر، والمسؤولية بالنسبة إليه تكون موجهة نحو الغير¹، وهي مسؤولية آنية (مجالها الحاضر فقط).²

إلا أن "يوناس" أعطى للمسؤولية امتداداً زمنياً مستقبلياً، فهو يجمع بين الحاضر والمستقبل مما يعطي المسؤولية اليونانية أكثر قوة، فهي تعطي صاحبها شعوراً بالوجود وبالفعل، وهو ما يصطلح عليه بالمعرفة الاستكشافية، ولعل هذه هي نقطة الارتكاز التي كانت تنقص معنى المسؤولية عند "ليفيناس"، فالمسؤولية عند "يوناس" تؤسس للمستقبل، إنها تعمل لصالح أجيال المستقبل.

من جهة أخرى أحد أقطاب مدرسة "فرانكفورت الثانية"، وصاحب النظرية التواصلية "يروغان هابرماس"³ أراد تأسيس فكرة جديدة وهي "أخلاق فلسفية" بدلاً مما كان سائداً من قبل ولوقت طويل، أو ما كان يعرف بأخلاق الحكمة والبصيرة. وأخلاق "هابرماس الجديدة تقوم على قابلية الارتداد التام قد تنتج عنها إجراءات مبررة.

إن الكلام عن المسؤولية عموماً والمسؤولية "اليونانية" خصوصاً يجعلنا نتكلم لزوماً عن أحد أقطاب الفلسفة المعاصرة، وهو الفيلسوف الفرنسي "بول ريكور".

لقد وضع "ب. ريكور" ثلاثية هي: القدرات، الأضرار والمسؤولية، يمكن ربطها على النحو التالي: إن سيطرة القدرات التقنية بطريقة لا مسؤولة يترتب عنها ضرر، ولتفادي ذلك وجب على الإنسان الاسترشاد بمبدأ المسؤولية، إن هذه الثلاثية تؤكد مبدأ المسؤولية عند

¹ هناك اتفاق بين "يوناس" و"ليفيناس" حول الآخر (الغير). إلا أن الاختلاف يكمن في العنصر الزمني.

² Emmanuel Levinas, Le temps et l'autre, P.U.F. Collection quadrige, Paris, 1993, pp 91-92.

³ يروغان هابرماس، "مستقبل الطبيعة الإنسانية، نحو نسالة جديدة"، اشتغل بآثار التطبيقات التقنية وآثارها على الأجيال المقبلة في ظل النسالة.

"يوناس" الذي يرى أن الفكرة السائدة في المجتمع الإنساني هي أن المسؤولية تقوم على مبدأ التعويض كما هو الحال في المسؤولية المدنية التي تحقق مبدأ العدل والإنصاف.

هنا تتجلى لنا المسؤولية اليونانية، فهي تقوم على كيان إنساني كامل أساسه الشعور بالمسؤولية لتأسيس أخلاق على حد تعبير "ريكور": "إن موضوع المسؤولية عنده يختص بكل ما هو ضعيف وسريع التأثير في الوجود."¹

"بينما "يوناس" يؤكد تصويره هذا في كتابه الشهير " مبدأ المسؤولية" حيث يقول: "إننا نكون مسؤولين عن كل ما هو قابل للتغيير والتحول، وكل ما هو مهدد بالتلف والزوال."²

تبدو أخلاق "يوناس" أخلاقاً متميزة فهي تقوم على الحذر، والخوف، الوقاية والحماية، وهي تتعلق بالإنسان ومصيره ككل، بما أن المسألة ترتبط بالبيئة عموماً، والبيئة البيولوجية خصوصاً في حدود موضوعنا هذا، فهي أخلاق إنسان وأخلاق وجود وأخلاق مستقبل.

إن المسؤولية اليونانية يمكن تحديدها في تصورين، وبهما تتحدد الأخلاق التي يريد فيلسوفنا تأسيسها كما سبق وأن أشرنا إليه من قبل؛ إنها أخلاق المستقبل، لذلك بداية الكلام تكون عن " المسؤولية المستقبلية"، وفهمها لا يكون إلا بالتمييز بين مفهومي: المسؤولية الارتجاعية والمسؤولية المستقبلية:

- **أما الأولى (مسؤولية ارتجاعية)** فهي تجسد الأخلاق التقليدية، وأبرزها الأخلاق "الكانطية" التي تمتاز بالصرامة، وهي تقوم على أسس قوية، كالحرية والواجب، إلا أنها أخلاق تقوم على أفعال الماضي وإلى أبعد حد لا تتجاوز الحاضر.

¹ Paul Ricœur. Le concept de responsabilité, Essais d'analyse scientifique, Esprit, 1994, p28.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. p174.

- **بينما الثانية:** (مسؤولية مستقبلية) فهي تتجه نحو المستقبل، وترتبط بالأضرار التي ستلحق بالإنسان مستقبلاً، لأنها ستهدد كيانه ووجوده مستقبلاً، فمسؤولية الأجيال الحاضرة هي بناء أرضية صالحة وقوية لأجيل المستقبل، وتحقيق هذه المطالب يتطلب وعياً كبيراً لقرارنا وأفعالنا، وهو استشراف مستقبلي، يسمح لنا بالانتباه بنتائج أفعالنا الحاضرة في المستقبل.
- إن هذه الأخلاق "اليونانية" كما يبدو لنا، ليست كما يعتقد الكثير من الناس أن واجب الأجيال الحاضرة هو تهيئة الحاضر من أجل المستقبل، كمثال الأبوين اللذان يهيئان أبناءهما للمستقبل، أو كما يعتقد رجل السياسة (الحاكم أو المشرع) أنه يجب تحظير المواطن وتهيئته للمستقبل، وإنما يريد منا "يوناس" أن تكون الأخلاق موجهة قصد جعل القرارات الحاضرة حكيمة.¹ مع توجيه الأفعال الحاضرة لأجل الأجيال المقبلة، فهي مسؤولية وقائية للإنسان وللبيئة معاً.

الكلام عن المسؤولية اليونانية يعود بنا إلى بعض المبادئ التي تحدد طبيعة العلاقات الإنسانية، ونخص بذلك الحقوق والواجبات، فأخلاق المستقبل لا تقوم على هذه الثنائية المتبادلة بين الحق والواجب، أخلاق المستقبل تستثني الحقوق، أي لا وجود لحقوق مستقبلاً، وبالتالي العلاقة ليست متبادلة، بمعنى أن الفيلسوف "هانس يوناس" سيشرح لنا أخلاقاً جديدة تقوم على الواجب في الحاضر وفي المستقبل، فكل جيل سيكون له شعور بالواجب نحو أجيال مقبلة دون أن ينتظر أي حقوق بالمقابل، وأحسن صورة لذلك مسؤولية الأستاذ تجاه تلامذته، فهو مسؤول عنهم في حين التلميذ ليس لديه أي مسؤولية نحو أستاذه مستقبلاً، وكذلك الطبيب نحو مريضه، والآباء نحو أبنائهم، ورجل الدولة (الحاكم) نحو رعيته.

¹ Marie Geneviève Pinsart, Hans Jonas et la liberté, Dimensions théologiques, ontologiques, éthique et politique, Vrin, 2002, p167.

IV. 2.3 حدود المسؤولية الأبوية عند "هانس يوناس"

المسؤولية الأبوية هي "النموذج الأصلي" بامتياز للمسؤولية التي يتطلع إليها "يوناس"، إنها مسؤولية أوجدتها الطبيعة، فهي لا تخضع لأي شرط قبلي على حد تعبير يوناس "المسؤولية الأبوية التي لا ترتبط بأي اتفاق مسبق، ولكن الطبيعة جذرتها فينا بشدة"¹، فهي تفرض نفسها بقوة وهي مطلقة، " وهي النموذج الأصلي والأبدي لكل مسؤولية"²، إنها تتعلق بالطبيعة البيولوجية للمولود، وهي تقوم أساسا على تلبية حاجياته البيولوجية وتمتد هذه المسؤولية تواليا، لترتبط بالجانب التربوي والنفسي والروحي وكذلك الجانب السلوكي، ويكون للأبوين دور كبير في تحقيق هذه المطالب المتنوعة.

لكن ما يهمننا في المسؤولية الأبوية عند "يوناس" هو أنها تقوم على القطيعة مع المسؤولية التقليدية التي تسعى الى كبح الأزمة والفراغ اللذان سببتهما الهندسة الوراثية في الوقت الراهن، فالمسؤولية التقليدية هي من طبيعة أنطولوجية، فأن تكون طفلا مولودا يفرض التزاما غير مشروط لضمان بقائه، فالوجود (dasein) بالمفهوم "الهيديجري" لموجود بسيط يفرض بصورة تلقائية ودائمة واجبا من الغير، " مفهوم المسؤولية يعني واجب البداية، وواجب الوجود لشيء ما، ثم بعد ذلك واجب الفعل لأحد كإجابة لواجب الوجود هذا."³

المسؤولية في هذه الحالة تكون منذ اللحظة التي يوجد فيها الطفل، ولا تلحق بأي معنى لتعاقد أو مطالب حرة خاصة من طرف الأبوين، ورغم وجود رغبة مشتركة بين الزوجين، واختيار الفترة التي يتم فيها الإنجاب، لكن ذلك كله لا يعني تعاقدًا ولا اتفاقًا لاحقا عندما يولد

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P186.

² Hans Jonas. Le principe responsabilité, Idem, p193.

³ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P180.

المولود، فبمجرد ولادة الطفل يترتب واجب رعاية المولود والحفاظ على حياته من كل الجوانب، وهو ما جعل "يوناس" يعتبر أن الأمر يتعلق برابطة من الدرجة الأولى، يدفع بمسؤولية تخصصنا دون أن نختارها نحن.

إن وجود الرضيع يتطلب مسؤولية أبوية بطريقة آلية، فبمجرد وجوده يصبح الأبوان مسؤولين عليه دون نقاش أو جدل... "أقول لا يدحض وليس لا يقاوم ... لأنه من الطبيعي أن لا تكون مقاومة قوة، كما هو الشأن لأي شيء آخر، قد أبادي أذنا صماء لندائه ... أو كذلك الإهمال الذي قد يلحق بالمولود... لكن ذلك كله لا يغير شيئاً للخصائص التي لا جدال فيها لهذا الأمر الزجري أو وضوحه الفوري..."¹

إن مفهوم المسؤولية بالطريقة "اليونانية" ليس هو في حد ذاته إبداعاً، فمثال المولود الصغير يجعلنا نفهم أن المسؤولية تجاه الطفل هي واجب لا يقاوم...² ويبدو ذلك أمراً مفروغاً منه بالنسبة للجميع، فبدون الغير الرضيع ليست لديه القدرة على الحياة. إن استعمال "يوناس" لهذه الحقيقة لتوضيح مبدأ المسؤولية لم يكن من مجرد الصدفة، لأنها المسؤولية الأكثر طلباً من بين المسؤوليات الأخرى. وهي الأكثر شمولاً، لذلك يعبر عنها "يوناس" قائلاً: "... إنها النموذج الأصلي لكل مسؤولية"³، أو المسؤولية الطبيعية، وبما أنها متميزة على كل مسؤولية أخرى فهي مطلقة.

فالأبوان مسؤولان عن صغيرها حتى سن البلوغ، بل وحتى بعد هذه المرحلة، لأن الأمر يتعلق بنسلهما، لذا يبدو الاهتمام به ورعايته قوام حياتهما، فمنذ اللحظة التي يكون فيها

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P181.

² Hans Jonas. Le principe responsabilité, Idem., pp 250-253.

³ Hans Jonas, Le principe responsabilité. Idem. P250.

المولود في بطن أمه، تلقى المسؤولية على عاتقها، فلو امتنعت الأم عن الأكل يموت الجنين في بطنها، وبعد الولادة مباشرة يصبح تابعا كلية للذين سيعتنون برعايته، إنه يتبع لمسؤولية الأبوين، فهذه المسؤولية تبدو بطريقة آلية، دون أن يكون لأحد أن يبررها بمعنى "... ان الذي يضع أموالا على طاولة القمار فهو يراهن ثروته بحماقة، ففي حالة مالم تكن تلك الثروة ملكا له، فهو يقوم بذلك (القمار) بطريقة إجرامية، أما إذا كان رب أسرة، ففعلته هذه تعد غير مسؤولة، حتى ولو كانت أمواله الخاصة التي يخسرها أو يربحها... إن هذا المثال يعني: أن الذي عليه مسؤوليات قد يتصرف بطريقة غير مسؤولة...¹، أو بعبارة أخرى لسنا نحن الذين نختار هذه المسؤولية، وإنما هي التي تختارنا، فحجة "يوناس" هذه تبدو إلى غاية اللحظة دامغة، لكن ما يبدو متميزا في المسؤولية اليونانية ليست الطريقة التي يعرضها بها، وإنما القوة التي يقدمها بها، ففي نظره المسؤولية تجاه المولود الجديد توجد حتى بدون قوة الغريزة والعواطف "... النموذج الأصلي لكل مسؤولية هو الذي يكون من الإنسان تجاه الإنسان... إن علاقة المسؤولية مدونة بكل تأكيد في طبيعة الأشياء"². وبهذه الكيفية التي يقدم بها "يوناس" المسؤولية فإنها تبدو مسؤولية فطرية، فهي ليست مجرد مسؤولية للحفاظ على البناء وضمأن الحياة وإنما هي سبب الوجود.

إن المسؤولية تجاه المولود لا تحتاج إلى إشارات إنذار للمطالبة بانتباهنا أو حضورنا، وإنما تفرض نفسها بنفسها، لأنها سبب وجودها، فهناك فرق بين مسؤوليتنا تجاه أبنائنا

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité. Op.cit, pp 183-184.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P193.

الفصل الرابع: البيوتكنولوجيا المعاصرة ومبدأ المسؤولية عند "هانس يوناس"

ومسؤولياتنا الأخرى، فنحن نعرف بطريقة حدسية جوهر المسؤولية، وبدونها لا يوجد الإنسان، وبعبارة أخرى نقول: الرضيع هو الأصل التاريخي للمسؤولية.

إذا كان النموذج الأصلي للمولود يطلعنا بكل بساطة عن المسؤولية اليونانية كونها فطرية، لكن "يوناس" لم يتوقف عند هذا الحد، لأن درجة المسؤولية تكون حسب الحالة التي يكون عليها صاحبها، فالطفل الصغير (المولود) هو كائن، ونحن نقوم الآن بإعادة تقييم أهمية المسؤولية، ولا يعني ذلك أننا نعيد تعريفها إنما فقط إعادة اكتشافها.¹

إن النموذج الأصلي للمولود يطلعنا أنه كائن ضعيف وهش، فهو يوقظ فينا معنى المسؤولية. ماذا لو أردنا في لحظة من اللحظات عدم الاستجابة لهذا الواجب، ومثال "يوناس" في ذلك هو "رضيع مهجور؛" فذلك لا يلغي المسؤولية عن صاحبها تجاه هذا الطفل "... فالمولود الجديد، مجرد التنفس الأول عنده يبعث بعبارة " يجب علينا"، لا يمكن دحضه، فيجب أن نعتي به وأقول (يوناس) لا يدحض.

ماذا لو انتقلنا إلى الكلام عن أشخاص بالغين، أو أشخاص لم يولدوا بعد؟ فما هو الشعور الذي يدفعنا لتقديم المساعدة لأشخاص لا نعرفهم أو غرباء عنا؟

للإجابة عن هذا السؤال يقول "يوناس": "... لسنا فقط مسؤولين عن أفعالنا وعن الآثار المترتبة عنها، وإنما نحن مسؤولون عن الشيء الذي يطلب فعلنا، سواء كان هذا الشيء معروفاً أو مجهولاً، المهم أننا نمتلكه... وجزء من هذا الشعور في أصله الأول، وليس في فكرة المسؤولية عموماً، وإنما في الاعتراف بالطيبة واللفظ الجوهري للشيء الذي يذل أنانية السلطة.²

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P25.

² Hans Jonas. Le principe responsabilité, Idem. P25.

فهناك شعور بشيء يجب حمايته هو الذي يجعلنا مسؤولين، وما يفسر ذلك نحو أبنائنا هو حبنا لهم، فهذا ما يميز كل فعل مسؤول نقوم به، لعل ذلك ما يفسر أن مسؤولياتنا نحو أبنائنا أقوى منها نحو الآخرين، "...فطلب الشيء من جهة بصفة غير مضمونة لوجوده، والشعور بالسلطة من جهة أخرى مع المسؤولية وأسبابها، تتوحد في الشعور بالمسؤولية الإيجابية للذات الفاعلة التي تتدخل دائماً في ذات الأشياء، وإذا أضيف الحب إلى ذلك، تتلقى المسؤولية زخم الإخلاص من الشخص الذي يرتجف من أجل مصير ما هو موجود وما هو محبوب.¹

لكي يوضح لنا قوة موقفه حول المسؤولية الأبوية يضع أمامنا "هانس يوناس" مقارنة بين نوعين من المسؤوليات وهما: المسؤولية الطبيعية والمسؤولية التعاقدية. مبدئياً الإنسان كائن مسؤول بالنسبة للفيلسوف "يوناس" "... فأى مسؤولية هي جزء لا يتجزأ من ذات الإنسان الذي يكون باستطاعته أن يكون مسؤولاً بالفعل بما أنه كائن قادر على الكلام فذلك إذا يجب أن يدمج في تعريفه...² بالنسبة "ليوناس" المسؤوليات ليست كلها متشابهة، فحسب رأيه هناك مسؤوليات غير مشروطة أقل من أخرى، وهذا ما حدده من خلال المقارنة بين المسؤولية الطبيعية والمسؤولية التعاقدية:

² Hans Jonas, Le principe responsabilité. Op.cit. P194.

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P183.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem, P194.

أما المسؤولية الطبيعية: فهي التي تختارنا، وهي مسؤولية عامة، مسؤولية عمودية، مسؤولية دائمة، مسؤولية غير مشروطة، مسؤولية لا يمكن إلغاؤها أو التراجع عنها، مسؤولية لها كموضوع شيء أو جسم جسدي.

بينما المسؤولية التعاقدية: نحن الذين نختارها، مسؤولية خاصة، مسؤولية أفقية، مسؤولية ظرفية، مسؤولية غير مشروطة أحيانا (لكنها قد تكون مشروطة في حالات أخرى)، مسؤولية يمكن سحبها، مسؤولية لها كموضوع شيء أو جسم جسدي أو غير موجود (كالأجيال المقبلة).

وبالرجوع إلى صلب الموضوع، المسؤولية الطبيعية كالتالي بالنسبة للآباء نحو أبنائهم حتى ولو لم نختار أن نكون آباء، فالمسؤولية هي التي تختارنا، فالمولود يتبع للوالدين بالضرورة فكل ما يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار يجب أن يتم كما هو دون أي نقص، الأبوان مسؤولان عن صغيرهما مسؤولية كلية حتى وفاتهما، أو وفاته هو، الأبوان مسؤولان عن الولد في كل وقت وليس عند الحاجة إليهما، وهذا ما يعني أنها مسؤولية عمودية.

أما كونها دائمة غير قابلة للإلغاء، لأنه حتى في حالة تنازل الأبوين عنها تبقى المسؤولية قائمة على عاتقهما، بل وحتى في حالة الهروب عن تحمل المسؤولية. وأما كونها مسؤولية غير مشروطة، لأنه لا ينتظر منها أي شيء بالمقابل، بينما موضوعها المتمثل في الجسم الجسدي فهو الطفل (المولود).

بالمقابل من ذلك يعتبر "هانس يوناس" المسؤولية التعاقدية مسؤولية اصطناعية¹، فهي تفترض أساسا تقاهما بين طرفين، فمثلا؛ الطبيب يأخذ على عاتقه مريضه في ظرف زمني محدود من حياته وهو الفترة المرضية، فهو يتحمل كل مسؤولياته إزاء قراراته الخاصة وما

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P186.

الفصل الرابع: البيوتكنولوجيا المعاصرة ومبدأ المسؤولية عند "هانس يوناس"

يترتب عليها من آثار في مجاله الصحي، وليس مسؤولاً عن باقي ميادين حياته الأخرى، وهنا تصبح مسؤولية الطبيب خاصة ومحددة.

بينما كونها أفقية لأن الطبيب في كل مرحلة مسؤول عن تلك الحالة الصحية فقط، فهي بذلك ظرفية. كما أنها مسؤولية مشروطة، لأن الطبيب ينتظر بالمقابل علاوة على أدائه. هذه المسؤولية يمكن التنازل عنها، كأن يتنازل الطبيب عن مريضه لطبيب آخر مختص وأكثر كفاءة ودراية ومعرفة بالمرض.

وأخيراً تتخذ هذه المسؤولية كموضوع شيئاً (جسم) كالمريض، أو أشياء غير موجودة كالأجيال المقبلة.

ما يمكن استخلاصه من هذين النوعين من المسؤولية هو:

إن المسؤولية الطبيعية أكثر نقاوة وصفاء، فمسئوليتنا تجاه أطفالنا هي شعور خالص في نواتنا، لا نحتاج إلى طلبه، لأنه سيعمل على حماية شيء أساسي في الحياة، هو الحياة ذاتها.

ما يخلص إليه هنا فيلسوفنا "يوناس" يؤيد الفكرة القائلة إن المسؤوليات ليست كلها غير مشروطة وأحياناً متفاوتة، لكنها تؤيد نفس الشيء غير المشروط وهو: أن نثق في الحياة معاً، أو بعبارة أخرى حتى وإن كانت كل المسؤوليات، فلها كلها الحق في الوجود، إنها نفس المسؤولية وهي غير مشروطة، إنها بقاء البشرية ... هناك نظام أولى يوجد في نظام عمل سلطتنا وعلى وجه الخصوص متى يوجد نشاطنا، هو بالفعل يلقي بمسئوليتنا دون اختيار، ولا يقبل أن نتخلى عنها.¹

¹ Hans Jonas .Le principe responsabilité, Op.cit. P188.

لقد انتهى "يوناس" إلى أن الطفل يمثل التعبير الواضح لصورة لا تقبل جدلاً للمسؤولية الإنسانية في عصر التقنو-علمية، في مقابل تهديدات إعادة تشكيل الكائن، خاصة الكائن الإنساني الذي أصبح أداة لكل أشكال التكنولوجيات المتقاربة بهدف تطويره.

القراءة الأولية للمسؤولية اليونانية في ظل المسؤولية الأبوية تبدو غامضة إذا ما علمنا أنها غير مشروطة نسبة إلى غيرها من المسؤوليات الأخرى بسبب أنها تقودها عواطف قوية، فيصعب علينا تتبع هذا المسار في المسؤولية الطبيعية والتعاقدية، فيوناس "وجد صعوبة لإحداث قطيعة بينهما، حيث بين في أمثلة كيف تتداخل المسؤوليتان الطبيعية والتعاقدية، وهنا يشير "يوناس" إلى رئيس الدولة (رجل السلطة) الذي رغم مسؤولياته التعاقدية، يختار مسؤولية شاملة، عمودية وغير مشروطة.

2.4.IV حدود المسؤولية السياسية عند "هانس يوناس"

إن الكلام عن المسؤولية السياسية يعني تحديداً مسؤولية رجل الدولة، وفي نظر "يوناس" تمثل هذه المسؤولية قمة النموذج الأصلي " ...الواجب الجديد يتجه أكثر فأكثر للسياسة العامة منه إلى السلوك الفردي الخاص...¹

الدافع الذي جعل "يوناس" يربط بين المسؤولية الأبوية والمسؤولية السياسية هو أن رجل السياسة يجب أن يتصف بصفات النزاهة والاستقامة والتفاني وسمو النفس، وهي التي تجعل منه قدوة، فتكون مسؤوليته تامة، وهي نفسها صفات المسؤولية الأبوية كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك.

إن تاريخ الحياة السياسية التي مر بها الفيلسوف "هانس يوناس" جعلت منه إنساناً يئس من الإنسان ومن السياسة، بداية من أصوله اليهودية المنبوذة في أوروبا، ثم بعد ذلك من

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P 141.

أستاذه الذي يكن له بنعمته عليه، وهو "مارتن هايدجر" الذي انخرط في الحزب النازي طيلة الحرب العالمية الثانية، ثم بعد ذلك لجوؤه إلى فلسطين كمنخرط في الجيش الصهيوني، وبعدها لجوؤه إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث استقر بها.

فكل ذلك لم يدفع "يوناس" إلى اتخاذ موقف عدائي من السياسة بل عكس ذلك ارتبط بها ليصبح انطلاقا منها متراسا ضد اليوتوبيا التكنولوجية.

رغم التباين الواضح بين المسؤولية الأبوية والسياسة، "يوناس" يقترح علينا مسؤولية سياسية أكثر تأثيرا وأعلى من سابقتها.

المسؤولية السياسية يتم اختيارها بحرية من طرف رجل السياسة عن طريق اختيار نهج في الحياة، أو قبول موقف يعبر من خلاله رجل السياسة عن قوته أو تمكنه من الأمر. فمذ اللحظة التي يختار فيها رجل السياسة أو يقرر استلام السلطة، تصبح المسؤولية كلية، مثلما هو في المسؤولية الأبوية "... فهذه المسؤوليات (الأبوية أو ورجل السلطة)، تغلف كائنها الكلي لأشياءها، بمعنى كل الجوانب، ابتداء من أبسط وجود إلى أعلى المصالح...¹، وفي الحاليتين: المسؤولية تكون كلية ومتواصلة... وهكذا عنصر طبيعي "... هل هو كذلك متواصل، محتوى داخل المصالح والوظائف التي أوجدها الإنسان اصطناعيا، فبعدها ينفصل الإخوة والمواطنون عن الجماعة، يتحمل كل واحد مسؤولية شبيهة بمسؤولية الأب.²

رجل السلطة يشبه الأب، يكون مسؤولا على كل المواطنين ومتطلباتهم المادية والثقافية، فرجل السياسة يمتلك السلطة والمعرفة التي تسمح له أن يتخذ اختيارا باسمهم دون موافقتهم أو استشارتهم، فهو يعلم جيدا حالة البلد ومتطلباته، وهو يمتلك مع ذلك السلطة،

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. p200.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P205.

فيصبح من واجبه حماية الأفراد مما لا يعرفونه، فرجل السياسة ورب العائلة يعرفان ما هو خير، ويعملان كل ما في وسعهما وبما تخوله لهما السلطة التي يمتلكانها للعمل في مصلحة رعيتهما.

رغم هذا التماثل والارتباط بين المسؤوليتين السياسية والأبوية، إلا أن هناك ثمة اختلافات تحدث بينهما تباينا واختلافا واضحا.

فإذا كان رجل السلطة يقرر أخذ المواطنين تحت تصرفه، لكن ذلك يكون في ظرف زمني محدود، بمعنى خلال فترة حكمه فقط سواء طال أو قصرت تلك الفترة الزمنية. وهو لا يحاسب على فترات سابقة، أو فترات ما بعد حكمه.

إضافة إلى ذلك رجل السياسة لا ينجب مواطنيه "... فرجل السلطة بالرغم من صفة اقراره للأفعال، فهو ليس الخالق الأول، فهو نفسه من خلق الجماعة، وإنما يأخذ زمام الأمور بيده فقط، فليس عليه أي واجب على ما تم، وإنما على ما سيقوم به... فالمعاصرون الذين هم وكلاء مباشرون لاستمرارية الميراث نحو مستقبل غير محدد."¹

"يوناس" يؤكد في كل مرة أن مسؤولية رجل الدولة هي المسؤولية الأقرب من المسؤولية الأبوية، " فلا المسؤولية الأبوية أو السياسية تسمحان لنفسهما أخذ عطلة، لأن حياة الكائن في تواصل ودون انقطاع في إعادة انشاء طلباته من لحظة لأخرى."²

رجل الدولة يكون مسؤولا على مواطنيه في كل وقت، فهو مسؤول على حمايتهم، على محيطهم، وعلى حياتهم مادام موجودا على رأس السلطة. كما أنه مسؤول عن اختياراته في

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P207.

² Hans Jonas. Le principe responsabilité, Idem, P201.

الحاضر والمستقبل، أما بالنسبة للأخطاء السابقة التي لم يكن مسؤولاً عنها فيجب عليه إصلاحها، وهو بذلك مسؤول على إصلاحها في الحاضر والمستقبل.

يذهب يوناس إلى أبعد من ذلك، ويعتبر أن رجل الدولة مسؤول على الأجيال المقبلة التي لم تنتخبه.

ودائماً حسب "يوناس" رجل الدولة المعاصر يتدخل خاصة في مجال التربية (التعليم)، ويأخذ في كل مرة مكانة في المجال الخاص.

" وهكذا فمجال التعليم يبين بالطريقة الأكثر وضوحاً، كيف أن المسؤولية الأبوية ومسؤولية رجل الدولة الأكثر خصوصية والأكثر عمومية، الأكثر حميمية والأكثر شمولية، تتقاطع بالضبط بكامل كائناتها الخاصة، أو بعبارة أخرى "المواطن" هو الهدف الجوهرى للتربية، فهو جزء من المسؤولية الأبوية وهذا لم يكن مفروضاً من طرف الدولة.

من جهة أخرى إذا كان الأبوان يربيان أولادهما لأجل الدولة، فالدولة بدورها تأخذ على عاتقها مسؤولية تربية الأطفال، بعبارة أخرى الدولة لا تريد فقط أن تتحمل عبء مواطنتها بشكل جاهز، وإنما تريد هي كذلك المساهمة في تكوينهم"¹.

في نظر يوناس، الدولة وهي تقوم بمسؤوليتها في تربية الأطفال، فهي في الوقت نفسه تأخذ المسؤولية الأبوية في حالة ما إذا أعلن الأبوان فشلهما في تربية الأبناء... وعند الضرورة تستطيع الدولة الدفاع عن الطفل ضد والديه، ويمكن لها إجبارهما التخلي عن تربيته في حالة فشلهما، وبالتالي إسقاط المسؤولية الأبوية عنهما..."²

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P202.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P202.

وبذلك مجال الدولة كلما اتسع كانت مسؤولياتها على مواطنيها في تزايد.¹، فالدولة يمكنها اصدار قوانين لتقلص من جماعة لمصلحة جماعة أخرى، بما تراه في منفعة مواطنيها، كأن تقرر ضرائب على الثروة، تدخل تلك الأموال في صندوق المعاشات أو صندوق مساعدة المعوزين (هناك من يعارض يوناس حول الفكرة)، إن مثل هذا التصرف هو نفسه الذي يستطيع رب الأسرة أن يتخذه إذا كان لديه مولود جديد، فسيضطر الى تخفيض المصاريف على الأولاد الآخرين، لحساب المولود الجديد لأنه يعتبر عضواً كامل الحقوق في الأسرة.

ما يمكن استخلاصه من المسؤولية اليونانية هو أن كل المسؤوليات تعود في الأخير الى مسؤولية واحدة وهي: مسؤولية الإنسان نحو الإنسان، وهو بالنسبة إليه يعد: مسؤولية طبيعية.

ما يفهم من ذلك كله بالنسبة ليوناس " هو أن المسؤولية موجودة في كل واحد منا، لكنها ليست دائماً بنفس الطريقة، وفي هذا المعنى يجدر بنا أن نشير الى فكرة "...كل الترتيبات الطبيعية نتلقاها في حالة القوة، وبعد ذلك تنتج أفعالاً، فيبدو ذلك عادياً كعملية الإحساس، فليس لأننا نبصر أو نسمع نكون قد اكتسبنا حواساً سمعية أو بصرية، بالعكس لأننا كنا نمتلكها فاستعملناها، وليس لأننا استعملناها لأننا نمتلكها. لا نكتسب بالمقابل الفضائل الا بالنشاط، والأمر نفسه للفنون².

إن مبدأ المسؤولية عند "يوناس" هل هو حالة طبيعية تسمح بالفضيلة للمسؤولية في حدود هذا الاعتبار؟ فذلك يبين على أدنى حد ما يميزها عن المسؤولية الطبيعية كونها فطرية، وكذلك المسؤولية التعاقدية التي تقوضها أو تفرضها علينا الدولة.

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P203.

² Aristote, Morales et Politique, Textes choisis, collection sup. France. P.U.F.1970. P71.

إن مبدأ المسؤولية يبدو حاضرا في كل واحد منا، قابلا أن يتدخل في كل لحظة يستدعي الأمر إلى ذلك، بينما فضيلة المسؤولية نتعلمها ونمارسها من أجل تطبيق أفضل... بممارسة البناء يصبح المرء بناء...¹ فالمسؤولية تكون استعدادا طبيعيا تتطلب الممارسة، وتدخل العادة لتطور ممارسات مسؤوليتنا، فبممارسة مسؤوليتنا نصبح أحسن مسؤولين. يرى "يوناس أن المسؤولية ليست فضيلة، وإنما هي مبدأ أصلي متجذر في الإنسان لكن ذلك يبعث بأكثر من تساؤل.

إذا كانت المسؤولية اليونانية كما خلصنا إليه هي مبدأ فطري؟ لماذا إذا نحتاج إلى الشعور بالخوف إذا كان توقع بالتهديد؟

IV. 3 المبحث الثالث: المسؤولية العلمية والمسؤولية السياسية عند "هانس يوناس"

IV. 1.3 رفض "هانس يوناس" للحلول السياسية

إن بلوغ أعلى مراتب أخلاق المستقبل التي يريد "يوناس" بناءها يتطلب ممن يريد قراءتها أو تتبع خطواتها أن يسلك تلك الخطوات والمراحل التي مر بها "يوناس" نفسه، لأن الحياة السياسية تمثل جزءا أساسيا من حياته كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك من قبل، فتأثره بمكانته المنبوذة في أوروبا كونه يهوديا، إلى تأثره بأستاذه "هايدجر" الذي التحق بالنازية، وما ألحقه النازيون باليهود من إبادة (محرقة أوشفيتز)، ثم هجرته بين البلدان بعيدا عن موطنه الأصلي ألمانيا، إلى غاية لجوئه إلى أمريكا والاستقرار بها. لعل ذلك كله يجعله يكتسب نظرة حول الأوضاع السياسية، لكن موقفه لا نتطلع إليه انطلاقا من الواقع السياسي، وإنما من النظريات السياسية التي كانت أكثر تأثيرا على الممارسات السياسية، ونخص بذلك الأنظمة

¹ Aristote, Morales et politique, Op.cit. P71.

السياسية التي سادت في المجتمع الأوروبي، والكلام عن تلك الأنظمة السياسية يتطلب حتما منا الكلام عن الأنظمة الاقتصادية باعتبارها المحرك للحياة الاجتماعية والسياسية.

إن أول ما أثار انشغال "يوناس" في هذا الجانب هو: ما مدى قدرة الأنظمة السياسية من التحكم في هذه القوى التي أصبحت تفوق كل الاعتبارات، وأول رد "ل هانس يوناس" كان حادا وبقسوة على الديموقراطية، وأنتقد الرأسمالية والبورجوازية الفردية، ولم يعد مهتما بالديمقراطية المعاصرة.¹، فكل الأنظمة دون استثناء، اقتصادية أو سياسية كانت تتسابق نحو تحقيق الرفاهية بكل أشكالها (سياسية، اقتصادية، علمية، تكنولوجية...)، جعلت الفيلسوف هانس يوناس " يأخذ مسافة على نفس البعد تجاه كل الاعتبارات السابقة، ويتخذ موقفا تحليليا نقديا، ومحاولة بناء تصور جديد يكون قاسما مشتركا بين جميع الناس، وهو أخلاق المستقبل، "هانس يوناس" أصبح يشعر بالخوف، لأن الحياة الإنسانية أصبحت مهددة في وجودها، والإنسان لم يعد يتمتع بتلك المكانة التي عرفها عبر العصور، بل وصل الأمر إلى المساس بقديسيته.

لقد كانت رحلة "يوناس" نحو بناء أخلاق المستقبل انطلاقا من رد الاعتبار للإنسان، ثم إلى باقي المخلوقات، وأخيرا إلى البيئة الطبيعية التي ستأخذ نصيبا كبيرا من فلسفته إلى حد اعتباره "فيلسوف البيئة". لكن منطلقنا سيكون الإنسان كذات، وما توصل إليه في مجال البيولوجيا والتكنولوجيا والبيوتكنولوجيا وما ألحقته بالإنسان وبيئته.

2.3.IV موقف "هانس يوناس" من الممارسات السياسية إلى المسؤولية السياسية

الأخلاق يجب أن تحتل حيزا كبيرا في الفكر السياسي عموما والممارسات السياسية خصوصا، فحسب "جمهورية أفلاطون" الفيلسوف يجب أن يصبح ملكا، والملك يجب أن يكون

¹ Claude Lefort, Essai sur la politique xix et xx siècle, Paris, Seuil, 1986, p71.

فيلسوفاً "، بمعنى أن السلطة يجب أن تكون بأيدي من يمتلك المعرفة، وهذا ما يجعلنا نقول: أن "أفلاطون" كان يرفض تلك الممارسات السياسية العشوائية، والأخلاق وما تمتلكه من حكمة يجب أن تكون في خدمة السياسة، واحسن مثال لذلك، "أسطورة أتلانتيدي" كان هدفها هو تعليم "روح التضحية" للمواطنين، ولذلك السياسة تتطلب تربية أخلاقية منذ الصغر لتجنب أي خروج عن الكيان الاجتماعي، أو محاولة الانفراد بحياة خاصة على حساب المجتمع.

إن الأخلاق التي يريدها "يوناس" تتجه بدورها نحو سياسة جماعية وليست فردية حيث يقول: "المعرفة، الإرادة والسلطة جماعية، ومراقبتها يجب أن تكون كذلك، فقط السلطات الجماعية تستطيع ممارستها، ولذلك يجب أن تكون سياسية، ويتطلب ذلك بدوره موافقة القاعدة".¹ فالسياسة تكون في لب أخلاق المسؤولية، لأن الأمر يتعلق بالممارسة، ومن أجديات أي دراسة كما يرى "جون جاك روسو": " يجب دراسة المجتمع من طرف الرجال، والرجال عن طريق المجتمع؛ والذين يحاولون فصل السياسة عن الأخلاق لا يجدون أي واحد منهما".²

إن أول ما يلفت انتباهنا من فلسفة يوناس "السياسية هو موقفه من الديمقراطية، التي تعتبر في نظر الكثير من السياسيين، وعامة المواطنين، نموذجاً لكل ممارسة سياسية، فهي تجمع قيماً وفضائل أخلاقية وسياسية، وهو ما عبر عنه المؤرخ اليوناني "هيرودوت" قائلاً: " الديمقراطية هي خضوع للحكم القانوني، والقانون هو الحرية بعينها".³، وكذلك ما اتفقت عليه

¹ Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Op.cit. pp 105– 106.

² J.J. Rousseau, Emile ou de l'éducation, Paris, Flammarion, 2009, p340.

³ دليل بيرترز، الديمقراطية، تر: محمد بدران، مطبعة لجنة التأليف والنشر والتوزيع، سلسلة دار المعارف، بيروت، 1938، ص09.

النظريات السياسية هو أن الديمقراطية تضمن المبادئ الأساسية للحياة الإنسانية، كالحرية، العدالة، المساواة، وهي تعد حقوقاً طبيعية مقدسة لا يمكن سلبها أو التنازل عنها.

إن كل ما سبق ذكره يصب كله في جانبه النظري، لأن الواقع العملي يطلعنا على عكس ذلك تماماً، وهو ما انتبه إليه الفيلسوف "هانس يوناس"، فكان انقلابه على الديمقراطية قويا وقاسيا، فحاول نتيجة ذلك أن يحدث ثورة مماثلة لتلك التي أحدثها "كوبرنيكوس"، "كانط"، "دارون" و "فرويد" (كل في مجاله) في مجالات المعرفة، لقد أراد "يوناس" حقيقة قلب القيم الديمقراطية حيث اقترح حلولاً متسلطة تحد من حرية الأفراد، لأن التاريخ أطلعنا أن تلك الحرية الفردية خرجت عن نطاقها وبلغ الأمر بالإنسان أن يعتدي على الطبيعة والبيئة، ووصل به الأمر إلى حد الاعتداء على قداسة حياته هو، وأراد أخذ مكانة الخالق، إن ذلك أصبح يبعث بالخوف والقلق، وهو ما جعل "هانس يوناس" يقترح نظاماً أخلاقياً عاماً ومحكماً، يحتكم إليه الناس، وأول سماته هي الحد من الحرية التي منحها الديمقراطية للإنسان على حساب اعتبارات أخرى (الطبيعة، البيئة، الإنسان، قدسية الحياة...).

لقد أعطت الديمقراطية مجالاً واسعاً لمفهوم "الحق" مما جعل منه حقاً مقدساً، يخول لصاحبه الحرية الكاملة للتمتع به في أي مجال يريد ذلك، ومتجاهلة القوانين الأخلاقية والقيم التي يجب اتباعها، فأصبحت المسير الأول لكل مصالح الأفراد والمجتمعات، وأخطر ما أصاب الإنسان المعاصر هو تطور البيوتكنولوجيا المعاصرة التي خرقت كل ميادين الحياة الإنسانية، بما فيه الإنسان ذاته.

يرى الفيلسوف "يوناس" أنه أصبح من الضروري وضع أخلاق تتعالى على كل أشكال الديمقراطية، وبالتالي تحقيق عدالة اجتماعية، وتجاوز صور الأنانية.

الفصل الرابع: البيوتكنولوجيا المعاصرة ومبدأ المسؤولية عند "هانس يوناس"

يرفض "يوناس" ديمقراطية "تمثيلية" وهو الموقف نفسه الذي اتخذته الفيلسوفة "حنه آرندت"، فهو يعتبر التمثيل أمرا غريبا عنه، وهذا ما جعله يعتقد " أن الماركسية هي مصدر أساسي للفعل نحو المستقبل، إنها تستمد من المعايير التي تفرضها على الحاضر.¹

يرى "يوناس" أن الضرورة أصبحت ملحة لوجود حكومة قادرة للإجابة على كل المطالب المتولدة عن تطور التكنولوجيات الناشئة عموما والهندسة الوراثية خصوصا، " ... الطبيعة تتطلب أخلاق المسؤولية على المدى الطويل، مقاسها يكون في متناول قوتنا، وهي تطلب باسم هذه المسؤولية نوعا جديدا من التواضع حتى في منتهى الصغر مثلما كان معهودا عليه قديما، لكن التواضع الذي تتطلبه العظمة المفرطة لقوتنا، هي في حقيقتها زيادة في قدرتنا على التقييم والحكم.²

بالنسبة "ليوناس" قوة الفعل عند الإنسان اليوم أصبحت عشرة أضعاف، ولم يعد للعلم القدرة على التحكم حتى في ذاته، وهذه السلطة المتزايدة لا تسمح له من وضع تنبؤات مستقبلية، فالضرورة تقتضي إذا إيجاد سلطة مضادة تجد نظاما سياسيا يستطيع معالجة هذه الظروف الطارئة والضرورية، ويحد من التجاوزات البيوعلمية التي تعرض لها الإنسان، إنه نظام يحافظ على الكائن الإنساني وصورته التقليدية، وكرامته، وحتما أن النظام الأكثر فعالية سياسيا، والماركسية هو النظام الذي يكون قادرا على إبطاء التقدم التقني أو كبحه كما هو في بعض الحالات.³

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité ; Op.cit. P195.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P94.

³ Gilbert Hottois, Aux fondements d'une éthique contemporaine, Op.cit. 214.

إن التقدم التكنولوجي أصبح اليوم عنوان كل مجالات الحياة الإنسانية. ورمز الأمم المتقدمة سياسيا، اقتصاديا وتكنولوجيا، وهو الأمر الذي دفع "يوناس" أن يفضل سياسة اقتصادية مبنية على الحاجات وليس على المنافسات، لكن بشرط المساواة والعدالة الاجتماعية، متبوعة بأسلوب حياة متقشفة، يكون ذلك ملائما لأخلاق جديدة، "ربما قد نجد استقرارا محتملا أفضل في النظام الاشتراكي بشرط أن يكون عالميا وشموليا"¹.

في آخر محور من كتابه الشهير «مبدأ المسؤولية» يدعم "يوناس" نظريته حول "أخلاق المسؤولية" من أجل حضارة تكنولوجية بالتأكيد على النقد الموجه لليوتوبيا، وخاصة منها "اليوتوبيا الماركسية"، وكان هذا النقد مركزا أساسا حول العلاقة بين الماركسية والصناعة. يرى يوناس "أن الماركسية يجب أن تكون محاورا في مجهودنا الذي نقوم به لتشكيل أخلاق المسؤولية التاريخية"²، وهذا يجعلنا نعتقد أنه (يوناس) يحاول إعادة بناء الفكر الماركسي، ولكن بعيدا عن الذي كان نفسه، أي النظام الطوباوي³. اللجوء الى الماركسية يتطلب حذرا كبيرا من التعددية الديمقراطية، بقدر ما يضمن ديمومة تقدم⁴.

بالنسبة "ليوناس" قدرة الديمقراطية للسيطرة على سلطة التكنولوجيا محجور عليها، لذلك سلك "يوناس" طريقة مقارنة منهجية في ظل التقلبات بين النظامين الرأسمالي والماركسي مع

¹ Hans Jonas, Vers une philosophie de la technologie, in Hastings report, Février 1979, p36.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P245.

³ Hans Jonas, Le Principe responsabilité. Idem. P197.

⁴ Hans Jonas, Vers une philosophie de la technologie, Ibidem, p36.

الأخذ بعين الاعتبار قدرة كل منهما على تحقيق غاية غريبة لكل طرف منهما على حدة من أجل نقادي كارثة إنسانية في عهد التكنولوجيا الحيوية.

التحليلات السياسية، الاقتصادية والاجتماعية التي قام بها يوناس حول النظامين، جعلته يتبنى النظام الاجتماعي، ليدحض بذلك النظام الرأسمالي، وهو يثق في هذا الأساس كثيرا في الاشتراكية، "...في ظل اقتصاد لاعقلاني يهيمن عليه منطق الربح، الاشتراكية يمكنها إدارة التراث الباكوني، التخطيط المركزي حسب المتطلبات الجماعية قد يجنب مجموعة كبيرة من زوال آليات المنافسة، والجزء الأكبر من انحرافات إنتاج السوق هدفها اثاره المستهلك ...¹ وبذلك تبدو الماركسية ثمرة الباكونية ووريثتها ومنفذة وصيتها لأن النمو الاقتصادي سيساعد على الانفصال التدريجي للإنسان عن الطبيعة التي اعتدى عليها بما في ذلك طبيعته هو، ليجد خلاف ذلك "وسائط" ستعمل على تحقيق رفايته وسعادته، لكن "يوناس" يحذرنا في كل الأحوال من سيطرة الآلة على الإنسان، "إنه الاستلاب المرتبط بالآلة الذي أفقد الإنسان إنسانيته وأصبح يقوم بحركات خالية من الروح... فالعالم أصبح كله مصطنعا².

يرفض "يوناس" الطبيعة التجارية للرأسمالية، التي تتميز بطبيعتها العدوانية للطبيعة وكذلك تستغل الإنسان لغايات مالية، وبالتالي التضحية به على مذبح الربح والمنفعة، وهنا تبدو له الاشتراكية حسب رأيه كأحسن إطار، لأنها تجعل الإنسان في مركز كل الاهتمامات. يرى "يوناس" أن النظام الاقتصادي الاشتراكي إيجابي وبإمكانه أن يجذر أخلاق المسؤولية التي يجب أن تكون بيد نخبة واعية ومنشغلة بمصالح الجماعة "بولاءات سرية

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité. op.cit. p198.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P294.

وغايات سرية¹، ويؤكد "يوناس"، أن التهديدات التي تواجه الإنسان لا يمكن التخلص منها عن طريق ليبرالية أخلاقية-سياسية؛ رغم ذلك لم يخف "يوناس" موقفه من الماركسية من أنها تجسد فكرا "طوباويا"، حيث كشف لنا عن نوعين من الماركسية:

- أما الأول: فيتمثل في تحقيق السعادة القصوى للإنسان دون إمكانية تحقيقها، وهو مجرد حلم مستحيل التحقيق، فيصبح بذلك فكرة لا جدوى منها، وهو حلم يطلق على "اليوتوبيا"، وبالمعنى الحرفي للكلمة "فكرة لا نفع منها".²

- بينما الثاني: هو مجتمع أفضل، ويمكن تحقيقه وفق معايير علمية، عملية وواقعية، وذلك بالنظر إلى حدود الطبيعة ونقائص الإنسان، وهي تشبه إلى حد ما "جمهورية أفلاطون". إن الماركسية المحدثة تميل كثيرا إلى النوع الثاني الذي أورده "يوناس".

إن الإجراءات السياسية التي اتخذها "يوناس" لا يمكن أن تكون موضوع عملية ديمقراطية، ولكنها تبدو مستعجلة أمام مستقبل أصبح يهدد حياتنا، وبالنسبة "ليوناس" لا يجب وضع الماركسية والدكتاتوريات الأخرى في نفس الميزان، "الماركسية لها محاسن على بعض الدكتاتوريات".³، ولكي يكون فعالا يشترط على الماركسية أن تتجنب كل طوباوية ستكون مستقبلا "متمثلة في التقنية في أقصى حدودها"⁴، والتي ستعرض الإنسان إلى الزوال، وفي زمان أصبح ضعف الإنسان وهشاشته ظاهرين، وشككت في كرامته ووجوده، وحتى وجود الإنسانية جمعاء، ويقول "يوناس" في هذا الصدد: "سواء تعلق الأمر بتدمير البيئة، ثقب

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit, p203.

² ندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2001، ص 1518-1519.

³ Hans Jonas, Le principe responsabilité. Ibidem. P201.

⁴ Hans Jonas, Le principe responsabilité. Idem. P203.

الأوزون، الكوارث المناخية، مخاطر التقنيات النووية والتسلح... القتل الرحيم أو التكنولوجيا الوراثية¹، فإن هذه الأخلاق (اليونانية) بكل أشكالها (الأبوية والسياسية) يمكن اعتبارها الأخلاق الوحيدة الكفيلة للإجابة على كل المجالات التطبيقية لعصر التقنية.

حتى نضفي طابع الموضوعية على دراستنا هذه يجب أن نشير إلى بعض الملاحظات لمبدأ المسؤولية عند "هانس يوناس"، فمبدأ المسؤولية سواء كان أبويا في إطار المجتمع، أو سياسيا في إطار الدولة، فإنه يشرع لأشكال الأبوية (paternalisme).

من جهة أخرى لم يمنع ذلك "يوناس" من اعتبار الماركسية الإطار التطبيقي لأخلاقه، فهو يرى أن عملية "إعادة الجدلية الهيكلية على رجليها" كما جاء بها "ماركس" هذا الأخير أدرج الفعل الواعي في العملية الثورية للتاريخ، محققا تناغما بين حيلة العقل وإرادة الفاعلين، وهو ما يسمح لهم (الفاعلين) من القيام بأفعالهم بكل تبصر.

لكن مثل هذه المقاربة للسياسة عموما والماركسية خصوصا كحصن ضد الأدوات العقلانية للعلم والتقنية تجعلنا نشكك في عملية التضحية بالسياسة على مذبح الأسواق المالية التي قوضت حياد العلوم التكنولوجية، خاصة إذا علمنا أن الماركسية أخفقت عبر كل تاريخها والأمثلة على ذلك كثيرة منها "قضية العالم البيولوجي ليسنكو" الذي استخدم علم الوراثة لأغراض سياسية.

أهم سؤال كان يراود الفيلسوف "يوناس" دائما هو: ما هي القوة التي ستمثل المستقبل في الحاضر؟ إجابة "يوناس" جاءت مضطربة ومشكوك فيها، فهو يقول: "يتعلق الأمر بسؤال الفلسفة السياسية التي لدي أفكارها الخاصة حولها، وقد تكون خيالية ولا تحظى بشعبية، ويمكنها

¹ Hans Jonas, Une éthique pour la nature, Op.cit. P19.

أن تبقى خارج المناقشة¹، مع كل هذه التأكيدات لم يتوقف "يوناس" من ابداء أو تسجيل شكوكه من فاعلية أي نظام سياسي (سواء كان ديمقراطيا أو ماركسيا) للمسؤولية، ماعدا نخبة قادرة من وجهة نظر أخلاقية وفكرية أن تتحمل المسؤولية نحو المستقبل².

لكنه يبقى متمسكا بدكتاتورية قادرة على ضمان هذه المسؤولية مستقبلا، ويبقى اختيارنا متجها رغما عنا نحو أشكال مختلفة من الدكتاتوريات³.

ومن آخر ما صرح به يوناس: "إن حل مشكل المسؤولية نحو أجيال المستقبل، الأنظمة الشمولية بحزب واحد توجد في أحسن الظروف من الأنظمة الديمقراطية⁴.

3.3.IV السلطة البيولوجية والسلطة البيوتكنولوجية

لقد كانت الممارسات البيولوجية والطبية محصورة في الجانب العلمي والمعرفي، وعلى وجه الخصوص البيولوجيا والطب، لكن التطورات التي عرفها المجتمع الإنساني نتجت عنها صراعات كثيرة أوصلت الإنسانية إلى حدود الهلاك، وأبرزها الحرب العالمية الثانية التي عرفت صراعا خفيا، وسبقا بين العلماء، وبايعاز من السياسيين على ضرورة اكتشاف أدوية وعقاقير لمجابهة الأعداء، وهو ما أنتج فيما بعد أسلحة بيولوجية وكيميائية، وذلك كله يتطلب قبل الاكتشاف إجراء تجارب سريرية، وأول من تجرى عليه التجارب هو الإنسان، لأن المعني بذلك هو الإنسان نفسه، فإذا كان الأمر يبدو مثيرا ومشوقا بالنسبة للعلماء والسياسيين، فهو مخيف ومرعب للإنسان وللإنسانية.

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P 56.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P263.

³ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P269.

⁴ Hans Jonas, Entretien télévision Allemande ZDF, Gespräch mit Ingo Hermann, Göttingen, 1991.

لقد اثبتت التحقيقات العلمية والسياسية الأدوار المضطربة التي تلعبها السلطة والدولة في مختلف أشكال المعرفة العلمية في القرن العشرين، وتم نشره في تقرير " اختراع البيوطب"، فبقدر ما يطلعنا على التعاون وتبادل الجهود بين الدولة والعلماء والأطباء وصناعيو الصحة، فهو يطلعنا من جهة أخرى على هيمنة السياسة على الممارسات البيوتكنولوجية، في الوقت الذي نتطلع إليه من جهة أخرى إلى هيمنة البيوتقنية على القرارات السياسية.

لقد تم تحديد سنة 1975 تاريخ دخول البيولوجيا في السياسة وذلك في مؤتمر "أسيلومار" حيث تقرر ولأول مرة فرض وقف على التجارب البيولوجية، وهو ما أدى إلى انطلاق المناقشات على أوسع نطاق حول الفوائد التي يمكن أن يجلبها هذا البحث للمجتمع، والأخطار المحتملة التي قد تطرحها البحوث البيولوجية عموماً والممارسات البيوتكنولوجية مستقبلاً، وبذلك تم ترسيم دخول البيولوجيا في الفضاء السياسي، وأصبح هناك مصطلح متداولاً بين الفلاسفة والعلماء على حد تعبير "ميشال فوكو": "البيو-سلطة".

في هذا الصدد العالم "بول رابينو" يطلعنا على العلاقة الغامضة بين البيولوجيا والسياسة من خلال ما يعبر عنه بالعلاقة الصعبة والمستحيلة بين العلم والسوق بسبب "صعوبة التضامن بين المعرفة والمنفعة"، فالهندسة الوراثية اليوم تمثل "سلطة بيولوجية" لأنها ترتبط قبل كل شيء بالكائن الحي وبمعرفة تخصه وتغيرات ألحقت به. لم يعد الكلام اليوم على الهندسة الوراثية وإنما على "الصناعة الوراثية"، فهي فعالة ومربحة على حد اعتبار "هابرماس"، العقلانية البيوتكنولوجية أصبحت تمثل علاقات مشتتة تربط البيولوجيا بعالم خارجي عن العلم وهو المال، الإعلام والسياسة، ويقول "فريدريك كيك" في هذا الصدد: "إن هذا التقارب بين المعرفة وفعاليتها هو الذي يلقي الضوء على التنظيم الخاص للبيوتكنولوجيا، وهذا الأخير مقسم إلى عدد كبير من الشركات المتنافسة تنافساً حاداً موجودة كلها في مناطق

الفصل الرابع: البيوتكنولوجيا المعاصرة ومبدأ المسؤولية عند "هانس يوناس

انتاج المعرفة، وهذا ما يفسر آثار الإعلان التي بفضلها تتم إجراءات التمويل قبل تنفيذه"¹، ويواصل العالم "ف. كيك" حول هذا الارتباط والتأثير المتبادل بين البيولوجيا والسياسة قائلا: " المال، ووسائل الإعلام والسياسيون يختلطون في سباق سريع أكثر من أي وقت مضى، فالمختبرات دائما مفتوحة لأجنبي يقدم لها الدعم المالي والسياسي."²

¹ Frédéric Keck, Des Biotechnologies au biopouvoir, in Revue Multitudes, 2003, N° 12, p182.

خلاصة الفصل الرابع

لقد تطرقنا في فصل سابق إلى أسس الفلسفة البيولوجية عند "هانس يوناس"، مما سمح لنا من معرفة مختلف القراءات التي قام بها "يوناس" حول الإنسان، وما نتج عن الممارسات البيوتكنولوجية حول الإنسان من خيالات وتخوفات دفعت بالفيلسوف "هانس يوناس" الى تبني نهج جديد حدده في مبدأ المسؤولية كأساس لأخلاق المستقبل، باعتبار أن الاخلاق التقليدية لم تعد تجدي نفعا مع التطورات العلمية والتقنية في ظل عصر الهندسة الوراثية. إن أول انطلاقة في هذا الفصل تجسدت في دحض العدمية؛ فلم يركز فيها يوناس على المبادئ اللاهوتية والأساطير، وإنما كان يريد أساسا علميا وعقلانيا لأخلاقيات قوية لتجاوز هيمنة التكنولوجية.

انتقل بعد ذلك يوناس إلى أحد أهم أسس مبدأ المسؤولية وهي "الميتافيزيقا"، حيث يعتبرها ممرا ضروريا لابد منه بعد دحضه للعدميين. وفي نظره الميتافيزيقا والأنطولوجيا يعدان ركيزتين أساسيتين لتأسيس مشروع الأخلاقي، ولم يخف ذلك حين قال: "أعترف أولا بإيماني القوي بالميتافيزيقا"، وبينها وبين الاخلاق التي يريدها يوناس هناك جسر، وهذا الجسر هو أحد أسس أخلاقيات المستقبل.

بعد ذلك تطرق يوناس للأساس الثاني لمبدأ المسؤولية، وهو الأساس الأنطولوجي الذي أثبت قيمته وقوته من خلال دعامتين ضروريتين في حياة الإنسان وهما: الأكل والعمل: فإذا كان الأول ذات قيمة أنطولوجية لا يوجد الإنسان إلا بها كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك. بينما الثاني (العمل) فهو ضرورة لتحقيق الأول، لكنه يخضع لظروف خارجية كما بينا سابقا. لقد خطى يوناس خطوات أستاذه "هايدجر" الذي كان يعتبر الأنطولوجيا هي علم التحديات لكل ما هو موجود، إلا أن هذه الأنطولوجيا تبحث عن حقيقة الوجود وليس عن حقيقة الموجودات، وهنا يكمن الاختلاف بين "يوناس" و "هايدجر".

الأساس الأنطولوجي عند "يوناس" يخص الإنسان وحده لأنه هو المخلوق الوحيد الذي يتحمل المسؤولية، ويكون تحت أوامرها بحكم الواجب، لينتهي هذا الأساس إلى قيمته الحقيقية وهي الحرية، وقيمة الوجود، وبينهما المسؤولية.

يضع بعد ذلك "يوناس" مبدأ المسؤولية كأساس للحياة الإنسانية سواء كانت أخلاقية أو اجتماعية، إلا أن المسؤولية اليونانية جاءت في ظروف خاصة نتيجة ما حققته الاكتشافات العلمية والتكنولوجية المعاصرة، ونتائج كانت أثارها على قدسية الانسان وحياته، لذلك المسؤولية اليونانية ليست نسبة إلى ما تم، وإنما بالنظر نحو المستقبل، ويشترط فيها الوعي.

أخلاق المسؤولية في نظر يوناس أصبحت ضرورة ملحة خاصة في ضوء ما أفرزته التكنولوجيا المعاصرة من آثار على الحياة الإنسانية، فهي تمنح للإنسان شعورا بالوجود وبالفعل، فهي بذلك معرفة استكشافية، تسير كل التغيرات التي تلحق بالواقع الإنساني، وبكل ما هو قابل للتغيير والتحول، أو ما قد يكون مهددا بالزوال أو التلف، وبذلك أخلاق المسؤولية اليونانية هي أخلاق إنسان، أخلاق وجود، وأخلاق مستقبل.

ولكي يستكمل يوناس مبدأ المسؤولية كأساس لأخلاق المستقبل يضع أمامنا نوعين من المسؤولية وهما: المسؤولية الأبوية والمسؤولية السياسية.

أما الأولى: المسؤولية الأبوية، فهي النموذج الأصلي بامتياز، وهي مسؤولية أوجدتها الطبيعة، لا تخضع لأي شرط قبلي أو اتفاق مسبق، وهي تتعلق بالطبيعة البيولوجية للمولود.

بينما الثانية: المسؤولية السياسية، فهي تتمثل في مسؤولية رجل الدولة (الحاكم) وهي بدورها تعد قمة النموذج الأصلي، بشرط أن يتصف رجل السياسة بالنزاهة والاستقامة والتقاني وسمو النفس. إلا أن المسؤولية السياسية يتم اختيارها بحرية من طرف رجل السلطة، وتكون مسؤوليته كاملة مثل المسؤولية الأبوية، وبذلك لا يستطيع الأب أو رجل السلطة أخذ عطفة أو التخلي

عن مسؤوليته، لأن حياة الإنسان في تواصل ودون انقطاع، والمسؤول يضمن الرعاية والحماية حاضرا ومستقبلا.

إن مبدأ المسؤولية بالمفهوم اليوناني يبدو متجذرا في الإنسان، فهو استعداد طبيعي يتطلب الممارسة، فكلما مارسنا مسؤولياتنا كلما كانت أحسن.

لم يتوقف "يونس" عند المسؤولية الأبوية و السياسية وإنما أدخل المسؤولية العلمية التي تعد من خصوصيات العلماء، لأن التطورات العلمية والتقنية كانت نتيجة اجتهاداتهم، وهذا ما يجعل مسؤولية رجل العلم كبيرة حاضرا ومستقبلا، إلا أن "يونس" لم يخف انزعاجه من العلاقة بين الممارسات العلمية والممارسات السياسية، فكانت انتقاداته للديمقراطية والرأسمالية والبورجوازية التي كانت تستخدم التقدم التكنولوجي والبيوتكنولوجي لخدمة مصالحها الخاصة، لذلك كان يفضل سياسية جماعية، والحكومة يجب أن تكون قادرة على تلبية كل المطالب المتولدة عن تطور التكنولوجيات الناشئة عموما والهندسة الوراثية خصوصا.

V. الفصل الخامس: نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل

- المبحث الأول: مبدأ تشكل الخوف عند "هانس يوناس"
- المبحث الثاني: مبدأ الحيطة والحذر عند "هانس يوناس"
- المبحث الثالث: قراءة نقدية تقييمية لأخلاق المستقبل عند "هانس يوناس"

تمهيد

الأخلاق اليونانية تتحدد في مفهومين أساسيين وهما: المسؤولية والخوف، هذان المفهومان يبدوان منذ الوهلة الأولى متداولين عند عامة الناس، ويمثلان تجربة يومية يعيشها الإنسان في سائر أيام حياته، فالخوف يمثل تجربة وجودية إنسانية. ألا يحق لنا أن نعترف أن الطفل الصغير منذ اللحظة التي يولد فيها، ويخرج إلى هذا العالم بصراخ وبكاء، أنه يعيش تجربة وجودية للخوف لهذا العالم الذي يستقبله، إنه في حالة ضعف وألم ومعاناة، عالم غامض يستقبله، ومع مرور الوقت تزداد تجارب الإنسان الحياتية ويزداد معها الخوف، خوف من الحياة، خوف من الموت، خوف من المسؤولية، إلى حد الخوف من المجهول، لكن لو نظرنا بتمعن وتحليل دقيقين إلى الظروف والدوافع التي دفعت بنا إلى الخوف لتجلبت لنا حقيقتنا وحقيقة الخوف، لنصل إلى حقيقة مذهلة وهي: أن الخوف أحيانا يعد ضروريا في حياة الإنسان وبقائه، وهو ما عبر عنه الفيلسوف " زيغمووند بومان " قائلا: "... في حياة الإنسان الخوف ليس مستجدا، ومنذ بداياتها، الإنسانية تعرفه، وسيكون في أحسن مرتبة لكل القوائم للصفات الأكثر ظهورا للبشرية"¹

يبدو الأمر نفسه بالنسبة لمفهوم المسؤولية، فالأمر لا يدعو إلى أن نحلل أو نحاول، فكل إنسان يجدها في قرارة نفسه وبدرجات متفاوتة، ابتداء من الأبوين اللذان يعلمان صغيرهما كيفية تحمل المسؤولية، أو مسؤول المؤسسة أيا كانت مرتبته؛ سياسية، اقتصادية أو اجتماعية، وهو يوبخ مستخدميه فهو يفعل ذلك إما شعورا منه بمسؤوليته، أو يريد أن ينبههم إلى تقصيرهم في تحمل مسؤولياتهم، أو عند المشرع القانوني وهو يحدد أنواع المسؤولية، إلى مسؤولية مدنية

¹ Zygmunt Baumann, La vie en miettes, Rodex, Le Rouergue/Chambon, 2003. P64.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

أو جزائية، أو رجال العلم الذين أصبحوا أكثر شعورا بمسئولياتهم، فالمسؤولية أصبحت اليوم على كل لسان، كما هي على كل قلم...¹

نستطيع أن نقول ان كلمتي: خوف ومسؤولية تبدوان نسبيا متعاكستان حسب مفهومهما العميق، وبدراسة تحليلية ونقدية لهذين المفهومين نصل إلى تنوع في المعنى، حتى يصل بنا الأمر أحيانا أن نتساءل حول مضمون ذلك المعنى أنه سبق لنا معرفته.

قد يحدث لأي إنسان أن يتساءل: ما هو الخوف؟ وما هي المسؤولية؟ لو لم يجبنا أحد، هل أدعي انني أعرفهما؟ وماذا لو طلب منا أحدهم أن نشرح له معنى الخوف أو المسؤولية؟ هنا سنتوقف عقارب الساعة أمام المفهوم وأمام المعنى وأدرك أن الأمر أكبر من أن يكون مجرد كلام، ينتابني خوف وشعور بمسؤولية في مثل هكذا موقف، وكأنهما ينبعان من صميم الذات والحياة معا. فالخوف والمسؤولية يتطلبان دراية ومعرفة بهما، لعل ذلك ما انتبه إليه الفيلسوف "هانس يوناس" في تأسيس أخلاق المستقبل.

إذا كانت كلمة "مسؤولية" لا تتوافق مع كلمة "خوف" في مفاهيمها العادية، أو كذلك من منظور الأخلاق التقليدية، فليس الأمر كذلك عند "هانس يوناس" الذي وجد نفسه ملهما بفكرة "ان تكون إنسانا" يعني أن تكون في نفس الوقت "سيدا وموضوعا للوسط الطبيعي"، مما يعني أن روح الإبداع والتغيير التي تكمن وراء القدرات الإنسانية تبقى بالتأكيد ثابتة في ذاته، لكنه في ظرف سريع الزوال. وهو الأمر الذي يجعلنا نفهم انه مجرد أن تكون إنسانا، يؤهلك لكل الاحتمالات، لكن ليس شرطا تحقيقها كلها، وليس بإمكان الإنسان أن يحقق كل ما هو في مقدوره، هناك حالات في الواقع من الأفضل للإنسان ألا يتجاوزها أو يتعالى عنها، فيجب

¹ Christian, Boissinot, Les aventures philosophiques contemporaines de la responsabilité, Ottawa, bibliothèque nationale du Canada, 2001.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

أن يكون لنا شعور أننا بقدر ما نستطيع الفعل، هناك احتمال آخر بعدم القدرة على الفعل على حد تعبير "زيغmond بومان": "... أن تكون إنسانا يعني كذلك أن تعيش الخوف"¹، تطلعننا هذه المقولة على أن الخوف له قيمة وجودية، لكن ما يجب علينا في سياق بحثنا هذا هو تحديد أي نوع من الخوف نعني به؟ وهل يبقى موقفا معقولا وتبنيه كطارئ وقت الأزمة في الوسط الطبيعي؟ وكيف يمكن للخوف اليوناني أن يتوافق مع العقل إلى حد تشكيل أداة تبصر للإحساس بالمسؤولية من أجل تصور أخلاق جديدة؟

ومن جانب آخر فيما يتعلق بالمسؤولية، نجد أنفسنا أمام تساؤل مهم في زمن التقدم العلمي والتكنولوجي وهو: هل أخلاق المسؤولية تسمح للإنسان في بيئته اليوم أن يحقق آثارا ايجابية تكون حاجزا للجوانب اللامحدودة للتكنولوجيا المعاصرة؟

هذه الأسئلة المتعددة والمتنوعة وغيرها من الأسئلة الأخرى، ستكون الإجابة عنها في إطار مناقشتنا لأخلاق المستقبل عند " هانس يونس" من خلال فكرته حول " تشكل الخوف" كأساس لموقف مسؤول في عالم التقنية الكبير.

إن نظرتنا لما سبق، وأعتقد أن الأمر نفسه بالنسبة لهانس يونس " لا يتعلق بتعارض بين المسؤولية والواقع التكنولوجي الذي يعيشه الإنسان المعاصر، وإنما هو تساؤل يفرض نفسه على العقل، ويستدعي الضمائر الحية على تحريك الشعور بالمسؤولية الفردية والجماعية في مجتمع تقنو-علمي، نتائجه لا تحمد عواقبها.

¹ Zygmunt Baumann, La vie en miettes, op.cit. P65.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

1.V المبحث الأول: مبدأ تشكل الخوف عند " هانس يوناس "

1.1.V تشكل الخوف عند " هانس يوناس "

يلعب الخوف دورا أساسيا في فلسفة "هانس يوناس" من أجل تأسيس أخلاق المستقبل، فهناك خوف إيجابي يتم في المقاربات الأخلاقية عن طريق المعرفة، أو في حالة تقييم التهديد الذي قد يلحق بنا، وكذلك الحذر في حالة المناورة أو التراجع الحكيم في حالة الرعب، فالخوف في مثل هذه الحالات ينير العقل ويساعد على توضيح الأفكار، لعل هذا ما جعل الفلاسفة يقولون على أن الخوف هو من أكبر الأفكار استحداثا في الفلسفة الأخلاقية عند "هانس يوناس"، فهو لا يعني بذلك الخوف بالمعنى العام الذي يعرفه كل إنسان، وإنما هو قفزة فوق كل ما أصبح يهدد الإنسان والطبيعة، فهو قوة داخلية تجعل صاحبها يدرك واقعه والأخطار المحيطة به، ليمتد نحو المستقبل للأجيال المقبلة "...إنه القدرة على المعرفة، بل هو الشعور الأخلاقي الحقيقي، إنه خوف متعمد ومقصود، لذا فهو نير..."¹

وتناديا لكل ظرف غير محمود قد يعترض سبيلنا، من الأفضل للمستقبل أن يبني قلقه عن طريق الخوف، وبعبارة أحسن بتشكل الخوف، وهو أسلوب من أساليب مواجهة العالم، ويهدف إلى تصحيح أفعال الإنسان منذ حملها الأول، حتى التي يتخيلها، وهذا الخوف ليس ذلك الذي يتركنا تحت رحمته (الخوف)، وإنما يدعونا إلى استكشافه لفهم الأسباب المنطقية العميقة التي تتحكم فيه، وذلك بهدف مساعدتنا لمواجهة مختلف الظروف الإنسانية.

انطلاقا من هذا المنظور يمكننا رؤية "هانس يوناس" كيف يقترح علينا الخوف ليس كشعور فقط وإنما كمقاربة منهجية تشترك فيها الفعل الإنساني وفق نظام معين من التفكير،

¹ Bernard Sève, Hans Jonas et le principe responsabilité, Esprit n° 165, Octobre 1990, p76.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

هذه التعريفات جعلت العديد من الفلاسفة المناوئين "لهانس يوناس" يشككون في طروحاته حول الخوف. وهنا يطرح السؤال: هل يمكن التحكم في الخوف وجعله أساسا لأخلاق المستقبل بالكيفية التي يريدها "يوناس" الذي جعل منه قوة مجنّدة ومنظمة، خاصة في مثل هذه الظروف من التقدم التكنولوجي الذي يصعب التحكم فيه؟، لا شك أن ذلك سيعود بنا إلى الأساطير والنظريات التي جعلت من الخوف وسيلة للدفاع عن النفس والفتوحات والسيطرة على الطبيعة.

فمثلا "بروميثيوس" كما يرويهِ "أفلاطون" يجسد حقيقة صفة الدفاع عن النفس عن طريق الخوف، فهو أعطى للحيوانات على حساب الإنسان أهم الملكات: القوة، السرعة، الشجاعة، الحيلة، الجناحين... تصحيفا لخطأ أخيه "ابيميتي".

في سياق كلامنا عن الخوف لو رجعنا إلى النظرية السياسية عند "توماس هوبس"، يشكل الخوف أداة أساسية لتحقيق الاستقرار وتوطيد العلاقات الاجتماعية، إلا أن هناك اختلاف يجب أن نشير إليه بين الخوف عند "يوناس" والخوف عند "هوبس"، هذا الأخير يبني فلسفته في إطار سيكولوجية تفترض أن الإنسان شرير بالطبع، ومرحلة الفطرة (الحالة الطبيعية) التي انتقل منها لتأسيس المجتمع المدني (الدولة) كانت تسودها الفوضى وتميزها الأنانية وحرب الجميع ضد الجميع، ويسودها الخوف والذعر، ولا يمتلك فيها الفرد أي حق، (كل الحقوق كانت بيد الحاكم)، ويعد الخوف عاملا مؤثرا في نفوس الأفراد، لذلك اعتبره "هوبس" أحد ركائز فلسفته الأخلاقية، ويعبر "هوبس" عن ذلك: "...أصبح الخوف يمثل تهديدا مستمرا لموت عنيف ... وكانت حياة الإنسان شبه حيوانية..."¹

¹ Tomas Hobbs, Le Léviathan : traité de la matière, de la forme du pouvoir de la république et civile, trad. François Tricaud, Paris, Sirey, 1971, P124.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

على خلاف ذلك الخوف عند "يوناس" يمثل مسيرة عقلانية وهو نابع من صميم الإنسان عن تفكير وروية، وهو يكتسي طابعا روحيا، ولا يخفي يوناس " ذلك بقوله: " الأمر ليس كما هو عند "هوبس" بل أقصد به الخوف من طبيعة روحية، بما أنه وضع يقصد به الاستعداد الذاتي لإمكانية التأثير سواء لسلامة أو تعاسة أجيال المستقبل"¹.

يبدو أن "هانس يوناس" وهو يقترح الخوف حاول الإحاطة به ليس كشعور فعال للإنسان، وإنما كوسيلة مقارنة منهجية تدفع الفعل الإنساني وفق ترتيب منطقي.

الخوف بالمفهوم اليوناسي تبدو مزاياه كبيرة، فهو يتوقع التهديد الذي تنبعث شرارته من المستقبل، ويبدو كأداة من أدوات الربط في خطاب يوناس " حول أخلاق المستقبل، وأكبر غاية يتمثل بها هي "إنقاذ العالم"، فهو خوف ينبهنا لكل عواقب الاكتشافات العلمية، من خلال تصور أسوأ العواقب للإنسانية، ومنها يتم التطلع للكوارث الافتراضية التي نشعر بها². فمثلا خطورة استعمال اكتشاف جديد مخيف للوجود في الحاضر سيدفعنا لا محالة في ذلك إلى التخلي عنه مستقبلا.

الخوف حسب "يوناس" هو الوسيلة الوحيدة التي تجعل الإنسان يتحرك بفعالية، فكلما زاد خوفه ازدادت معه ردود أفعاله، وليس التواصل بين الأفراد كما يعتقد أنصار حركة " من أجل أن تبقى الأرض إنسانية" ("نيكولاس هولو" و"دومينيك بورغ") هو الذي يزيد من الوعي وبالتالي تجنب الأخطار، لا يعد ذلك في نظر "يوناس" كافيا، ولسنا في زمن الإعلام وإنما في ساعة الفعل بأقصى سرعة ممكنة، ويبقى الخوف الوسيلة الأفضل لتحريك الناس

¹ Hans Jonas, Le Principe responsabilité, op.cit. P69.

² Hans Jonas, Le Principe responsabilité, Idem, p68.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

إن تمسك "هانس يوناس" بمبدأ الخوف يطلعنا على حقيقة خفية وهي: انه يقوم بتقديم محاكمة للعلم والتقنية عموما والتقنوعلميين" خصوصا في المجتمعات الغربية، وهو في كل مرة ينبهنا إلى الأخطار المحدقة للتطور التكنولوجي، وفي رأيه ما لم نقم بتغيير طريقة السلوك الإنساني، العالم كله سيكون في خطر بما في الطبيعة وكرامة البشر، وكما يقول: " الإنسان يقطع من أعلى الشجرة الغصن الذي يجلس عليه"¹، ومن سيعاني أكثر هي أجيال المستقبل، وبما أن الطبيعة والإنسان أصبحا أدوات في يد التكنولوجيا، فإن واجب الإنسان اليوم هو أن يأخذ بزمام المبادرة، وأن تكون السلطة بيده.

أخلاق المستقبل عند الفيلسوف "هانس يوناس" تخص أجيالا لم تولد بعد، وهنا يكون مبدأ المسؤولية أساسها، والخوف مما سيحدث مستقبلا هو العامل المحرك للشعور لهذه المسؤولية، خوف لا يمثل خطرا وإنما نعتبره أداة لفلسفة "يوناس" حيث يقول: "الخوف الذي هو جزء أساسي من المسؤولية، ليس الذي لا ينصحنا للفعل وإنما يدعونا للفعل، هذا الخوف الذي نهدف إليه هو خوف لموضوع المسؤولية..."²، أهم ما يتجلى لنا في تشكل الخوف عند "يوناس" هو أنه إضافة إلى كونه متأصلا، هو خوف ليس موجها نحو نفسه، بل موجه نحو الآخرين، ويسميه "يوناس" "خوف غير أناني".

3.1.V الخوف كأداة للواجب الأخلاقي

كان الاعتقاد السائد قديما أن الخوف يعبر عن ضعف صاحبه، وهو عبارة عن عاطفة يشعر بها أي إنسان، فهو نوع من الفراغ وعاطفة مخزية تقشعر لها ذات الخائف، ويهزأ منها الغير، لكن الأمور تغيرت في أيامنا هذه بتغير الظروف والأحوال نتيجة ما ألحقته التكنولوجيا

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, op.cit. P32.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité. Idem, P421.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

بالإنسان والطبيعة، ومعها تغير معنى الخوف حيث يطلعوننا "هانس يوناس" أن الخوف أصبح ورقة رابحة تحثنا قوتنا الخاصة باحترامه، وجعله مسلكا للحكمة.

إن النفور من الخوف يكون بدعوى طلب مناقضه المباشر، ونعني به "الشجاعة" التي تعد من الفضائل، لذلك إذا كنا نريد جعل الخوف ورقة رابحة كما يقول "يوناس" يقدم إضافة للذات، لنقل سيصبح " الخوف فضيلة (بتحفظ)، يجب علينا إعادة فحص دقيق لمعنى الشجاعة حتى نقف على نقاط التقارب أو التقاطع التي تجمعها مع معنى الخوف.

الشجاعة تعد دون منازع من أكبر الفضائل التي تقوم عليها حياة الجماعة، بل والفضائل كلها؛ أليس طلب الحقيقة، التفاني، الوفاء، التضامن وغيرها من الصفات لا تسمح بأي تردد أو هروب لا إلى الوراء ولا إلى الأمام في الحياة الجماعية، إن لم تكن الشجاعة لتحثنا على مواجهة الصعاب، وتحمل تلك النتائج فليس هناك داع غيرها؟

لكن هناك حالات لا تكون من قبيل الشجاعة قد ترسخ في صاحبها صفة الفضيلة، فمثلا شغف البطولة أو المغامرة قد يؤدي بصاحبه إلى شجاعة مفرطة قد تتولد عنها أسوأ العواقب، وتتبدد في مفاخر غير ضرورية.

فالشجاعة ليست بالضرورة فضيلة، وعواقبها تكون أخطر من الخوف الذي نتهم صاحبه (الخائف) بكل الصفات المنبوذة، فالشجاع قد يقوم بأفعال مخالفة للواجب الأخلاقي وحتى القانوني، وإلا كيف نفسر شجاعة الانتحاري الذي يفجر نفسه، فهو يظهر من القوة والشجاعة ما يذهل به ناظره، ولكن بأي ثمن تم ذلك؟ لم يبق لنا أن نحتمل أو نمجد الشجاعة لأن هناك عنصرا حال دون ذلك، لقد شوه صورتها. هل يحق لنا أن نقول في هذه الحالة أنها شجاعة زائفة؟ والشجاعة الحقيقية يجب إخضاعها لمعايير أخلاقية، وهي الشجاعة التي تهمننا في محور دراستنا هذه، وهي التي لا يمكن فصلها عن الخوف، ودونه لا يكون لها أي أهمية، وبذلك الشجاعة سيتحدد معناها بنفس العبارة القائلة " الخوف من أن أخاف".

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

في إطار تأكيدنا للخوف كأداة للواجب الأخلاقي، يبدو أن الخوف لا يعارض الشجاعة جذريا، لأن مجرد غياب الخوف يعبر تلقائيا على الشجاعة، فالذي لا يخاف لا يملك أي وسيلة ليبين أنه شجاع، في حين من الشجاعة أن تتحكم في الخوف، ومن هنا نقول ان الخوف هو المحرك الأساسي لأفعالنا.

الخوف حسب "هانس يوناس" ناتج عن أسباب عاطفية، إنه شعور يربطنا بكل ما هو تحت مسؤوليتنا، فهو يدفعنا إلى التساؤل ليس حول الحياة التي نعيشها، وإنما حول كل ما يمكن أن يؤثر عليها، وهنا يدخل تحت طائلة هذا التأثير الوسائل التقنية المعاصرة التي شوهدت التاريخ السابق، وستشوه تاريخ المستقبل الذي يخص أجيال المستقبل، وبذلك يؤسس الخوف واجبا أخلاقيا لمراقبة كل ما يمكن أن يخيف، أو أن يتمثل كخوف مستقبلا.

يكون موقفنا عادة من الخوف موقفا سلبيا، فننعتة بكل الأوصاف السلبية، لكن من جانب آخر قد يكون الخوف سببا بوعينا لواقع كان يشغل بالنا، فهو يكمل ذات الفرد ويكشف له النقائص، فيصبح الخوف شكلا من أشكال حريتنا، وبعدا روحيا، وقيمة الحياة تتجلى لنا من خلال شعورنا بالخوف، واعترافنا بالضعف يكشف لنا قيمة الأشياء، فالخوف بذلك يعطي معنى وقيمة للحياة، ويلتحق بالشجاعة كفضيلة وقيمة كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك من قبل. من بين الأسئلة التي تواجهنا هي: إلى أي مدى يمكن للخوف أن يلعب دورا إيجابيا

في تكوين الوعي الجماعي؟ أو أن يكون سببا في تطوير مشاريع ذات اهتمام مشترك؟ الإجابة على هذه الأسئلة تكون من طبيعة محتواها، أي الإطار الجماعي، بما أن الأمر يتعلق "بالوعي الجماعي" و"الاهتمام المشترك"، فيكون توجهنا بذلك نحو المجال السياسي، ففي نظام سياسي غير قمعي، يعد الخوف فيه ثروة وموردا للمعرفة، الفيلسوف والعالم الاقتصادي

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

الإنجليزي "آدم سميث*" في كتابه: «نظرية العواطف الأخلاقية»¹، أثبت وجود علاقة بين الخوف والتعاطف، وعن طريق التعاطف نشارك الآخرين ونكون أكثر اهتماما بأحوالهم، ويزداد تخيلنا إلى درجة أننا نحل محل الغير، ويصبح الخوف وسيلة للاعتراف بالآخر، وناقلا لتطوير العلاقات ما بين الذوات. ويمكننا من رسم بعد موضوعي لأخلاق خالية من التعالي، وانطلاقا من ملاحظة أولية يمكننا رصد أنه منذ العهد الحجري إلى غاية عتبة العصر الحداثي كان الناس يعيشون جماعيا وتحكمهم علاقات قوية فيما بينهم، وهذا ما يجعلنا نستبعد أي نظرية اصطناعية لمعرفة أو لتحقيق الحياة الجماعية بين الأفراد، فهناك شبه تعاقد، أو بلغة السياسة هناك " عقد اجتماعي".

أخلاق العاطفة كما يصورها لنا "آدم سميث" تبين أن المجتمع المدني يستطيع أن يطور صورة غير التي تختزله في مجرد نسيج ذات منافع اقتصادية، إنه نسيج مشاعر بين الأفراد عن طريق التعاطف.

هذا التعاطف الذي يخلص إليه " سميث" يؤسس على الخوف كشعور أخلاقي، ويتأكد بقدرة كل فرد أن يشعر الطرف الآخر، ومدى تأثيره بمعاناة الآخر بدوره، وهي قاعدة أخلاقية شهيرة: " لا تفعل لغيرك ما لا تريد أن يفعله لك"، وبعبارة أخرى: " يجب أن تحذر جيدا ألا تفعل الشر لغيرك، أو إلحاق الضرر بمحيطك، عندما يكون الشعور بالخوف من الضحايا بدافع الخوف.

يكون الخوف هنا عبارة عن قلق حقيقي، وهنا بالضبط نجد الفيلسوف "هانس يونس" يدرج الخوف في طابع أخلاقي للشعور الأخلاقي كأساس للشعور بالمسؤولية.

¹ Adam Smith, Théorie des sentiments moraux, Paris, PUF, 1999, pp 23-31.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

الخوف له تأثير قوي، كما كان يعتقد "باروخ سبينوزا*" من قبل في كتابه الشهير: "محاولات في سلطات اللاهوت والسياسة"، " الخوف هو تأثير جد قوي، ومن يستطيع التحكم في خوف الآخرين، منطقيا له سلطة التدخل في المجالات النفسية التي تتحكم في أخلاقهم"¹. ماذا لو رجعنا إلى ذات الإنسان؛ سنجد أن للخوف تأثيرا قويا في تسيير عضويتنا لإزالة المعاناة، فمثلا معرفة كيفية تقدير جمال الألم، أو بالأحرى في الألم عندما نكون قادرين على تقبله ونلاحظ بجمال ما يحدث فينا، عندها نفهم ضرورته ومنافعه. لكن الخوف سيبدو كأحسن اختيار لأنه أقل حدة من الألم.

إن الواقع اليوم يطلعنا إلى أن الكثير من الناس أصبحوا لا يبالون ولا يشعرون بالخوف، سواء تعلق الأمر بالبيئة أو بذات الإنسان وكرامته وقداسته، فأصبحت الضرورة ملحة لإعادة حق التوطن أو المواطنة للخوف.

الخوف كما وضحنا أكد لنا أن بعض العواطف ليست قوى عمياء تفرض نفسها على إرادة الأفراد، وإنما هي عناصر لطباعهم، ويؤكد على ضرورة احترام الحياة كما تبدو في كل محيط أو بيئة طبيعية، والنظر إلى الذات الإنسانية على أنها متميزة عن الكائنات الأخرى أثناء التجارب. كما يجب الاهتمام واحترام الغير والتعاطف معهم، ان هذا الخوف على حد اعتبار " يوناس": " انه خوف مبرر لا يقصد به أبدا الجبن، يمكنه أن يبلغ حد القلق، لكنه ليس القلق في حد ذاته، ولا قلقلنا يسيطر علينا إلى درجة الحضر النفسي"².

¹ Baruch Spinoza, Traités des autorités théologiques et politiques, Paris, Gallimard, 2002, p22.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, op.cit. P423.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

ان الخوف اليوناسي يدفعنا إلى السعي قدما لأجل السيطرة على الذات وعلى الطبيعة، ويكسبنا في الوقت ذاته حالة أخرى لا تقل أهمية هو الحذر من تشويه صورة الإنسان وإلحاق الضرر ببيئته وبذاته.

نستنتج من كل ما سبق أن الخوف عند "هانس يوناس" يعد وسيلة كشفية وأخلاقية، يبعث بمبادئ أخرى، كمبدأ الحيطة والحذر وهي تساعد كلها في تأسيس أخلاق المستقبل، الذي قوامه مبدأ المسؤولية كما سنرى لاحقا.

4.1.V من الخوف إلى المسؤولية الأخلاقية

يبقى الإنسان هو الطرف الأساسي في معادلة هذا الوجود، وهو أساس كل تغير نعيشه اليوم، فهو الذي يبني، يشيد ويغير الطبيعة، ويتدخل في كل المستويات منها الفردية أو الجماعية، ويتم ذلك بطريقة يدوية أو باستعمال أجهزة ووسائل صناعية، فهو لا يعرف توقفا وفي كل مرة تزداد تطلعات الإنسان، وتكبر طموحاته معها ليكون سيذا ومالكا للطبيعة على حد تعبير "ديكارت". إن هذا الامتداد الزماني والمكاني تنبعث معه ملامح خطر ستلحق مستقبلا بالإنسانية، ويراودنا سؤال هنا هو:

ما هو حجم الكابوس الذي ستعيشه الأجيال المقبلة إذا لم تتخذ من الخوف كشعور يحرك العقل؟

لنطلق العنان لخيالنا أكثر بعلاقة مع خطر أو مصيبة واردة في "المثالية البيكونية" على حد تعبير "يوناس" جاء فيها: "الخطر في أصله يكون في الأبعاد المفرطة للحضارة العلمية والتقنية والصناعية، وما يمكن تسميته برنامج "بيكون" هو توجيه المعرفة نحو الهيمنة

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

على الطبيعة، واستعمال هذه السيطرة على الطبيعة لتحسين حالة الإنسان¹، لنزيد من حدة خيالنا؛ ماذا لو ارتفعت درجة حرارة الأرض بثلاث أو أربع درجات من سلم "سيلسيوس"، فالأرض ستصبح كوكبا آخر، البحار والمحيطات يصبح كل ما فيها عبارة عن مواد عضوية تؤدي إلى تعفن كل خيراتها وثرواتها مما يمنعنا من التمتع بها، وماذا لو احترقت كل الغابات وانبعثت الغازات وتفتح ثقب الأوزون وأدى ذلك الى فيضانات لا تستطيع الأرض تحملها؟

انها نهاية الحياة، لنقل انها نهاية الإنسان، لأنه هو الأساس في هذا الوجود، لقد سبق وأن أشرنا أنه هو الطرف الأساسي في معادلة الوجود والحياة معا، لأنه هو الذي يعطي معنى لحياته وللوجود، مع نهايته ينتهي كل شيء.

نظرتنا السابقة تبدو رؤية كابوسية، يستحيل أن تكون على هذا المنوال، ومع ذلك "هانس يوناس" لا يخفي تخوفه من إمكانية حدوث الكارثة في إطار المثل الأعلى البيكوني للسيطرة على الطبيعة عن طريق التقنية العلمية ومدى نجاحها، إنها حالة يعبر عنها "يوناس" بحالة "الهروب لمن استطاع" وهو تحد لكل خيال².

ما ألحقته التكنولوجيا المعاصرة من تأثير وتغيير على البيئة الطبيعية والبيولوجية للإنسان أصبح فيها الخوف والقلق أمران باديان، لكن هناك أمرا آخر يفرض نفسه علينا، وهو يتعلق بكيفية التغلب على توترنا وتحقيق المرور من الخوف إلى المشروع، في هذا الإطار بالضبط الفيلسوف "هانس يوناس" يدعونا إلى استيعاب الخوف من أجل التغلب عليه وتجاوزه، لنتمكن عندئذ من تنمية أخلاق المسؤولية التي تكون ضرورية للحضارة التكنولوجية، وتحقيق ذلك في نظر "يوناس" يتطلب منا تحديد أولوياتنا، وتقوية جهودنا من أجل السعي بشكل صحيح

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, op.cit. P267.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Idem. P268.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

لتحقيق المشاريع ذات المنفعة العامة، ويتم بناء مستقبل تكون فيه المسؤولية الأخلاقية بمستوى إمكاناتنا الحالية.

نفهم بذلك أن "هانس يوناس" لا يريد منا أن نشعر بالخوف وإنما أن نتجاوز الخوف إلى المشروع، وهنا تتبين لنا أهمية الخوف، فهو ليس مجرد حالة عرضية، وكل ما يحدث من تغييرات لا يجب تجاهلها، فلكل ظرف متطلباته، وكأن بالفيلسوف "يوناس" يريد أن ينبهنا إلى أن التهديدات ضرورية لجعل الإنسان أكثر وعياً بنطاق أفعاله.

الأخلاق الجديدة التي يقترحها "يوناس" من أجل حضارة تكنولوجية تتحدد أساساً في هذه العلاقة بين الخوف والمسؤولية، وهذا يؤكد لنا افلاس الأخلاق التقليدية، فأخلاق "يوناس" تتمحور حول المستقبل وتقوم على تفكير طويل المدى، الخوف يلعب فيها دوراً محورياً كعامل مجند يسمح لنا من التنبؤ ومنع عواقب معينة لتطبيقات تقنية على حياة الإنسان مستقبلاً.

وتأكيداً للعلاقة الوطيدة بين الخوف والمسؤولية، يقول "يوناس": "... والمسؤولية الجديدة قد ولدت من الخطر الأول، بحثها هو ضرورة بأخلاقيات الحفظ والوقاية، ليس من التقدم والكمال من هذا الوضع، الوقاية قد تكون صعبة نوعاً ما، وربما تتطلب المزيد من التضحيات من أجل تحسين أحوال البشر"¹. مقولة يوناس " هذه تبين لنا أن المسؤولية هي مصدر الشعور بالخوف والحذر أمام أفعالنا في الحاضر والمستقبل، لكن ذلك لا يكون مجرد شعور وإنما يتطلب منا تقديم تضحيات تجاه غيرنا، وخاصة أجيال المستقبل، والغرض من ذلك هو تحسين أوضاعهم وبالتالي حماية الإنسان والطبيعة معاً، وهنا تتأكد النظرة الشمولية لأخلاق المستقبل عند "هانس يوناس" تكتمل فيها المعاني التي قد تبدو لنا مختلفة، فيرتبط فيها الخوف بالحذر وتتحد معالم مبدأ المسؤولية في أخلاق المستقبل من أجل حضارة تكنولوجية، ومعها يتم حفظ

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, op.cit. P139.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

وصون كرامة الإنسان و قدسية حياته ومعها الحفاظ على البيئة الطبيعية التي تمثل الإطار المكاني لوجود الإنسان، " وهذه المسؤولية التي تقتضي منا الحفاظ على الأسس الطبيعية للحياة من أجل تجنب الوقوع في الأضرار والفساد الذي لا يمكن إصلاحه من جديد...¹ في هذه المقاربة الأخلاقية من أجل حضارة تكنولوجية، يجب إعادة التفكير في وضع أساليب جديدة على كل المستويات كما أشرنا إليه سابقا، من المسؤولية الأبوية إلى مسؤولية رجل السلطة (الحاكم)، فكل من تكون له سلطة الضبط أو سلطة التسيير، أفعاله يجب أن تكون مصحوبة بمعنى المسؤولية الأخلاقية، تبدو معالمها واضحة على سلوكيات الأفراد. ما نستخلصه في هذا الجانب هو أن مبدأ المسؤولية يحمل معه معنى ودلالة كبيرين، وصداه يسمع على مسافات بعيدة في الحياة والفكر، وهو مبدأ يحمل في طياته كل ما يمكن أن تحتويه أخلاق المستقبل والفلسفة البيولوجية عند "يوناس"، والشق الثاني الذي يتبع هذا المبدأ بعنوان " أخلاق من أجل حضارة تكنولوجية" أطلعنا من خلاله "يوناس" إلى معنى مسؤولية الحياة الإنسانية في عالم التقنية، أصبح فيها الإنسان يعيش تهديدات كبيرة ومتنوعة، تمس حياته وكيانه.

2.V المبحث الثاني: مبدأ الحيطة والحذر عند "هانس يوناس"

إذا كان العلم بالرغم من كل أنساقه وموضوعيته لا يستطيع أن يحدد بدقة عواقب أفعاله على الإنسان والبيئة، فهو لا يملك الحقيقة، ولا يمكنه أن يوصل الإنسانية إلى الخلاص، وهي الفكرة التي تتفق مع مقولة الفيلسوف "شارلز دو كوننك": " التطور في العلم لا يعني بالضرورة

¹ نعيمة عمارة، مبدأ الحيطة ومسؤولية المهنيين، رسالة شهادة دكتوراه، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2013-2014، ص15.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

تطورا أخلاقيا "1. وعليه يبدو الحذر ضروريا في مثل هذه الأحوال لتضميد الجروح التي أحدثتها العلوم، وإذا كان العلم يبدو اليوم ضروريا في حياة الإنسان باكتشافاته وإنجازاته، فهو لم يعد يحظى بتلك القداسة والاحترام اللذان كان يأملهما فيه الإنسان على أنه السبيل الوحيد لتحقيق سعادته حاضرا ومستقبلا، ومع ذلك يجب أن نعترف أن العلم يعبر عن حكمة الإنسان². إن مبدأ الحذر يعد جسرا نحو المستقبل، فهو يرسخ قواعد أخلاقية تجعل الأجيال المقبلة في مأمن من أي انزلاقات قد تقع فيها التكنولوجيا المعاصر، فهو مبدأ أخلاقي بامتياز.

1.2.V مبدأ الحذر

إن الشهرة التي حققها مبدأ الحذر عند الفيلسوف "هانس يونس" قد تعبر على نوع من الحدس الأخلاقي والفهم العملي الذي يولدها، ومبدأ الحذر بالنسبة ليونس جاء ليكمل مبدأ الخوف، وبهما يكتمل مبدأ المسؤولية الذي يجسد أخلاق المستقبل. يتفق الفلاسفة المعاصرون على اختلاف توجهاتهم أن مبدأ الحيطة والحذر يعد من ابتكارات "هانس يونس" الفلسفية، وهناك من عبر عنه " بمبدأ الاحتياطية" في مبدأ المسؤولية، ويقصد به أن ما حققته الإنسانية من تقدم يتطلب مسؤولية من نوع خاص³. وشهادة الفلاسفة على انجاز "يونس" كثيرة، فالفيلسوف الفرنسي " أوليفي غودار" يثني على "يونس" قائلا: " مبدأ الحذر يرتبط ارتباطا وثيقا بفكر "هانس يونس"، الذي جعل من

¹ Charles De Koninck, Œuvres de Charles De Koninck, Tome1, Philosophie de la nature et de la science, V1, P.U. Laval, Québec, 2009, p335 .

² Charles De Koninck, Idem, p354.

³ خالد عبد العزيز، مبدأ الحيطة في المجال البيئي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، السنة 2014-2015، ص 37.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

الخوف العقلاني أو الروحي من كل ما يمكن أن يهدد الإنسانية أساسا للمسؤولية، هذه الأخيرة أصبحت إلزامية على كل المسؤولين السياسيين¹.

وتتواصل شهادة الفلاسفة على انجاز " يوناس " لمبدأ الحذر، فالفيلسوف " فرانسوا إيوالد " عبر قائلا: " إن كتاب "هانس يوناس" الشهير مبدأ المسؤولية، يمكننا أن نجد فيه الأسس الفلسفية لمبدأ الحيطة والحذر، الذي تم فيه تحديد الإطار الفلسفي الذي يتواجد خلف الوعي الإيكولوجي المعاصر، وفيه بين "يوناس" كيف تمت القطيعة بين العالم القديم والعالم الحديث، وانقلبت علاقة الإنسان بالطبيعة رأسا على عقب، وكان ذلك بفضل إرادة الإنسان وحاجاته التكنولوجية غير منقطعة النظير، وهي نظرة لا تتناسب مع معرفتنا الناقصة..."²

2.2.V أركيولوجيا مبدأ الحذر

إن الكلام على الحذر اليوناني يعود بنا إلى أصوله التاريخية، إذ أن هذا المبدأ وجد في فلسفات ما قبل "يوناس"، وهذا ما يجعلنا نتساءل حول حقيقته؛ هل هو فعلا انجاز "يوناسي"؟ وإذا كان الحذر مصرح به في الفلسفات القديمة، الحديثة وحتى المعاصرة، هل كان بنفس المعنى والدلالة؟ أم أنه يبقى للفيلسوف "هانس يوناس" الشرف في جعله مبدءا فلسفيا يعبر عن روح ما بعد الحداثة، ويعبر عن حدسه الأخلاقي؟

¹ Olivier Godard, Le principe de précaution : une nouvelle logique de l'action entre science et démocratie, Revue philosophie politique, N° 11. Mai 2000, p19.

² François Ewald, L'expérience de la responsabilité, Thomas Ferenczi, Paris, 1995, p35.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

كلمة " الحذر " جاءت بمعاني كثيرة ومتعددة في الفلسفات القديمة والحديثة، ويعد الفيلسوف الألماني "كانط" أول من سحب كلمة "الحذر" من فلسفته الأخلاقية، لان الإلزام فيها افتراضي¹.

في الفلسفة اليونانية كانت كلمة الحذر تعد من الكلمات ذات معنى ودلالة كبيرين، وكانت الحكمة المتداولة عند اليونانيين تقول: " الكلمات الكبيرة تثير مصائب كبيرة".

الكلام عن الفلسفة اليونانية يستوقفنا حتما عند "أرسطو" الذي يرد بعض الفلاسفة كلمة "حذر" إليه، وكان يعني بها الحكمة، لكن المشكلة الفلسفية تطرح عادة من المشكلة اللغوية المرتبطة بمعنى الكلمة، ولذلك كلمة الحكمة لا تعني دائما الحذر، وإنما تعني شيئا آخر غيره. وحتى يتسنى لنا فهم جذور معنى هذه الكلمة يجدر بنا أن نحدد أخلاق "أرسطو"، والتي حددها في ثلاثة أنواع وهي: -أخلاق إلى "أوديم"، -أخلاق إلى "نيقوماقوس"، و"الأخلاق الكبرى". ولكل نوع من هذه الأخلاق خصائصها، لكن "أخلاق إلى نيقوماقوس" هي التي أخذت كثيرا بكلمة "الحذر" الذي له علاقة وطيدة بالميتافيزيقا الأرسطية.

كما تجمع كتب الفلسفة أن الفضل يعود إلى الفيلسوف " بيير مكسيم " الذي بين أن مشكلة "الحذر" تعود إلى حوار كبير كان يطلق عليه القدماء "حول الممكنات".

أرسطو" أحد أبرز تلاميذ "أفلاطون" لم يخف معارضته لأستاذه في بعض المسائل الفلسفية، لكنه واصل إنجازات أستاذه إلى حد الدعاء لنظرية أفكار أفلاطون في الميتافيزيقا، حيث بين أن هذه الأخيرة صممت لإنقاذ العلم والمعرفة، وأن "أفلاطون" استعمل "الحذر" لتعيين طابع المعرفة الثابتة للكائن الثابت.

¹ Emmanuel Kant, Fondement de la métaphysique des mœurs, Trad. V. Delbos, Paris, Vrin, 1992, p127.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

لتأسيس نظريته في المعرفة، بين أرسطو " أن المعرفة لا تكون ممكنة إلا بالراحة والتوقف، وعن طريق استرضاء الروح بعد الاضطراب، الذي هو طبيعي بالنسبة لشخص أن يصبح عالما أو عارفا"¹.

يبقى أن نشير أن كلمة "الحذر" تظهر في كل مرة عند "أرسطو" لتشير إلى العلم الملموس أو بعبارة أخرى الثابت، وهو يمثل أعلى شكل من أشكال المعرفة"².

الحذر الأرسطي يقودنا إلى المعرفة، لكن في مجالات أخرى يبدو الحذر بدلالات جديدة، فمثلا في "أخلاق إلى نيقوماقوس" فهو يعني فضيلة الجزء الحسابي أو الانتقائي من الروح"³، الخوف هنا لا يعني الحكمة الميتافيزيقية وإنما هو معرفة منظمة " للبحث عن الخير الإنساني...لمعرفة ما هو في مصلحتهم"⁴. الحذر لا يبدو هنا كأعلى شكل للمعرفة، لأن الإنسان ليس أفضل ما هو في هذا الوجود..."⁵، فالحذر لم يعد معرفة تأملية، وإنما معرفة مناسبة وفعالة يجب الاحتفاظ بها كما هو عموما، وقامت التقاليد اللاتينية بنقلها للمجتمع الغربي تحت اسم "الحذر".

ما يمكن استخلاصه من أركيولوجيا الحذر عند "أرسطو"، هو تطور هذه الفكرة في فلسفته الأخلاقية المتتالية، ففي "أخلاق إلى أوديموس" جاءت لاهوتية، أي أن الله هو المنظم لكل فعل بشري، لكن يصبح أكثر استقلالية في " أخلاق إلى نيقوماقوس " أين أصبح الله أكثر

¹ Aristote, Physique, V7, 3, 247, b, 11, 18, Voir aussi, Topiques, V8, 163, b 9.

² Pierre Aubenque, La prudence chez Aristote, Paris, PUF, 1963, p7.

³ Aristote, l'éthique à Nicomaque, v5, 1140, P26.

⁴ Aristote, l'éthique à Nicomaque Idem, 1141, P5.

⁵ Aristote, l'éthique à Nicomaque. Idem. 1141, P20.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

صمتا، في الوقت الذي أصبح الإنسان يعتمد على قدراته الخاصة لتنظيم حياته على الأرض، وبذلك يكون "أرسطو قد نزع عن الحذر كل معنى نظري"¹، يتمثل في توجيه عمل الإنسان نحو ما هو مفيد وخير في الحاضر والمستقبل.

الكلام عن الحذر يكون دائما مرتبطا بكلمة أخرى تكاد تكون ملازمة له وهي: الحيطة، إلى درجة أن قال أحد الفلاسفة: "الحيطة هي بنت الحذر":

أما الحذر فهو يعني: أن تفكر في نطاق وعواقب الأفعال، وأخذ الإجراءات الضرورية حتى لا تتسبب في إلحاق الأذى بالآخرين، ويسجل ذلك كله في إطار الحذر.

بينما مبدأ الحيطة فهي تعبر: عن طلب اجتماعي لتقليل الأخطار.

والتقارب بين الحيطة، الوقاية والحذر يمكنها أن تبرر استبدالنا مبدأ الحيطة بمبدأ الحذر الذي يجمع في نفس الوقت الحيطة والوقاية..."².

إن الفكرة التي تولدت عن أركيولوجيا الحذر "الحيطة بنت الحذر" كانت منطلق عمل العديد من الفلاسفة، وكان منطلقها محاولة بناء جسر بين الحذر الأرسطي ومبدأ الحيطة، لكن ما يجب الإشارة إليه هو الاختلاف الكبير الموجود بين الحذر الأرسطي والحذر في الفلسفة المعاصرة، فإذا كان الحذر عند "أرسطو" هو عبارة عن فضيلة يسحب عنه أي معنى نظري، فهو يرى أن الحذر هو تصرف مصحوب بقاعدة حقيقية قادرة على التصرف في مجال ما هو جيد أو سيء للكائن الإنساني..."³، فهذا الحذر الأرسطي كما يبدو محروم من أي فكرة عن حساب النتائج التي يجسدها الإنسان الحذر، الذي لا يتصرف إلا وفق حسابات لعواقب أفعاله.

¹ Werner Jaeger, Aristoteles, Seiner, Entwicklung, p85.

² Philippe Kourilsky, Du bon usage du principe de précaution, Paris, Odile Jacob, 2002, pp48-49.

³ Aristote, L'éthique à Nicomaque, Op.cit. V6, 1140.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

وهذا ما يجعلنا نعتقد أن القول "الحيطة هي بنت الحذر" هو مجرد توهم كلاسيكي، لأن الحذر المعاصر يقوم أساسا على حساب النتائج كما يرى ذلك الفيلسوف "هانس يوناس"¹. ما تجدر به الإشارة هو ما حققته الفلسفة المعاصرة أنها استطاعت إعادة بناء وإنجاز أركيولوجيا مفهوم الحذر الأرسطي الذي تولدت عنه أخلاق عملية على حساب أخلاق تأملية، إلى حد القول: "... الحذر كان فضيلة حمقاء، لفترة من الزمن كان يعتقد أنه يفيد بدعوة الإنسان فقط بتجاوز حدوده، والذي أراد دون المزيد من التأخر تحقيق ملكوت الله على الأرض، ولكننا نكتشف اليوم أن العالم يسير نحو مستقبل غير مؤكد"²

3.2.V من مبدأ الحيطة والحذر إلى مبدأ أخلاق المسؤولية العلمية.

سبق وأن أشرنا في فصول سابقة ان الأخلاق اليونانية جاءت نتيجة التطور العلمي والتكنولوجي وما ترتب عنها من تأثير على البيئة والإنسان، وفي سياق بحثنا هذا كان توجيهنا صوب ظهور البيوتكنولوجيا وما ألحقته من تأثيرات كبيرة على الإنسان وكرامته وقدسية حياته؛ وتهديد حياته وهو ما تطلب أخلاقا جديدة لإنسان جديد، إلا أن هذه الأخلاق جاءت لتلبي مطالب الإنسان وإيجاد البدائل، فتطلب ذلك حذرا كبيرا، ومنه يسير الإنسان نحو التقدم والرقى، لكن في حدود ما يسمح به الحفاظ على الطبيعة وعدم إلحاق الضرر بها، وهو واجب المسؤولية³، انها مسؤولية ملقاة على عاتق كل إنسان يشترط فيه الوعي بكل خطر قد يلحق بالطبيعة كلها وبالإنسان خاصة، إنه الخطر الأكبر على حد تعبير الفيلسوف الوجودي الألماني

¹ André Tosel, De la prudence des anciens comparée à celles des modernes, Paris, Les belles lettres, 1995.

² Pierre Aubenque, La prudence chez Aristote, Paris, PUF, 1963, pp2-3.

³ Hans Jonas, Le principe responsabilité, op.cit. P35.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

"كارل ياسبرس"¹، وهو خطر ألحقته التكنولوجيا بالإنسانية عموما من جهة، وما ألحقته البيوتكنولوجيا المعاصرة بالإنسان خصوصا من جهة أخرى.

العديد من الفلاسفة المعاصرين يرون " ان كل من الحيطة، الخوف والعقل مرتبط أحدهم بالآخر، الحيطة تقوم باستقبال الخوف الذي ينبع عن المجتمع، وعدم فرض انكار المخاطر عليه."².

في حين هناك من يعتبر أن مفهوم الحيطة لا يرتبط بالخوف المرضي، وإنما هو خوف يمكننا وصفه أنه خوف مخطط ومبني، والتي يعبر عنها "يونس": " الاستعداد الشخصي، لتسمح لنفسك من التأثر"³. أصبح مبدأ الحيطة يمثل عاملا أساسيا في مجالات تكون عواقبها وخيمة مثلما هو في مجالات الصحة، الأمن والدفاع العسكري، لكن مبدأ الحيطة لا يمثل حلا للمشاكل التي تطرحها التكنولوجيات المتقاربة، وإنما يحتل مكانة وسيطة بين المشكلة والحل... وتترك مسألة عدم اليقين والمخاطر في المجتمع دون أن تسيّر هي بحد ذاتها إلى الحل الإيجابي الذي سيكون مناسباً... فتبدو كمعلم جديد يدعو إلى إعادة تعريف شروط العمل في المجتمعات الحديثة... نسبة إلى أولئك الذين اعتادوا أن يعثوا بمصير الغير أو المصير المشترك دون الإشارة إلى المعنيين.⁴، كما يؤكد الفيلسوف "أوليفي غودار" أن مبدأ الحيطة "يتطلب أخذ مسافة عن الدليل العلمي، سواء كان الدليل لها أو عليها"⁵.

¹ Karl Jaspers, La bombe atomique et l'avenir de l'homme, Buchet-Chastel, Paris, 1958.

² Olivier Godard, Le principe de précaution dans la conduite des affaires humaines, Paris, INRA, 1997, P22.

³ Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P51.

⁴ Olivier Godard, Le principe de précaution. Ibidem. P22.

⁵ Olivier Godard, Le principe de précaution. Idem, P29.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

إن مبدأ الحيطة والحذر يحدد الأضرار حالة بحالة أو أي خطر مقبل، لكن هذا الموقف لا يشير إلى التسيير الحذر، فهو يركز على عامل الأخطار، وعلى عكس ذلك تماما تبدو المسؤولية اليونانية أكثر اعتدالا، ويكون فيها مبدءا الحيطة والحذر بمثابة الأجراس التي تفرع، أو صفارة إنذار لتحذير الإنسانية من الأخطار المحدقة التي من شأنها أن تلحق أضرارا بالإنسانية في الحاضر أو المستقبل، فيحق لنا أن نقول ان الأخلاق اليونانية تولد الوعي لدى الإنسان في الحاضر، وللأجيال المقبلة مستقبلا، فهي وقاية بمعنى الحذر، تنبه الإنسان إلى ضرورة التفكير من كل المخاطر حاضرا ومستقبلا، وهذا ما جعل من المسؤولية اليونانية دعامة أساسية لأخلاق المستقبل، فالفيلسوف " آلان اتشيغويين" مثنيا على الأخلاق اليونانية في كتابه الشهير (الأخلاق الحقيقية تهزأ من الأخلاق) يقول: يمكن لنا أن نتصور مفهوما آخر للمسؤولية يكون بين القانون والأخلاق، وأعني بذلك "المسؤولية اليونانية" التي تعد أحسن تفسير لمبدأ الحيطة والحذر، واستشراف المستقبل بطريقة صارمة وذكية، والاهتمام بأجيال المستقبل¹.

إن الأخلاق اليونانية تبقى بذلك علامة متميزة، لم تسبقها أخلاق أخرى إلى مثل هذا التصور الذي أخذت فيه بعين الاعتبار الشروط الأساسية للحياة مستقبلا لتجنب الأخطار التي قد تتلقاها الأجيال المقبلة مستقبلا، خاصة إذا تعلق الأمر بالنوع البشري الذي أصبح معرضا للتهديد في ظل الحضارة التكنولوجية والبيوتكنولوجية المعاصرة التي أدخلت الإنسان وحضارته وتاريخه في قاموس النهايات، فتبقى مسؤولية الإنسان كبيرة إذا أراد أن يحافظ على كيانه ووجوده وكرامته، فهذا كله كما سبق وأن أشرنا إليه يبعث بالخوف والحيطة والحذر، بشرط أن

¹ Alain Etchegoyen, La vraie morale se moque de la morale : être responsable, Ed. Le Seuil, Paris, 1994, p114.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

يكون الوعي قوام الإنسان المسؤول، ويكون ممزوجا بالأمل ويتحقق بذلك "مبدأ المسؤولية" كأساس لأخلاق المستقبل كما يريد الفيلسوف " هانس يونس"، وعندها نستطيع أن نقول إن مبدأ الحيطة والحذر قد نقلنا الى أخلاق جديدة، هي "أخلاق المسؤولية".

مما سبق قوله لا يعني ذلك أن المسؤولية العلمية التي نريد وضعها في الواجهة تعني أن العلم يعد مسلكا سيئا، أو أن ننكر الآثار الحسنة التي قدمها العلم للإنسانية. أصبح العلم المعاصر، خاصة في العشرية الأخيرة من القرن العشرين، وأوائل القرن الواحد والعشرون، نشاطا مقدسا أفلت عن كل نظرة نقدية، لذلك موضوع هذه المسؤولية يتطلب دق ناقوس الخطر لنظام علمي تحت التأثير. لكن ألا يعني ذلك أننا نقع في انزلاق كبير وخطير، لأننا بصدد سحب خاصية أساسية من خصائص العلم ألا وهي: الموضوعية، ويعود بنا الكلام إلى تعريف العلم بالصيغة التي قدمها " بريخت" حين قال: " العلم هو الجهد الدائم لتسليط الضوء على الطبيعة غير العلمية للتأكدات العلمية"¹، وهذه المسألة للمعرفة العلمية ستأخذنا حتما إلى تصورات "كارل ماركس" من قبل حيث يرى أن العلم لا يأخذ معناه الحقيقي إلا في إطار مجموعة كبيرة من الحقائق المحيطة به وهي التي تقوم عليها الحياة الإنسانية ككل، منها السياسية، التاريخية، الفلسفية، الاقتصادية، الاجتماعية... الخ لكن بالمقابل هناك من يرى عكس ذلك تماما، العلميون يرون " ...أن العلم وحده قادر على أن يقدم للإنسان الحقائق الحيوية التي بدونها الحياة لا يمكن تحملها، ولا يكون المجتمع ممكنا..."²

¹ Jean-Marc Lévy-Leblond, La vitesse de l'ombre, Paris, Seuil, 2006.

² Ernest Renan, L'Avenir de la science, Paris, Flammarion, 1999.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

3.V المبحث الثالث: قراءة نقدية تقييمية لأخلاق المستقبل عند "هانس يوناس"

كل الدراسات الأخلاقية كانت تنصب على أفعال الإنسان وسلوكاته في الحاضر، وعلى أبعد تقدير في الماضي، لكن الأخلاق اليونانية هي وحدها تبقى أخلاق المستقبل، وهي ترتبط بالإنسان وبيئته حاضرا ومستقبلا، وذلك على خلاف الأخلاق القديمة التي كانت ترد إلى المعرفة في الفلسفة اليونانية، كما أن الأخلاق كان لها بعد سياسي، كما ورد في كتاب "الجمهورية": " الفيلسوف يجب أن يصبح ملكا، والملك يجب أن يكون فيلسوفا"، فالحكم يرجع إلى من يمتلك المعرفة، وهذا ما جعل "أفلاطون يركز على التربية الأخلاقية منذ الصغر، لتفادي أي استقلالية عن الهيكل الاجتماعي، أو الانفراد بحياة ذاتية خاصة، فالسعادة تكون عامة بين جميع أفراد المجتمع، لكن بدايتها تكون انطلاقا من تربية الفرد.

أما الأخلاق اليونانية فنجدتها تتوجه إلى السياسة العامة، فالسلطات الجماعية هي وحدها تستطيع أن تمارس السياسة، فهي وحدها تمتلك القوة والمعرفة الحقيقية لتحقيق توازننا بين الأفراد على قدم المساواة.

الكلام عن الأخلاق اليونانية يكون كغيرها من الأخلاق الأخرى، فهناك ما هو لها وهناك ما يرد عليها، لذلك ارتأينا في سياق بحثنا هذا أن نعرض بعض الانتقادات التي وجهت للفلسفة البيولوجية عند "يوناس عموما، وأخلاق المستقبل والمبادئ التي استندت إليها خصوصا، ثم بعد ذلك نقدم تقييما لأخلاق الفيلسوف "هانس يوناس" وآثارها على الفكر الفلسفي المعاصر، وما كان يتطلع إليه من وراء فلسفته الأخلاقية.

1.3.V نقد الأخلاق اليونانية

ما يمكن أن نقوله حول أخلاق "هانس يوناس" هو قلقه الكبير لعدم قدرة الإنسان التحكم في التكنولوجيا، والآثار الخطيرة الناتجة عن عدم هذه القدرة من التحكم، فهو يقترح من أجل انقاذ الإنسان والبيئة أن يكون وعي سريع وشعور بالمسؤولية، وهذا يعني أن الفرد وهو تحت

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

طائفة مبدأ المسؤولية عليه أن يعمل بحكم الواجب، وأن سعى إلى وقف كل الأعمال العدائية الموجهة ضد الطبيعة عموماً، وطبيعته الإنسانية هو خصوصاً، والتفكير في كل عواقب أفعاله للحياة مستقبلاً.

لكن "يوناس" نفسه يعلم جيداً أن الفرد لا يمكنه أن يغير كلية أسلوب حياته بالكيفية السريعة التي سبق وأن أشرنا إليها في العديد من المواقف بحكم طبيعته هو كإنسان من جهة، ثم إلى التسهيلات التي قدمتها له التكنولوجيا من جانب آخر، فهل سيتخلى عنها بهذه السهولة بحجة أن الأجيال المقبلة قد تعاني من ذلك وأنها ستعيش في شقاء؟

ثم يضع "يوناس" مبدءاً يعتقد أنه يكون كفيلاً بتحقيق ذلك، ونعني به مبدأ الخوف (تشكل الخوف)، ففي نظره، من أجل تحقيق هذا التغيير المنشود يجب أن يكون المواطن خائفاً، وأحسن "سيناريو" لكي يشعر بهذا الخوف عليه (المواطن) أن يتوقع أشنع النتائج لكل فعل من أفعاله، وكلما كانت هذه النتائج مرعبة للحياة مستقبلاً، وجب علينا تجنب العمل في هذا الاتجاه.

لكن هل يمكن أن يتحقق ذلك بتلك السهولة؟ ان "يوناس" نفسه يعترف أن المسؤولية يجب أن تكون مرتبطة مباشرة بالمعرفة والسلطة، وليس باستطاعة أي فرد أو مواطن أن يتحرك دونهما، والمواطن لا يعلم كل شيء، حتى لو كان يعلم فهو لا يستطيع دائماً أن يفعل، لأنه في كثير من الأحيان لا يملك السلطة الكافية لذلك، في حين أن رجل السلطة (الحاكم) تكون زمام المبادرة بيده، وبحكم مسؤوليته على كل المواطنين فهو يتصرف حتى في إرادتهم في الفعل، مثلما يفعل الأب مع أولاده.

لو أننا اعتقدنا أن مواطنا يمتلك معرفة؟ فكيف له أن يكون متيقناً أن تلك المعرفة كافية، وأنه بإمكانه أن يعمل بطريقة مسؤولة؟ قد ينتابه الشك فيدفعه ذلك للامتناع عن العمل؛ فالأفضل أن يترك الأمر للحاكم الذي يعلم ويستطيع تحقيق ذلك، أليس هو في أحسن وضع

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

لاتخاذ القرارات المناسبة لمواطنيه؟ وسؤالنا هنا هو: كيف يمكننا أن نعيش مع الخوف، إذا كنا نشك في معرفتنا وسلطتنا؟ وما هو هامش مجال أفعالنا إذا كنا نخاف ونحن نشعر بالعجز؟ إن إجابتنا عن هذه الأسئلة قد تتحدد بعيدا عن "هانس يوناس" وإنما تجد لها معنى ودلالة في "خطوط أساسية لأنطولوجيا الذات"¹. إن مفهوم "المعنى" لا يمكن دائما اختزاله كما هو الشأن عند "فيتجنشتاين" إلى مفهوم المعنى الذي يمكن اسناده إلى حالة من الحقيقة المنطقية أو المعرفية، لأن في هذا الإطار كل اقتراح لا يخضع لمعايير الحقيقة المشروطة يعتبر بدون معنى.²

السؤال الجوهرى في هذه المسألة هو ضرورة كل فرد أن يضبط باستمرار أفعاله من أجل حياة حقيقية وجديرة بالإنسان في الطبيعة، وهذا ما يجعلنا نؤكد ان الحميمية هي المجال للإجابة عن تساؤلنا المحوري، سنضع لذلك تصورين متناقضين:

أولهما: يتمثل في مجاله الفيزيقي على شكل زلزال في باطن الأرض، تنبعث منه فجأة طاقة تتغير معها صفائح الأرض الداخلية، تتبعها تغيرات على سطح الأرض.

وثانيهما: يتمثل في مجاله الميتافيزيقي على الواقع الإنساني، وفيه يتغير الإنسان، على شكل زلزال داخلي، تنبعث منه طاقة من داخل الإنسان، كإشارة لقطيعة مع ممارسات قديمة كانت ترد إلى الوسط الطبيعي. وبذلك كلمة زلزال أعطت معناها إلى كل تغيير يرجع لكافة العوامل المحددة داخل الذات من أفعال وسلوكيات الأفراد من أجل تغيير نمط الحياة.

¹ A. Stanguennec, La dialectique réflexive, Lignes fondamentales, d'une ontologie de soi, Lille, Presses Universitaires du septentrion, 2006, P09.

² A. Stanguennec, La dialectique réflexive, Lignes fondamentales, d'une ontologie de soi, Idem. P10.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

كل أخلاق إنسانية كما هو في أخلاق المسؤولية تتطلب من كل فرد ان يقبل تحديد ذاته، وأن يعترف بخضوعه للطبيعة ولغيره. علاقة الإنسان بوسطه الطبيعي ينطوي على مجموعة من الواجبات، النزعة التقييدية للواجب التي تجعلنا دائما ملزمين بأحكام العقل، الأخلاق، القانون، أو الظروف البيئية لحماية الإنسانية، في حين أن المسؤولية الأخلاقية تستلزم قبل كل شيء الأفعال المستوحاة بحرية.

اخلاق المسؤولية اليونانية تضعنا بين رفض الشكلية الكانطية، فيما يتعلق بموضوع أخلاق المستقل والمسؤولية، وهشاشة التطوع كما هو عند "أرسطو" مثلا، كقاعدة أخلاقية. الأخلاق عند "يوناس" تركز على توسيع المسؤولية تجاه الطبيعة والأجيال القادمة، يجب عليها في هذه الحالة أن تتحفظ بأدنى ميل إلى المطلق، لأنها أخلاق للبناء والتطوير في اتصال مباشر مع الواقع الحالي للعالم، وهو واقع معقد من الصعب التنبؤ به، ويجب تسييره وفقا للظروف، ولا يستسلم للحنين إلى نعيم مفقود، ولا إلى أوهام مستقبل يخلو من المشاكل والأحزان، في حدود امكاناتنا وقدراتنا الحقيقية للفعل في الوسط الطبيعي، وهو الأمر الذي يتطلب منا قبول، في مقابل الإغراءات القوية، الطابع النسبي للمعايير التي وضعها الإنسان، نحاول تقدير الحدود الملموسة للواجب حتى نتمكن من تقدير ما يمكن القيام به إضافة إلى ما يجب علينا القيام به بشكل فردي أو جماعي.

لقد كانت أخلاق المستقبل عند "يوناس" محل اهتمام العديد من الفلاسفة، لكن كثيرين منهم واجهوها بانتقادات، خاصة ما يدخل منها في التقاليد الفلسفية الغربية الحديثة والمعاصرة إذ نجد فلاسفة فرنسيين في مواجهة الفيلسوف الألماني "هانس يوناس"، فعلى سبيل المثال لا على سبيل الحصر، الفيلسوف "أندري دوما" يشك في حقيقة أخلاق "يوناس": هل بلغت تلك الدرجة من القطيعة مع الأخلاق الحديثة مثلما فعل "كانط" في ثورته على الأخلاق القديمة؟ في نظر "أندري دوما" ان كل ما جاء به "يوناس" يوحى بالقطيعة، فهو استقرأ تاريخ الأخلاق

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

منذ العصر اليوناني الذي كانت فيه الأخلاق محصورة على المحبة والرضا بالموت، في حين أن أخلاقه (يوناس) هي أخلاق المستقبل، وهي تقوم على المعرفة والتضحية والتنبؤ، كل ذلك من أجل بقاء الإنسانية والمحافظة على الإنسان مستقبلاً، ثم بعد ذلك تطرق "يوناس" إلى فكرة قصر الحياة الحاضرة وأنها سريعة الزوال، وبين ما يخطط له على الأمد البعيد، لكن ما لم ينتبه له "يوناس" أن كل ما قاله يدخل في سياق تطلعات ومجرد أمنيات قد تصبح أوهاماً¹.

بعض الفلاسفة يرون أن يوناس يبدو كمشرع أخلاقي، فهو يريد تأسيس أخلاق جديدة، من شأنها انقاذ الإنسانية مستقبلاً، والسؤال المطروح هنا: ألا تصبح بذلك سياسة، خاصة أنه يعتبر مسؤولية رجل السلطة (الحاكم) هي المسؤولية الأصلية وأساس كل مسؤولية، فيعود بنا هذا الأمر إلى الظروف الاجتماعية والسياسية الصعبة التي عاشها الفيلسوف " هانس يوناس " نفسه، فيكون كلامنا عن أخلاق يوناس هو عبارة عن أمني طيبة "... فنقول إننا لم نعد ندرك حقيقة أحوالنا ونحن محاصرون بين التطور التكنولوجي وبطالة وتنافس دولي شديد...فهذه الأخلاق التي تدعونا إلى استمرارية وبقاء الإنسانية ما هي إلا دعوة للبر والتقوى"².

الفيلسوف "جلبرت هوتوا" بدوره يعتبر أخلاق المسؤولية عند "يوناس" عبارة عن توجه سياسي بما أن هذه المسؤولية تتجه نحو المجتمع بأكمله، والفعل الجماعي فيها يطغى على الفعل الفردي، وفي تلك اللحظة مستقبلاً سنتساءل مرة أخرى: ما مصير تلك الأخلاق؟ وهل ستفكر تلك الأجيال بمنطق تلك الأخلاق التي تم التفكير لها في وقت مضى؟ أليس لكل جيل ظروفه ومنطقه، وحتى أخلاقه الخاصة به؟ أليس هذا ما يؤكد الواقع اليوم؟ أو كذلك ما تؤكدته فكرة صراع الأجيال؟؟

¹ Bernard Sève, Hans Jonas et l'éthique de la responsabilité, Esprit N°165, Octobre 1990, p89.

² Bernard Sève, Hans Jonas et éthique de la responsabilité, Idem. P193.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

لكل هذه الأسئلة وغيرها، لا نجد إلا ردا واحدا هو: إنه مجرد انطباع صوري، وكل المخاطر التي نتخوف منها هي مجرد تنبؤات لأوضاع محتملة، قد لا تكون الأسباب التي كنا نتوقعها هي نفسها التي ستظهر في وقت لاحق. أليست التكنولوجيا والعلم متلازمان في تطور مستمر؟! الجواب عن ذلك سيكون مبتذلا: لا يمكن التصدي لها أو توقيفها، لأن هناك معامل أساسي في معادلة أخلاق المستقبل، وهو حاجات ومصالح الإنسان التي لا تتوقف، وهي تعبر في نفس الوقت عن روح الحضارة التقنية المعاصرة التي ينصب انشغالها الأساسي على تلبية تلك الحاجات وتحقيق السعادة التي يطلبها الإنسان منذ أقدم العصور.

ثم ما أدرانا أن الأخلاق نفسها قد تعطل تلك المساعي الإنسانية؟ أو تقدم مقاومة لتلك الحقوق المكتسبة التي طالما ناضل أو مات من أجلها علماء وفلاسفة كبار دونت أسماءهم ووضعت لهم نصب، لكن لفترة معينة من الزمن.

ماذا لو نظرنا إلى اخلاق "يوناس" نظرة متأنية، هل هي تصلح للبشرية جمعاء أم أنها تخص مجتمعا إنسانيا خاصا؟ بصريح العبارة؛ هل ستكون نظرتنا إليها نظرة أفقية؟ بمعنى أخلاق عامة تصلح لكل زمان ومكان؟ عندها سيعد ذلك تصورا طوباويا، لا يخلو من الأحلام الزائفة.

أم أننا سننظر إليها نظرة عمودية؟ عندها ستتطبق أخلاق المستقبل على الأمم والمجتمعات المتقدمة التي هي في أعلى مرتبة، وتصبح التكنولوجيا والبيوتكنولوجيا من خصوصيات مجتمعات متطورة، يحق لها التفكير في الرجل الآلي، الاستنساخ، النسالة، الموت الرحيم وحتى النانو-تكنولوجيا والآلة إنسان (السيبورغ)، لكن ماذا سيتبقى للبنية التحتية (على حد تعبير ماركس) التي تعيش البؤس والفقر والتعاسة، التي لا تحلم بمستقبل تكنولوجي أو بيوتكنولوجي، وإنما تبحث عن كيفية سد رمقها، وتأمل في السعادة المفقودة، وفي أبعد الاحوال هذا المستقبل المنشود الذي ان تحقق لها (البنية التحتية) سيكون بعد قرون؟. سنتساءل عندها

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

في أي كوكب جديد تسكن تلك الطبقة؟ أو البنية الفوقية التي تكون قد تخطت خطوات عملاقة في الزمان والمكان. فالمجتمعات الضعيفة بدلا من أن تبحث عن أخلاق المستقبل التي تعود بنا في هذه الحالة إلى أخلاق القوة (نيتشه)، المتمثلة في أخلاق السادة والعبيد، عليها أن تجد قوانين تحقق لها العدالة الاجتماعية وحفظ كرامة الإنسان.

ألا يحق لنا أن نساير الفيلسوف الفرنسي المعاصر "جيروم دو غرامون" (Jérôme de Gramont) في تصوره ان هذه المسؤولية اليونانية تمارس بلا روية ولا تمييز؟ فهي تبدو موجهة نحو الجميع ونحو لا أحد، فهي لا تعني أي صديق أو قريب بعينه، فهي دون تعيين أو تبصر، فأخلاق المستقبل هي مجرد أخلاق¹، و"يوناس" ذاته يصرح بهذه الحقيقة دون أن يعاين عمق معانيها، حيث يقول: " الذي يؤدي الدور هنا ليس أنا ولا أنت، ولا الفاعل الفرد، إنه الفعل الجماعي، إنه مستقبل غير محدد..."²

ونحن نتكلم عن أخلاق يوناس المستقبلية لا يمكن أن ننسى " التضحية " التي اعتبرها أساس كل أفعالنا حين قال: "إذا لم نكن مستعدين للتضحية، ليس هناك أي أمل"³.

أليست هذه التضحية ذاتها من أكبر الفضائل الأخلاقية التي بنيت عليها أمم وحضارات، ومات من أجلها أفراد وزعماء وعلماء عبر تاريخ الإنسانية الطويل؟ ثم من خول لنا أن نضحي بالأجيال الحاضرة؟ وأي أخلاق اعتمدناها حتى يكون ضميرنا مرتاحا؟ وهل نحن في الحاضر أمام عقول لا تفكر وأمام إرادة منعدمة؟ وكيف سيكون رد فعل اولائك الأفراد وتلك الشعوب

¹ Jérôme De Gramont, Une reformation de l'impératif moral d'après Hans Jonas, Revue Enseignement philosophique, N°06, 2004, pp33-34.

² Hans Jonas, Le principe responsabilité, Op.cit. P37.

³ Hans Jonas, Une éthique pour la nature, op.cit. P119.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

عندما تنتفض وترفض واقعا أو أخلاقا لا تصلح لها؟ إننا نكون قد أرسينا قلقا دائما، فنقول عندئذ: " إن الخوف من الحاضر أكبر من الخوف من المستقبل"¹.

إن أخلاق "يوناس" بقدر ما حاربت الطوباويات الحديثة، فهي ذاتها تمثلت في طوباوية خاصة؛ مفهوم الواجب الذي يخرج عن إطاره الزمني يعد دليلا واضحا، فنحن نلزم أنفسنا في الحاضر ومنتظر نتيجته في المستقبل المجهول، كمثل الذي يبيع جلد الأسد قبل أن يصطاده، أو من يبيع حصته من السمك قبل أن يقوم بصيده، فلا أحد منهما يعلم حجم المخاطر التي قد تواجهه، ولا حتى إن كان سيجد فريسته أو سمكه في البحر، ضف إلى ذلك ماذا لو وجد كل من بائع جلد الأسد أو صياد السمك أن غنيمتهما هزيلتين؟ فكل ما كانا يأملانه سيصبح مجرد أوهام. أليست أخلاق "يوناس" من هذا القبيل؟ وكذلك كيف نفسر اننا نشرع للمستقبل ولأجيال مقبلة ونحن نصارع واقعا بكل تناقضاته، لم نجد له حولا آنية بعد؟

أما الطوباوية الثانية التي وقع فيها الفيلسوف " هانس يوناس " هي: توقع التهديد مستقبلا: الإنسان لكي يتكلم عن التهديد يجب أن يعيش واقع التهديد نفسه، في حين لا نجد أي صلة بين الخيال والواقع، فقد يكون توجسا أو توهما ينال بصاحبه، لنقل: "إنه معيار لامعقول حيث أن تحقيقه بصفة عامة مستحيل"².

سبق وأن أشرنا أن "يوناس" كان في كل مرة يحذرنا من عواقب الثورة التكنولوجية عموما والثورة البيوتكنولوجية خصوصا، فنظرته كانت تشاؤمية إزاء التقنية، لكن في مثل هذه اللحظة ألا توجد مقاومة لكل تقنية قد تفسد حاضر الإنسان أو مستقبله، فبقدر تطور التقنية والخوف من

¹ Jean Marie Thévos, Générations présentes, générations futures, Quelles priorités ? Denis Muller et René Simon, Nature et descendance H. Jonas et principe responsabilité, Genève, Labor et Fides, 1993, p79.

² François Ewald, Le retour du malin génie, Esquisse d'une philosophie de précaution, Op.cit. p119.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

استعمالاتها، قد تتطور معها نسبة الوعي، وبالمقابل حتى في حالة التطور الإيجابي حاضرا، ما أدرانا أن يكون الأمر بتطور سلبي للتفكير الإنساني مستقبلا¹.

من جانب آخر الحل السياسي الذي يقترحه "يوناس" لا يفي بجميع توقعاته، إن لم نقل إنه حل فاشل، لأننا لم نجد إلى حد الآن نظاما سياسيا أو حتى ديمقراطي يمكنه ضمان الحياد العلمي، نظرا للعلاقة الغامضة بين العلم والسياسة وعدم المساواة بين السلطة والمعرفة، حتى أكبر الفلاسفة تبنيوا للأساس الميتافيزيقي للأخلاق، ونخص بذلك " شارل دوكونينك" فهو يرى ان مثل هذا الأساس للمسؤولية لا يبدو مناسباً، إذا علمنا أن رجل السلطة سيمثل على حد تعبير "غاستون باشلار": "عائقا أبستمولوجيا"، والتجربة العلمية لا يمكنها أن تكون دائما مطلقة، إما أن تبطل أو تدحض، أو على حد تعبير "كارل بوبر": زائفة، فصحة أي نظرية علمية تكون دائما نسبية، وتتأكد النظرية العلمية إذا صمدت أمام الاختبارات التجريبية الموضوعة لمحاولة دحضها أو تنفيذها².

حتى العالم والطبيب " كلود برنارد " يرى أن الفكرة التي هي انطباع ذهني تتمثل كنظرية تقودنا إلى التجربة، وهذه الأخيرة تحكم بدورها على الفكرة، الدحض التجريبي يتطلب دائما مراجعة الفرضيات، متحديا بذلك أي سلطة، سواء كانت سياسية أو دينية، لأن من خصائص العلم الاتساق، الموضوعية والعالمية، وهي ترفض أي تدخل للحكومات في العلم، وهذا يكفي ليطلعنا على استقلالية العلم، فالعلم لا يمكن أن يكون موضوع قرارات حكومية أو سياسية، ولا يجب أن ننسى أن تاريخ العلم مازال يحتفظ بعينات من التدخل السياسي والديني

¹ Karl Otto Appel, Discussions et responsabilité, T2, Contribution à une éthique de la responsabilité, Trad. Christian Bouchindhomme et Rainer Rochlitz, Edition cerf, Paris 1998, p32.

² Karl Popper, La logique de la découverte scientifique, Paris, Payot, 1973.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

في مجال العلم، وأبرزها ما لحق بـ"غليلي" عندما أحدث ثورة بفكرته حول دوران الأرض حول الشمس، والفيلسوف المعاصر " شارل دوكونينك" عبر عن تدخل بعض الحكومات في مجالات العلم حيث قال: " ومع ذلك نعلم جميعاً أن بعض الحكومات حاولت بالفعل التدخل في الهندسة، في بنية الفضاء أو مبدأ عدم اليقين، ناهيك عن علم الوراثة في البيولوجيا"¹.

من الفلاسفة الذين يعارضون "يوناس"، هناك من يرى انه من أجل وضع أساس للأخلاق لا يجب أن نلاحظ أن الآثار التقنو-علمية تخضع للعمل الإنساني وإشراك المسؤولية الجماعية، فمن الأفضل الإشارة والإقناع أن الحرية هي التي تتطوي على المسؤولية في إطار أخلاق لا يمكن اختزالها في أسرار خاصة محضة للذاتية.

في حين فلاسفة آخرون يعتبرون أن "يوناس" يبدو تائهاً في حوارات ميتافيزيقية أدت به إلى عدم التمييز بين المعرفة والسلطة.

المسألة الأساسية التي نطرحها في نقدنا هذا لأخلاق المستقبل عند "هانس يوناس" حتى نعيد للإنسان كرامته وقداسته في ظل البيوتكنولوجيا المعاصرة هي: هل تم تأسيس المسؤولية الأخلاقية اليونانية بموضوعية؟

الإجابة عن هذا السؤال تبدو صعبة جداً، في حالة ما إذا نظرنا إليها من زاوية أخرى، أعني بأعين "يوناس" ذاته؛ ونبحث كيف نسعى لمعرفة كيف يمكن ربط الصلاحية العالمية للمسؤولية الأخلاقية اليونانية التي تعود للذاتية التي أخذها كأساس لها؟ في سياق كلامنا عن الذاتية، "هانس يوناس" يعبر عن قوة الذاتية المنصوص عليها كرامة الإنسان قائلاً: "إذا كانت الذاتية عاجزة في العلم، فإن التساؤل الأخلاقي عن أفعالنا لا طائل منه، لكن وبالمقابل الإنسان

¹ Charles De Koninck, La responsabilité morale du scientifique, in Œuvres de Charles De Koninck, T1, philosophie de la nature et des sciences, Vol.1, Québec, PUL/2009. P353.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

إذا استطاع ان يتصرف بحرية، سيكون مسؤولاً عن أفعاله"¹، ما نستخلصه مما سبق هو ان قوة الذاتية تفترض حرية الاختيار المعبر عنها بين الإمكانيات المحددة مادياً، من جهة "يوناس" يرد على الثنائية الكانطية التي تطرح الحرية الإنسانية على مستوى العالم (النومين) وهي غير موضوعية، بما أنها تغلت تماما عن عالم الظواهر، ومن جهة أخرى يرد على المادية التي تختزل الذاتية خداع محض للذات.

2.3.V أخلاق "يوناس" واستشراف المستقبل

النموذج العلمي للألفية الثالثة أصبح يدفع بقوة لتحسين الأداء والمنافسة، وذلك بهدف تحقيق نظام مطلبه الأساسي النتائج، لعل ذلك ما أثر على مختلف مجالات التكنولوجيا عموماً والبيوتكنولوجيا خصوصاً، وكانت نتائجه وخيمة أدت إلى فضائح وتزوير على أوسع نطاق، على حد تعبير المفكر "ج. تيسنار": " (Jacques Testart) التقنوعلمية أكلت تقريباً كل شيء"² فأي خبرة أو معاينة يجريها أكبر الخبراء لا تحقق النتائج المرجوة، ولا يمكنها أن تزعم مساواة المسؤولية المطلوبة من العلماء، فالأجدر بنا أن نقول: " خبرة العلماء " وليس " الخبرة العلمية"، ففي كثير من الأحيان الرهانات التكنولوجية يتم تحديدها مسبقاً، وحتى بالنسبة للاستعمالات المحتملة للأبحاث واكتشافاتها، لأننا لا نستطيع أن ندرك مسبقاً على وجه اليقين المخاطر الناتجة عن هذه الابتكارات، وعدم التنبؤ هذا بالتحديد هو الذي يتطلب مسؤولية العالم.

إن مستقبل الإنسانية في خطر، ومسؤولية الباحثين والعلماء لا يمكن أن تبقى مختزلة في تسيير المخاطر وآثار أفعالها. الباحثون مطالبون اليوم وأكثر من أي وقت مضى للانخراط

¹ Hans Jonas, Puissance ou impuissance de la subjectivité, La nuit surveillée, Paris, Edit : Cerf, 2000, p09

² Jacques Testart, in Le Monde, 4 Janvier 2006. P18

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

بكل شجاعة في مفهوم آخر للبحث والذي يتطلب الانفتاح على معارف أخرى التي من شأنها أن تكسبنا آراء وأحكاما متباعدة. هذه النظرة المتفتحة تتطلب منا تساؤلا حول "إنسانية مشاريع البحث"، وهذا ما انتبه إليه الفيلسوف " هانس يوناس"؛ وهو أن الأمر لا يتعلق بإعطاء أهمية للطبيعة على الإنسان أو العكس، وإنما عدم تصور تسيير منفصل بينهما، وبدلا من ذلك البيئة الطبيعية يجب النظر إليها على أنها مفهوم بيولوجي ثقافي. إن هذه المقاربة تعطي محتوى أكثر عملية للمسؤولية الأخلاقية في إطار التنمية المستدامة.

قد نتساءل لماذا هذه المقاربة بين البيئة الطبيعية والإنسان، فقد نعزي ذلك لسببين

أساسيين هما:

أما أولا: لأن "هانس يوناس" يعرف بفيلسوف البيئة، ومعظم أعماله كانت موجهة للبيئة، وما ألحقه الإنسان بها من تدهور نتيجة التطور العلمي والتكنولوجي، تحولت إلى شعور بعدم الارتياح في كل اللحظات من وجوده.

بينما الثاني: ويتعلق بصلب موضوع بحثنا الذي يتمثل في موقف الفيلسوف "هانس يوناس" من "قدسية الحياة الإنسانية والبيوتكنولوجيا المعاصرة"، وهنا تكمن الأخلاق اليونانية؛ فهي رد فعل تجاه التطور العلمي الذي يعرفه المجتمع المعاصر، ويبدو هدف " يوناس" واضح المعالم، إذ يريد إقامة أخلاق على أساس الضرورة، حتى تصمد أمام أي نقد قد يوجهه التفسير ما بعد الحدائي الذي يقوم أساسا على الفصل بين القيمة والمعرفة، وهو تفسير مادي تبنته النزعة الوضعية عموما، ومدرسة "فرنكفورت" وخاصة منها التقنوعلميون، الذين يبعدون أي تفسير لاهوتي أو ميتافيزيقي في تفسير المعطيات العلمية، وتخوف الفيلسوف "يوناس" جاء في محله حيث يتمثل الأساس الميتافيزيقي من المبادئ الأساسية لمبدأ المسؤولية الذي يعد أساس أخلاق المستقبل كما يتصورها "هانس يوناس"، وكان تعبيره عن ذلك واضحا حيث يقول: " لتأسيس أخلاق المستقبل أقر وأعترف أولا انني أوّمن بالميتافيزيقا، أي أن الوجود يبرز

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

ذاته لا يؤكد فقط ما هو، ولكن ما هو مفروض علينا أداءه اتجاهه أيضا، وللأخلاق أساس أنطولوجي، ويبرز هذا الأساس في عدة مستويات، فهو يتحدد أولا في وجود الإنسان، وبعد ذلك في أساس الوجود بصفة عامة¹.

لم يتوقف "يوناس" في الدفاع عن أفكاره بل واجه العديد من الفلاسفة كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك من قبل في الرد على "ارنست بلوخ" حول "مبدأ الأمل"، كذلك انتقد واقع المجتمع الأوروبي الذي كان يعيش فيه حيث يقول: " مستوى الحياة المعيشية جد مرتفع في البلدان الغربية والذي هو منطلق بدايته، مع العلم أن ما تبقى من الموارد يكفي لكي نعيش حياة أفضل من التي كان يعيشها أجدادنا، ولكن بالمقابل منا، هناك عالم ثالث متخلف سيعرف كثافة سكانية هائلة، فعلى أن ننتظر حدوث كوارث خطيرة، والعمل على تحديد النسل من طرف الأنظمة².

يواصل "يوناس" في الرد على منتقديه حول فقدان الحرية في المجتمع الغربي الذي أصبح مجتمعا ماديا وأداتيا، وكان يخص في هذا الباب الفيلسوف "كارل بوبر" فيقول "يوناس" في ذلك: " لأجل هذه الحقيقة اتهمني "كارل بوبر" أنني خدعت فكرة الديمقراطية، وأني من مناصري الديكتاتورية، وهو ما اعتبره اتهاما بشعا وغير عادل³.

ثقة "هانس يوناس" في مستقبل الحياة الإنسانية يسودها التفاؤل وشيء من الخوف والحيلة والحذر، فهو يؤمن بقدرات تدخل الإنسان وحذره الحيوي، وقدرته على رؤية الأشياء، وتحقيق مشاريع، التحكم في ذاته، ووضع قوانين واحترامها "...كما أن الإنسان سيكتشف كذلك

¹ Hans Jonas, Pour une éthique du futur, op.cit. P76.

² Hans Jonas, Une éthique pour la nature, Idem. p75.

³ Hans Jonas, Une éthique pour la nature, Idem. P75.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

الوسيلة لمحاربة كل الآفات التي كان تسبب في وجودها... ويمكن أن يكون ذلك مصحوبا بمعاونة، لكنني لا أعتقد أن الإنسانية ستبقى متفرجة لنهايتها ونهاية العالم...¹

ما كان يصبو إليه "يوناس" هو أن تكون " أخلاق المستقبل" كبنية أنطولوجية، ويرد ذلك إلى طبيعة الإنسان الذي يبقى الكائن الوحيد الذي يستطيع تحمل المسؤولية والامتثال لأوامرها، فتكون سلطة الضمير هي الأقوى، لكن ما يشترطه "يوناس" هنا هو: أن يكون الإنسان واعيا ومتحررا من الاختيار بين بدائل الفعل، وتصبح الحرية هي عنوان وجوده، ويقول "يوناس" في ذلك: " فلا أبالي إن كان من يحملني الآن أو فيما بعد نتائج أفعالي، فالمسؤولية موجودة بوجود أو عدم وجود الله، سواء بوجود محكمة دنيوية أو عدم وجودها، ضف إلى ذلك أن الأمر يتعلق بالمسؤولية عن شيء وأمام إلحاح الضمير...²

الأخلاق اليونانية هي أخلاق المستقبل، وهي تروج لموقف أساسي يدعونا لرفض أي تصور لا يعطي معنى لقيمة الوجود الإنساني مستقبلا، وهذا ما يجعلنا نؤيد فكرة الاستدامة في التنمية أنها تسجل أنطولوجيا في أخلاق المستقبل، وهذا ما يتفق أو أحيانا يتطابق مع أخلاق الفيلسوف " هانس يوناس" التي تبدو واضحة المعالم، فهي لا تعني الأخلاق في المستقبل، وإنما هي أخلاق تم تصميمها في الحاضر لأجيال مقبلة، فهي أخلاق الحاضر المنشغلة بالمستقبل، وحماية هذا المستقبل تكون لصالح أحفادنا من عواقب أفعالنا اليوم.³

التنمية المستدامة عند "هانس يوناس" تمثل مشروعا إنسانيا يتمثل في كل مجالات الحياة الإنسانية، وليس كما يختزلها البعض في النمو الاقتصادي، ومع ذلك يلح "يوناس" أنه

¹ Hans Jonas, Une éthique pour la nature, Op.cit. P75.

² Hans Jonas, pour une éthique du futur. Op.cit. P77.

³ Hans Jonas. Pour une éthique du futur. Idem. P69.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

لا يجب إحداث القطيعة بينهما، لأن التنمية المستدامة تضع العامل الاجتماعي كوسيط بين الاقتصاد، البيئة والثقافة، وهما يطرح علينا منطقتين من الصعب التقارب بينهما: العصرية الإيكولوجية للاقتصاد، والعصرية الاجتماعية لظروف الحياة، وإشكالياتنا حول قدسية الحياة الإنسانية وعلاقتها بالبيوتكنولوجيا المعاصرة تنحصر بين المنطقتين الأولى والثانية.

فإذا كان المنطق الأول يبدو من خصوصيات السياسة العامة - الحوكمة -، وهو ما حدده يوناس كمعلم من معالم "مبدأ المسؤولية" ونخص به "مسؤولية رجل سلطة" التي تعد النموذج الأصلي لكل مسؤولية.

فإن المنطق الثاني يواجه العمل الإداري في قدرة المواطنين لتبني ممارسات حسنة التي تعنيها الحوكمة، فهو منطق يتعلق بالذات الإنسانية مباشرة ويرتبط بالضمير وأحكامه، ويسمح لهم بتقييم حسهم المدني، ويتصرفون كمواطنين مسؤولين بطريقة مستدامة، مع مراعاة كل الاختلافات الإنسانية التي عادة ما يساء فهمها، لعل هذا ما يجعلنا نؤكد أن أخلاق المستقبل عند "هانس يوناس" تمثل "مشروع مجتمع"، يدعو كل الأطراف الفاعلة في ميدانه من أفراد وجماعات، وعلماء وسياسيين، أن يكون عملهم في إطار المسؤولية الأخلاقية.

المسؤولية الأخلاقية عند "هانس يوناس" وضعت لنا نماذج جديدة للتعامل مع الحياة، فلم تعد كلمة "الأب" أو "الأم" من شقشقة اللسان، وإنما أصبحت جزءا من الاكتشافات العلمية التي أعطتها البيوتكنولوجيا المعاصرة مفهوما جديدا واتخذ منها "يوناس" نماذج أصلية في كل من المسؤولية الأبوية (الأب)، والمسؤولية السياسية (رجل السلطة).

لقد استطاع "هانس يوناس" أن يحدد أنطولوجيا مفهوم المسؤولية ويبرر مشروعيتها لتأسيس أخلاق المستقبل، وهو مفهوم جديد لمسؤولية تبنى على الوعي، لكن ليس كما كان في الفلسفات التقليدية، ووعي بما يحدث في الحاضر، وإنما يتعداه نحو المستقبل، وهو ما يضمن حياة الأجيال المقبلة.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

لقد قدم "يوناس" إضافة لفلسفة الأخلاق، حين جعل من مبدأ الحيطة والحذر وسيلة لمواجهة الأخطار المحتملة التي قد تلحقها التقنية بالإنسان والطبيعة مستقبلا. وكذلك أعاد للميتافيزيقا اعتبارها ومكانتها التي فقدتها في ضوء الحداثة وما بعد الحداثة التي ارتبطت في تفسيراتها بالواقع المادي الذي فرضته النزعة الوضعية المادية.

الأخلاق اليونانية تعود بنا إلى الحكمة القديمة القائلة: "نحن لم نرث الأرض عن أجدادنا، وإنما اقترضناها من أبنائنا"¹، النظرة تكون دائما نحو المستقبل، ومفهوم المسؤولية يعني كذلك معنى الواجب، فمثلا سلوك إنسان بالغ تجاه طفل دون حماية هو نموذج أساسي للسلوك الأخلاقي، فالأخلاق هنا تقتضي أمانة وواجبا أن نحافظ على ما اقترضناه، وأن نعيده أو نسلمه ولا ننقص منه شيئا، وهنا تكمن قوة الأخلاق اليونانية التي تعطي للإنسان الوعي والقوة، فحماية أخلاق المستقبل تتطلب منا الوعي بالحاضر في جميع المستويات؛ العلمية، الاقتصادية، السياسية والثقافية، وعندها أخلاق المستقبل يكون أساسها الأنطولوجي كما كان يسعى إليه الفيلسوف "هانس يوناس" حين بين أن النوعية تكون بشكل لا ينفصم عن الذات، كما تنتمي عملية الأيض (التمثيل الغذائي) إلى العضوية.

وموازاة مع ذلك، الأخلاق اليونانية ترتبط بالتطور التقنو-علمي، وفي مبدأ المسؤولية تتطلب الأخلاق وظيفة أساسية، تفترض أن استقلالية الذات لا تتزعزع، بما أنها استقلالية مغمورة في المجتمع، والتكنولوجيا يبدو أنها تتحكم في رافعة الأخلاق وتترك لها عناية التهدة، وإعادة التأطير في جميع المسارات التي تتبعها من خلال الابتكارات وتكون أحيانا دون حيطة وحذر.

¹ François Dagognet, Nature, « Proverbe indien », Paris, Vrin, 1990, p174.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

آخر ما نريده في رسالتنا هذه الموسومة بعنوان "قدسية الحياة الإنسانية والبيوتكنولوجية المعاصرة". "هانس يونس" نموذجاً، كانت محاولتنا التركيز على التأويلات التي جاءت بمعنى امتداد للتفكير الفلسفي حول أخلاق المسؤولية عند "هانس يونس"، فالبحث في هذا المجال لا يجب أن يكون بدافع الرغبة في المعرفة، وإنما يكون بدافع الرغبة في خدمة الإنسانية في المقام الأول، وهذا ما يدعو الباحث إلى رفض الانخراط في أبحاث تكون عواقبها خطيرة، بل انتحارية للمجتمع...وعليه لا يجب أن نخلط بين الممثل والأداة...¹، العالم في مجال البيوتكنولوجية يجب أن يبحث الأثر النافع لأبحاثه، وأن يكون في الطليعة مندداً ومنذراً بمخاطر البحث الذي قد يمس بكرامة الإنسان وقدسية حياته، وعليه أن ينخرط في أبحاث معقولة وضرورية، على حد تعبير "ج. ج. سالمون": " عندما ترى شيئاً جميلاً وعذباً من الناحية الفنية، فامضي قدماً وافعله، ولا تتساءل عما ستفعل به إلا بعد أن تحقق نجاحك الفني"²، فالمسؤولية العلمية تدعونا لمواجهة نموذج الإعجاب الذي يضع الإنسان في حالة خمول أمام تقنية نشطة، وأمام رهانات متعددة منها ما هو سياسي، اقتصادي، أيديولوجي، وعلوم بيوطبية وبيوتقنية، فهذه المسؤولية العلمية تدعونا إلى مراجعة الأسس التقنوعلمية بكل مفاهيمها مع التقدم بكل حيطة وحذر.

¹ Jean Jacques Salomon, Les scientifiques entre le pouvoir et le savoir, Paris, Albin Michel, 2006, p255.

² J. J. Salomon, Les scientifiques entre le pouvoir et le savoir, Idem. P256.

ملخص الفصل الخامس

لقد كان اهتمامنا في هذا الفصل منصبا حول تحليل بعض المبادئ التي ارتكز عليها الفيلسوف "هانس يونس" كتشكل الخوف ومبدأ الحيطة والحذر وعلاقتها بالأخلاق من أجل حضارة تكنولوجية، فاستخلصنا أن الخوف بالمفهوم اليوناني هو سابقة لم يألفها فلاسفة الأخلاق من قبل على الإطلاق، فإذا كان الخوف من قبل يعبر عن حالة ضعف أو استسلام عند الفلاسفة والعلماء، وهو أداة للدفاع عن النفس كما هو عند "فرويد" و"دارون"، فإن الخوف كما اكتشفناه عند "يونس" يمثل "قوة" وأداة تجنيد في المسؤولية الأخلاقية.

وإذا كان الخوف من قبل هو حالة انفعالية تؤدي إلى اضطراب النفس، والتشويش على العقل، فإن ذلك أصبح العكس عند "يونس"، فهو بريق ينير العقل يضاف إلى الوعي، لأن حسب "يونس" الإنسان أصبح يعي أن كل ما يخيفه سيسبب له ألما. لذلك يجب أن يلزم الخوف الإنسان، لأنه لا يستطيع معرفة الحياة في وسط اجتماعي أو بيئة طبيعية إذا لم يكن له شعور بالخوف على تلك الحالة، خاصة إذا كان لديه الشعور بالمسؤولية مستقبلا، وهذا ما يجعل هذه المسؤولية تمتد نحو المستقبل للأجيال المقبلة، فهناك سبب معرفي لإعطاء الأولوية للخوف في العملية التي تشد العقل البشري، فالخوف من حيث المبدأ يحفز الإنسان للفعل واتخاذ إجراءات، ويتم ذلك بعاملتي الحيطة والحذر، وهذا ما يساعد على حماية الإنسان من عواقب أفعال قد تلحق به حاضرا أو مستقبلا، قد تكون نتائجها كارثية على الإنسان وكرامته وقدسيتها حياته.

في نظر "يونس" تشكل الخوف يرتبط أساسا بالوعي وبالإحساس بالمسؤولية الأخلاقية، وهو ما يدعونا إلى زرع الخوف كرد عاطفي، لمواجهة التهديدات الحقيقية التي يواجهها الإنسان، وهذا لا يعني أننا نفضل الخوف على العقل، ولا حتى العكس.

الفصل الخامس: " نماذج الأخلاق اليونانية ورهانات المستقبل "

في نظر "يوناس" التفسيرات التقليدية لم تعد مجدية، وعليه أصبح من الضروري التسليم أن عصرا جديدا بدأ، وهو متميز عن الماضي، "الطبيعة كموضوع للمسؤولية الإنسانية هي بالتأكيد شيء جديد يجب على النظرية الأخلاقية أن تفكر فيه"¹.
فيما يتعلق بالرهانات، معنى المسؤولية الأخلاقية كما ظهر لنا أنه عند الباحثين، المشرعين، وأصحاب القرارات من رجال السياسة والعلماء، يتم استخدامه وتوظيفه، في حين أنه يتطلب بالدرجة الأولى مجتمعا إنسانيا متمدنا، متفتحا وأخلاقيا، ومعه نظرة واضحة للطبيعة الإنسانية.

¹ Hans Jonas, Le principe responsabilité, op.cit. P70.

خاتمة

نكون في نهاية هذا البحث قد وصلنا إلى خلاصة الموضوع، ويجدر بنا أن نشير مرة أخرى أنه يتعلق أساسا بالعلاقة بين قداسة الحياة الإنسانية والبيوتكنولوجيا المعاصرة، وذلك انطلاقا من الطروحات الأساسية التي يدعمها "هانس يونس" في عملنا هذا، وأملنا أن يكون هذا العمل الفلسفي المتواضع إضافة إلى كل عمل فلسفي يصب في هذا السياق الذي يعد نظرة جديدة، مكنتنا من استكشاف حقائق تتعلق في مجملها بالواقع الإنساني الذي نتطلع إليه عن طريق التجربة، الفعل والتفكير، لأن هناك من المسائل التي تطرقنا إليها قد تبدوا منذ الوهلة الأولى من البساطة والسذاجة أنها من حياة الإنسان العادية لا تحتاج إلى جهد أو عناء تفكير، كالضمير، المسؤولية، الخوف، الحذر وغيرها من الكلمات والمعاني التي سبقت في مضمون البحث، لكن ارتباطها بموضوع جديد في حياة الإنسان المعاصر جعلها تأخذ دلالات أخرى ذات قيمة كبيرة في حياته، وفاعلية التفكير فيها بطريقة منهجية كتعبير فلسفي مميز يتضمن اكتشاف نظرة جديدة، وواقع عادة ما تحجب عنا حقائقه، أو بعبارة أخرى؛ ونحن نحاول أن نربط بين موضوع بحثنا حول تلك العلاقة الصعبة بين قداسة الحياة الإنسانية والبيوتكنولوجيا المعاصرة من وجهة نظر أخلاق المستقبل، وذلك حسب التحليلات الأساسية التي وضعها الفيلسوف الألماني "هانس يونس" بعد قرابة ثلاثة عقود من الزمن عن وفاته، استخلصنا النتائج التالية:

1- في الإشكالية هناك فكرة محورية يدور من حولها الموضوع وهي: أن التطور العلمي والتكنولوجي منح للإنسان قوة خارقة تتطلب حتما شكلا جديدا من المسؤولية الأخلاقية، يجب ممارستها كما كان يريد الفيلسوف "كانط": "كل عمل فلسفي يجب أن نفكر فيه بأنفسنا نحن"، لكن مع اقرارنا بشيء من التواضع أن أي تفكير فلسفي يكون بطريقة "سقراط": "أعلم شيئا واحدا، هو أنني لا أعلم شيئا". أن أفكر بنفسني لا يعني أبدا " أن أفكر وحدي"، لقد تطلب منا

هذا الموضوع قراءة كل ما يتعلق بالفيلسوف "هانس يوناس" الذي اتخذناه "نموذجاً"، وذلك بالرجوع إلى كتب ومقالات، وحتى حوارات ومناقشات ومقابلات أجراها في مساره الفلسفي، أو التي تمت بعد وفاته، من محاضرات وندوات قام بها كبار الفلاسفة والعلماء في أواخر القرن العشرين أو أوائل الألفية الثالثة، وكان كل ذلك بهدف إعادة صياغة بعض أسئلته ثم إعادة تكييف وملاءمة بعض وجهات نظره في الموضوع من أجل إعادة بناء أخلاق المستقبل التي كان يهدف إليها، وهي أخلاق المسؤولية. إن أهم ما أثار انتباهنا في الموضوع من جانب الفيلسوف "هانس يوناس" هو: كيف يستطيع الكائن الإنساني أن يصل إلى وعي حقيقي بالمخاطر التي يتعرض لها من خلال تصرفه المتهور؟ أو من خلال شغفه اللامحدود في حب التطلع فيما يتعلق بالتطورات العلمية والتقنية عموماً والبيوتكنولوجيا خصوصاً، خاصة إذا علمنا أن المسألة تتعلق من جانب بالكشف عن مسائل الحياة، ومن جانب آخر يتم فيها المساس بكرامة الإنسان وقدسيتها حياته؟

2- إن موضوع هذه الرسالة تطلب منا التفتح على كل الأفكار حسب ما تمليه التقاليد الفلسفية، ويكون ذلك بحوار وأسئلة قد تساعدنا على طرح أسئلتنا الخاصة، والتفتح على آفاق جديدة، فنكون في هذه الحالة كالأقزام التي تركب على أكتاف العمالقة، انها ترى أكثر، أبعد، أدق وأعلى من قاماتها، لأننا أصبحنا نرى ونفكر بقامة عملاق؛ لكن هل نمتلك لذلك كل الأدوات والوسائل الفلسفية، العلمية والتقنية؟

من خلال تساؤلنا السابق نكون قد انخرطنا في تحليل تفسيري ونقدي لفهم الإنسان، هذا الكائن الواعي الذي يتمتع في هذا الوجود بمكانة متميزة دون منافس أو عنيد، لكن المثير للانتباه من كل ذلك هو أن الخطيئة الكبرى التي وقع فيها الإنسان المعاصر هي هذا التقدم المعرفي، العلمي والتقني الذي منح للإنسان قوة على الطبيعة وعلى نفسه، جعلته يفقد كل المعايير، وكأن هذه القوة غير المسبوقة أصبحت توجه مصير الإنسان للارتباط الحتمي بالتقدم

التكنولوجي، مصير الطبيعة ومصيره هو كإنسان، إن هذه السلطة التي امتلكها الإنسان أصبحت تشمل كل مجالات الحياة، وعملنا الفلسفي هذا لا يكون له معنى أو دلالة إلا إذا تم تغيير مجرى الأمور.

3- إن أهم ما أطلعنا عليه كتب ومقالات "هانس يونس" من أفكار هي أن الإنسان يبقى الكائن الوحيد الذي ينبعث عنده الواجب من الإرادة كقدرة ذاتية لكل سلطة عنده، إنها سلطة تتمتع بالوعي، لأن المسؤولية نحيها أساسا بذاتنا كشرط لكل معنى، ولكي يكون للمسؤولية معنى يجب للشرط الذي تمليه أن يتعايش مع الحياة، وهنا يظهر واجب الوجود في هذا العالم، فالحقيقة التي نسعى نحوها تتوقف أساسا علينا، حقيقة مستقبل الإنسانية تتوقف على مسؤوليتنا نحن، لأن وجود قدرات الإنسان وحدها تجعله مسؤولا عنها.

4- إن الطبيعة الأنطولوجية لهذه المسؤولية تتحدد في مبدأ يجعل الإنسان مسيرا لكل غاياته التي تكون بطريقة أو أخرى تحت سلطته، وأخلاق المسؤولية اليونانية ترتبط بهذه المسؤولية التي تأسست أنطولوجيا بمعنى المسؤولية كمبدأ، وبما أن في الإنسان مبدأ الغائية يسعى لبلوغ ذروته، لكنه في الوقت نفسه يهدد كيانه ووجوده، فيكون الإنسان بذلك هو الموضوع الأول للواجب، وبحكم الحرية التي يتمتع بها سيؤسس لنفسه غايات حسب معرفته في كيفية تحقيقها، فيجد الإنسان عندئذ في مبدأ المسؤولية أهمية الإشارة إلى مبدأ الوجود الإنساني الذي سيثبت أن المستوى الذي يجب بلوغه لتحقيق غاياته لا يجب أن يتعرض لأي مساومة، أو بعبارة أخرى؛ إن مختلف مؤسسات الإنسان لا يمكن أن تضاهي في الأخير وجوده الخاص به. لذلك مبدأ المسؤولية عند "هانس يونس" يدعونا إلى تطوير يقظة واقعية، وقلقا جماعيا من طرف كل الأشخاص الذين يريدون أن يفهموا أن قوة الإنسان تجعله أكثر حرية، وأن هذه الحرية تتضمن ضرورات، ومبدأ المسؤولية يكون كشعلة ينبعث معها بريق يندرننا أن الإنسان في حريته له من الوعي، وهو ما عبر عنه "يونس" في كتابه: أخلاق من أجل الطبيعة" قائلا:

" لا يوجد أي دواء سحري للمرض الذي نعاني منه، لأن داء التكنولوجيا يعد أكثر تعقيدا، والمغامرة التكنولوجية مطالبة أن تواصل مسارها، أين يكون كل تصحيح مطالباً بالمزيد من التكنولوجية ومزيداً من المخاطر الجديدة الخاصة به.

5- إن الفلسفة الأخلاقية عند "يوناس" تنطلق من مسلمة مفادها أن التقنية لا تمتلك روحاً لذلك فهي تدفع الإنسان نحو مستقبل مجهول، ولم يعد بمقدور الأخلاق الكلاسيكية تحليل أو معالجة المسائل التي تطرحها البيوتكنولوجيات المعاصرة، فأخلاق جديدة هي وحدها تستطيع إنقاذ الإنسان وبالتالي الحفاظ على كرامته وقدسيتها، إنها أخلاق المسؤولية أو إن شئنا نقول " المسؤولية الأخلاقية" التي قوامها "مبدأ المسؤولية".

6- لقد أطلعنا التحليلات السابقة إلى أن صوت مبدأ المسؤولية الذي نادى به "هانس يوناس" يفرض علينا يقظة فائقة، لأن بين الأحكام المسبقة والتحيز من جهة، والحالات المزاجية من جهة أخرى، والتي هي حاصلة بين خطاب الفلاسفة والتكنولوجيين، تمثل جوهر هذا البحث الذي سعينا من خلاله إلى إيجاد حلول ممكنة لأسئلة تبدو مستعصية لأن الأمر يتعلق بالإنسان، نتيجة ما ألحقته التقنيات البيوتكنولوجية المعاصرة بحياته وكرامته وقداسة حياته، فكانت محاولتنا هي إضفاء المزيد من الوضوح في الفكر والفعل، ولتحقيق هذا المقصد كان من الضروري علينا ضمان التمييز بين "الوصف" والتوصية"، بين مجال الحقائق التي يجب تحملها ومجال المتطلبات الأخلاقية التي يجب مراعاتها، فمثلاً إذا كان من خصوصيات العالم أو الطبيب أن يحدد نوع المولود أو اختيار جنسه، أو التحكم في عملية الإجهاض، أو غيرها من العمليات البيوتكنولوجية التي تتعلق بالإنسان بحكم تمكنه وتخصصه في مجال علمه، لكنه لا يمتلك المؤهلات السياسية التي تسمح له من إبداء رأيه في المسألة سياسياً، لأن ذلك يبقى من خصوصيات رجال السياسة، لكن بين هذا وذاك (رجل العلم ورجل السياسة) يبقى الفيلسوف أو إن شئنا نقول: رجل الأخلاق، على غرار الفيلسوف "هانس يوناس" له الحق في أن يتدخل

حتى لا يفقد الإنسان بين كل هذه التهديدات والانقسات والنداءات مسار إنسانية وقائية، ويتفتح على إمكانات تشمل جميع جوانب الحياة، وليس فقط العلمية والتقنية بدعوى أننا نعيش عصر البيوتكنولوجيا، والتوصيات الأخلاقية حتى وإن كانت ضرورية ومشروعة، لا يجب أن تضيق آفاق الفكر الحر.

7- انطلاقاً من " مبدأ المسؤولية" والمسؤولية الأخلاقية" عند "هانس يونس" استطعنا أن نحدد طبيعة العلاقة بين " قداسة الحياة الإنسانية والبيوتكنولوجيا المعاصرة"، وكذلك أن نؤسس لإنسانية حذرة متطلعة لأخلاق المستقبل تكون آثارها إيجابية على الأجيال المقبلة، وبها نكون قد ميزنا بين ما هو " إنساني" وما هو "غير إنساني"؛ فإذا كان ما هو " غير إنساني" لا يخص إلا النوع الإنساني، لأن الكائن الإنساني وحده هو الذي يكون " غير إنساني" أو يواجه ما هو "غير إنساني"، فالكائنات المعدنية، النباتية والحيوانية لا يمكنها أبداً أن تكون في مصف "غير إنساني"، ويكفي الإنسان فخراً أن يكون " العلم" شاهداً على أنه خاصية النوع الإنساني، والوحيد الذي باستطاعته أن يطرح خاصية ما هو "إنساني" وما هو " غير إنساني".

وعليه يجب على الكائن الإنساني أن يتوافق عن طريق مبدأ المسؤولية بسلوك واضح يتطلب إدارة متماسكة بين تحقيق أهدافه وما يشكله أنطولوجيا وجسدياً، فالإنسان يجب أن يحارب التقنية المفرطة مع تجنب البقاء على أخلاق قديمة، إنه رهان بين مبدأ المسؤولية وأخلاق المسؤولية يتطلب حمله بقلب بقدر عظمة الإنسان، بمعنى أن يتم بعقل مع كل مستلزماته.

8- الحياة ليست بحاجة إلى الإنسان، لكن العكس هو الصحيح، أي الإنسان هو الذي بحاجة للحياة، فليس من صالحه أن يفرط فيها، لأن بقاءها هو شرط لبقاء الإنسان، فكل ما يمس بكرامة الإنسان وقداسته حياته، أو يلحق بها خلافاً يجب محاربته ليس بمعرفة أعراضه، وإنما بنظرة ثابتة اكتسبها الإنسان عبر تاريخه الطويل، واكتملت صورتها مع التطور العلمي

والتكنولوجي غير المحدود، لأن شغف الإنسان يكون حسب نظرة مختلفة باختلاف الشعوب والأمم التي كل منها تسعى بطريقتها لتحقيق متطلباتها.

إن التحليل الأخلاقي لحاجيات الإنسان وإمكاناته الأساسية يكشف لنا أن أثن الأشياء لا يمكن ترتيبها كأغراض اقتصادية، فالصحة، الحب، الجمال والسعادة لا يمكن شراؤها، فالمقاربة الأخلاقية تتطلب تغييرا في أسلوب الحياة كضرورة تستلزم تغيير الذهنية وتحديد الأولويات التي يكون بها الإنسان، كالحياة وكرامة الإنسان وقدسية حياته.

9- كذلك ما تم استخلاصه من هذه الرسالة البحثية هو التأثير الكبير الذي تركته التقنيات العلمية على الإنسان كموضوع لها في جانبه المادي (الجسد)، وجانبه المعنوي (قداسة الحياة)، فبين لنا أنه كلما تطورت البيوتكنولوجيات المعاصرة ازداد معها الخوف الإنساني، ونتيجته هي القطيعة بين أخلاق ما قبل الحداثة وأخلاق ما بعد الحداثة، وأكبر دليل على ذلك هو ظهور "البيويثيقا" كأخلاق جديدة، كحتمية لإعادة تلك الممارسات البيوتكنولوجية إلى مسارها الصحيح، وأهم ما ترتب عن هذه التغييرات هو تأثيرها على المسار الفلسفي، حيث أحدثت القطيعة بين الفلسفتين القديمة والحديثة من جهة والفلسفة المعاصرة من جهة أخرى، حيث أصبحت هذه الأخيرة تتطلب فكرا جديدا، وهو الأمر الذي أطلعنا عليه "هانس يوناس" الذي استطاع تأسيس فلسفة جديدة انطلقا من أسس الفلسفة البيولوجية والفلسفة الفينومينولوجية، وأصبحت تعرف فلسفة "يوناس" نتيجة لذلك بفلسفة الحياة بالمفهوم الجديد، ومن خلالها أعلن ميلاد فلسفته الخاصة وهي: "فلسفة البيولوجيا".

10- فلسفة الحياة عند "يوناس" قضت على الكثير من الأفكار الفلسفية التقليدية، انطلقا من انتقاده للنظرية الآلية، وفكرة المركزية الإنسانية ومعها رفض أخلاق بشرية مركزية، وأهم ما ترتب عن هذا الرفض "اليوناسي" اعتباره الإنسان كائنا رمزيا، وفي نظره الرمز هو أهم وسيط بين الإنسان والعالم.

11- إن الفلسفة البيولوجية عند "هانس يوناس" كانت نتيجة نهج جديد تبناه هو "مبدأ المسؤولية" كأساس لأخلاق المستقبل، متجاوزا بذلك الأخلاق التقليدية، وأهم ما ميز مبدأ المسؤولية اليونانية هو اتخاذه كلا من الميتافيزيقا والأنطولوجيا ركيزتين أساسيتين لتأسيس مشروعه الأخلاقي.

إن مبدأ المسؤولية عند يوناس هو أساس كل الحياة، ويشترط فيه عنصر الوعي للإنسان، وعليه أخلاق المسؤولية تمنح للإنسان شعورا بالوجود وبالفعل، فهي استكشافية تسير كل التغيرات، وما يجعل مبدأ المسؤولية متجذرا في الإنسان هو أنه استعداد طبيعي يتطلب الممارسة في كل مجالات الحياة، من مسؤولية أبوية، مسؤولية سياسية ومسؤولية علمية، وهي مسؤوليات تمارس حاضرا ومستقبلا.

إن خلاصة الفكر "اليوناني" تتجلى في سيطرة الإنسان على الطبيعة وقدرته على قلب مفهومها الأنطولوجي، وفي نظر "يوناس" الطبيعة بكل ظواهرها أصبحت بين يدي الإنسان يستعملها في أعماله التجريبية، بما في ذلك الإنسان ذاته.

إن أخلاق المستقبل عند "يوناس" جاءت متميزة من خلال تصورهما للإنسان، وكذلك المبادئ التي ارتكز عليها لتعليل ذلك، مثل "مبدأ تشكل الخوف" و"مبدأ الحيطة والحذر" وعلاقتها بالأخلاق من أجل حضارة تكنولوجية، فالخوف عند "يوناس" يمثل قوة وأداة للتجنيد في المسؤولية الأخلاقية، ولم يعد الخوف يؤدي لاضطراب النفس والتشويش على العقل، بل أصبح خوفا يثير العقل ويضاف إلى الوعي، ولم تعد المسؤولية الأخلاقية بذلك أداة كما كان الحال من قبل عند الباحثين، العلماء ورجال السياسة، يتم استخدامها أو توظيفها، وإنما تتطلب مجتمعا إنسانيا متمدنا وأخلاقيا يمتلك نظرة واضحة وصحيحة حول الطبيعة الإنسانية.

رغم النجاح الملحوظ الذي حققته الأخلاق التواصلية أمام الانحرافات التكنولوجية، لكنها لم تكن كافية في نظر "يوناس" أمام إصرار بعض العلماء والفلاسفة استغلال المنطق

التقنوقراطي، فإذا أراد العلم تقديم خدمة للإنسان فعليه أن يتخلى عن فكرة أنثروبولوجيات "ليس بعد" و"الثنائية" التي تحركه، والمطلوب حسب "يوناس" هو "معرفة" و"فهم" للبيئة البيولوجية والأنثروبولوجية للإنسان، وهنا تبدو طموحات يوناس واضحة، فهي لا تتطلب إعادة التفكير أو تأسيس نظرية جديدة في البيولوجيا، وإنما إمكانية العودة إلى الأسس الأنثروبولوجية التقليدية؛ وفي إطار خلفية هذا النسيج جاءت محاولات "يوناس" مجتمعة لمناقشة المسائل الأساسية التي تطرح حول فلسفة الحياة في مواجهة علم ذات صبغة مادية، يكون الإنسان بذلك حسب يوناس وحدة "بسيكوفيزيائية" تستمد جزءا من وجودها من التطور البيولوجي، فهو ليس فكرا واضحا وليس مادة، وإنما هو نتاج تاريخه الشخصي وتاريخ أسلافه البيولوجيين، فالتاريخ يخلف التطور والبيولوجيا تفسح المجال لفلسفة الإنسان.

يعترف "يوناس" أن الحياة لا يمكن حصرها في جانبها المادي فقط، لأن هناك مجالات عدة فيها لا مادية، لكن المادة نفسها تحتوي إمكانات إعطاء الحياة أو إنهاؤها، وهذا ما يجعل النفس تأخذ جذورها في المادة أو في العضوية، ومن هنا يعود الفضل إلى "يوناس" أنه ربط فلسفة الحياة بالمعارف البيولوجية، وعن الجذور التاريخية المادية للإنسان، وهنا تتجلى لنا روعة التحليل الاستيمولوجي عند "يوناس" وذلك بالعودة إلى أصل الكائن الحي، ففي نظره العلم لا يستطيع أن يقدم خدمة للإنسان عن طريق بنائه على أنقاض الميتافيزيقا.

كان "يوناس" يسعى إلى تحقيق أخلاق المسؤولية في آفاق مستقبلية، ويضع المسؤولية كأولوية، وهي مسؤولية أبوية، ومسؤولية رجل الدولة من أجل أخلاق المستقبل.

إن جدارة وخصوصية المسؤولية التي يريدها "يوناس" تبقى في رؤيته المرتقبة تتعارض مع مسؤولية الأخلاق التقليدية التي لا تزال بأثر رجعي، وهو ما حدده على النحو التالي:

الفرضية الأولى لهذه المسؤولية تتطلب في المقام الأول "علم المستقبل" (futurologie) ونقصد به تحسين المعرفة بآثار عملنا التكنولوجي على الأجيال المقبلة، لاسيما في تأثيره الفعال على سلوكياتنا.

إن المسؤولية اليونانية لا تتوقف عند بعدها المرتقب، بل هي تتميز أيضا بأسسها الوجودية والميتافيزيقية، ولتأسيس هذه المسؤولية أنطولوجيا طور "يوناس" عقيدة إنسان على أسس جوهره الذي يجب على الإنسان نفسه الحفاظ عليها، وبالتالي يجب عليه منع أي تشويه على سبيل المثال عن طريق تقنيات التعديل الوراثي، وبحكم هذا المفهوم و"عقيدة إنسان" هذه يجب تجنب "النسالة الليبيرالية"، التجارب حول الإنسان والتلاعب الجيني، الموت الرحيم، تمديد الحياة، وذلك كله دفاعا عن كرامة الإنسان، ومصادر كل ذلك تبدو واضحة:

أول مصدر هو التاريخ: فالإنسان كان موجودا فيه، وهو إنسان منذ وجوده الأول وليس بحاجة لإعادة بنائه، وعليه يجب المحافظة على صورة الإنسان، وهنا يبدو رفض "يوناس" قطعيا فيما يتعلق بمختلف أشكال التدخل والتعديل في "الجينوم البشري" من خلال حظر أشكال جديدة مما يسمى بتحسين النسل الليبيرالي، فالتطور لا ينبغي أن يلحق ضررا بحياة الروح، والحياة تحكمها سببية لا يمكن اختزالها، فهناك باستمرار في حياة الإنسان وجود رغبات وحاجات لا تستطيع العلوم الدقيقة تفسير أسبابها أو مصدر صورها الأولى.

أما الفرضية الثانية هي: إن صورة الإنسان من منظور تاريخي وميتافيزيقي يجب احترامها، ويجب ترك الطبيعة تتكشف كما يبدو لها ذلك مناسبا، وموقف "يوناس" يبدو واضحا في هذا المجال فهو يؤمن يقينا أن الإنسان كما خلق أو مما أتى، سواء بإرادة إبداعية إلهية أو عن مصادفة التطور، لا يحتاج إلى أي تحسين، كل واحد يستطيع تطوير إمكانات ذاته، لكن ليس عليه أن يبحث تجاوز ذلك، لأن الإنسان لا يمكن تجاوزه.

يؤكد "يونايس" أنه يجب المحافظة على "الصورة والتشابه"، وينبغي بذلك صورة حقيقية لشيء، وهي فكرة مستمدة عند "يونايس" من المجال الديني "على صورة الله خلق الإنسان"، أي أن الإنسان كصورة لله، فهذا الاحترام كفيلا أن يثبت الطبيعة المقدسة للإنسان، ومنه تتجلى أخلاق المستقبل كحاكمة لأخلاق ما بعد ميتافيزيقية.

الإنسان وحده يمكن أن يكون مسؤولاً، وهذه الامكانية لا يمكن خرقها بمحاولات تغيير الجينوم البشري، هذه الميزة تصنع القيمة الوحيدة للإنسان، أنه ليس كائناً حياً وحسب، وإنما هو كائن حي قادر على مسؤوليته، أو بعبارة أخرى: الإنسان هو كائن مسؤول لذا يجب أن "يوجد"، فالمسؤولية بما أنها قيمة فريدة، إمكانيتها يجب أن تكون دائمة، ومنها يجب الحفاظ على وجود الإنسانية، ويجب أن نقلق على الأجيال المقبلة التي ستكون بدورها قادرة على المسؤولية.

يمكن القول: إن جوهر الحجة اليونانية تكون على النحو التالي: يجب أن نكون مسؤولين عن الأشخاص الذين سيلاحقوننا، لأنهم الشرط الأساسي لإمكانية وجود المسؤولية. هذه المسؤولية صادرة انطولوجياً أن من كل الكائنات الحية الإنسان هو الكائن الأخلاقي الوحيد، فهو قادر على الخير والشر، ويمتلك قوة تدميرية هائلة، وهذا ما يجعل الشعور بالخوف سندا لمبدأ المسؤولية من أجل استباق كل ما يمكن أن يلحق ضرراً بالإنسان، ثم لا يمكن السيطرة عليه، بما أن العلم لا يمتلك القدرة على السيطرة.

إن مسؤوليتنا تجاه الإنسانية مماثلة للمسؤولية الأبوية عن الرضيع، فهي غير متناظرة وأحادية الجانب وشاملة، نكون نحن الأوصياء عليها وليس سادة، ومسؤولية ليست عرضية بل دائمة، بالإضافة إلى الآباء الذين يعتبرون النموذج الأصلي لهذه المسؤولية الجديدة يجب أن يكون السياسيون حراس هذا المعبد لعلم المستقبل، فالسياسة بوسائلها القانونية والسياسية هي لاعب مهم في الأخلاق لمرافقة مسار العلم، ورجل السياسة يجب عليه مراقبة المجتمع

الذي هو مسؤول عنه، فيكون يقضا على القوانين خاصة منها البيواييتيقية اليوم، حتى لا يمكن التضحية بكائنات ضعيفة على مذبح النفعية.

من جانبنا؛ قناعتنا تمت ترجمتها بانخراط في مسعى الفيلسوف "هانس يوناس"، والمجالات التي سادها الشك أحيانا وبقيت مغشاة بضباب من الصعب علينا ازاحته، خاصة إذا كانت تتعلق بالوجود الإنساني ومصيره المبهم، وهو ما عبر عنه يوناس " نفسه بصريح العبارة قائلا: " ما علينا أن نقوله في هذا الموضوع ليس فقط غير كاف، وإنما كذلك غير مؤكد، ولا يمكن إلا أن يكون كذلك، بحكم طبيعة الحرية غير المتوقعة". فكل خطأ ممكن في تحليلنا أو تأويلنا، يجب اعتباره دعوة لمواصلة هذا العمل مستقبلا، وهو ما يزيد من قيمة الفلسفة كعملية نقدية تعتمد على كل الملكات العقلية، وتعيد طرح السؤال، أو التساؤل حول نظرتها الخاصة لمستقبل الحياة الإنسانية.

المقترحات

أهم ما يمكن تقديمه من اقتراحات من خلال هذه الدراسة ناتج على ما تم التوصل إليه من نتائج وملاحظات وهي:

- ضرورة فتح على مستوى كل المراكز الجامعية تخصص " البيواييتيقا "، مع ربط هذا المجال بميادين التخصص مباشرة، أي الطب، البيولوجيا، البيوتكنولوجيا والتطورات التكنولوجية المعاصرة..، باعتبار أن هذا المجال أو التخصص يلزم كل مجالات الحياة الإنسانية حاضرا ومستقبلا

- إقامة ملتقيات، ندوات ومحاضرات دورية تتعلق بمجال البيواييتيقا، والحرص على اشراك تخصصات فلسفية وعلمية أخرى، تعمل على إيجاد نقاط تقاطع بين هذه المجالات، كالسوسيولوجيا فيما يتعلق بالأسرة والمجتمع، والجانب الديني من حيث أحكام الشريعة في

بعض الممارسات البيوتكنولوجية على الإنسان كما سبق وأن أشرنا من قبل، وذلك بهدف مواكبة كل تطور جديد قد يؤثر على الحياة الإنسانية وقدسيتها مستقبلا.

-إقامة لجنة وطنية للبيوايثيقا، لها كل الصلاحيات العلمية والقانونية لإبداء الرأي والمشاركة في كل القرارات التي تتعلق بالمسائل البيوايثيقية، لأن ما تطلعنا عليه الأحداث والأخبار من تجاوزات وخروقات حول الإنسان وكرامته وقدسيتها حياته يبعث بالقلق.

-تمكين الباحثين في هذا التخصص من حضور ملتقيات وطنية ودولية لزيادة الحصيلة العلمية والمعرفية نتيجة الاحتكاك بعلماء وخبراء في التخصص، مع توفير كل الوسائل المادية، العلمية والبيداغوجية، وفتح مخابر على مستوى كل المراكز الجامعية لبعث روح البحث ومواكبة كل تطور.

ادخال درس البيوايثيقا في البرامج الدراسية للطورين الثاني والثالث (المتوسط والثانوي) على أن يكون تحديد البرنامج وعناصره من طرف أساتذة جامعيين من ذوي الاختصاص.

والله ولي التوفيق

الملاحق

الملحق الأول: "هانس يوناس" Hans Jonas

ولد الفيلسوف "هانس يوناس" بألمانيا سنة 1903، تابع دراساته في الفلسفة واللاهوت على يد كبار أساتذة العصر، وهم على التوالي: "ادموند هوسرل"، "مارتن هايدجر"، و"رودولف بولتمان"، وكانت برفيقة دربه الفيلسوفة "حنا آرندت" تربطهما صداقة حتى وفاتها.

انخرط في الصهيونية في سنة 1933 بعد اعتلاء الحزب النازي الحكم في ألمانيا، وفي السنة نفسها أخذ طريق المنفى في البداية إلى "إنجلترا"، ثم في سنة 1935 إلى فلسطين المحتلة حيث حصل على منصب أستاذ بالجامعة العبرية.

ثم انخرط في الجيش اليهودي بجواز سفر بريطاني. مات أبوه "بن يامين يوناس" سنة 1938، ثم علم "هانس يوناس" موت أمه بمعتقلات "اشويتز" سنة 1942.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عاد إلى ألمانيا، وأول ما قام به هو زيارة أستاذه "رودولف بولتمان"، الذي قام بكتابة مقدمة أول كتاب له بعنوان "الديانة الغنوصية". لم يتوقف على حضور محاضرات "بولتمان"، وبقي معجبا به حتى وفاته سنة 1976 أين ألقى كلمة تأبينية عليه (يمكن التأكد من العلاقة الوطيدة بين "يوناس" و "بولتمان" بالرجوع إلى كتاب: "بين العدم والخلود" بالرجوع من ص 145 إلى ص 174).

كان غضب "يوناس" شديدا لما رآه من التدمير الكبير الذي ألحق بألمانيا، فقرر الهجرة إلى "مونتريال"، "أوتاوا" ثم "نيويورك"، ولم يعد إلى ألمانيا إلا بعد وقت طويل، وكان ذلك بمناسبة الاحتفال بعيد الميلاد الثمانون لأستاذه "مارتن هايدجر"، رغم ذلك بقي "يوناس" متعلقا ببلده الأم "ألمانيا" بدليل أنه كتب كتابه الشهير "مبدأ المسؤولية". أخلاق من أجل حضارة تكنولوجية " سنة 1979 باللغة الألمانية.

لقد عرف "هانس يوناس" عبر مسيرته الفلسفية محطات ثلاث مختلفة:

المحطة الأولى: كانت خلال الحرب العامية الثانية، حيث اهتم بالظاهرة "الغنوصية"، وكان له أول كتاب حولها سنة 1934، لكن مأساة الحرب جعلته ينكب على ظاهرة الدين أكثر، ففي سنة 1952 كتب كتابا آخر بعنوان "الغنوصية، الوجودية والعدمية"، وكان يشير فيه إلى عدم وجود أي علاقة منطقية بين الحداثة والغنوصية، وكان يقول: "سواء تعلق الأمر بالغنوصية أو بالعلوم الحديثة، في الحالتين، فإننا في عالم لا يبالي، بل غريب ومناوئ للإنسان، أو بعبارة أخرى تجربة ترك الإنسان في عالم ابتعد الإله عنه" (كتاب: الديانة الغنوصية. رسالة إله غريب). لقد ألف يوناس سبعة كتب في الديانة الغنوصية، معظمها باللغة الألمانية. كما أنه ترك حوالي 38 مقالة، منها ما ترجم ومنها ما بقي باللغة الألمانية.

لقد كانت المرحلة الثانية: من حياة "هانس يوناس" مع نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث بدأ الفيلسوف "هانس يوناس" بإعادة النظر في بعض المواقف الفكرية والفلسفية، فكان أول ما وصل إليه هو: قصور التصور المثالي للوعي، فأرشدته فلسفته الفينومينولوجية التي ورثها عن أساتذته الأوائل (هوسرل وهايدجر) نحو المسائل الأنطولوجية، فوجه فكره صوب فلسفة الطبيعة التي أصبح باستطاعتها تفسير التغير الجذري للطبيعة نتيجة التقدم الكبير في المعرفة والوسائل التي بدت واضحة في التقدم التكنولوجي للطبيعة والبيوتكنولوجي للإنسان، فمنحت بذلك للإنسان قوة غير مسبوقة، لكن ذلك لم يخل من المخاطر، مما جعلها تهدد كيان الإنسان وحياته، وفي هذا المجال ترك "يوناس" أربعة مؤلفات أساسية، وأبرزها: "ظاهرة الحياة. نحو بيولوجيا فلسفية"، "من أجل أخلاق المستقبل"، "حق الموت"، "أخلاق من أجل الطبيعة"، إضافة إلى ذلك ترك "يوناس" وراءه أكثر من أربعين مقالة معظمها باللغة الألمانية، ترجمت العديد منها إلى اللغة الفرنسية.

أما المحطة الثالثة: التي ميزت حياة "يوناس"، هي التي بدأت في أواخر الستينيات من القرن الماضي، حيث بدأت عبقريته تخرج للعيان، وظهر معها نبوغه وحده الفلسفي، وأخرج أخلاقا

جديدة لم تألفها الإنسانية من قبل، كان منطلقها "مبدأ المسؤولية" الذي يرى فيه "يوناس" أنه الوحيد الذي يستطيع مواجهة التحدي التكنولوجي المعاصر الذي يقود المجتمع الإنساني نحو مستقبل مجهول، وهو ما جسده في كتابه الشهير "مبدأ المسؤولية". نحو حضارة تكنولوجية" سنة 1979، والذي حاز به جائزة السلام للكتاب الألماني سنة 1987. وتمت ترجمته إلى اللغة الفرنسية سنة 1990. وبذلك خرج يوناس إلى العالمية.

توفي "هانس يوناس" في شهر مايو من سنة 1993، تاركا وراءه رصيда فكريا وفلسفيا كبيرا، ويعد من أبرز وأهم فلاسفة القرن العشرين.

الملحق الثاني: ببليوغرافيا أهم الفلاسفة الذين تضمنتهم فلسفة " يوناس "

1. جورج فلهلم فريدريش هيغل (Wilhelm Friedrich Hegel) (1770 — 1831)

فيلسوف ألماني. يعتبر أحد أهم الفلاسفة الألمان، ومن مؤسسي المثالية الألمانية في الفلسفة في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. طور المنهج الجدلي الذي أثبت من خلاله أن سير التاريخ والأفكار يتم بوجود الأطروحة ثم نقيضها ثم التوليف بينهما. يعتبر هيغل أيضا آخر بناءة "المشاريع الفلسفية الكبرى" في العصر الحديث. كان لفلسفته أثر عميق على معظم الفلسفات المعاصرة. خلف هيغل تراث فكري وفلسفي ضخم من بين مؤلفاته، فينومينولوجيا الروح، أصول فلسفة الحق

2. رينيه ديكارت (René Descartes) (1596 – 1650)، فيلسوف، وعالم رياضي

وفيزيائي فرنسي، يلقب "أبو الفلسفة الحديثة"، ويعد "ديكارت" الشخصية الرئيسية لمذهب العقلانية في القرن 17 ميلادي، صاحب المقولة الشهيرة التي تعرف بالكوجيتو: "أنا أفكر، إذن أنا موجود" وكثيرا من الأطروحات الفلسفية الغربية التي جاءت بعده، هي انعكاسات لأطروحاته، والتي ما زالت تدرس حتى اليوم، خصوصا كتاب (تأملات في الفلسفة الأولى - 1641م) الذي ما زال يشكل النص القياسي لمعظم كليات الفلسفة. ومن مؤلفات أيضا نجد مؤلفه الشهير "مقال الطريقة"، الذي جسد فيه نزعتة العقلانية.

3. ايمانويل كانت أو ايمانويل كانط (Emmanuel Kant) وهو فيلسوف ألماني من القرن

الثامن عشر (1724 - 1804). كان آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبية الحديثة. وأحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكية. كان ايمانويل كانط آخر فلاسفة عصر التنوير الذي بدأ بالمفكرين البريطانيين "جون لوك" و"جورج بيركلي" و"ديفيد هيوم". من مؤلفاته: "نقد العقل الخالص"، "نقد العقل العملي"، "نقد ملكة الحكم"

4. ادموند هوسرل (Edmund Husserl، 1859 - 1938) فيلسوف ألماني ومؤسس الظاهراتية، من مؤلفاته، "تأملات ديكارتيه" (1932)، و"أزمة العلوم الأوروبية" و"الظاهرات المتعالية".
5. مارتن هايدجر (Martin Heidegger) (1889 - 1976) فيلسوف ألماني. تتلمذ تحت إشراف "ادموند هوسرل" مؤسس الظواهرية، ثم أصبح أستاذاً عام 1928. وجه اهتمامه الفلسفي إلى مشكلات الوجود، التقنية، الحرية والحقيقة وغيرها من المسائل. ومن أبرز مؤلفاته: "الوجود والزمن" (1927)؛ "دروب مؤصدة" (1950)؛ "ما الذي يُسمّى فكراً" (1954)؛ "المفاهيم الأساسية في الميتافيزيقا" (1961)؛ "نداء الحقيقة"؛ "في ماهية الحرية الإنسانية" (1982)؛ "نيتشه" (1983).
6. موريس ميرلوبونتي (Maurice Merleau-Ponty) (1908-1961 م) فيلسوف فرنسي تأثر بفينومينولوجيا "هوسرل"، وبالنظرية الجشطالتية التي وجهت اهتمامه نحو البحث في دور المحسوس والجسد في التجربة الإنسانية بوجه عام، وفي المعرفة بوجه خاص. من أهم كتبه "بنية السلوك" (1942 م) فينومينولوجيا الإدراك" (1945). وقد بين في هذه الأعمال بطلان مطامح علم النفس في تأسيس ذاته كعلم.
7. أرنست سيمون بلوخ (Ernst Bloch) (1885-1977) فيلسوف ماركسي ألماني. تأثر "بلوخ" بكل من "هيجل" و"ماركس". كان كذلك مهتماً بالموسيقى (بشكل خاص جوستاف موهلر) والفن (خاصةً التعبيرية). أنشأ صداقات مع "جورج لوكاش"، "برتولت بريخت"، "كورت ويل" و"تيودور أدرنو". ركز عمل "بلوخ" على مفهوم عالم الإنسان اليوتوبي، حيث ينتفي الاضطهاد والاستغلال، وهو ما سيكون دائماً قوة ثورية مؤد لجة. روح اليوتوبيا، "الحرية والنظام، أشهر منجزاته " مبدأ الأمل".

8. رودولف كارل بولتمان (Rudolf Bultmann) (1884-1976) لاهوتي ألماني، من خلفية "لوثرية" كان أستاذ دراسات العهد الجديد لثلاثة عقود في جامعة ماربورغ. قام بفصل كامل تقريبا بين التاريخ وبين الإيمان، وكتب أن صلب المسيح فقط يكفي للإيمان المسيحي. من مؤلفاته: (تاريخ التقليد الإنزائي - History of the Synoptic Tradition)
9. سقراط (Socrate) فيلسوف وحكيم يوناني (470 ق.م - 399 ق.م). يعتبر أحد مؤسسي الفلسفة الغربية، لم يترك سقراط كتابات، وجل ما نعرفه عنه مستقى من خلال روايات تلامذته عنه. ومن بين ما تبقى لنا من العصور القديمة، تعتبر حوارات "أفلاطون" من أكثر الروايات شموليةً وإمامًا بشخصية "سقراط" بحسب وصف شخصية "سقراط" كما ورد في حوارات "أفلاطون"، فقد أصبح "سقراط" مشهورًا بإسهاماته في مجال علم الأخلاق. وإليه تنسب مفاهيم السخرية السقراطية والمنهج السقراطي (أو المعروف باسم Elenchus).
10. أرسطو (Aristote) (384 ق.م - 322 ق.م) أو أرسطوطاليس وهو فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، وواحد من عظماء المفكرين، تغطي كتاباته مجالات عدة، منها الفيزياء، الميتافيزيقيا، الشعر، المسرح، الموسيقى، المنطق، البلاغة، اللغويات، السياسة، الحكومة، الأخلاقيات، علم الأحياء وعلم الحيوان. وهو واحد من أهم مؤسسي الفلسفة الغربية. من مؤلفاته "الأورغانون".
11. يورغان هابرماس (Jürgen Habermas) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني معاصر (18-06-1929) يعتبر من أهم علماء الاجتماع والسياسة في عالمنا المعاصر. ولد في دوسلدورف، ألمانيا وما زال يعيش بألمانيا. يعد من أهم منظري مدرسة فرانكفورت النقدية له أزيد من خمسين مؤلفا يتحدث عن مواضيع عديدة في الفلسفة وعلم الاجتماع

وهو صاحب نظرية الفعل التواصلي. "مستقبل الطبيعة البشرية" (2003) وكتاب "العلم والتقنية كأيدولوجيا"

12. **فرانسيس هاري كومبتون كريك (Francis H.K. Crick) 1916-2004**، عالم في البيولوجيا الجزيئية، اشتهر باكتشافه لبنية جزيء DNA (الحمض النووي) عام 1953 مع جيمس واطسون. إلى جانب واطسون و"موريس ويلكينز"، حصل كريك على جائزة نوبل عام 1962 في علم وظائف الأعضاء أو الطب "لاكتشافهم بنية الأحماض النووية وأهميتها في نقل المعلومات في المادة الحية". ارتكزت النتائج بشكل جزئي على دراسات أساسية منجزة من خلال "روزا ليند فرانكلين" و"ريموند غوسلينك وويلكينز". من مؤلفات طبيعة الحياة.

13. **جون برودوس واطسون (John Broadus Watson) (1878 - 1958)** هو عالم نفس أمريكي أسس المدرسة النفسية المعروفة باسم السلوكية (Behaviorism)، أحدث واطسون تغييراً في علم النفس خلال خطبته التي حملت عنوان، علم النفس كما يراه السلوكيون، والتي ألقاها في جامعة كولومبيا عام 1913، ومن خلال منهجه السلوكي، قام واطسون بعمل بحثٍ على سلوك الحيوان وتربية الأطفال والدعاية والإعلان، بالإضافة إلى أنه قام بعمل التجربة المثيرة للجدل والمعروفة باسم تجربة "ألبرت الصغير" (Little Albert)

14. **ابيقور (Epicure)** هو فيلسوف يوناني قديم عاش في الفترة بين عامي (341-270 ق.م)، أسس مدرسة فلسفية سميت باسمه هي المدرسة (الأبيقورية). قام بكتابة حوالي ثلاثمائة منجز لم يصلنا منهم إلا بعض الأجزاء والرسائل ومعظم ما وصلنا من الفلسفة الأبيقورية مستمد من التابعين لها وبعض المؤرخين ومنها النصوص التي حفظها "ديوجينيس اللايرسي" (Diogène)، فهي رسالة موجهة إلى "هيروودوت" في الطبيعيات، ورسالة موجهة

إلى "فيتوكليس" في الآثار العلوية، ورسالة موجهة إلى "ميناقايوس" في الأخلاق؛ ومائة وإحدى وعشرون فكرة هي ملخص المذهب.

15. سورين أباي كيركغورد أو كيركجورد (Soren Kierkegaard) (1855-1813)

هو فيلسوف دنماركي، ولاهوتي، وشاعر، وناقد اجتماعي، ومؤلف ديني، ويُعتبر على نطاق واسع أول فيلسوف وجودي. كتب نصوصاً نقدية حول الدين المنظم، والمسيحية، والأخلاق، وعلم النفس، وفلسفة الدين، مظهرًا في ذلك حبًا للاستعارات والسخرية والأمثال. تتعامل الكثير من أعماله الفلسفية مع القضايا التي تناقش كيف يعيش المرء «كفرد منفرد»، من مؤلفاته «خوف ورعد»

16. فريدريك فلهلم نيتشه (Friedrich Nietzsche) (1900- 1844) فيلسوف

ألماني، ناقد ثقافي، شاعر وملحن ولغوي وباحث في اللاتينية واليونانية. كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية، وتاريخ الفكر الحديث والمعاصر. من بين مؤلفاته "هكذا تكلم زرادا تشت". "العلم المرح".

17. تشارلز روبرت داروين (Charles Robert Darwin) عالم تاريخ طبيعي وجيولوجي

بريطاني 1809-1882. اكتسب داروين شهرته كمؤسس لنظرية التطور والتي تنص على أن كل الكائنات الحية على مر الزمان تتحدر من أسلاف مشتركة، وقام باقتراح نظرية تتضمن أن هذه الأنماط المتفرعة من عملية التطور ناتجة لعملية وصفها بالانتقاء (الانتخاب) الطبيعي، وكذلك الصراع من أجل البقاء له نفس تأثير الاختيار الصناعي المساهم في التكاثر الانتقائي للكائنات الحية. من أبرز أعماله: كتاب "أصل الأنواع".

18. لوي بيير التوسير (Louis Pierre Althusser) (1918 - 1990) كان فيلسوفًا

ماركسيا. درس في مدرسة الأساتذة العليا في باريس التي أصبح بمر السنين أستاذًا للفلسفة فيها. كان "التوسير" لفترة طويلة عضوًا في الحزب الشيوعي الفرنسي واعتبر أحد أهم

المنظرين الماركسيين في القرن العشرين. جادل في أطروحاته التهديدات، من وجهة نظره، على الأسس النظرية للماركسية. منها تأثيرات الإمبريقية على النظرية الماركسية، التوجهات الاشتراكية الإنسانية والإصلاحية التي بانث في انحرافات في الأحزاب الشيوعية الأوروبية، بالإضافة إلى مشكلة "عبادة الشخصية" وعبادة الأيديولوجية نفسها. من أعماله: كتاب "قراءة رأس المال"

19. فان بوتر رينسلاير (1911 - 2001) أول من استعمل كلمة "بيواتيقيا" وذلك سنة

1970 في مقال بعنوان "علم البقاء على قيد الحياة" «

20. ميشال فوكو (Michel Foucault) (1926 - 1984) فيلسوف فرنسي، يعتبر من

أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين، تأثر بالبنويين ودرس وحل تاريخ الجنون في كتابه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي"، وعالج مواضيع مثل الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية في السجون. ابتكر مصطلح "أركيولوجية المعرفة". أُرخ للجنس أيضاً من "حب الغلمان عند اليونان" وصولاً إلى معالجاته الجدلية المعاصرة كما في "تاريخ الجنسية".

21. بول ريكور (Paul Ricœur) فيلسوف فرنسي وعالم إنسانيات معاصر ولد في 27

فبراير 1913، وتوفي في، 20 مايو 2005. هو واحد من ممثلي التيار التأويلي، اشتغل في حقل الاهتمام التأويلي ومن ثم اهتم بالبنوية، وهو امتداد لـ «فيرديناند دي سوسير». يعتبر "ريكور" رائد سؤال السرد. أشهر كتبه (نظرية التأويل - التاريخ والحقيقة - الزمن والحكي - الخطاب وفائض المعنى)

22. فرانسيس بيكون (Francis Bacon) (1561 - 1626) فيلسوف ورجل دولة

وكاتب إنجليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على

«الملاحظة والتجريب». من الرواد الذين انتبهوا إلى غياب جدوى المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس من أهم أعماله "الأورغانون الجديد".

23. **أوغست كونت (Auguste Comte) (1798 - 1857)** عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي فرنسي، أعطى لعلم الاجتماع الاسم الذي يعرف به الآن، أكد ضرورة بناء النظريات العلمية المبنية على الملاحظة، إلا أن كتاباته كانت على جانب عظيم من التأمل الفلسفي، ويعد هو نفسه الأب الشرعي والمؤسس للفلسفة الوضعية، أهم مؤلفاته: "محاضرات في الفلسفة الوضعية" و"نظام في السياسة الوضعية"، "قانون الأحوال الثلاث".

24. **كلود برنارد (Claude Bernard) (1813 - 1878)** عالم فرنسي شهير يعتبر مؤسس المدرسة التجريبية العلمية وصاحب عدة بحوث هامة أدت إلى اكتشاف وفهم الوسط الداخلي والاستتباب. درس الصيدلة ثم انهى دراسته في الطب في مدينة ليون قبل أن يتخصص في علم الأحياء (الفيزيولوجيا). لديه عدة اكتشافات علمية هامة من مؤلفاته "مدخل إلى دراسة الطب التجريبي".

25. **لويس باستور (Louis Pasteur) (1822 - 1895)** هو عالم كيميائي فرنسي وأحد أهم مؤسسي علم الأحياء الدقيقة في الطب، ويُعرف بدوره المميز في بحث أسباب الأمراض وسبل الوقاية منها. ساهمت اكتشافاته الطبية بتخفيض معدل وفيات حمى النفاس وإعداد لقاحات مضادة لداء الكلب والجمرة الخبيثة، العديد من الاكتشافات في مجال الكيمياء، وأبرزها الأساس الجزيئي لعدم تماثل بلورات معينة. يُعتبر باستور أحد أهم مؤسسي علم الأحياء الدقيقة.

26. **فرانسوا داغونيي François Dagognet** طبيب وفيلسوف وابستمولوجي فرنسي، ولد في يوم 24 أبريل سنة 1924 م، بمدينة لانغريس Langres تلقى تكوين مزدوج، علمي

وفلسفي تلميذ الفيلسوف الفرنسي "جورج كانغيلهم"، اشتغل كأستاذ فلسفة سنة 1949، كما حصل على دكتوراه في الطب سنة 1958، كما تلقى تكوين في مجال طب الأعصاب، وكذا في الكيمياء والبيولوجيا، وهذا يفسر من دون شك اهتماماته الفلسفية في هذه المجالات. تقلد منصب أستاذ بجامعة ليون Lyon الفرنسية، ثم جامعة "السوربون" بباريس Paris، إن فلسفة داغونوي المرتبطة بالواقع، توسعت شيئاً فشيئاً. شملت المسائل المتعلقة بالبيولوجيا والطب، كما عمل على تحليل العالم المعاصر بكل أبعاده وإفرازاته خاصة منها التقنيات العلمية، وإجراءاته الإدارية والقانونية، وكذا إبداعاته الفنية. إن الفيلسوف داغونوي من الفلاسفة الذين يمكن الاستعانة بهم في فهم قضايا العالم المعاصر بمظاهره الجديدة، ومفاهيمه المركبة، وفلسفته تعبير عن وظيفة الفلسفة اليوم.

27. **حنة آرندت (Hannah Arendt) (1906 - 1975)** كانت باحثة ومنظرة سياسية يهودية من أصل ألماني. على الرغم من أنه كثيراً ما وُصفت بالفيلسوفة، فإنها كانت دائماً ترفض هذا الوصف على أساس أن الفلسفة تتعاطى مع "الإنسان في صيغة المفرد". وبدلاً من ذلك وصفت نفسها بالمنظرة السياسية لأن عملها يركز على كون "البشر، لا الإنسان الفرد، يعيشون على الأرض ويسكنون العالم." من أعمالها نجد كتاب بعنوان "أسس التوتاليتارية".

28. **برتولت بريشت، (Bertolt Brecht)** وتكتب أيضاً بريخت، (1898-1956) هو شاعر وكاتب ومخرج مسرحي ألماني. يعد من أهم كتاب المسرح في القرن العشرين. كما أنه من الشعراء البارزين. كانت أولى أعماله المسرحية وهي "بعل" Baal وكان متأثراً فيها بفترة التعبيرية. أما في مسرحية "أوبرا الثلاثة قروش" 1928 التي حققت له نجاحاً عالمياً، فقد كانت تصور بطريقة عفوية مبدأ: "في البداية الطعام، ثم الأخلاق"

قائمة المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم

مصادر ترجمت إلى اللغة الفرنسية خاصة بالفيلسوف "هانس يوناس"

1. Hans Jonas, Entre le néant et l'éternité, Belin, 1996
2. Hans Jonas, Evolution et Liberté, Trad. Sabine Cornille & Philippe Ivernel, Paris, Payot & Rivages, 2000.
3. Hans Jonas, Le concept de Dieu après Auschwitz : une voix juive, Payot & Rivages, 1994.
4. Hans Jonas, Le droit de mourir, Trad. Philippe Ivernel, Rivages, 1996
5. Hans Jonas, Le phénomène de la vie. Vers une biologie philosophique, Trad. Danielle Lorries, Bruxelles, De Boeck & Larcier, 2001.
6. Hans Jonas, Le principe responsabilité. Une éthique pour la civilisation technologique. Trad. Jean Greisch. Paris Cerf. 1990.
7. Hans Jonas, Pour une éthique du futur, Trad. Sabine Cornille & Philippe Ivernel, Rivages, 1998.
8. Hans Jonas, Puissance ou impuissance de la subjectivité, Trad. Christian Arnsperger, Paris, Cerf, 2000.

9. Hans Jonas, Réflexions philosophiques sur l'expérimentation humaine. Médecine et Expérimentation, P.U. Laval.1997.
10. Hans Jonas, religion gnostique. Le message de Dieu étranger et le début du christianisme, Flammarion, 1978.
11. Hans Jonas, Souvenirs, Trad. Sabine Cornille & Philippe Ivernel, 2005.
12. Hans Jonas, Une éthique pour la nature, Trad. Sylvie Courtine-Denamy, Desclée de Brouwer, 2000.
13. Hans Jonas. Essais philosophique, du crédo ancien à l'homme technologique. Paris. Vrin .2013
14. Hans Jonas. L'art médical et la responsabilité humaine. Trad. Éric Pommier. Paris. Cerf. 2012.
15. Hans Jonas, Vers une philosophie de la technologie, in Hastings report, Février 1979.
16. Hans Jonas. Technique Morale et Génie Génétique. Trad. Rémi Brague. In, Communto N°9. Nov-Dec 1984.
17. Hans Jonas. La Science comme vécu personnel. In Etudes Phénoménologiques. N°8 Bruxelles. 1988.

2. المراجع باللغة العربية

1. أحمد القاسمي الحسني، علامات الحياة والممات بين الفقه والطب، دار الخلدونية، الجزائر، 2001.
2. أحمد أمين، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، ط2، 1935.
3. إدموند هوسرل، تأملات ديكارتيه، تر: تيسير شيخ الأرض، الدار المصرية للنشر.
4. أرنست ماير، هذا هو علم البيولوجيا، دراسة في ماهية الحياة والأحياء، تر: عفيفي محمود المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 2002.
5. أليكس روزنبرغ - دانيال و، ماك شي، فلسفة البيولوجيا. مدخل معاصر، تر: ميتا سيتي يوسف ط1-2018 -المركز القومي للترجمة - مصر.
6. أوشو، الانسان الجديد، تر: متيم الضايح دار الحوار للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2014.
7. أوي. ايلين -ا. ت فرالوف، البحث العلمي والصراع الفلسفي، تر: د محمد أحمد شومان، دار الفارابي - بيروت - ط 1. 1982.
8. أي. أف. ستون، محاكمة سقراط، تر: نسيم مجلي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2002.
9. أحمد عبد الحليم عطية، إيتيقا الراهن، الاتجاهات الأخلاقية المعاصرة.
10. إيمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، تر: عبد الغفار النكاوي، ط2، القاهرة، 1980.
11. إ. م. بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، تر: عزت قرني، مجلة سلسلة عالم المعرفة، العدد 165، الكويت. 1992.

12. برتراند راسل، حكمة الغرب، ج2، تر: فؤاد زكريا، ط1، مكتبة نور للنشر والتوزيع، 1970.
13. برتراند رسل، هل للإنسان مستقبل؟ تر: سمير عبده، دار دمشق للطباعة، سوريا، ط1، 1969.
14. بول فيرابند، العلم في مجتمع حر، تر: السيد نفادي. المجلس الأعلى للثقافة، 20000.
15. بوني. ف. فرمجن، القانون الطبي والأخلاق، تر: نجيب الحصادي المركز القومي للترجمة، ط1، 2012.
16. ج. لايكوف ومارك جونسون، الفلسفة في الجسد: الذهن المتجسد وتحديده للفكر الغربي، تر: عبد المجيد جحفه، دار الكتاب الجديد، ليبيا، ط1، 2016.
17. جاكليين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، تر: د. عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، بيروت لبنان، ط1، 2001.
18. جان كير برج وآخرون، موجات جديدة في فلسفة التكنولوجيا، تر: شوقي جلال، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2002.
19. جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، تر: كامل يوسف حسين، مجلة سلسلة عالم المعرفة، عدد76، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1984.
20. الجندي ابراهيم صادق الحصري، تطبيقات تقنية البصمة الوراثية في التحقيق والطب الشرعي، الرياض، ط1، 2002.
21. جوليان هوكسلي، ما بعد الإنسانية، في زجاجات جديدة للنبذ، لندن، شاتو وفيندوس، 1957.

22. جون هاريس، قيمة الحياة، نقلا عن ناهدة البقصيمي، الأخلاق والهندسة الوراثية، مجلة عالم المعرفة، العدد 174، 1978.
23. حامد خليل، مشكلات فلسفية، ط1، المطبعة الجديدة، دمشق، سوريا، 1964.
24. حلمي القمص يعقوب، ما هي نظرية التولد الذاتي؟، مكتبة الكتب المسيحية، المكتبة الأرثوذكسية، القاهرة، د.ت.
25. حنه اردنت، شروط الإنسان المعاصر، باريس، كالمأن ليفي، 1961.
26. خديجة زيتلي ومجموعة من الأكاديميين العرب، الأخلاقيات التطبيقية: جدل القيم والسياقات الراهنة للعلم، مكتبة مؤمنون قریش، تونس، ط1، 2015.
27. الخلف موسي، العصر الجينومي، مجلة سلسلة عالم المعرفة، عدد294، الكويت، 2003.
28. دانييل كيفلس ولروى هود، الشفرة الوراثية للإنسان، تر: د. أحمد مستجير، مجلة سلسلة عالم المعرفة، عدد 217، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1997.
29. دليل بيرترز، الديمقراطية، تر: محمد بدران، مطبعة لجنة التأليف والنشر والتوزيع، سلسلة دار المعارف، بيروت، 1938.
30. روبرت ه. كارلسون، ما البيولوجيا الا تكنولوجيا. تر: أيمن توفيق. مراجعة محمود خيال. ط1 المركز القومي للترجمة -القاهرة-مصر-2014.
31. رياض أحمد عودة، الاستتساخ في ميزان الإسلام، الأردن، عمان، ط 1، 2003.
32. رياض عزيز هادي، حقوق الإنسان، بغداد، 2005.

33. ريديلي مات، الجينوم، تر: مصطفى ابراهيم فهمي، مجلة سلسلة عالم المعرفة، عدد275، الكويت،2000.
34. ريتشارد دوكنز، العلم والحقيقية: تأملات عن الأمل والأكاذيب والعلم والحب، تر: مصطفى إبراهيم فهمي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2005.
35. زهر الكرمي، العلم ومشكلات الانسان المعاصر، سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب -الكويت-2000.
36. ستيفن روز وآخرون، علم الأحياء والإيديولوجيا والطبيعة البشرية، تر: د. مصطفى إبراهيم فهمي، مجلة سلسلة عالم المعرفة، رقم 148، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1990.
37. سعيد محمد الحفار، البيولوجيا ومصير الإنسان، مجلة سلسلة الكتب الثقافية الشهرية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2006.
38. سمية بيدوح، فلسفة الجسد، دار التنوير، ط1، بيروت، لبنان، 2009.
39. سواحل وجدي عبد الفتاح، الهندسة الوراثية والتقنية الحيوانية، مجلد35، سلسلة مجلة عالم الفكر، عدد2، الكويت، 2006.
40. عادل العوا، الاستنساخ جدل العلم والدين والأخلاق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ت.

41. عادل عوض، الأصول الفلسفية لأخلاقيات الطب، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، مصر، 2011.
42. عبد الرزاق الداوي، موت الانسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 2000.
43. عبد الهادي مصباح، الاستتساخ بين العلم والدين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط2، يناير 1999.
44. عبد الهادي مصباح، العلاج الجيني ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1999.
45. عبد الحسن صالح، التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان، مجلة سلسلة عالم المعرفة، عدد رقم 48، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1981.
46. علي حرب، حديث النهايات: فتوحات العولمة ومأزق الهوية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2000.
47. علي عبود المحمداوي، البيوايثيقا والمهمة الفلسفية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014.
48. الغزالي، ابو حامد محمد بن محمد، المستصفى، ت ر: محمد مصطفى ابو العلى، مكتبة الجندي، مصر.
49. محمد فتحي، الاستتساخ، دار اللطائف للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003.
50. ف. هيجل، أصول فلسفة الحق، المجلد الأول، تر: إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، ط2، بيروت. 1996.
51. فتحي التريكي، الهوية ورهاناتها، تر: نورالدين السلفي ونور الدين المدني، الدار المتوسطة للنشر، تونس، ط1، 2010.

52. فتحي المسكيني، الفيلسوف والامبراطورية في تنوير الإنسان الأخير، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2010.
53. فتحي سلامة، قراءة في عيون المستقبل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996.
54. فرانسيس بيكون، الاورغانون الجديد أو الوسيلة الجديدة لاكتساب المعرفة، تر: منذر محمود محمد، دار الفرقد للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2016.
55. فريتوف كابرا، الوصلات الخفية: تكامل الأبعاد البيولوجية والمعرفية والاجتماعية للحياة من أجل علم للاستدامة، تر: محمد سالم الحديدي، الهيئة العامة لشؤون المطابع، القاهرة، ط1، 2012.
56. قصي السعدي، فلسفة الدماغ الوحدة الواحدة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2016.
57. لوك فيري، الإنسان المؤله، معنى الحياة، تر: محمد هشام، افريقيا الشرق، بيروت، لبنان، 2002.
58. لويس ولبرت، طبيعة العلم غير الطبيعية، تر: سمير حنا صادق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2001.
59. محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، د.ت.
60. مصطفى إبراهيم الزلمي، حقوق الإنسان في الإسلام، مطبعة الخنساء، بغداد، العراق، ط1، 2005.
61. ميتشو كاكو، رؤى مستقبلية، كيف يغير العالم حياتنا في ال قرن 21، تر: سعد الدين خرفان، مجلة سلسلة المعرفة العدد 270، 2001.

62. نجيب العوفي، مساءلة الحداثة، دار النشر المغربية، عدد5، يوليو 1996.
الرباط
63. نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، الصحاح في اللغة والعلوم، دار الحضارة،
بيروت، ط1، 1984.
64. نورة بوحناش، الاجتهاد وجدل الحداثة، منشورات الاختلاف، الرباط، ط1،
2016.
65. ناهدة البقصيمي، الهندسة الوراثية والأخلاق، سلسلة عالم المعرفة، الكويت،
عدد174، جويلية 1993.
66. هيربرت ماركيوز، الإنسان ذي البعد الواحد، تر: جورج طرابيشي، بيروت،
1975.
67. هدى قشقوش، القتل بدافع الشفقة، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996.
68. هنري برغسون، التطور المبدع، تر: جميل صليبا، المكتبة الشرقية، بيروت،
لبنان، 1986.
69. هنري برغسون، الفكر والواقع المتحرك، تر: سامي الحروبي، دار الأوابد،
دمشق، سوريا، د.ت.
70. وجدي خيرى نسيم، الفلسفة وقضايا البيئة: أخلاق المسؤولية، هانس يونس
نموذجا، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2009.
71. يورغان هابرماس، العلم والتقنية ك(أيديولوجيا)، تر: حسن صفر منشورات
الجمال، ط1، 2003، كولونيا، ألمانيا.
72. يورغان هابرماس، مستقبل الطبيعة الإنسانية. نحو نسالة ليبرالية، تر: جورج
كتورة، المكتبة الشرقية بيروت، لبنان، ط1، 2008.

73. يوهان. ف. غوته، الفاوست الثاني، تر: هنري بلاز، باريس، شاربونيي، 1840.

3. مراجع باللغة الفرنسية

1. Adam Smith, Théorie des sentiments moraux, Paris, PUF, 1999.
2. Albert Einstein, « La Géométrie de l'expérience, Conférence prononcée le 27 /01/1921, in œuvres choisies, Tome V, Paris, Seuil, 1991, p71.
3. André Vergez & Denis Huissman, Cours de philosophie, T2, Nathan, France, 1990.
4. Andrew Nicole, Bienvenue à Gattaca, 1997.
5. Aristote, La Physique, Livre4, Paris, Librairie philosophique, J. Vrin, 1999.
6. Aristote, Métaphysique, Livre 4, Paris, Flammarion, 2008.
7. Aristote, Morales et Politique, Textes choisis, collection sup. France. P.U.F.1970.
8. Aristote. Histoire des animaux. Trad. J. Barthélémy. Saint Hilaire. Paris. Hachette. 1965.
9. Axel Kahn, Société et Révolution Biologique, Pour une éthique de la responsabilité, I.N.R.A. Paris, 1996.

10. Baruch Spinoza, Traités des autorités théologiques et politiques, Paris, Gallimard, 2002.
11. Bernadette Bonsande Vincent. Fabriquer la vie, Ou va la Biologie de Synthèse. Paris. Seuil. 2011.
12. Berthold Brecht, Exil 3, Œuvres Complètes, Poèmes, Trad., P. Mayer, Paris, 1967.
13. Charles De Koninck, La responsabilité morale du scientifique, in Œuvres de Charles De Koninck, T1, philosophie de la nature et des sciences, Vol.1, Québec, PUL/2009
14. Charles de konninck. Cours de Psychologie Expérimentale, in Archives Charles de konninck. N°393. 1935
15. Christian, Boissinot, Les aventures philosophiques contemporaines de la responsabilité, Ottawa, bibliothèque nationale du Canada, 2001
16. Claude Lafon, De la biologie à la bioéthique, Ellipses, Edition Marketing, Paris, 2006.
17. Claude Lefort, Essai sur la politique xix et xx siècle, Paris, Seuil, 1986, p71
18. Didier Sicard, L'Art Médical et la Bioéthique, Paris, P.U.F, 2009.

19. Edgar Morin, La voie pour l'avenir de l'humanité, Librairie Arthème Fayard, 2011.
20. Edgar Morin, Le Paradigme perdu : La nature Humaine, Edition du seuil, Paris, 1ere Publication, 1973.
21. Edmond Husserl, La Crise de l'humanité européenne et la philosophie, Collection Laurence Hansen– Love, 1935.
22. Epicure, Lettres, Maximes, sentences, Paris, Livre de poche, 1994.
23. Ernest Bloch, Le Principe espérance, trad. François Wil– mard, T2, Les épures des mondes meilleurs, Gallimard, Pa– ris, 1982.
24. Ernest Cassirer. Essai sur l'homme. Trad. Norbert Massa. Paris. Minuit. 1975.
25. Ernest Cassirer. Trois essais sur le symbolique. Trad. Jean Carro et Joël Gaubert. Paris. Cerf. 1997.
26. Francis Fukuyama, La Fin de l'homme, les consé– quences de la révolution biotechnique, Paris, La Table Ronde, 2002 .
27. François Dagognet, Nature, « Proverbe indien », Paris, Vrin, 1990

28. François Dagognet. *la maitrise du vivant* .Paris hachette. 1988.
29. François Lelord & Christophe André, *La force des émotions*, Paris, Odile Jacob, Avril 2003
30. Frantz Brentano. *Psychologie du point de vue empirique*. Paris Vrin .1965.
31. Geoffroy Michel. *La Patience de l'inquiétude*. Paris. Romillat. 2004.
32. Gilbert Hottois et J.N. Missa, *Nouvelle Encyclopédie de bioéthique*. De Broeck, université, 1^{ere} édition, Bruxelles, 2002.
33. Gilbert Hottois, *Essais de philosophie bioéthique et biopolitique*, Librairie philosophique, Paris, J. Vrin, 1999.
34. Gilbert Hottois, *Philosophie des Sciences, Philosophie des Techniques*, Paris, Odile Jacob, 2004.
35. Guy Bourgeault, *Dit, Non-dit, Contredit, Interdit*, Essai, P.U. Québec, Canada, 2004.
36. Guy Durant. *Introduction générale à la bioéthique*. Fides. Montréal. Québec. Canada. 2007.

37. Hegel, Leçon sur l’histoire de la philosophie, Introduction, Bibliographie, Philosophie orientale, Trad. Giles Marmasse, Paris, Vrin, 2004.
38. Henri Bergson. L’évolution créatrice. Paris. P.U.F. Chap. II.
39. Herbert Marcuse, Eros et Civilisation, Paris, Edition, de Minuit, 1963
40. Hubert Doucet. Au pays de la bioéthique. Labor et Fides. 1996.
41. Jacques Ruffié, Naissance de la Médecine Prédictive, Paris, Odile Jacob, 1993
42. Jean Bernard, De la biologie à l’éthique, Nouveaux pouvoirs de la science, nouveaux devoirs de l’homme, Editions Buchet, Chastel, 1990.
43. Jean François Mattei et AL, Questions d’Ethique Médicale, Paris, Flammarion, 2008.
44. Jean Jacques Salomon, Les scientifiques entre le pouvoir et le savoir, Paris, Albin Michel, 2006.
45. Jean. J. Rousseau, Emile ou de l’éducation, Paris, Flammarion, 2009, p340.

46. Jürgen Habermas, L'Avenir de la nature humaine, Vers un Eugénisme libéral, Trad. Christian Bouchindhomme, Gallimard, Paris, 2001.
47. Karl Barth. Eglise dogmatique. V3. Edimbourg .1961.
48. Karl Otto Appel, Discussions et responsabilité, T2, Contribution à une éthique de la responsabilité, Trad. Christian Bouchindhomme et Rainer Rochlitz, Edition cerf, Paris 1998
49. LEWIS.M.A. Lois et morale en médecine. Philadelphia.
50. Louis Vialle. Défense de la vie. Alcan. Paris /1938.
51. Ludwig Wittgenstein. Conférence sur l'éthique. Trad. de l'anglais : J. Fauve. Gallimard. Paris.1971.
52. M.-G. Pinsart, Jonas et la liberté. Dimensions théologiques, éthiques, et politiques.
53. Martin Heidegger, Essais et Conférences, Paris, Gallimard, 1958,
54. Martin Heidegger. L'être et le temps. Paris. Gallimard. 1964.
55. Max Schiller. Man's place in nature. Trad. Hans Mayer holf. New York. Moon Day. Press. 1968.
56. Paul Ramsey .la moralité de l'avortement. John Rachel. Ed. Les problèmes moraux .

57. Pierre Aubenque, La prudence chez Aristote, Paris, PUF, 1963.
58. Ray Kurz Weil. Le Singulier est Proche, quand les humains transcendent la biologie. New-York. Pingouins books. 2005.
59. René Descartes. Discours de la méthode. Sixième partie. de la pléiade. 1953
60. René Descartes. Traité de L'homme. Paris. La Pléiade. 1953.
61. René Scriban, Biotechnologie, 5eme Edition, Rue Lavoisier, Paris STJhon Stres. Le droit de la vie. New York .1964.
62. Robert Theis, Jonas, Habiter le monde, Paris, Michalon, 2008.
63. Thomas Pradeu. Philosophie de la biologie. In. Précis de philosophie des sciences. Paris. Vuibert. 2011.
64. Tomas Hobbs, Le Léviathan : traité de la matière, de la forme du pouvoir de la république et civile, trad. François Tricaud, Paris, Sirey, 1971
65. Tugdval Derville. Trans humanisme, Qu'allons-nous faire de nous. In. La Croix. 2012 .

66. Zygmunt Baumann, La vie en miettes, Rodex, Le Rouergue/Chambon, 2003.

4 مجلات ومنشورات

1. مجلات ومنشورات باللغة الفرنسية

1. Alexis Brocas, Une Intelligence très artificielle, Revue Magazine littéraire, N°16, Avril 2019.
2. Bernard Sève, Hans Jonas et le principe responsabilité, Esprit n° 165, Octobre 1990
3. Frédéric Keck, Des Biotechnologies au biopouvoir, in Revue Multitudes, 2003, N° 12
4. Hans Jonas, cité par Dominique Janicaud, dans en guise d'introduction à H. Jonas, Esprit, N° 51, 1988.
5. Jean François Dortier, Etre un homme aujourd'hui, l'identité masculine est-elle en crise ? Revue Sciences Humaines, N° 313, 2019.
6. Le nouveau Magazine Littéraire, Intelligence artificielle, Notre monde à Réinventer, France, N°16, Avril 2019.
7. Michel Foucault, Le courage d'être soi, Revue Philosophie Magazine, Hors-série, N° 36, 2018.
8. Pascal Chabot : Entre bio et éthique. Science et avenir. Mars-avril. 2002.
9. Philosophie Magazine, Hors-Série, Foucault, Le courage d'être soi, Mars 2018.

10. Pierre André Taguieff, L'espace de la bioéthique, in Mots, N°44, Sept 1995.
11. Revue des sciences Humaines, Etre un homme aujourd'hui, L'identité Masculine est-elle en crise ? France, N°313, Avril 2019.
12. Sapranta. D. Nalin. Liberté de procréation génétique .in. Raisons politiques. N° 12. Nov. 2012.
13. Susan Braner. L'amélioration de l'humain par des substances pharmacologiques, Bulletin des médecines Suisses. N° 92. Berne. oct. 2011.

2. مجلات ومنشورات جامعية باللغة العربية

1. عتيقة بلجبل، القتل الرحيم بين الإباحة والتحریم، مجلة الفكر الصادرة عن جامعة بسكرة، العدد السادس. 2018
2. أحمد أبو زيد، الطريق إلى ما بعد الإنسانية، مجلة العربي، العدد 563، وزارة الإعلام، الكويت، جولية 2003.
3. أحمد فؤاد باشا، إشكالية التحيز في فلسفة العلم والتقنية، مجلة الفيصل، عدد 52، الرياض، السعودية، 2016.
4. الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، المادة 29
5. حسن حنفي، أزمة العقل، عدد خاص، مجلة الفكر المعاصر، عدد رقم 99، 1971.
6. حسن حنفي، في تأويل حديث النهايات، نهاية الآخر وبداية الأنا، مجلة المنطق الجديد، عدد 04، مؤسسة الفلاح، بيروت، 2002.
7. الخادمي نور الدين بن مختار، الجينوم البشري وحكمه الشرعي، سلسلة إصدارات جامعة الإمارات 2000
8. داخل عبد العزيز عبد الله، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الرياض، الملكة العربية السعودية، 2006 .
9. عامر عبد زيد الوائلي، البيوايتيقا والتقنية والتحويلات المعاصرة، مجلة الاستغراب، عدد 15، 2019.
10. عبد اللطيف الشاقوري، العولمة ورهانات البيوايتيقا، مجلة فكر ونقد، الرباط، عدد 25، 2000.
11. على عرعور، الأخلاق الأبيقورية وأثرها في الفكر الأخلاقي المعاصر، مذكرة شهادة الماجستير في الفلسفة، جامعة الجزائر، 2005.

12. فرانسيس كولينز، هل بدأت ثورة الجينوم، تر: علي الحارس، مجلة نيتشر (nature)، 2010.
13. فرانسيسكو أيلالا، أنا قرد، ستة أسئلة حول التطور، بالتمور، مجلة جامعة جون هوبكنز، الولايات المتحدة الأمريكية، 2010.
14. كريم صالح عبد العزيز محمد، الجينوم البشري، كتاب الحياة، مجلة الإعجاز العلمي، الرياض، 2000.
15. متحوت حسن، قراءة الجينوم البشري ج1، مطبوعات المنظمة الإسلامية، الكويت، 2000.
16. محمد حسونة، استنساخ البشر 2060، مجلة العربي العلمي، وزارة الإعلام، الكويت، العدد 15، مارس 2013.
17. ميشال هنري. البربرية. باريس. المنشورات الجامعية الفرنسية. 1987.

5 الروابط الإلكترونية

1. Erwan le Morhedec, Les 14 bonnes raisons de dire : non à l'euthanasie, 29/02/2020, le lien : <http://www.koztjours.fr>
2. جيل كارول، القيمة الإنسانية المتأصلة، بتاريخ 20/02/2020 على الرابط: <http://www.net/portal/index.php?Opinion.com>.
3. سلام حمار عطية، فكرة للحق في الموت، ليوم 01/03/2020، ص1، على الموقع التالي: www.m.hemar.org
4. طلعة سمح، الدنا، ليوم 20/03/2020، ص1، على الموقع: <http://www.islamonline.net/iol/arabic/dowalia/sciences>
5. عادل زكريا، معنى الحياة، وجهات نظر دينية، بتاريخ 21. 02. 2020، ص2، الرابط: <http://Adel/Zekri.Word.presse.com>.
6. عبد الله الزرهوني، قراءة في محاوره فيدون لأفلاطون، بتاريخ 03 مارس 2020 . ص10، الرابط الإلكتروني: <http://mohamad-philo.blogspot.com>
7. فاطمة شوقي، فرنسا تقن الموت الرحيم للمرضى، يوم 17/02/2020، ص1، على الموقع التالي: <http://www.youm7.com/story>
8. مارشيل للحياة، اليوثانجية، يوم 1/2/2020 ص1 على الموقع التالي: euthanae.htm.marchabel.lilhayat.co
9. ي. ماركس، القتل الرحيم، ليوم 16/02/2020 ص1، على الموقع التالي: <http://www.arabworldbooks.com>
10. ياسين سويحة، الموت الرحيم... قرار بين الفلسفة والاخلاق والدين والعلم والدين، ليوم 12/02/2020، ص2 على الموقع التالي: <http://www.syxiahgawoche.com>

6 قواميس، موسوعات ومعاجم.

1. اندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمه: خليل أحمد خليل، مج 1، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، طبعة 2 2001.
2. عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ط3، مطبعة مدبولي، القاهرة، 2000.
3. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، مصر، 2004.
4. المعجم الإلكتروني هو: / Merriam Webster dictionnaire. Reverso/ français-arabe/adressage.
5. معجم العلوم الإنسانية، جان فرانسوا دورتيي: تر: جورج كتورة، ط1، مؤسسة مجد الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2009.
6. المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ج 1 + ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1979.
7. المنهل، قاموس فرنسي عربي، د. جبور عبد النور، دار الملايين للكتاب، بيروت، لبنان. 1975.
8. Duncan .in dictionnaire de médecine médical. Dorton .1977.
9. Gilbert Hottois et J.N. Missa, Nouvelle Encyclopédie de bioéthique. De Broeck, université, 1^{ere} édition, Bruxelles, 2002.

ملخص الأطروحة:

حاولنا في موضوع هذه الأطروحة أن نتطرق إلى العلاقة بين قدسية الحياة الإنسانية والبيوتكنولوجيا المعاصرة، حيث أطلعنا التحليل الأولي على نموذج الفصل بين القيمة والمعرفة، وذلك لأسباب تتعلق أساسا بالنموذج الحداثي الذي سيطرت عليه النزعة الوضعية العلمية. فانصبت محاولات الفلاسفة والعلماء نحو إيجاد أخلاق كفيلة بتهديب الممارسات البيوتكنولوجية التي تجاوزت حدود كرامة الإنسان وقداسة حياته، فظهر البيوايثيقا لم يوقف تلك التجاوزات، لذلك اتخذنا الفيلسوف الألماني "هانس يونس" نموذجا لمعالجة هذه الإشكالية في ظل "أخلاق المسؤولية" التي أرسى قواعدها على أساس "مبدأ المسؤولية" وتقوم على مبدأي "الخوف" و"الحيطة والحذر"، وهي أخلاق تخالف تماما الأخلاق التقليدية التي تكون على أفعال الحاضر أو الماضي. أخلاق "يونس" هي "أخلاق المستقبل"، فهي تكون في الحاضر لكن آثارها تمتد نحو الأجيال المقبلة في المستقبل.

الكلمات المفتاحية: قدسية الحياة - البيوتكنولوجيا المعاصرة - النموذج الحداثي - البيوايثيقا - هانس يونس - مبدأ المسؤولية - تشكل الخوف - الحيطة والحذر - أخلاق المستقبل.

Résumé

Dans notre thèse ci-dessus, nous avons abordé la relation entre la sacralité de la vie humaine et la biotechnologie contemporaine, une première analyse nous a révélé le modèle de séparation entre la notion de valeur et celle de la connaissance, et ce pour des raisons liées essentiellement au modèle de modernité dominé par le positivisme scientifique. Les premières tentatives des philosophes et hommes de

sciences étaient de mettre en œuvre une morale pour arrêter les dépassements de la biotechnologie à l'encontre de la dignité et la sacralité de la vie humaine. La bioéthique n'a pu mettre fin à ces dépassements, ce qui nous a incité à prendre le philosophe Allemand Hans Jonas comme modèle pour traiter cette problématique dans le cadre de «la morale de la responsabilité » fondée essentiellement sur « le principe responsabilité » et deux autres principes fondamentaux qui sont « l'heuristique de la peur », et « la précaution et la prévention ». Contrairement à la morale classique la morale « Jonassienne » s'étend vers le futur, vers les générations futures, c'est une morale du futur.

Mots clés : sacralité de la vie– Biotechnologie– Modernisme– Bioéthique– Hans Jonas– Principe responsabilité– Heuristique de la peur– Précaution et Prévention– La morale du futur.

Summary

In our thesis above, we handled the relationship between the sacredness of human life and contemporary biotechnology, a first analysis revealed to us the model of separation between a notion of value and that of knowledge, and this for reasons essentially linked to the model of modernity dominated by scientific positivism, the first attempts of philosophers and men of science were to implement a morality to

stop the overruns of biotechnology practices against the dignity and the sacredness of human life. bioethics could not put end to this overruns. Which prompted us to take the German philosopher « Hans Jonas » as a model for dealing with this problem, within the framework of the morality of responsibility, founded essentially on « the principle of responsibility », and two other fundamental principles which are « the heuristic of fear » and « precaution and prevention ». Contrary to the classical morality, « Jonassian » morality extends towards the futur towards future generations, it is a morality of future.

Keywords: scardness of life –biotechnology – modernism – Bioethics – Hans Jonas –responsabilty principle – heuristic of fear – precaution and prevention– the morality of the futur.